

محمد أمين فكرى بك

إرشاد الألبَّا إلى محاسن أوروبا

(٢)

تحرير وتقديم

د. أحمد إبراهيم الهوارى

إرشـــاد الألبّـا
إلى محاسن أورُوبّا

القسم الثانى

تأليف

محمد أمين فكرى بك

قاضى محكمة استئناف مصر الأهليّة

تحرير وتقديم

دكتور أحمد إبراهيم الهوارى

أستاذ النقد الأدبى الحديث

جامعة الكويت

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون	بطاقة فهرسة
د . أحمد إبراهيم الهوارى د . شوقى عبد القوى حبيب د . قاسم عبده قاسم المشرف العام : د. قاسم عبده قاسم المدير التنفيذى : شريف قاسم مدير الانتاج : جمال عابد تصميم الغلاف: د. منى العيسوى	فكرى ، محمد أمين إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا / تأليف محمد أمين فكرى ؛ تحرير وتقديم د. أحمد إبراهيم الهوارى . - الجيزة : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠٨ ٩٠٤ صفحة ؛ ١٧ × ٢٥سم تدمك ٨ ٢٢٦ ٣٢٢ ٩٧٧ ١- أوربا - وصف ورحلات. أ- الهوارى ، أحمد ابراهيم (مقدم) ب- العنوان

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
web site: WWW.Dar -Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

(من پاريس إلى لندره)

يوم الثلاثاءِ 20 أغسطس سنة 89 هو يوم الرحيل من پاريس الزاهرة، بعد أَن أقمنا بها ثمانية عشر يوماً كاملةً، غير يومي القدوم إليها، والارتحال عنها، فتبلغ المدة بهما عشرين يوماً رأَينا في خلالها عجائب هذه البلدة وغرائب معرضها، شاغلين نهارنا وليلنا، أَمّا النهار فبالتفرج على ما في المدينة وضواحيها من الأَبنية والمتنزهات والآثار، وعلى ما جُلب إلى المعرض من فرنسا وسائر الأَقطار، وأَمّا الليل فبالتفرج على بعض المحال الّتي مرَّ ذكرها، وبمطالعة كتب الدلائل على ما سنراهُ في اليوم التالي، وبتجهيز الأعمال الّتي في عزمنا عرضها على المؤتمر فإن «نبذة اللغة العامية» الّتي رأَيت عرضها عليهِ طرأَ لي أن أَزيدها بعض كلمات سمعتها عند مرورنا بالإسكندريّة ليلة السفر منها إلى أوروپا، فاستحسنت إلحاقها، وإن استوجب ذلك توسعاً في المقال حسب ما يقتضيهِ الحال.

ففي صباح هذا اليوم ركبنا عربة من الفندق بعد أن شيّعتنا صاحبتهُ وخدمها إلى باب الدار، مع إظهار التأَسف من الجميع على فراقنا، أما صاحبة الدار، فلما اعتاد عليهِ أهل هذا البلد، من حسن معاملة الغرباءِ، وأما الخدم، فلما نالوهُ من المنحة، لما رأَيناهُ منهم من مزيد الاعتناءِ.

وسرنا إلى محطة سَانْ لاَزَارْ، فقام بنا الوابور منها والساعة تسعة صباحاً إلى مينا دِيپْ، لنجوز منها بحر المانش الفاصل بين فرنسا وإنجلتره إلى مينا «نِيُوهِيِنْ» من السواحل الإنجليزيّة، ثم نركب منها وابور البر إلى لوندره.

وآثرنا طريق البحر المذكورة بعد إِمعان الفكر والسؤَال من أهل الذكر على

غيرها، مما مسافتهُ أطولُ أو أقصرُ؛ لأن ركوب بحر المانش هذا صعب على كل حال نظراً لكثرة الأهوية بهِ، والطريقُ الأطول يستلزم طول المسافة في البحر، وامتداد المكث فيهِ، ولا يخفى ما في ذلك من الشدة، والطريقُ الأقصرُ تكون صعوبة البحر بهِ أكثر منها في غيرهِ، لانحباس الأهوية فيهِ بين فرنسا وإنجلتره، وزيادة شدتها بسبب هذا الانحباس، أما الطريق الذي سلكناهُ فمتوسط فتكون المشقة فيهِ أقل مما فيهما.

والطريق الذي آثرناهُ، مسافتهُ ست ساعات على حسب العادة، أما الطريق الأطول، فلهُ جهتان إحداهما من مينابُولُوني إلى لونذره بحراً ونهراً، ومسافتهُ عشر ساعات، والأُخرى من مينا هاڤر إلى مينا سُوتْهامْتُون، ومسافتهُ ساعتان.

وآثرنا سفر النهار على الليل لنتمكن من التفرج برّاً وبحراً، وفي طريقنا مررنا على مدينة رُوَانْ بعد ساعتين من مبارحتنا لپاريس، وسرنا منها إلى مينا دِييبْ، فوصلناها بعد الظهر بنصف ساعة، كانت المسافة من پاريس إليها ثلاث ساعات ونصفاً.

وديبب هذه ثغر فرنساوي تبلغ عدة سكانهِ ثلاثاً وعشرين ألف نسمة، ميناهُ مصونة من غوائل البحر برصيف عظيم، يمنعها عنها، وهذا الثغر مشهور بلطف حماماتهِ البحريّة، تقصدها السياح من كل فج.

ولما حللناها وجدنا البحر هادئاً، والجو معتدلاً صافياً، فحصل لنا الاطمئنان بذلك، وكان أشار علينا بعض الأصحاب، أن أول شيءٍ نعملهُ إذا نزلنا وابور البحر، أن نتخذ لنا غرفة خاصة نلجأُ إليها إذا اشتدَّ الهيجان، فاغتررنا بذلك الهدو ولم نكترث باتخاذ غرفة، بل بقينا على سطح الوابور نمتع النظر برؤية هذا الثغر اللطيف، ومن يتوارد من

السائحين والمسافرين، حتى قام الوابور حسب موعدهِ، فسرنا على بركة اللّه بعد الظهر بساعة.

وهذا الوابور يشبه الوابورات الّتي سرنا فيها من تريسته إلى وينيسيا، وهو أكبر من وابورات النيل بقليل، بسطحهِ صالون كبير تحتهُ غرف كل من سبق إلى إحداها من المسافرين كان مختصاً بها، ومن لم يسبق يكون بالصالون.

فمازلنا على سطح الوابور حتى خرجنا من رصيف الميناءِ، وإذا بالسطح قد امتلأ بالماءِ بغتةً، وابتلت منهُ ملابس الجميع، وتوالى الموج، واشتد هيجان البحر، فتسارع كل من لهُ غرفةٌ إليها، ولزمنا الصالون، وما برح الحال يشتدُّ، والهول يمتدُّ والرأس في دوار، والمعدة في اضطراب، وكان خَدَمَةُ الوابور أَعْطَوْا كل واحد من الركاب طستاً من الصيني لما يعلمونهُ ممّا لابد عنهُ من لوازم الدوار، واستمر الأمر على ذلك حتى كادت النفس تزهق من شدة الأَحوال، وصعوبة هذه الأَهوال، ولم يبقَ أَحد من الركاب قاطبة بدون تأَثر كبيرهم وصغيرهم عظيمهم وحقيرهم، لا يسمع الإنسان إلّا أصوات تلاطم الأَمواجِ، وتواردها بين فرادي، وأَزواجٍ، وتضجُّر الجيران في كل مكان، وكلٌّ مشتغل بنفسهِ، غافلٌ عن حِسهِ إلى أن نَفِد ما كان من أكل وشرب، ولم يَنفَدْ مع ذلك الكرب، وتوالى القذف من غير مقذوف، واشتدَّ التضجر والتأَلُّم على غير مأْلوف، وكانت المدّة على قصرها كالأَشهر الطوال، لا بل كالسنين والأَحوال حتى تخيلنا قيام القيامة، وترقب كل منّا حِمامه، وظنّ ألا خلاص، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [سورة صٓ: 3] وعظم الأَمر، وعيل الصبر، وكثر الوجل، وانقطع الأَمل، إلاّ من اللّه عز وجل، فسلمنا الأمر إليهِ، واتكلنا في خلاصنا من هذا الهول عليهِ، فهان الأمر علينا بذلك التسليم، وانصرف ما قام بنا من الكرب العظيم، وزال

عنا ما كان من التوهم، ولم يبقَ إلاّ التضجر والتألم حتى يسر الله بالوصول إلى مينا نيوهيڤن بعد ست ساعات من قيام الوابور.

وكثيراً ما سافرت في بحار متسعه، وشاهدت بها أمواجاً مفزعة، ورياحاً مرتفعة، وأهوالاً مُرَوِّعة، واستمرّ عليّ ذلك الحال أياماً وليالي، لكنها لم تكن بالنسبة إلى هذه الساعات القليلة شيئاً مذكوراً، وإني مهما وصفت وبلغت لم أوفِّ هذه الحالة حقها، ولم أَقدر هذه الأَهوال قدرها لا باللسان ولا باليراعة؛ إذ تعجز عن ذلك أرباب البلاغة والبراعة، وقد تعروني رعدة وشدة عند تفكري ما صار في تلك المدة.

والعجب أن الأطباءَ في هذه الأزمان على ما هم عليهِ من التقدم والإتقان لم يعرفوا لداءِ البحر دواءً ينفع، ولا علاجاً لدائهِ يدفع، غاية ما وصلوا إليهِ هو ما نعرفهُ من اختلاف أمراضهِ باختلاف الأمزجة والأبدان، ولنعم ما وصلوا إليهِ في هذا الشأن.

وعند وصولنا الميناءَ نزلنا مسرعين إلى هذه القارة، فرحين مستبشرين، حامدين على السلامة، شاكرين على خلاصنا من هذه المشاق، وقد زال ما لقيناهُ، كأنهُ لم يكن، وما لبثنا أن ركبنا وابور السكة الحديديّة قاصدين لوندره، فسار بنا والساعة سبعة وخمسة وأربعون دقيقة بع الظهر، ووصل إليها والساعة تسعة ونصف، فكانت مسافة سيرنا من پاريس إلى لوندره برّاً وبحراً إحدى عشرة ساعة وربعاً.

وقد كنا تركنا أمتعتنا بمحطة پاريس لِتُرْسَل منها إلى لوندره، حتى لا نشتغل بها في سفرنا إليها، فلما وصلنا محطتها وجدنا صناديقنا بها في المحل المعد للتفتيش من طرف الكمرك، ولم يفتش منها إلّا صندوق واحد، فإن المعتاد عندهم أن ما يحملهُ السياح من لوازمهم الضروريّة لهم

مُغفَى[1] إلّا ما يكون للإتجار أو المشروبات الروحيّة أو الدخان الذي يزيد عن 250 جراماً، ولم يكن معنا شيءٌ من ذلك.

فركبنا عربة من الّتي بالمحطة قرب الرصيف، ونبّهنا قائدَها على أن يوصلنا إلى «مِيذْلَنْد جرَانْد هُوتيلْ»، وكنا انتخبنا هذا الفندق من الفنادق الّتي تعامل بيت كوك باستشارة بعض الأَصحاب.

فلما وصلناهُ وجدناهُ في غاية الاتساع واللطف، يشتمل على أكثر من أربعمائة محل، وعلى سائر معدات الراحة، وهو معدود من فنادق الدرجة الأُولى، مبني بمحطة من محطات السكك الحديديّة غير الّتي نزلنا فيها، فقد بَنَت بعضُ الشركات، فنادق على المحطات المهمة من السكك الحديديّة تسهيلاً للمسافرين، فجاءَت في غاية المناسبة بالنسبة إلى ذلك، ولعدم معرفتنا بهذا الأَمر، لم ننزل بفندق المحطة الّتي نزلنا فيها من أَول الأَمر.

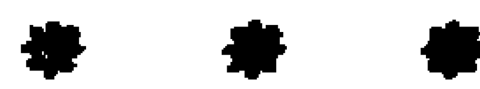
فانتخبنا غرفاً من أَحسن الغرف، وبعد أن استرحنا بإِحدى قاعات الاستقبال، ثم تعشينا، صعِدنا إلى غرفنا، وبتنا إلى الصباح.

وإذا بمستأْذن يستأْذن في الدخول، فأَذِنّا لهُ، وإذا هو صاحبنا عبدالعزيز بيك كحيل رئيس نيابة بنها وقت ذاك، ووكيل محكمة إسكندريّة الآن، فبعد التحيّة والتسليم، وما ينبغي من التكريم، سألْناهُ عن كيفيّة معرفتهِ وصولنا لهذا المحل حالة كوننا لم يمضِ علينا بهِ غير قليل من الزمان، فأَخبر أَنهُ حضر بعدنا البارحة من باريس مع أربعة من الرفقاءِ، وهم الدكتور شميل صاحب جريدة الشفاءِ، ونجيب إفندي بولاد المترجم بمحكمة الاستئناف الأَهليّة، ومدام بولاد، وسليم إفندي زنانيري، الموظف بالبنك العقاري بمصر، وأنهم

(1) في الأصل: «معافى» المحرر.

بحثوا عن محلات لائقة في عدة جهات فلم يجدوا ما يُعجبهم، فساقتهم المصادفة بواسطة أحد المعارف إلى هذا الفندق، فأعجبتهم محلاتهُ، وَسَرَّهم انتظامهُ، وأخذوا يكتبون أسماءهم في دفتر السياح كالعادة، فلما رأى مدير الفندق أنهم كتبوا في خانة «بلد الأصل» اسم مصر، وكنا كتبنا مثل ذلك قبلهم، أراد أن يَسُرّهم، فأُخبرهم أن عندهُ بالفندق جماعة من بلدهم، وأراهم صحيفة الدفتر الّتي كتبنا فيها أسماءنا، فعلموا بوجودنا في هذا الفندق، وعزموا على مقابلتنا في الصباح.

وما لبث أن حضر الباقون، وأخبرونا أنهم عازمون على الإقامة بلوندرة ثلاثة أيام أو أربعة، وهذه هي المدة الّتي رأينا أن نقيمها بلوندرة، فاتفقنا على أن نتفرج فيها سوية، وعلى أخذ دليل من بيت كوك يدلنا على آثار المدينة ومحلاّتها، وأن نتخذ عربة منهُ تسعنا جميعاً مع الراحة، وتوجهنا إلى بيت كوك، وأخذنا الدليل والعربة، وتفرجنا على ما بلوندرة من التحف والآثار، وعلى ما تيسر من ضواحيها، ومكثنا كل مدة الإقامة بهذه المدينة معهم نهارنا وليلنا، حتى إنهُ لما آن وقت سفرنا منها وتفرقنا رأينا من الوَحشة والتأثر ما لم يخطر لنا ببال.



(إجماليات على لوندرة)

(لنـــدن)

هذه العاصمة قائمة على ضفتي نهر التيمس، وهو يخترقها من الغرب إلى الشرق مع اعوجاجات، فيقسمها إلى قسمين غير متساويين في السعة والأَهميّة. فالجهة الّتي على شمال النهر غاية في الأَهميّة، يسكن غالبها الأَغنياء، وأَهل الثروة، وليس الحال كذلك في الجهة الجنوبيّة منهُ. وأهم الجهة الشماليّة القسم المتوسط منها، وهو ينقسم إلى قسمين:

أَحدهما: يشتمل على «سِيتي» أي: المدينة و «إِيسْتْ إِينْدْ» بالجهة الشرقيّة من الباب القديم المسمى «تمپل بار»، وذلك القسم مركز التجارة والصناعة، وبهِ الميناءُ، ومخازن التجارة البحريّة «دوك»، والكمرك والبنوكة والبورصة والحوانيت المهمة، والتجارة بالجملة، ووكلاءُ الأَعمال التجاريّة، والكومپانيات المتنوعة، ومطبعة التيمس وعموم البوستة، ومقر علماءِ القانون والإفتاءِ، وسراي المحاكم، وكنيسة سان پول الكاتدرائيّة.

وثاني القسمين: «وِسْتْ إِيند»، وهو حديث بالنسبة إلى الأَول، آخذٌ في الزيادة والنموّ دائماً، واقع بالجهة الغربيّة من باب تمپل المتقدم ذكرهُ، كما يدل على ذلك اسمهُ «وِسْت»، الّذي معناه الغرب، وهذا القسم مُقام الأَشراف والأَعيان، وفيهِ سراي الملكة، ودواوين الوزارات، وسراي الپرلمان، ودير وستمينستر، والمتاحف المختلفة، والملاهي «التياترات» والنوادي - كلوب - والحدائق الغنّاءُ، والرياض الفيحاءُ.

وفضلاً عن التقسيم المار ذكره أن هذه العاصمة تنقسم إلى عدة أقسام، نظراً إلى ما فيها من أصناف التجارة والصناعة، ومن تحتوي عليهِ من السكان، نذكر منها بعض الأقسام المهمة.

فمنها قسم «لُونْج شُور» يمتد عن يمين قسم سيتي السابق على شاطىء نهر التيمس، وغالبهُ مشتمل على معامل السفن، وكثير من المخازن، ومساكن صناع السفن، والملاّحين، والحمّالين، وبائعي مهمات السفن، ومآكل ملاّحيها، والمسافرين فيها. ومنها قسم «وَايْتشَابِلْ»، وفيهِ معامل تكرير السكر، ومساكن عُمّالهِ، وهم من الألمانيين. ومنها قسم «هَوُنْدِسْدِيتْش» و «مِنُورِزْ» وهو عبارة عن حارة اليهود، ومنها «بِتْنَل جرين» و «سْبِيتَالْ فِلْدِسْ» وجزءٌ من «شُورِديتْش» المخصصة بالفابريقات، وغالبها مساكن صانعي الحرير، وأكثرهم من نسل البروتستانت الذين هاجروا من فرنسا حين اشتدت عليهم وطأة الكاثوليك، وألغت الحكومة سنة 1685 أمرها الذي كانت أصدرتهُ بالذب عنهم، والانتصار لهم، ومنها قسم «كِلَرْكِنْوِلْ» المخصص بصنّاع الساعات، وعَملة المعادن، ومنها شارع «پَاتِرنُسْتِرُو» المخصص ببائعي الكتب والورق، وشارع «تْشِنْسِري لِينْ» المختص بالأفوكاتية وأرباب القانون، وشارعا «تُوْنْبُوْزْكْ» و «لاَمْبِيثْ» المخصصان بمعامل الفخار والخزف، والآنية الزجاجيّة، ومصانع الآلات، ومعامل البيرة، وشوارع بها المدابغ.

هذا وجملة ما تشتمل عليهِ لندن من الأقسام حسب قانون الانتخاب الذي صدر في سنة 1885 سبعة وعشرون قسماً، خلا قسم ستي - المدينة - السالف إيضاحهُ، ولجميعها حق انتخاب 59 عضواً في مجلس النواب، منها اثنان عن سيتي خاصة، وواحد عن دار العلوم.

وقسم سيتي مستقلٌ في حد ذاتِهِ، لهُ حدود معلومة، جنوبيها التيمس، ولهُ إدارة خاصة بهِ، لا تختلط بباقي إدارات العاصمة، ولهُ قوانين أساسيّة جار بموجبها العمل من القديم، وامتيازات خاصة بهِ، وهو مقسم إلى 26 قسماً، يُدير شؤونهُ حاكم يُعرف «بأمين المدينة»، يُنتخب لهذا القصد كل عام، ويشتمل هذا القسم بموجب تعداد سنة 1881 على 6493 عمارة، يسكنها 50562 نسمة، بعد أن كان سكانها 74933 نسمة في سنة 1871 و 110448 نسمة في سنة 1861.

وهم آخذون في التناقص كل سنة عن الّتي قبلها، وذلك لأَن العقارات في هذا القسم لكثرة قيمتها بالنسبة للمتجر تجعلها أصحابها مخازن للتجارة، ومحال مكاتب للتجار عوضاً عن السكنى بها، حتى يوجد في هذا القسم نحو من 4000 عمارة ليست متخذة للسكنى، بل هي محال تجارة، كما تقدم، فهي تخلو ليلاً من الناس حتى اضطرت الحكومة إلى أن تخفرها بثمانمائة عسكري من البوليس -، ويُباع القدم المربع في هذا القسم من الأَرض الّتي يُراد بناؤُها من 20 جنيهاً إلى 70 جنيهاً إنجليزيّاً.

هذا ومتوسط درجة الحرارة في لوندره 5̊94 فوق الصفر، وتنزل هذه الدرجة في أَشهر البرد مثل يناير إلى 3 تحت الصفر، وتصعد في أَشهر الحر مثل يوليو إلى 4̊8 17 فوق الصفر من الترمومتر المئيني.

ويغلب على جوها الضباب الكثيف، ويكثر في شهر نوفمبر، ويستمر فيهِ أياماً متوالية يشبه النهار فيها الليل، ويفوقهُ في ظلامهِ.

ويكثر فيها المطر وإن كان خفيفاً، حتى عُدّت الأيام الّتي تمطر السماءُ فيها فبلغت 178 يوماً في السنة.

ولقد زادت مدينة لندن في السعة بهذه الأيام ضعف ما كانت عليهِ من مدة

خمسين عاماً، فقد زاد طولها على 14 ميلاً إنجليزياً من الشرق إلى الغرب، وعرضها على ثمانية أميال من الشمال إلى الجنوب، حتى بلغت مساحتها 122 ميلاً مربعاً، على أن زيادتها لا تقف عند حد، وقد حسبوا أن مساحتها تعادل مساحة باريس خمس مرات، وأن بها من الشوارع الكبار 7800، ومجموع السكك والطرقات مع الشوارع المذكورة 23000، يبلغ طولها جميعاً 10933 كيلو متر، وفيها أكثر من مليون فانوس للاستصباح، ويحترق في هذه الفوانيس يومياً 800000 متر مكعب من الغاز، وفي المدينة 662000 عمارة، منها 1400 كنيسة، و500 فندق، و 1700 محل طعام وقهوة، و 7500 محل لبيع البيرة والمشروبات الروحيّة، وحُسبت العوائد المتحصلة من الدور في سنة 1881 فبلغت 28 مليوناً من الجنيهات الإنجليزيّة.

وعدد سكان لوندره في سنة 1801 لم يكن إلاّ 864035 نسمة، وصار 1227590 في سنة 1821، ووصل في سنة 1871 إلى 3254260 نسمة، وفي سنة 1881 بلغ عدد سكان لندن وحدها أي من دون أرياضها وضواحيها 3814571، منهم نحو 3000 خياط، و 4000 صانع أحذية، و 2800 خباز، و 2400 قصاب غير ألوف من الصنّاع والفعلة بين رجال ونساء، و300000 خادم و 141770 فقيراً، وإذا أضفنا إلى أهاليها سكان الضواحي بلغ عدد الكل في ذلك التاريخ 4776661 نفساً، وفيها الآن (سنة 1889) أكثر من خمسة ملايين نسمة.

ومن أغرب الغرائب وأعجب العجائب أن عدد الاسكتلانديين فيها أكثر منهم في أيدمبورج، وهي حاضرة بلادهم، وفيها من الأيرلنديين أكثر ممن في دوبلين، وهي قاعدة جزيرتهم، ومن الإسرائيليين أكثر ممن في فلسطين، وهي

مستقرهم، ومن الكاثوليكيين أكثر ممن في رومة الّتي هي مركز الديانة النصرانيّة على المذهب الكاثوليكي.

وفي المدينة عدا السكك المتسعة الّتي على جانبيها العمارات العظيمة والمباني المتقنة الّتي سيجيء ذكر بعضها، كثير من الميادين الكبيرة (سْكُوِيْر) من مسافة إلى أخرى، مزينة بالزروع، محلاةٌ بالأشجار والمياه.

وبها غير ذلك، كثير من البساتين المتسعة، ومحلات التنزه الفسيحة، أَجملها «جمس پارك» «وجرين پارك» «وهيد پارك» «وريجنتس پارك».

وبها على نهر التيمس أَحد عشر جسراً فوق النهر، لإِيصال البرين للراجلين والعربات والبضائع والوابورات، كما أن بها طريقاً تحت النهر يتوصل بها من أَحد البرين إلى الآخر.

وبها من التياترات نحو اثنين وثلاثين وبها كثير من النوادي (كلوب) الّتي يقصد من المجتمعين بها تسهيل العلاقات بين الناس وتوثيق روابط الاجتماع، وهي قصور شاهقة تفوق أَحسن القصور، وأَنظمها في الرونق والإتقان، يأْوي إليها الأكابر والأَعاظم، ورجال الدولة والمال، حتى إن من لا عائلة لهُ يبيت بها، ويعيش فيها بأَرغد عيش وأحسن حال، وقد بلغ عدد أعضاءِ أحد هذه النوادي «كُنسِتِيتُيُوشِنِل كلوب» ستة آلاف عضو، وبلغ أعضاءُ آخر منها «نَشُنِلْ ليبرال كلوب» 6500 عضو، ومن شروطها ألاّ يُقْبَلَ أحد فيها إلاّ بعد الاقتراع، فإذا قُبل يدفع رسم التحاقٍ يختلف مقدارهُ بحسب لوائح النوادي من خمس ليرات إلى أَربعين ليره، وهو في العادة 25 جنيهاً، هذا فضلاً عن دفع راتب سنوي يختلف بين ثلاث ليرات وخمس عشرة ليرة.

وبلندن من محلات الخير والإحسان ما لا ينقص عددهُ عن ألفي محل، منها الأجزاخانات والاسبتاليات، تُعالج فيها المرضى، ويُعطون الأدوية مجاناً، ومحلات إيواءِ العاجزين والمحتاجين والأرامل والأيتام، وقد بلغ في سنة 1885 ما جمع لمحلات الخير والإحسان المذكورة جميعها، وما وصلها من العطايا والوصايا 4447000 جنيه إنجليزي، ولا بِدْعَ في ذلك؛ فإنهُ قد يبلغ ما يجتمع من الصدقات، برسم هذه المحلات في يوم أحدٍ واحدٍ مخصوص بجميع كنائس لندن، أربعين ألف جنيه إنجليزي، كما أن 750 امرأة من ربّات الخير والإحسان، يقفنَ في أطراف الطرقات والحارات لجمع المساعدة لهذه المحلات في ليلة الأحد المتقدم ذكرهُ، فيبلغُ ما يجمعنهُ بالقليل نحو عشرة آلاف جنيه إنجليزي.

وبها كثيرٌ من الجمعيّات ذات الثروة العظيمة الّتي تأسست لانتشار العلوم والمعارف والآداب والصنائع، أو لنشر التعليمات الدينيّة، فمن الأولى الجمعيّة الملوكيّة «رُويَلْ سُوسَيْتي» ودار المعارف الملوكيّة «رُويَلْ أكادِيمي» والجمعيّة الآسيويّة الملوكيّة «رُوي إيسْيَاتيكْ سُوسَيْتِي»، والجمعيّة الجغرافيّة، والجمعيات الطبيّة والجراحيّة، والفلكيّة، إلى غير ذلك، ومن الّتي جُعلت لنشر التعليمات الدينيّة جمعيّة «نشر التوراة» وهذه تُوزع في أنحاءِ المعمورة ما لا يُحصى من نسخ التوارة، مترجمة إلى 140 لساناً، كل جهة بحسبها.

وبها كثيرٌ من الكتبخانات، وأهمها «بِرِيتِشْ مُوزِيُومْ»، وكثير من محلات المطالعة بالأُجرة، ومحلات إعارة الكتب لمطالعتها وإعادتها نظير اشتراك في الأسبوع، أو الشهر أو السنة، ويوجد في إحدى هذه «لُندن لَيبْرِيرِي» مائة ألف مجلد.

وبها من صحف الأخبار اليوميّة 680 جريدة، ومن الصحف الدوريّة 800 صحيفة، وأَشهر جرائد الصباح «التيمس»، وهو ليس متشيّعاً لأَحد الأَحزاب، «والديلي نيوز»، وهي جريدة الأَحرار، «والديلي تلغراف» «والستاندرد»، وهي لسان حال المحافظين، «والمورننج پوست»، وهو لسان حال الحاشية الملوكيّة، وأشهر جرائد المساء «پال مال غازت» «وسان جمس» «وإِڤْننْ ستاندارد» «وجلوب» «وإِڤْننْ نيوز» «وإِيكُو»، وتصدر غير هذه جرائد أدبيّة وأُخرى محلاة بالرسوم، إلى غير ذلك من الجرائد العلميّة والفنيّة مما لا يحتمل تفصيلهُ هذا الكتاب.

وبها من وسائط النقل ما يناسب اتساعها العظيم، ففيها عربات الركوب بعضها بعجلتين، وهذه تسع شخصين لا غير، وسائقها من الخلف، وباقيها بأربع عجلات، وسائقها من الأمام كالمعتاد، وتقدّر الأجرة فيها بحساب المسافة الّتي يقطعها الراكب، والمسافة المعتادة ميلان قيمتها شلن واحد - خمسة غروش - ، وفيها عربات الأُومنيبوس، وهذه تشق المدينة من جميع الجهات، ولها أكثر من مائة خط تختلف أجرة الركوب فيها بحسب قصر المسافة وطولها، وإن كانت زهيدة على كل حال، وفيها عربات التراموي، وهي الّتي تمشي بالخيل على قضبان من حديد، فتسير في كل خمس دقائق، وفيها السكك الحديديّة البخاريّة الّتي لا تحصى، فتمر من تحت أرض محال السكن ومن فوقها وبجوارها، وربما رأَى الناظر ثلاثة طرق أو أربعاً، مارّة فوق بعضها من المحل الواحد، كلٌّ منها يتجه إلى وجهة في ارتفاعهِ المعلوم، وفيها على الخصوص السكة الحديديّة البخاريّة الدائرة بالمدينة «مِيتْرُوپُولِيتَنْ»، فتسير تحت الأرض في سراديب أو خنادق محفورة بها، ويتفرع عنها فروع تتجه إلى أَطراف المدينة.

ولبيان أَهمية هذه السكة الحديديّة ومنفعتها، يكفي القول بأنها تنقل في السنة الواحدة 81 مليوناً من الركاب، أو مليوناً ونصفاً في الأسبوع، وأنهُ يمر من إحدى جهاتها، حيث تتفرع منها أربعة طرق 835 قطاراً في كل يوم من أيام الأسبوع. غير الأحد، فإنهُ يمر فيهِ أكثر من ذلك، وفيها الوابورات النهريّة، ولها 48 محطة على التيمس، وتسير طول اليوم بعضها في كل عشر دقائق، وبعضها في كل ربع ساعة، وبعضها في كل نصف ساعة، وبعضها في أكثر من ذلك بحسب الاتجاهات إلى النواحي.

والأَسواق والحوانيت بها كثيرة جدّاً بحيث تفوق الحصر والعد، ويوجد فيها جميع الأَصناف، فتباع فيها الأسلحة، ولوازم السياحة، والمجوهرات والقلانس، وأَصناف السجائر والدخان، والمأْكولات، والسكاكين، والبلور والخزف، وفراءُ الملابس والأَلْدوانات - قفافيز - ، والساعات، والكتب والجلود، وسائر اللوازم، ومنها دكاكين المودة والأزياءِ المستحدثة، وآلات الموسيقا والمنظارات، والورق ولوازم الكتابة، والشماسي والمطريّات، والروائح العطريّة والفوطوغرافية، والبسط، والشاي، وغير ذلك من الأشياءِ.

وإن حركة الذهاب والمجيء في تلك الأَسواق؛ لمن أعجب الأُمور وأَغربها، فإنك ترى النشاط منبثّاً في سائر أنحائها، وروح السعي منتشرة في كل أرجائها، حتى إِن منظرها ليعد من أَغرب الغرائب الّتي لا ينبغي للغريب أن يهمل التفرج عليهِ، لا سيما في بكرة النهار، فإنها تكون غاصة بالقوم، وهم يبْتاعون اللوازم، ومؤنة اليوم.

وفي المدينة سوق عظيم للخضراوات والفاكهة والأَزهار، وبها سوق للسمك عظيم، على ضفة نهر التيمس، بجانب الجسر المعروف بجسر لندن، وهو خليق بالازديار، ولو أن الروائح المنبعثة فيهِ لا تحاكي أعطار

سوق الأَزهار، وتباع الأَسماك بمجرد وصولها بالجملة، لتجار يبيعونها حسب الطلب بعد ذلك، وتجيءُ إليهِ منها بطريق السكة الحديديّة كميّة عظيمة جدّاً.

ويوجد سوق في غاية التنظيم معد لبيع اللحوم، وهو يتصل بالمدينة، وبسوق الماشية، بسكك حديديّة تسير تحت الأَرض، أَما سوق الماشية المذكور، فهو أكبر سوق في العالم كلهِ قاطبةً، وبهِ مكاتب للاستفهامات، وبنوكة، ومحلات للبوستة، والتلغراف، وغير ذلك وعلى جوانبهِ زرابي الأَنعام على خط ممتد لا نهاية لهُ، والنظام والانتظام مستمران فيهِ على الدوام.

وهناك سوق كبير خاص بالخيول، وهو مركز جميع الأَعمال المختصة بالمسابقة والرهان.

ويستهلك بلندن في السنة 400000 ثور، ومليون ونصف مليون رأْس ضأن، و 130000 عجل، و 250000 خنزير، وثمانية ملايين من الطيور والصيد، و 400 مليون رطل - ليبرة - من السمك فضلاً عن 500 مليون محار - وِيتر -، و 1200000 سمكة من سرطان البحر - هُمَارْ -، وثلاثة ملايين سمك من النوع المسمى «ومون»، ويُستهلك بها أيضاً خمسون مليون رطل من اللحم الذي يشتري من القصابين، ويشرب فيها 180 مليون ليتر من البورتر، وهو نوع من البير القويّة و 8 ملايين لتر من المشروبات الروحيّة، و31 مليون لتر من النبيذ، وتبلغ كميّة المياه الّتي تُوزَّع على البيوت من تسع كومبانيات 150 مليون لتر ماءٍ في اليوم - ، ويرد إليها في كل سنة أَربعة ملايين طوتولاطة فحم حجري بواسطة السفن، وأَربعة ملايين أُخر بواسطة السكك الحديديّة، ويبلغ مجموع المصاريف الّتي ينفقها أَهل لندن في كل عام مائتي مليون جنيه تقريباً،

ويبلغ عدد السفن الّتي تدخل ميناها كل عام عشرين ألفاً، وتبلغ قيمة التجارة الّتي تصدر منها على نهر التيمس كل سنة مائة مليون جنيه.

هذا والأعمال العظيمة والمباني الفخيمة الجاري إنشاؤها في لندن، بقصد تسهيل المرور ومراعاة النظامات الصحيّة تجري كلها تحت مناظرة مجلس مخصوص، مركب من 46 عضواً، ولا يخفي كثرة المصاريف الّتي تستلزمها هذه الأعمال الجسيمة، من إنشاءِ شوارع، وفتح طرق، وتوسيع الحارات القديمة، وغير ذلك، وأعظم أعمال الطرق هو إنشاءُ البالوعات الّتي ابتدِىءَ فيها سنة 1859، وانتهت في سنة 1873، وبلغت مصاريفها 4500000 جنيه، وقد كانت الأقذار قبل ذلك تُلقى في نهر التيمس، فكان يتصاعد منها ما يضر بالصحة، فإن مقدار ما كان يُلْقَى منها يومياً في الجهة الشماليّة 300 ألف متر مكعب، وفي الجهة الجنوبيّة 120 ألف متر مكعب.

أما الطريقة الحالية في ذلك، فهي عبارة عن بلاليع عظيمة تنصب فيها بحار فرعيّة صغيرة، ثم تسير بحذاءِ نهر التيمس مسافة 22 كيلومتر فتصب في النهر على بعد من البلد بعد أن عَرَضَ عليها قبل وصولها إليهِ أعمال كثيرة لتنظيفها، وإعدام العفونات الّتي فيها، على أنَّ مسألة البالوعات لم تزل موضوعاً للبحث والنظر، للتوصل إلى حَلّها بكيفيّة نهائيّة، وهذه الموجودة منها عبارة عن سراديب مبنيّة بالآجُرّ، عرضها ثلاثة أمتار و 60 سنتيمتراً، وارتفاعها ثلاثة أمتار، وهي مفتوحة عند مصبها، ومجموع أطوالها 85 ميلاً إنجليزياً عبارة عن 137 كيلومتر.

والأرصفة المعمولة على نهر التيمس ليست بأَقَلّ من البالوعات في الأهمية والجسامة والمتانة والضخامة. أما توسيع الشوارع والحارات، وقد

ابتدىء فيهِ تحت مناظرة هذا المجلس من سنة 1872، فكانت نتيجتهُ افتتاح شوارع كثيرة، وتوسيع حارات عديدة حتى صارت أَنحاءُ جميع هذه المدينة متصلة ببعضها، وكل شوارعها تنفُذ إلى بعضها. وتحت إِدارة المجلس المذكور مصلحة إطفاءِ الحرائق، وما يلزمها من الطلومبات، والأَدوات والعُدد، ورجالها في غاية الانتظام، يبلغ عددهم 600. ويصرف على هذه المصلحة وحدها في كل عام مائة أَلف جنيه.

والتعليم الابتدائي في هذه المدينة موكول أمرهُ إلى مجلس مركب من 55 عضواً، ينتخبهم سكان المدينة، وقيمة المبالغ الّتي يصرفها هذا المجلس سنوياً تزيد على مليون جنيه، وعدد الأَطفال الّذين يتعلّمون تحت رعايتهِ أربعمائة ألف تقريباً.

ونختم هذا الفصل بذكر عادة من عادات هذا البلد، وهي استراحة يوم الأَحد، وذلك أَنهم يتركون جميع الأَعمال والتجارات، ويغلقون الدكاكين ومحلات الطعام ومحلات الشرب طول نهار يوم الأَحد المذكور.

وهذه العادة مرعيّة كل الرعاية، لا يجترىءُ أحد على الإِخلال بها كبيراً كان أو صغيراً، عظيماً أو حقيراً، بل كلهم في ذلك شرع واحد، وإن اختلفوا في المذاهب، فتبقى الحوانيت وجميع المحال مغلقة طول النهار في وسط المدينة - سيتي -، وتفتح في غيرهِ من الساعة الأولى بعد الظهر إلى الساعة الثالثة، حتى إن أعمال البوستة في هذا اليوم لا تكاد يُشتغل بها، فالأحسن بالغريب أن يخرج للتنزه في أيام الآحاد، ويقصد الفلوات البعاد هذا، والغريب لا يُرَدُّ إذا طلب مأكلاً، أو رغب مشرباً في هذا اليوم إلاّ نادراً، ولكن يستحيل على الإنجليزي أَن ينال شيئاً من ذلك في أثناءَ الاشتغال بالاحتفالات الدينيّة في هذا النهار.

وكانت لهم عادات قديمة وأخلاق عتيقة غير هذه العادة، حصل تلاشي كثير منها، وأعظم العادات الباقية عندهم إلى الآن الابتهاج بتنصيب أمين البلد الجديد؛ فإنهم يذهبون معهُ سراي المحاكم في موكب حافل، ليحلف اليمين عن وظيفتهِ المستجدة، وبعد ذلك يُولم وليمة حافلة في مساءِ يوم 9 نوفمبر احتفالاً باحتلالهِ هذا المنصب الجديد، يدعو إليها أمراء القوم ورجال الحكومة.



(الإقامة بلنـدن)

قد عُلِم ممّا سبق ما عزمنا عليهِ من التفرج على البلد، وما يمكن من ضواحيها، صحبة أصحابنا الّذين التقينا معهم، فتوجهنا أول يوم من أيام الإقامة إلى محل كوك، وتقابلنا مع الدليل، واتفقنا معهُ أن يحضر إلينا بالعربة في صباح اليوم التالي، وانصرف كلٌّ منا لحالهِ في ذلك اليوم، فقضينا بعض مصالح من بنك كريدي ليونيه، وتفرجت مع سيدي الوالد بالبلد حسب ما أمكن، ثم توجهت معهُ إلى «بِرِيتِشْ مُوزِيُومْ» المتحف البريطاني، وسيأتي عليك بيانهُ، ثم تفرجنا في اليوم التالي مع الدليل على ما أمكن من محلات المدينة، وتوجهنا في الليل للتفرج على «كِرِسْتَلْ بَالِيسْ»، قصر البلور، وسيأتي بيانهُ وتفرجنا في اليوم الذي بعدهُ على قسم آخر من المدينة وقضينا بعض لوازم، وعدنا إلى المتحف لإكمال التفرج، وتفرجنا في الليل على «محل مَدَامْ تُوسُو»، وكانت تمت الإقامة بهذه البلد ثلاثة أيام: الأربعاء والخميس والجمعة 21 - 22 - 23، أغسطس سنة 1889، فبارحناها في صباح اليوم التالي - السبت 24 أغسطس سنة 1889 - إلى حيث تعلم بالفصل الآتي.

واسمع الآن ما يُتلى عليك من مشاهداتنا بهذا البلد، وما رأيناهُ فيها على سبيل الاختصار، ولا أظنك بعدهُ تحتاج إلى تفصيل ما فيها من الطرق والشوارع وانتظامها، وما بجوانبها من العمارات، فإن هذا أمر يكفيك فيهِ العلم بأن شوارعها متسعة منتظمة، أرضها معمولة بالأخشاب أو الأحجار، بها حركة مستمرة لا تنقطع في الليل ولا في النهار، وإن عماراتها غير

ملتزم فيها أنها قليلة الارتفاع، غير كثيرة الطبقات، تتخللها متسعات، وتحيط بالبعيدة منها عن مركز المدينة بساتين، وهذا هو الموجب لزيادة مساحة لندن جداً عن باريس، وإلاّ فكان يكفي لسكانها أقل من المساحة الّتي هي عليها الآن، وقد أصاب أصحاب لندن في ذلك، فإن المتسعات هي من مستلزمات الصحة، لكثرة تخلل الهواءِ بين مساكنها؛ ولأَن تباعد المساكن عن بعضها بواسطة هذه المتسعات، وقلة الطبقات الّتي يسكنها كثير موجبٌ لقلة الاختلاط الذي ربما تسبب عنهُ فساد الأَخلاق على ما لا يخفى من كثرة اجتماع الفتيان مع الفتيات، وغير ذلك من التحاسد والاطلاع على الأسرار.

(بِرِيتِشْ مُوزِيُومْ) – المتحف البريطاني –، وينقسم إلى سبعة أقسام قسم المطبوعات، وقسم ما كتب بخط اليد، وقسم الرسومات والتصاوير، وقسم الأَنتيكات الشرقيّة، وقسم الأَنتيكات البريطانيّة، والقرون الوسطى، والمتعلقة بعادات الشعوب، وقسم الأَنتيكات اليونانيّة والرومانيّة، وقسم المسكوكات والميداليات.

وأول من تسبب في إِيجاد هذا المتحف الجامع ورثة الطبيب «هنس سلون» المتوفّى سنة 1735؛ فإِنهم عرضوا على الحكومة الكتب والمجموعات الّتي كان يمتلكها مورثهم بمبلغ عشرين أَلف جنيه، وكانت تساوي خمسين ألف جنيه لا أَقل، فقبلت منهم الحكومة ذلك، وضمت إِلى ما أَخذتهُ ما تفرق في مواضيع أُخر، ووضعت الجميع في إِحدى السرايات، ثم ضُم إِليهِ مجموعة أَنتيكات مصريّة، تبرع بها الملك جورج الثالث في سنة 1801، أَحضرتها جيوشهُ من مصر، ثم الكتب الّتي أَهداها جورج الرابع سنة 1823، وكان جمعها والده، وبسبب كثرة توارد الهدايا استلزم الحال بناء

محل كبير، فتقرر تشييد المحل الذي بهِ المتحف الآن، وشُرع فيهِ في سنة 1823 إلى أن تم في سنة 1852، وهو غاية في العظم، وجهتهُ ذات جناحين امتدادها 112 متراً، أمامها سقيفة مرتفعة على عمد عظيمة، تعلوها الرسوم والتماثيل.

ويدخل هذا المتحف خلائق لا تحصى، تقصدهُ من جميع الجهات، وقد بلغ عدد من دخلهُ في سنة 1886 - 504893 شخصاً، مع أن بعض محلاتهِ لا يمكن زيارتها إلاّ بتصريح خاص.

وهو مركّب من طبقتين، كل واحدة منهما تشتمل على قاعات حسب لزوم الأقسام السبعة السالف ذكرها.

ويشتمل قسم المطبوعات على مليون ونصف من المجلدات، ويزيد هذا العدد كل عام نحو 30000 مجلد.

ويشتمل قسم ما هو مكتوب بخط اليد، على غرائب وبدائع مرصوصة في عدة خزانات، منها خزانات المكاتيب المكتوبة بخط يد منشئيها من أشهر رجال الإنجليز، مثل «لُويتز» صاحب المذهب البروتستانتي، وكلوين، وباكون، وإسحاق نيوتن، وغيرهم، ومرلبروج، وروبنس، وراسين، وكُورني، ومُولْيير، وفولتير، ونابليون الأول، ومنها خزانة المكاتيب الّتي أنشأها ملوك الإنجليز، وكتبوها بخطوط أيديهم، مثل ريشارد الثاني، وهنري الرابع، وهنري الخامس، وشارل الأول، وكرومول، والملكة الحالية[1]، حيث يوجد إمضاؤُها منذ صغرها، ومنها خزانة مكاتيب رجال

(1) الملكة فيكتوريا Victoria (1819 - 1901): ملكة بريطانيا العظمى (1837 - 1901) وإمبراطورة الهند (1876 - 1901). «المحرر».

السياسة والقواد في الدولة الإنجليزية، مثل: ولسي، وبيت، ونلسون، ويلمرستون، ومنها خزانة كتب مشاهير المؤلفين والموسيقانية، مثل: رشاردسون، وجولد سميث، وجونسون، ومنها خزانة الصكوك الأثرية، والمكاتيب التاريخيّة الّتي بخط أصحابها، إلى غير ذلك من الخزانات والآثار.

وفي وسط قاعة الكتابة الخطيّة هذه، ما لا يحصى من الخطوط الأوروبيّة والمشرقيّة، مرتبة بحسب تواريخها، ليستدل منها على كيفيّة تقدم الخطوط وتحسّنها تدريجيّاً، حتى وصلت من حالتها الأوليّة إلى حالتها الحاليّة.

ويتبع القسمين المذكورين؛ قاعتان متسعتان جليلتان، تحتوي إحداهما على الكتب الّتي أهداها جيورج الرابع كما تقدم، وهي عبارة عن ثمانين ألف مجلد، عظيمة الصِنف والتجليد، وتحتوي الأُخرى على الكتب الّتي أوصى بها للمتحف توماس جرونفيل، وتشتمل على 20240 مجلداً.

وأما باقي أقسام المتحف المخصصة بالأنتيكات المشرقيّة، واليونانيّة والرومانيّة، والمسكوكات، والرسومات فتحتوي من بدائع الآثار ونفائس الأحجار، على ما تحار منهُ الأفكار، بين رومانيّة، ويونانيّة، وآسيويّة، إلى غير ذلك من مصنوعات الأُمم القديمة العهد، العريقة في الحضارة والمجد، ومن الآثار المصريّة، والأشوريّة، والصينيّة، والهنديّة، ومخلفات الأُمم البائدة، وتصاوير القبائل والشعوب الخالية، ومصوغات الذهب والميداليات ومصنوعات الزجاج، وغير ذلك مما لا يُحيط بهِ الحصر، ويضيق عن بيانهِ الوصف، وإنما يقدُرهُ العارفون بهِ قدرهُ، ويُوَفُّونهُ من الوصف والمدح حقهُ، ويكفي القول بأن أقسام هذا المتحف، جمعت من الغرائب والنوادر ما عساهُ لم يجتمع في غيرها من البلدان، وقد تكفلت مطولات الكتب بشرح هذه النفائس، وتعهد مشاهير السياح، ببيانها حق البيان ولنكتفِ بما ذكرناهُ.

وإنما نذكر بعض كلمات تتعلق بأنتيكات مصر لأنها تهمنا أكثر من غيرها، فنقول على سبيل الاختصار ونهاية الإيجاز:

إن هذه الأنتيكات تشغل ثلاث قاعات من الطبقة الأرضيّة، وثلاثاً من الطبقة العليا، والجميع في غاية السعة، وهي مرتبة في هذه المحلات بحسب ترتيبها التاريخي، تنبيءُ عن ألفي سنة قبل الميلاد إلى 640 سنة بعدهُ.

ويشتمل قسم من القاعة الجنوبيّة بالطبقة الأرضيّة على آثار كانت في زمن الرومانيين، وقسم على آثار البطالسة، وفي وسط هذه القاعة «حجر رشيد» المشهور الذي كان مفتاح اللغة الهيروجليفيّة، وهو من الصوّان الأسود، وعليهِ ثلاثة أنواع من الكتابة.

وتشتمل القاعة الوسطيّة على بعض آثار زمن رمسيس الثاني الكبير، منها تمثال رمسيس المذكور، وصورة الملك سيتوس الأول مصنوعة من الخشب.

وتشتمل القاعة الشماليّة على آثار من آثار العائلة الثامنة عشرة، وقد بلغت مصر في زمنها منتهى المجد والرفعة، ومن جملة ما فيها بالجهة اليمنى تمثال الإله هوروس، مصنوعاً من الصّوّان الأسود، وبالجهتين صورتان من صور الملك أمينوفيس الثالث، وممّا بها أيضاً صورة الملكة موتموبا جالسة في فلك من الصوان، هذا غير الأنتيكات الصغيرة الموضوعة بالخزانات المحيطة بهذه القاعة.

ثم يُصعد من دهليز أمام هذه القاعات بسلّم مغطاة جدرانهُ بورق البَرْدِي - پاپيرُوسْ -، المملوءِ بالكتابات الهيروجليفيّة حتى يتوصل إلى قاعات الطبقة العليا.

الأولى: منها محتوية على عدة خزانات في إحداها تمثال «المشترى»،

وفي أخرى تمثال «ما» الحقيقة و «را» الشمس، وفي غيرهما تماثيل بعض المعبودين، وبعض الحيوانات المقدسة عندهم، وبعض صور الملوك وكبار الموظفين مجسمة، وفي غيرها الملابس، وما يلزم للزينة حتى بعض شَعر مستعار، فيدل على أن المصريات القدماء كنَّ يستعملنَ ذلك للزينة، كما تستعملهُ النساءُ في هذه الأَزمان.

وفي بعض هذه الخزائن كثير من الخواتم والعقود والأَطواق وصور الجعارين مجسمة.

والقاعة الثانية: تشتمل على خِزانات بها كثير من الآنية المعمولة من الرخام الأَبيض والبرونز وغيرهما، منقوشة بالنقوش المتقنة، وكثير من الأَقمشة والعُلب والملاعق والأَسلحة، والأَدوات المختلفة والآلات المتنوعة وعُدد الموسيقا وكثير من الآنية من مدة البطالسة، ومن زمن اليونان والرومان.

والقاعة الثالثة: بها كثير من المومياءِ - أَجسام محنطة - وورق البَرْدِي وأَجسام الحيوانات المحنطة، وغير ذلك من الأشياءِ.

هذا وقد فاتني عند ذكر قسمي المطبوعات والمكتوبات بهذا المتحف، أن أذكر قاعة المطالعة، مع أنها أَبهج وأبهى المحلات التابعة للقسمين المذكورين، وها أَنا أذكرها الآن:

هي على شكل بيضاوي عظيم، شُرع في بنائها سنة 1855، وانتهت سنة 1857، ولها قبة من الحديد والزجاج يبلغ قطرها 43 متراً، وارتفاعها 32 متراً، ويمكن أن يجلس فيها 360 شخصاً يشتغلون بالقراءة والكتابة مع الراحة، وفي وسط القاعة كرسيٌّ عالٍ يجلس عليهِ المغيِّر، ويقربهِ فهرست الكتب عبارة عن

400 مجلد موضوعة على ست طاولات كبيرة حوالي المغيّر، وأمامهُ أوراق الاستعارات بيضٌ للكتب المطبوعة، وخضرٌ للكتب الّتي بخط اليد، فيكتب الطالب بورقة الاستعارة اسم الكتاب المرغوب، ونمرتهُ الّتي بالفهرست، ونمرة الكرسي الذي اختارهُ، ونمرة الطاولة الّتي يجلس أمامها، ثم يضع الورقة في سَبَت مخصوص، ويذهب إلى مكانهِ، فيجيئهُ المغيّر بالكتاب في الحال.

وفي هذه القاعة ما يزيد عن 20000 كتاب غير المبينة بالفهرست، وكلها قواميس وأنسكلوپيديات، وكتب تواريخ وجغرافية، وغير ذلك من الكتب الّتي يُحتاج إليها على الدوام، وهذه يمكن الإنسان مراجعتها دون أن يطلب ذلك من مستخدمي الكتبخانة، وفي الليل تُضاءُ هذه القاعة بالنور الكهربائي، وفي سنة 1858 الّتي افتتحت فيها هذه القاعة، كان عدد المطالعين بها على التعاقب 190400، وكان عدد الزائرين في تلك السنة 519505، وعدد الكتب الّتي طلبت للمطالعة فيها 877898، وفي سنة 1886 بلغ عدد المطالعين والزائرين 176893، ولا يجوز الاشتغال في هذه القاعة إلاّ لمن كان عمرهُ 21 سنة فأكثر، بشرط أن يُقدّم طلباً بذلك لرئيس عموم المتحف مبيناً بهِ اسمهُ وصنعتهُ، ومحل إقامتهِ، وأن يكون الواسطة لهُ شخصاً يعرفهُ الرئيس المذكور.

وقد أردنا أن نتفرج على قسم الكتب العربيّة، ووجدنا أنهُ من الأقسام الّتي يلزم للتفرج عليها تصريح مخصوص، فاستخلصنا عليهِ من نفس المتحف بكل سهولة، حيث قابلنا الرئيسُ أحسن مقابلة، وأعطانا إيّاهُ ليومين، أي لأكثر ممّا طلبناهُ بمجرد ما تفرسهُ فينا من الملابس، إنّ ذلك القسم يخصنا أكثر من غيرهِ، ولكن كاد النهار أن يمضي، وكنا نتوهم أن بحثنا في ذلك القسم يستغرق زمناً طويلاً، لما كنا نسمعهُ بالإشاعة من أن هذا القسم العربي

يحتوي من نفائس الكتب المشرقيّة وغرائبها، على ما لم تحوهِ عواصم الشرق على العموم، فانصرفنا على أن نعود في اليوم التالي.

فلما عدنا وجدنا هذا القسم يُضاهي مثيلهُ في كتبخانة پاريس، من حيث عدم ترتيب الفهارس فيهِ على الوجه المرغوب، وزاد على قسم پاريس أن المغيّر فيهِ - وإن كان غاية في الملاطفة وحسن التهذيب - لا يُحسن اللغة الفرنساويّة، ولا يتكلم بالعربية، وإن كان يفهمها قراءةً على ما فهمناهُ منهُ.

وكنت أقصد التفرج على فهرست الكتب، لعلي أعثر على غرائب منها، ويقصد سيدي الوالد العزيز كتباً معلومة، ولكن حال بيننا وبين ذلك سوءُ الحظ.

أما التفرج على الفهرست فلم يفدنا المقصود لعدم انتظامهِ، ولتفرق أوراقهِ، حتى إنَّ كل جملة منها في درج كان يأتي لنا بهِ المغيّر، فلا نقف منهُ على حقيقة.

وأما الكتب المخصوصة الّتي كان يحب سيدي الوقوف عليها فلم نهتدِ إليها أيضاً، لعدم فهم المغيّر ما نقصدهُ، وعدم فهمنا غالب ما هو مكتوب على أوراق الفهرست باللغة الإنجليزيّة، فضلاً عن عدم ترتيبها وانتظامها كما تقدم.

إنما لأجل عدم ضياع الفرصة طلبنا بعض كتب دلّنا عليها بالمصادفة بعض كتابة باللغة العربيّة في بعض الأوراق، وأردنا أن نعلم مقدار الكتب العربيّة الموجودة في هذا المكان، ففهمنا من المغيّر المذكور باللغة الفرنساويّة بعد الجهد، أن عددها من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف كتاب.

واني أتذكر من الكتب الّتي طلبناها كتابين: «الصراح من الصحاح» وهو كتاب في اللغة العربيّة مترجمة بالفارسيّة، تأليف جمال القرشي، طُبع بكلكتا في سنة 1222، الموافقة سنة 1813، و «المقامات الإثني عشر» لأحمد بن

مُحمّد المُعَظّم، المولود بالري إحدى مدن فارس، عارض بها مقامات الحريري، طبع باريس سنة 1281.

وربما كان يمكننا الوقوف على كيفيّة ترتيب الفهارس، بكثرة الممارسة مع هذا المغيّر المهذب، والاستعانة بهِ على ما نريدهُ منها لو لم نرد صرف الوقت في التفرج على باقي المدينة مع قلّتهِ.

هذا وقد رأيت ما سرّني ونحن نتفرج على تلك الفهارس أمام هذا المغيّر، وهو أنّي وجدت تجاههُ «المقامة الفكريّة في المملكة الباطنيّة» تصْنيف سيدي الوالد، و «جغرافية مصر» تصْنيفي، فسألتهُ كيف وصول هذين الكتابين إلى هذه الكتبخانة؟ وما السبب في وجودهما على مكتبتهِ مع كونهما بغير لغة البلاد؟ فأجاب أنهما اشْتريا من المحروسة من مدة على ذمة هذه الكتبخانة، وأنّهُ مشتغل بمطالعتهما، وأنّهُ فهم كثيراً منهما، فسألتهُ بلطف عن بعض معانيهما، فوجدتهُ فاهماً لذلك، بل وجدتهُ في تفهيم مقصودهِ منهما أقدَر عليهِ من تفهيمهِ لنا ما في الفهارس، فأنْساني ما خالج نفسي من السرور بسبب رؤية هذين الكتابين الأسف على ما فاتني من عدم الاهتداءِ بالفهارس إلى ما أردناهُ، كما أنساني الفرحُ بتفهيمهِ لي مقصودَهُ من هذين الكتابين التأثر من عدم اقتدارهِ على الكلام الذي كان يوقفنا بهِ على المرام.

ثم إني تمنيّت عند تفرجي على هذه الكتبخانة، أن لو انتخبت حكومتنا بعض من له خبرة بالكتب العربيّة وأرسلتهُ إلى كتبخانة أوروبا، لانتقاءِ الكتب النافعة الّتي لم توجد عندنا، ونسخها، فإنهُ يترتب على ذلك فوائد جزيلة. ومنافع عميمة جليلة لأبناءِ الوطن، وقد أخبرني صاحبنا العلامة الفاضل الأستاذ الشيخ مُحمّد محمود الشنقيطي أنهُ لما أُرسل من الأستانة إلى

أوروبا لمثل هذا الغرض وجد بكتبخاناتها كثيراً من الكتب العربية القديمة العهد، العظيمة النفع المعدومة الوجود في بلا الشرق على العموم.

(كنيسة القديس بولس الكاتدرائية) هي أفخم المباني الّتي تستوقف الأنظار، وتحار عندها الأفكار، قائمة على مرتفع يشاهد من بعيد، وكان بمكانها في الأصل هيكل لعبادة بعض الآلهة في الأزمان الخالية، ففي سنة 603 بنى بعض الملوك فيه كنيسة استمرت إلى سنة 1666، فاحترقت بتمامها، وبقي المحل خالياً تسع سنين، حتى شُرِع في وضع أساس هذه الكنيسة الحالية يوم 21 يونيو سنة 1675، وانتهت في سنة 1710، بعد أن ضربت الدولة لأجل إتمامها ضريبة على معادن الفحم الحجري، وبلغت نفقاتها نحو 748 ألف جنيه.

وهي على هيئة صليب، تشابهُ كنيسة القديس بطرس في رومة، وإن كانت أصغر منها، ويبلغ طول صحنها 152 متراً، وعرضهُ 36 متراً، وارتفاع قبتها من الداخل 68 متراً، ومن الخارج 111 متراً.

وهي أكبر الكنائس بعد كنيسة القديس بطرس برومة، كما تقدم وبعد كنيسة ميلانو الكاتدرائيّة، والناظر إليها من قريب لا يتحقق جسامتها لإحاطة الأبنية بغالب أطرافها، فلا يتحقق من ذلك إلاّ إذا كان بعيداً عنها.

ومنظر وجهتها من الخارج جميل جدّاً، عرضها 55 متراً، وأمامها سقيفة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام، يُصعد إليها بسلّم لهُ اثنان وعشرون درجة، ويمقدّمها بَنِيَّةٌ مثلثة، بها صور كثير من القديسين، ناتئة في الحجر من صنع أحسن الصناع وأشهرهم.

أما من الداخل فهي خالية من النقوش والزخرفة كعادة البروتستانت في

كنائسهم، وبها كثير من قبور مشاهير الإنجليز وقوادهم، جرياً على عادتهم في دفن المشاهير من موتاهم في الكنائس، تعلو قبورهم فيها الصور والتماثيل، فمن ذلك قبر الأميرال رودني، وبجوار قدميهِ تمثالا شخصين، يحكي أحدهما للآخر حديث غزوات الأميرال المذكور على قصد أن الحاكي هو النصر، والمحكي لهُ هو التاريخ.

ولا يُمنع إنسان من التفرج على ما بهذه الكنيسة من التحف والآثار في كل وقت غير أوقات الصلاة، ويُعمل بها في كل سنة احتفالان عظيمان في شهري مايو ويونيو، أولهما لمساعدة أرامل القسس وأيتامهم، والثاني لمساعدة المدارس المجانيّة.

(سراي عموم البوستة) هي عبارة عن دار مشيدة، يبلغ طولها 120 متراً، بوسطها قاعة طولها أربعة وعشرون متراً، في عرض 18، وفي شمال هذه القاعة مكاتب المراسلات الّتي برسم الخارج عن لوندرة، وفي جنوبها قلم المكاتب الّتي برسم المدينة ذاتها، وبها قلم المكاتيب المكتوب عليها «پُوسْت رِستَانْت»، وهي مكاتيب ليس عليها بيان مقر المرسلة إليهِ، لكن تبقى في البوستة إلى أن يجيء صاحبها يسأل عنها، وبهذه السراي قلم المراسلات المرتجعة، وبجانبهِ جدول يشتمل على عنوان أصحاب المكاتيب الّذين لم يستدل عليهم، وهناك صندوق التوفير المختص بالبوستة وغير ذلك، وهناك بيان صادرات البوستة بأنحاءِ المملكة أعني إنجلتره وأسكوتلانده وإيرلانده.

المراسلات - 962 مليوناً في سنة 1874 و 1019 مليوناً في سنة 1876 و1459 مليوناً في سنة 1886 - 87.

تذاكر البوستة – 79 مليوناً في سنة 1874، و 39 في سنة 1876، و 180 في سنة 1886 – 87.

الكتب والجرائد – 259 مليوناً في سنة 1874، و 298 في سنة 1876، و520 في سنة 1886 – 87.

طرود البوستة – وهي من المستحدثات – 32860000 في سنة 1886 – 87.

أما المبالغ المرسلة بموجب حوالات على البوستة فهي باهظة جداً، ولو أن التحويل لا يجوز أن يكون بأزيد من 10 جنيهات، هذا فضلاً عن انتشار استعمال الشيك وهو نوع من السفاتج عندهم وذلك أن مصلحة البوستة في سنة 1882 – 83 أعطت تحاويل يبلغ عددها 15090858 بمبلغ قدرهُ 27597883 جنيهاً إنكليزياً، فلما أنشئت بونات البوستة قل استعمال الحوالات، فصار عددها في سنة 1886 87 – 9762562 حوالة فقط، ولكنهُ في نظير ذلك كان عدد البونات المرسلة في هذه السنة 31608711 بمبلغ قدرهُ 12959000 جنيه إنكليزي.

ويبلغ عدد النقود المودعة الآن في صناديق التوفير الخاصة بالبوستة التي أنشئت في سنة 1861 – أربعةً وخمسين مليون جنيه إنكليزي.

وقد كان صافي الإيراد في مصلحة البوستة في سنة 1886 – 87 2591057 جنيهاً إنكليزياً.

وبجانب مصلحة البوستة (مصلحة عموم التلغرافات): وهي عبارة عن عمارة عظيمة ابتدىء فيها سنة 1870، وتمت في سنة 1873، وطول القاعة الكبيرة فيها 90 متراً، وعرضها 57 متراً، وتحتوي على 500 جهاز

تلغرافي، وتحت أرض هذه العمارة يوجد ثلاث آلات بخاريّة، قوة كل واحدة منها خمسون حصاناً، وهي ترسل ما ورد إليها من التلغرافات في مكاتيب إلى مكاتب التلغراف بالمدينة في مواسير، مفرغة من الهواءِ بواسطة الضغط على المكاتيب المذكورة.

وبلغ عدد التلغرافات الصادرة عن مصلحة عموم التلغرافات هذه في سنة 1888 – 89 – 20236539 تلغرافاً، برسم لوندرة 57765347 تلغرافاً برسم باقي أنحاءِ المملكة.

(كرِيِنْسْتِس هُوسْپِتَالْ) بمعنى «مستشفى المسيح»، وليس هو محلاً تُعالج بهِ المرضى كما يفيدهُ الاسم، بل أَصل إنشائهِ بواسطة جمعيّة تألّفت في عهد الملك إدوار السادس سنة 1553 لأَجل تربية اليتامى وأَولاد الفقراءِ وتعليمهم، وهو الآن لا يقتصر على ذلك، بل هو مدرسة للأَحداث مطلقاً، يتعلم فيها 1200 تلميذ وقد حافظت على العادات الّتي كانت في زمان إنشائها حتى الملابس والأَزياءِ الّتي كانت وقت ذاك من جوارب صفراءَ وسراويلات وجبب زرقاء.

وإيراد هذه المدرسة في السنة الواحدة سبعون أَلف جنيه إنكليزي، ولا يُقبل فيها إلاّ الغلمان الّذين ليس عمرهم أَقل من سبع سنوات ولا أكثر من 9، ويتمون دروسهم في السنة الخامسة عشرة من عمرهم، ويخصص منهم البعض بالاشتغال بالتجارة، والبعض بالمدارس الجامعة بالنسبة لاستعدادهم، وآخرون بالرياضيّات، وكان لهذه المدرسة امتيازات كثيرة، بقي بعضها إلى الآن، منها أَولاد الملك كانوا يُقابلون في رحبتها يوم رأْس السنة باحتفال عظيم، وفي يوم الاثنين من عيد الفصح، يذهب جميع التلامذة في موكب كبير إلى دار البورصة، وفي يوم الثلاثاءِ يذهبون إلى اللورد أَمين المدينة

فيهدي إلى كل واحد منهم شلناً مضروباً حديثاً، ونجباء التلامذة يخطبون في مواضيع شتى بقاعة المدرسة الكبيرة يوم عيد القديس ماتيو - متّى - ، وهو يوم 21 سبتمبر، وقد نبغ بهذه المدرسة كثير من العلماءِ، وتخرج بها جم غفير من الفضلاءِ.

(سجن نيوجيث) هو أكبر السجون في لندن، وكان في الأصل مُعَدّاً لحبس الّذين لا يدفعون ديونهم، ثم خصص بالذين يرتكبون الجرائم، ويقترفون الآثام وطول وِجهتهُ الأصليّة 90 متراً وقد حول هذا السجن من الداخل إلى حبوس انفراد في سنة 1858 فصار يسع 192 مسجوناً وقد كانوا يشنقون الأشقياءَ المحكوم عليهم بالموت أمام هذا السجن، ثم بطل إشهار هذه العقوبة على رؤُوس الإشهاد.

وبالقرب من هذا السجن (محكمة الجرائم)، وهي قسمان: محكمة الجنايات، ومحكمة الجنح، وجلساتها علنيّة، ولكنهُ قد يتعذر في بعض الأَحيان وجود محل يجلس فيهِ الإنسان بالنسبة لكثرة الازدحام.

(مستشفى سان بارتلمي) بالقرب من مستشفى المسيح المتقدم وهو من أقدم المحلات الخيريّة الّتي تأسست سنة 1123 بلوندرة، ومن أغناها، وبناؤُه الذي هو عليهِ الآن قد تم سنة 1733، وشرع فيهْ قبل ذلك بثلاث سنوات، وله مدخلان كبيران، فوق أحدهما تمثال الملك هنري الثامن، وبجانبهِ صورتا مريض ومُقْعَدٍ مجسمتين، وفي داخل هذا المستشفى كنيسة صغيرة.

وإِيرادهُ أربعون ألف جنيه في كل عام، وفيهِ 676 سريراً، وعدد المرضى الّذين يُعالجون فيهِ كل عام 6000، ويُرسَل الأَطباءُ منهُ لعيادة 140000

مريض في منازلهم، وإذا عرض للإنسان أمر قُبل فيهِ حالاً في أي ساعة كانت في الليل أو النهار وعولج مجاناً، وقد اشتغل بالمعالجة في هذا المستشفى من الأطباءِ من خلّدوا اسمهُ، وأبقوا ذكرهُ دهر الداهرين، فمنهم هارْفي الذي اكتشف نواميس دورة الدم، ومنهم أَبِيرْنِيثي الجراح الشهير وغيرهما من حذاق الأطباءِ، ومشاهير الحكماءِ، وهناك محل للتدريس، ومتحف للتشريح والنبات، وكتبخانة عظيمة جدّاً، ومعمل كيماوي، وغير ذلك.

وبالقرب من هذا المستشفى (سوق اللحوم)، ومكانهُ في الأصل كان ملعباً خارج سور المدينة، وكان قتل المحكوم عليهم بالإعدام يحصل فيهِ، ثم صار سوقاً لبيع البهائم والأنعام، إلى أن ضاق بها المكان، فانتقلت إلى مكان آخر سنة 1855، وجُعل هذا المكان سوقاً للحوم كما ذكرنا، وكان الشروع في بنائهِ في سنة 1862، والفراغ منهُ في سنة 1868، وهو بناءٌ أنيق، وفي جوانبهِ الأربعة صروح أربعة، وطولهُ 192 متراً، وعرضهُ 75، وارتفاعهُ 9 أمتار، ومسطحهُ يقرب من 15000 متر مربع، وتحتهُ مخازن للسكة الحديد، وهي متصلة بسكك المدينة الحديديّة، وفي وسط السوق بستان بديع بهِ فسقيّة جميلة.

ويجوار هذا السوق أسواق تجددت بعدهُ منها (سوق الطيور)، ومنها (سوق الفواكه)، ومنها (سوق الخضروات)، ومنها (سوق السمك).

ويقرب من هذه الأسواق المكان المسمّى (تْشارتْرْهاوسْ)، وهو في الأصل دير، ثم صار ينتقل من حالة إلى حالة، إلى أن اشتراهُ بعضهم في سنة 1611، وجعلهُ مدرسة لتعليم 40 طفلاً، وتكيّة لثمانين شيخاً هرماً من الّذين عضهم الدهر بنابهِ، دون أن يكون لهم يد في حصول الفقر الذي حلّ بهم.

وإيراد هذا المكان 29 ألف جنيه كل عام، وفي سنة 1872 نقلت المدرسة إلى مكان آخر لأسباب صحيّة، واشترى مكانها طائفة تجار الخياطين وبنوا فيه مدرسة بديعة.

(دار بلديّة المدينة) «جلْدْهُول» شيدت هذه الدار أولاً من سنة 1411 إلى سنة 1431، وخصصت بجلسات مجلس البلديّة ومجالس الطوائف. ثم احترق معظمها في الحريقة الهائلة الّتي كانت في سنة 1666، وأُعيد بناؤها في سنة 1789، ووِجهتها على الطراز القوطي، بُنيت في ثلاث سنوات، ابتداؤُها سنة 1865، وفوق بابها طراز المدينة، وشارتها وعنوانها مكتوب بالقلم اللاّتيني، ترجمتهُ «يامولانا أَرْشِدْنا».

وبهذه الدار قاعة كبيرة، طولها 46 متراً، وعرضها 15 متراً، وارتفاعها 17، صُرف على ترميمها فقط 30000 جنيه في سنة 1865، وهي معدة الآن للانتخابات، والاجتماعات المختصة بالنظر في شؤون المدينة، ولها سقف من الخشب في غاية البهاءِ والرونق، وفي جميع أنحائها تماثيل فاخرة لعظماءِ الرجال الّذين نبغوا من الإنجليز.

وفي 9 نوفمبر من كل سنة يعمل اللورد الذي تولى وظيفة أمين المدينة - لوردمير - وليمة فاخرة، يدعو إليها رؤَساءَ المصالح، وأرباب الحل والعقد، ورجال الحكومة، ويبلغ عدد الّذين يحضرونها ألف مدعو، وتكون عقب استلامهِ مقاليد هذه الوظيفة، وفي هذه الوليمة، يتلو الوزراءُ وغيرهم خطباً تتناقلها جرائد العالم، ويكون لها تأْثير مهم في أمر السياسة.

ولم يبقَ من البناءِ الأول لهذه الدار إلاّ طبقة تحت الأَرض، بها كثير من أَعمدة الرخام اللطيفة.

وفي هذه الدار كتبخانة تحتوي على ستين ألف مجلد، بها الكتب

والخرائط والرسومات المتعلقة بلوندرة وأرباضها وكثير من النفائس. وبالطبقة الأرضيّة منها، متحف للآثار الرومانيّة العتيقة الّتي وُجدت بلوندرة، وغير ذلك من التحف الّتي تركها كبار القوم من القرون المتوسطة، فضلاً عما فيها من الدواليب المرصوصة، الّتي بها كثير من خطوط مشاهير الإنجليز، مثل الشاعر شِكْسبير الشهير، وكرمويل، وولِنْجِتُون، ونلسون، وغيرهم.

وبالقرب من هذه الدار (مدرسة جِرِيشِم)، أُضيفت إلى اسم مؤسسها الذي شاد أركانها في سنة 1579، وخصصها بتدريس الشرائع والحقوق واللاّهوت والطب والبلاغة والهندسة والفلك والموسيقا، وتسع قاعة الدراسة فيها 500 طالب، وكان في وصيّة مؤسسها أَن الدروس تكون في وقت الزوال، وباللغة اللاتينيّة، ولكن القوم رأوا جواز الإخلال بهذا الشرط، فصار التدريس بها في الساعة السادسة بعد الزوال، وباللغة الإنكليزيّة.

(دار طائفة الصاغة): معمولة على شكل أنيق جدّاً، فيها سلّم فاخر، عليهِ صور كثير من الملوك، وفي القاعة الّتي تجلس فيها لجنة الإدارة، محراب روماني عثروا عليه [في] أثناء بناء هذه الدار، وفيها أيضاً صورة اللورد أمين المدينة ميدلتون الذي هو أول من جلب إلى لوندرة الماءَ الصالح للشرب، فإنهُ حفر ترعة «نِيُوريفِرْكَنَال» وصورة الملكة ڤيكتوريا والبرنس البرت وتماثيل الملك جورج الثالث والرابع، وغيليوم الرابع، وكيلوپترة، وغير ذلك، وفي هذه الدار يُعمل الجشني عن جميع مصوغات الذهب والفضة المصنوعة في إنكلترة، وتوضع عليها التمغة فيها.

(كنيسة سانت ماري لي بُوْ): وهي بالغة في البناءِ نهاية الإتقان، وبيت الناقوس فيها يبلغ ارتفاعهُ 71 متراً، وهو متوج بتنّين، طولهُ ثلاثة أمتار، وجميع الأولاد الّذين يُولدون بالجهات الّتي تقرب من هذه الكنيسة، بحيث

يُسمع الناقوس في مكان ولادتهم، يعتبرون من أبناءِ مدينة لندن البلديين.

(بنك إنكلترا): هذا البنك عبارة عن عمارة كبيرة، طول وجهتها الجنوبية 111 متراً، والغربيّة 134 متراً، وبينهما بيعة على هيئة معبد قديم، وبداخل تلك العمارة ثمانُ رحبات، بها محلات عظيمة الاتساع، جُعلت مكاتب لعمال البنك، ومحلاتٌ مشيدة خصصت برجال إدارتهِ، ومساكنُ لسكنى مستخدميه، كل ذلك بطبقة أرضيّة عالية البناءِ، منعزلة عما يجاورها، ليس لها نوافذ إلى الخارج، بل يصل الضوء إلى محالها من رحباتها الّتي بالداخل، وتحت هذه الطبقة كهوف وقاعات، ومساحة الأرض الّتي تشغلها هذه العمارة ستة عشر ألف متر مربع، وجميع بنائها على حالة لا تتأثر بالحريق.

ومن قاعاتها قاعة الصرف، وهي متسعة طولها 24 متراً، وعرضها 13 متراً، وفوقها ساعة عجيبة الصنع، فريدة في بابها، وُضعت في هذا المحل سنة 1812، تتفرع منها قضبان من النحاس، مجموع أطوالها 215 متراً، تتصل بست عشرة ساعة، موزعة في أنحاءِ العمارة فتمشي بواسطتها هذه الساعات، ومن أغرب ما في هذه القاعة ماكينة لإفراز الجنيهات، متحركة بالبخار، فتفرز في الدقيقة الواحدة 33 جنيهاً، فما كان وزنهُ تاماً وضعتهُ في ظرف مخصوص، وما كان ناقصاً وضعتهُ في آخر.

وتحت هذه القاعة كهف ممتلىءٌ خزائن حديديّة، جُعلت لحفظ الأمانات الّتي يُودعها أحاد الناس بهذا البنك، وأول من أسس هذا البنك رجل من الإسكتلانديين اسمهُ ويليام باتِرْسُنْ في سنة 1691، وكان رأس المال فيهِ 1200000 جنيه إنكليزي، وقد تضاعف هذا المبلغ الآن إلى اثني عشر ضعفاً، وعدد المستخدمين بهذا البنك 900، مرتباتهم من 50 إلى 1200

جنيه، ومجموع هذه المرتبات 210000 جنيه، ويوجد في خزائنه عادة سبائك من الذهب والفضة، من 15 إلى 20 مليون جنيه، وقراطيسهُ المتداولة تبلغ قيمتها من 20 إلى 25 مليون جنيه، ويقبض هذا البنك من الحكومة 200000 جنيه في السنة، نظير إدارتهِ ديون المملكة الّتي تبلغ 770 مليون جنيه، ويشتغل فيما عدا ذلك بجميع مهام البنوكة من حطيطة وإقراض وغير ذلك، وهو مُلزم بشراءِ كل سبيكة ذهبية ترد إليهِ باعتبار قيمة الأَوْقية 3 جنيهات و 17 شلناً، و 9 بنسات، ومتوسط المبالغ المنصرفة منهُ والواردة إليهِ كل يوم مليونا جنيه، وهذا البنك قائم بأَمرهِ شركة مساهمة، وهي أَقدم شركة من هذا القبيل في لندن، وقد مُنح امتيازاً ملوكيّاً بأَن يكون بنكاً عموميّاً دون غيرهِ في مدينة لندن، واستمرَّ ذلك إلى سنة 1834، فتأَسس غيرهُ «بنك لوندرة» «وبنك وِيسْتِمِينْسْتِرْ» إلى غير ذلك، وفي هذه الأَيام ليس لغيرهِ من البنوكات أن يصدر أوراق المسكوكات الّتي يُتعامل بها مثل النقود.

وعدد أُوراق المسكوكات المذكورة الّتي تُطبع فيهِ كل يوم يبلغ 15 أَلفاً، وكثير منها تبلغ قيمتهُ أَلف جنيه، بل منها ما قد تكون قيمتهُ 50 أَلف جنيه، بل مائة أَلف، وقيمة ما يدفعهُ البنك في كل سنة إلى الحكومة في رسوم التمغة ينيف على 70000 جنيه، وقد تبلغ خسائرهُ كل سنة من جرَّاءِ التزوير وما أشبه ذلك 40000 جنيه.

ثم إن أوراق المسكوكات الّتي ترد إلى البنك لا تخرج منهُ ثانياً، بل تُلغى كلها بلا استثناءٍ، ومنها ما لا يمكث في المعاملة يوماً واحداً، أعني أن بعض الأَوراق ترد للبنك في ذات يوم صرفها، ولا تصرف ثانياً، وهذه الأَوراق تحفظ في مكان مخصوص مدة عشر سنوات لإبرازها أمام المحاكم عند

اللزوم، وفي نهاية هذه المدة تُحرق وكمية الأوراق الّتي تُحرق كل شهر عظيمة جداً، بحيث إنها تملأ تنوراً ارتفاعهُ متر وخمسون سنتيمتراً، وقطرهُ ثلاثة أمتار، وفي هذا البنك دفاتر بنك نُوت تحتوي على إمضاءات كثير من مشاهير الناس، ومن الغرائب الّتي فيهِ ورقة من الأوراق الّتي تقوم مقام النقود، قيمتها مليون جنيه، ويخفر البنك ليلاً فره قول من العساكر.

ومعاملات هذا البنك فائقة جداً حتى إن مجموعها في سنة 1887 بلغ 6077097000 جنيه.

- (البورصة): هي واقعة أمام البنك المتقدّم ذكرهُ، وقد شُيِّدت عمارتها الحالية من سنة 1842 إلى سنة 1844 في المكان الذي كانت بهِ البورصة الّتي قبلها، المنشأة سنة 1464، وبلغت مصاريف الحالية هذه أربعة ملايين ونصف مليون فرنك، وطول وِجهتها من جهة الشرق 53 متراً، ومن جهة الغرب 57 متراً، وطول جميعها 94 متراً.

ومدخلها مرتفع عن الأَرض بتسع درجات، أَمامهُ، اثنا عشر عموداً، لطيفة الصنع، وفوق هذه الأَعمدة بَنِيَّةٌ مثلثة، مشتملة على نقوش وتماثيل بالحجر، تمثّل التجارة، وفي يدها حجة الامتيازات الّتي انفردت بها البورصة، وعن يمينها صور تمثّل اللورد أَمين المدينة ورجال الإدارة البلديّة، ورجُلاً من العرب، وآخر من الهنود، وغيرهُ من اليونان وواحداً من الأتراك، وعن يسارها صورة تجار من الإنكليز، ورجال من الصين، وآخرين من العجم والزنوج، وغير ذلك، وتحت البَنِيّة كتابة منقوشة باللغة الإنكليزيّة، وهذا تعريبها «اللّه يرِثُ الأَرض ومن علَيها».

ويداخل البورصة رحبة مربّعة، تحُفُّ بها مماشٍ متسعة، محمولة سقفها

على عمد توصلها ببعضها قناطر، وفي وسط الرحبة تمثال الملكة ڤيكتوريا، وفي زاويتها الشماليّة الشرقيّة تمثال الملكة إليصابات ، وفي زاويتها الجنوبيّة الشرقية تمثال الملك شارل الثاني، وعلى جوانب القناطر صور شارات بلاد مختلفة من أوربا وأمريكا، وصُور أشهر محاصيلها، وفي شرقي البورصة برج ارتفاعهُ 55 متراً، وفيهِ ساعة دقاقة عظيمة.

ويجهة البورصة من الشرق سلم يصعد فيهِ إلى مكاتب شركة اللويد، وهي مركز كل ما يختص بالملاحة والتجارة، والتأمينات البحريّة، وأخبار السفن من أي نوع كانت.

وليس بلوندرة هذه البورصة فقط، بل بها بُرَص كثيرة غيرها، منها المخصص بتجارة الحبوب، والمخصص بتجارة الفحوم، وغير ذلك حتى إن القراطيس الماليّة العموميّة وغيرها من الأوراق التجاريّة لها بورصة غير هذه أيضاً.

والميدان الواقع أمام البنك والبورصة هو ملتقى خطوط عربات الأومنيبوس في لوندرة، والغريب إذا رآهُ تعجّب غاية العجب من كثرة الحركة فيهِ، والازدحام، وأمام البورصة تمثال وِيلنجتُونْ القائد الإنجليزي الشهير بمحارباتهِ مع نابليون الأول، ممتطياً جواداً، وبجانبهِ فسقيّة ماءٍ لطيفة، وفي جنوب البورصة الشرقي تمثال رولاندهيل المتوفى سنة 1879، وهو الذي نظّم مصالح البوستة، وخفّف أجرها تخفيفاً عظيماً، وخلف البورصة تمثال پيبودي، وقد أقيم تذكاراً لهذا الرجل الخير في سنة 1871 بواسطة اكتتاب عمومي، وكان من أغنياءِ التجار الأمريكانيين، وقد أقام مدة طويلة بلوندرة، وتبرع بمبالغ تقرب من مليون جنيه لبناءِ عمارات لسكنى العَمَلَةِ بأُجر رخيصة لإنقاذهم مما كانوا يعانون قبل ذلك من الأُجَر

الباهظة، مع ضيق ذات يدهم، ويبلغ عدد الساكنين في هذه العمارات 20000 شخص تقريباً، وتدفع كل عائلة 4 شلنات وبنسين في كل أسبوع، ولجميعهم الحق في الاستحمام بالحمامات، وغسل ملابسهم بمحال الغسيل من غير مقابل، وقد أسس أيضاً هذا الرجل محلات خيرّة كثيرة بأمريكا، وأنفق عليها الأموال الطائلة رغبة في راحة الضعفاءِ، وحباً في فعل الخير، ونفع النوع الإنساني.

(كوبري لوندرة): لم يكن بالمدينة كوبري غير هذا على نهر التيمس منذ مائة سنة تقريباً، وهو الآن أهم وأفخم مما استحدث بعدهُ من المعابر والقناطر، وقد كان للأمم المتقدمة معابر من الخشب في مكانهِ، ولكن مياه التيمس طغت عليها في أوقات مختلفة، فدمّرتها، وفي بعض الأحيان امتدت إليها ألسنة الحرائق فالتهمتها، فلما كانت سنة 1176 شرع الملك هنري الثاني في بناءِ قنطرة من الحجر، ولكنها لم تتم إلاّ في عهد ابنهِ في حدود سنة 1209، وأُقيمت في وسطها بيعة برسم القديس توما، وبُنيت الدور على حافتيها حتى صارت شبيهة بالطرق المعتادة، وكان على كلٍّ من طرفيها باب محصن بالاستحكامات، وكانت الحكومة تشهر على شَرَفَات هذه الأبواب رؤُوس المجرمين الّذين اقترفوا الآثام الكبيرة، وخانوا الوطن والدولة.

وقد هُدمت هذه القنطرة في سنة 1832 بعد أن أنشيءَ الكوبري الحالي على بعد 30 متراً منها، وتم من سنة 1825 إلى سنة 1831، وبلغت مصاريفهُ مليوني جنيه، وطولهُ 283 متراً، وعرضهُ 26، وهو مرتكز على خمس عيون نصف بيضاويّة من الصّوّان المعروف بالجرانيت، فتحة الوسطى منها تبلغ 46 متراً، وبحاجزيهِ من الجانبين شمعدانات كبيرة ذوات فروع من البرونز الذي

أَصلهُ من المدافع الفرنساويّة المأخوذة من أسپانيا، وقد قدَّروا أن عدد الأشخاص الّذين يمرون كل يوم فوق هذا الكوبري يزيد على مائة ألف شخص، وعدد العربات يزيد على 25 ألفاً.

وينبغي للغريب أن يتوجه إلى هذا المكان لينظر النشاط العجيب، ويرى الحركة العظيمة، واشتداد الزحام، وكثرة المرور، حتى إنهُ ينبهر مما يراهُ، ويستولي عليهِ الذهول والدهشة، وأَحسن الأوقات للتفرج على هذا الكوبري، هو ما بين الساعة العاشرة قبل الظهر والساعة السادسة بعدهُ، ومع كثرة الازدحام لا يحصل فيهِ ارتباك لمهارة الشرطة، وتسيير كلّ من المارّة على نظام مخصوص، فعربات الحمل لكونها تسير الهوينا، تمر بجانبيهِ، وعربات الركوب تسير في الوسط منهُ، وللمشاة مماشٍ مخصوصة ذهاباً وإياباً، وإذا قلّب المارُّ طرفهُ ذات اليمين أو ذات الشمال أو إلى الخلف أو الأَمام في أيام الصحو أو الضباب، والشمس ساطعة، أو يسترها حجاب من السحاب لا يرى إلاّ ما هو كالغابات من صواري السفن، وفي الجهة العلويّة من النهر يراهُ وقد تغطّى سطحهُ بالزوارق.

وبالقرب من هذا الكوبري عمود إذا صعد فوقهُ الإنسان رأَى معظم المدينة كأنها تضطرب وتموج، واستجمع نظرهُ حركة مَنْ بالكوبري والميناءِ والمخازن البحريّة، وما حول جميع ذلك، وارتفاع هذا العمود 61 متراً، ويسمونهُ الأَثر، وقد أُقيم في سنة 1677 بعد أن تم العمل فيهِ مدة ست سنوات تذكاراً للحريقة الهائلة الّتي دمّرت معظم لوندرة في سنة 1666، فقد امتد لهيبها على 460 شارعاً، وأحرقت 89 كنيسة، وأَربعة أَبواب من أَبواب المدينة و 13200 منزل، وبداخل هذا العمود سلّم يُصعد منهُ إلى أعلاهُ عدد درجاتهِ 345 درجة، فيصل الإنسان إلى متسع به إناءٌ مذهب،

ارتفاعهُ 13 متراً، كأنما يخرج منهُ لهب، وبدائرهِ سور من الحديد.

- (دار طائفة بائعي السمك): هي بجانب الكوبري، جُدِّد بناؤها سنة 1831 لكن الطائفة المذكورة قديمة، وهي من أَغنى الطوائف في لوندرة، ودائماً هي من حزب الأحرار، كما أن طائفة التجار الخياطين لم تتحول قط عن التشيُّع للمحافظين. وفي أَعلى سلَّم الدار تمثال أَحد أُمناءِ المدينة، وقد كان عضواً بالطائفة، وفيها غرائب كثيرة، وذخائر تاريخيّة نفيسة، من جملتها بساط مما يعبر عنهُ عندهم ببساط الرحمة من أيام هنري الرابع، وهو في غاية البهاءِ والجمال، وكرسي مصنوع من قطعة خشب، أَصلها من إحدى أَساطين قنطرة لوندرة القديمة، وقد مضى عليهِ الآن أكثر من 650 سنة.

- (الكمرك): ودارهُ بالقرب من الدار المتقدمة، بنيت من سنة 1814 إلى سنة 1817، ولها وِجهة بديعة على رصيف عظيم بشاطىءِ نهر التيمس، طولها 148 متراً، لها ثلاثة مداخل بجانبي كل مدخل ستة عُمُدٍ أَوسط هذه المداخل بارزٌ عن مجاوريهِ، تعلوهُ خرجة بها ساعة كبيرة، وفيهِ تؤخذ الرسوم على البضائع الداخلة في مينا لوندرة، ومقدار هذه الرسوم في السنة الواحدة أكثر من 12 مليون جنيه، أو 300 مليون فرنك، وهذا المبلغ يوازي جميع المتحصل من الكمارك في كل مواني إنكلتره، ويوجد في مصلحة الكمرك هذه أكثر من 2200 مستخدم، والبضائع المضافة لجانب الديوان بسبب تهريبها تُحفظ في مخزن منعزل، وتُباع في كل ثلاثة شهور، ويبلغ الإيراد المتحصل منها خمسة آلاف جنيه في السنة، وبالكمرك متحف خاص بجميع الآلات والجهازات الّتي اختُرِعت لتهريب البضائع من الرسوم، وغير ذلك.

- (بورصة الفحوم): وهي أمام الكمرك، بنيت في سنة 1849 على الطرز الطلياني، ولها برج ارتفاعهُ 32 متراً، وداخلها مزين برسوم جميلة، كلها لها علاقة بصناعة استخراج الفحم، وأرضها مفروشة بخشب يبلغ عدد قطعهِ أربعين ألفاً، ومقدار الفحم الذي تستهلكهُ لوندرة في كل عام 150 مليون قنطار.

- (رصيف فكتوريا): يُبتدأ هذا الرصيف من غربي الكوبري السابق، ويمتد على الضفة اليسرى لنهر التيمس حتى يصل إلى كوبري ويستمينستر، وطولهُ أكثر من كيلومترين وقد استحدث جميعهُ في مجرى النهر من سنة 1864 إلى سنة 1870، وجُعل بهِ طريق من الوسط خاص بالعربات، عرضهُ عشرون متراً، وطريقان من الجانبين للمشاة عَرْضُ كلٍّ منهما ستة أمتار.

ويكتنف هذا الكوبري من جهة النهر صفَّان من الأشجار، وسور من حجر الصوان، سمكهُ متران ونصف، بهِ فتحات على مسافات مختلفة يُنزل منها إلى جانب النهر، حيث جُعلت فيهِ محطات للسكة الحديديّة المختصة بالمدينة، وقد بلغت مصاريفهُ مليونين من الجنيهات الإنكليزيّة، وتحتهُ سراديب كثيرة، منها ما هو لمواسير المياه والغاز ولأسلاك التلغراف، ومنها ما هو للسكة الحديديّة الخاصة بالمدينة كما مر، وبطرح النهر في جوار هذا الرصيف بستان ظريف بهِ تماثيل للكثير من مشاهير الإنجليز.

- (مسلة كليوپاترة): نقلت من الإسكندريّة إلى لندن، وأُقيمت بها في سنة 1878 على رصيف فكتوريا السابق بيانهُ، وقد كان المغفور لهُ جنتمكان مُحمّد علي باشا أهداها إلى إنكلتره منذ مدة طويلة، ولكنها لم تؤخذ إليها إلاّ في سنة 1877، بواسطة مبلغ وقدرهُ 10000 جنيه، تبرع بهِ الدكتور إيراسم ولسون، أحد أغنيائهم لهذا الغرض، وليست هذه مسلة كليوپاترة الحقيقية الأصليّة الّتي كانت قائمة بالإسكندريّة، ولكنها مسلة

أخرى كانت منبسطة على الأرض بجانبها، أما هي فقد أرسلت إلى أمريكا، وأقيمت في الحديقة المركزيّة «پارك سَانْترال» بمدينة نيويورك، وكلتاهما واردتان من مدينة هيليوپوليس، وهي عين شمس الّتي محلها الآن المطريّة، فإنها كانت ملأى بالمسلات في جميع الجهات، وهذه الموجودة بلندن بها كتابة على مدينة عين شمس، تَصِفُها بأنها «دار العنقاءِ»، وارتفاعها 20 متراً و 90 سنتيمتر، وعرضها بجانب القاعة متران و 44 سنتيمتر، وارتفاع قاعدتها خمسة أمتار ونصف، ووزنها 182540 كيلوجرام، وأما مسلة پاريس فارتفاعها 22 متراً و 83 سنتيمتر، ووزنها 250000 كيلوجرام.

- (دار جريدة التيمس): وهي من الأَماكن الغريبة الّتي ينبغي مشاهدتها والتفرج عليها، ولها وِجهة جميلة جدّاً من الآجُرِ، وفوقها رسم رمزي يدل على الزمن، وفي يدهِ كتابان: كتاب الحال، وكتاب الماضي، والمطبعة وراءَ مكاتب محرري الجريدة، ولأجل زيارتها ينبغي تقديم طلب بالكتابة مشفوع بتوصية من أحد المعتبرين، والتصريح يُعطى من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر إلى قبل الطبعة الثانية للجريدة، وينبغي الحضور في الساعة المعينة بالضبط، وإلاّ حُرِم صاحب التصريح من مشاهدة الماكينة الغريبة الكبيرة المنسوبة إلى «ولتر» [في] أثناء تشغيلها، وهي أَغرب ما في ذلك المكان، فإنها تطبع يومياً 70000 نسخة من الجريدة، وهي، كما لا يخفى، أَعظم وأَفخم وأكبر جرائد الدنيا كلها، وكان تأْسيسها في سنة 1788، ويتيسر لهذه الآلة أن تطبع في الساعة الواحدة 20000 نسخة من الجريدة، وطول ملفّات الورق العظيمة الّتي تطبع منها هذه الآلة أَربعة أَميال إنكليزيّة، أعني 6437 متراً، وهو طول بالغ في النهاية جدّاً، ويستلزم الطبع بها في كل يوم من 28 إلى 30 ملفّاً، ومن هذه الآلة تخرج الجريدة من الجهة الأُخرى مطبوعة مطوية مجهزة، وكذلك آلة جمع

الحروف، فإنها من الغرائب الّتي يحار فيها الطرف، وتستحق المشاهدة، وفي المطبعة رجل مخصوص بإرشاد الزائرين، وإعطائهم الإيضاحات والتفصيلات الكافية الكافلة.

- (جمعيّة الكتاب المقدس): هي بجانب مطبعة التيمس إلى جهة الشرق في دار تَمّ بناؤها سنة 1868، وقد تأسست هذه الجمعيّة في سنة 1804، وهي توزع في كل سنة، أكثر من أربعة ملايين من الكتاب المقدس، بلغات مختلفة، ولهجات متعددة، يبلغ عددها على قول 276 لغة، وقد بلغ عدد المجلدات الّتي وزّعتها هذه الجمعيّة منذ نشأتها 116 مليون مجلد، وتصرف في السنة الوحدة ما يزيد على 250000 ألف جنيه إنجليزي.

- (برج لندن) - «ذي تَوَز» - : وهو حصن قديم كانت الدولة أعدّتهُ في سالف الزمان سجناً لأرباب الجرائم، وهو عبارة عن مجموع عمارات مختلفة، وبنايات غير منتظمة يحيط بها سور ذو شرفات، وخندق عميق لا مياه فيهِ الآن، وهو واقع على شاطىءِ نهر التيمس، ويُظن أنهُ كان في مكانهِ على عهد الرومانيين قلعة حصينة، ولكن هذا البرج الحالي لا يتناهى في الأقدميّة إلّا إلى زمن غليوم الفاتح، وهو الآن خزائن للأَسلحة، ولا يزال القوم يصونونهُ، ويحافظون عليهِ بصفته[1] قلعة من قلاع المدينة، وشكلهُ مخمس الزوايا، غير منتظم، والمساحة الّتي يشغلها تزيد على خمسة هيكتارات، ولهُ سوران فوقهما الحصون والأَبراج، وبعد المستحكمات من جهة نهر التيمس، رصيف عرضهُ من خمسة وثلاثين إلى أربعين متراً.

ولهذا البرج أَربعة أَبواب أولها يسمى بابَ الحديد، والثاني باب الماءِ،

---

(1) في الأصل «بصفة» المحرر.

والثالث باب الخائنين، وكلها تفتح لجهة نهر التيمس، والرابع باب الأسُود، وهو المدخل الأصلي لهذا البرج، وعلى هذا الباب قلم التذاكر الّتي يُرخّصُ بها لحاملها زيارة مجموعات الأسلحة القديمة، وجواهر التاج الملوكي، ويخفر هذا البرج من الداخل، خفراءُ من قدماءِ العساكر، يتسربلون بزي قديم، كما كانت تتسربل العساكر مدة هنري الثامن.

وعلى يسار الداخل من هذا الباب الأصلي، مدفع من المدافع التركيّة أهداه إلى الحكومة الإنجليزيّة السلطان عبدالمجيد خان سنة 1857، فإذا استمر الداخل في طريقهِ، سار على قنطرة مبنيّة من الحجر مرتكزة على برجين، يَعْبُرُ عليها خندقاً هناك، فَتُوَصِلُهُ من حيث المدخلُ الأوّلُ إلى حيثُ سورُ البرج الخارجيُّ، فيدخل من بابٍ ثَمّة، فيجد طريقاً دائراً بجوار هذا السور بتمامهِ من الداخل.

فإذا مشى السائر من حيث دخل إلى الأمام، وصل بعد سير مسافة إلى باب آخر من أبواب البرج المطلة على نهر التيمس، وهو المسمى بباب الخائنين، وكان مخصصاً بإدخال المسجونين، وتجاه هذا الباب من الداخل باب يُوصِّلُ إلى رحبة البرج الداخلة، وفي وسطها الحِصنُ الأبيض، قائم على مرتفع من الأرض، وهو أقدم ما بهذا البرج، فقد بني في سنة 1078 أيّام غليوم الفاتح، وهو عبارة عن شكل مربع، ضلعان منهُ كل واحد منهما 35 متراً، وضلعان آخران كل واحد منهما 39 متراً، وارتفاعهُ 28 متراً، وسورهُ يبلغ سمك بعضهِ أربعة أمتار، وسمك بعضهِ أربعة أمتار ونصفاً، وفوق زواياهُ أبراج صغيرة.

وفي الطبقة الأولى من الطبقات، العليا منهُ قاعتان مغلقتان الآن، يقال: إنهما كانتا محبساً للمؤلف الشهير «والتر رالّي»، فصنّف فيهما تاريخ العالَم، وفي الطبقة الثانية بيعة عظيمة الصنع تُعد من نفائس العمارات النورمانديّة،

وبجوارها قاعة كبيرة تحتوي على كثير من الآلات والأَسلحة مرصوصة على أَوضاع لطيفة، وفي الطبقة الثالثة «مجاميع الأَسلحة القديمة»، وصُفِّت في قاعة معروفة بقاعة المجلس، وهي الَّتي تنازل فيها ريشار الثاني عن الملك، وبجوارها قاعة بها تماثيل اثنين وعشرين شخصاً مجسمة، لابسة أَلبسة الأَزمنة القديمة الحربيّة، حسب ما كانت عليهِ على ترتيب تواريخها، من عهد إِدوارد الأول ملك إنجلتره سنة 1272 إلى عهد جاك الثاني سنة 1688، وبدائر هذه القاعة دواليب، صُفَّ فيها كثير من الأسلحة القديمة الّتي اختص بها بعض ملوك إنجلترة السالفين، كما أن بها كثيراً من الآلات الّتي كانت تستعمل للتعذيب، وكثيراً من الأَسلحة الصينيّة، والعجميّة، واليابانيّة، والإِفريقيّة وغيرها من الأَسلحة، الّتي كانت للأُمم الخالية المختلفة على اختلاف هذه الأَسلحة وأشكالها.

وحوالي الحِصن الأَبيض هذا مجموعة من المدافع القديمة، وبالقرب منهُ قشلاق كبير للعساكر معروف «بقشلاق ويلِنجتُونْ» بُنِي سنة 1845.

هذا وجواهر التيجان الملوكيّة موضوعة الآن بدولاب متين من البلور في أحد الأَبراج الاثني عشر القائمة بالرحبة، الداخلة من البرج الكبير، وجميع هذه الجواهر، هي من بعد عهد شارل الأَول، أَمّا الّتي قبلهُ فقد بيعت بعد قتلهِ.

ومن هذه التيجان «تاج سانت إدوار»، وقد عمل برسم شارل الثاني، واستعملهُ من بعدهُ من الملوك، ومنها «تاج الملكة ڤيكتوريا»، وقد عُمل في سنة 1838، وهو من بدائع الصنائع ويشتمل على 2783 قطعة من الأَلماس، وبأَعلاهُ ياقوتة عظيمة، وقد قُدِّرت قيمتهُ بمبلغ 111900 جنيه، ومنها «تاج البرنس دُه جال»، وهو من الذهب بدون أَلماس، ومنها غير ذلك من التيجان النفيسة الملوكيّة مرصعة وغير مرصعة، وقدرت قيمة هذه التيجان بثلاثة ملايين من الجنيهات.

وقد استعملت الإثنا عشر برجاً المذكورة سجوناً، ثم مخازن، ثم دفترخانات، وقد حصل بغالبها حوادث تاريخيّة فظيعة نذكر بعضها، فنقول: إنهم يقولون: إن الملك ريشار الثالث أمر بقتل أبناء إدوارد الرابع في البرج الدمويّ، وإن الملكة الياصابات سجنت أختها ببرج الناقوس، قبل أن تتولى مقاليد الأحكام، وإن «حنة - جين - جرْي» حُبست في برج الآجُرّ وإنَّ زوجها وأباهُ وإخوتهُ سجنوا ببرج بُوشَانْ، وإن الدوك كلارانس أخا المَلك إدوارد الرابع أغرقوهُ في برميل من نبيذ مَالْقُوازيا في برج بوير، وان هنري السادس قتل في برج وِيكفِيلْدْ هذا، وفي برج الملح يوجد رسم غريب لمِنْطقَة فلك البروج صنعهُ رجل عالم يدعى دِرِيبْز، سجن بهِ في سنة 1561 بتهمة السحر، وببرج بوشان المبني من سنة 1199 إل سنة 1216 طبقتان يُصْعَدُ إليهما بسلّم حلزوني، وجدرانهُ كلها مغطاة بنقوش وكتابات رسمها المسجونون، تُقصد بالفرجة للسائحين.

وبزاوية البرج الشماليّة الغربيّة كنيسة بجانبها مقبرة، كان يُدفن بها من يُسجن في هذه الأَبراج المدد المتطاولة، فيموت شهيد الاستبداد، بعيداً عن الأهل والخلان، محاطاً بالأَشجان والأَحزان، حتى قال أحد المؤرخين من الإنجليز: «إنّهُ ليس في الدنيا مقبرة يتأَثّرُ من رؤيتها الإنسان مثل هذه المقبرة إذ تذكر من دُفِن بها، وما صار لهم من الفظائع الناشئة عن الظلم والجور».

- (دار الضرب): وهي بجوار البرج المتقدم، بها آلات عجيبة، تضرب الواحدة منها في الدقيقة الواحدة، مائة قطعة وعشراً من النقود، وفي قاعة الانتظار دواليب بها غرائب من مصنوعات المسكوكات، وقد بلغ عدد

العملة المضروبة بدار الضرب هذه في عشر سنين: من سنة 1879 إلى سنة 1889 - 9217671 جنيهاً و 10347268 نصف جنيه و 15280848 نصف كورون و 16915140 فلورينو و 40621680 شلناً، وقيمة مجموع النقود الّتي ضُربت فيها من سنة 1817 إلى سنة 1880 - 246 مليوناً من الجنيهات الإنجليزية.

- (الميناء ومخازن التجارة البحريّة): إن مينا لندن ومخازنها المتناهية في الكثرة والاتساع هي من أَعظم الغرائب الّتي بهذه المدينة؛ وذلك لأَنها مركز التجارة الإنكليزيّة المنتشرة في جميع أنحاءِ الدنيا، وتمتد هذه الميناسافة ستة أَميال ونصف ميل، مبتدأة من كوبري لندن السابق بيانهُ، متجهة إلى جهة الشرق.

ويرد إليها في كل سنة عشرون ألف سفينة، ويصدر عنها كل سنة بضائع قيمتها مائة مليون جنيه إنجليزي، ويرد إليها أَصناف التجارات وسائر المحصولات من جميع البلاد، وكل الأُمم يُرسلون سفنهم، فتفرغ ما هو مشحون بها بالمخازن بدون دفع رسوم للكمرك عند التفريغ، وتبقى البضائع بهذه المخازن إلى أن يتصرّف فيها ملاّكها، أو تبقى بالسفن حال كونها في الـ (دوك) أو خارجها.

والدُّوك حياض في غاية الاتساع، ممتدة على ضفتي نهر التيمس، حُفرت في الأَرض بجوار النهر تمتلىءُ بالمياه منهُ، وتدخلها السفن المشحونة بالبضائع من مداخلها الّتي تلي النهر، فترسو على أَرصفة متسعة بجوار المخازن.

وهذه المخازن بها كهوف متسعة جدّاً تحت الأَرض تُحفظ فيها براميل

النبيذ والزيت، وما أشبه، ومحلات فوق الأرض يُوضع فيها ما عدا ذلك مما يُجلب إلى كلٍ من جميع الأنحاءِ، وهي تشغل مسطحاً فسيحاً جداً يَسَع مدائن كبيرة. ثم كل حوض من هذه الحياض مع ما حولهُ من الأرصفة والمخازن يشملهُ لفظ «دوك»، ويتميز كلٌ عن الآخر بما يضاف إليه.

فمنها (دوك سانت كترينه): وقد أُعد للتجارة في عام 1828، ومسطحهُ عشرة هيكتارات، وكان مكانهُ قبلهُ 1250 مسكناً، يسكنها 11300 نسمة، ويمكن دخول البارجة الكبيرة الّتي حمولتها 700 طن وخروجها منهُ بالسهولة، ومخازنهُ تسع 110000 طن - والطن ألف كيلوجرام - ، وترسو في جانب منهُ البواخر الآتية من قارة أُوروبا.

ومنها (دوك لندن) وهو أهم ما بهذا الميناءِ، وقد تمّ عملهُ عام 1805، وبلغت مصاريفهُ أربعة ملايين من الجنهيات، وهو يشغل مسطحاً مقدارهُ 48 هيكتاراً، ولهُ من جهة النهر أَربعة مداخل، وتسع حيضانهُ ثلثمائة سفينة كبيرة غير السفن الصغيرة، وتسع مخازنهُ 220000 طن من البضائع، وكهوفهُ 380000 هيكتولتر من البُن، ومخازن الدخان منهُ تشغل وحدها مساحة هيكتارين.

وفي الصباح يَجتَمع عند باب هذا الدوك عدد عظيم من الخلائق، لا يحصيهِ إلاّ اللّه، وكلهم ساعون لطلب الرزق من عرق جبينهم، والذي يُطلب فيهِ كل ذي قوة واقتدار على العمل، فترى هناك الكثير من جميع أَصناف العالم ما بين أَبيض وأَسود وأَسمر، حتى إنهُ يعمل فيهِ في اليوم الواحد ثلاثة آلاف نفس، هذا ورأس مال شركة دوك لندن ودوك سانت كترينة هذين ثلاثة عشر مليون جنيه إنجليزي.

وبجوارهما فرن عظيم لهُ مدخنة مرتفعة جدّاً، حتى سمَّاها العامّة مدخنة الملكة، وهو مُعدٌّ لإحراق جميع البضائع المغشوشة، أو الّتي أتلفتها الحوادث البحريّة.

وسوى هذين (دوك الهند الشرقيّة) و (دوك الهند الغربيّة)، وكثير غيرهما متعددة الأَسماءِ، مستوفاة اللوازم، وتُضاءُ كلها بالكهرباءِ، ثم إذا أمعنت النظر إليها، وما فيها من كثرة البضائع الواردة من المستعمرات الإنجليزيّة وأنحاءِ العالم أجمع، كالشاي والبن والسكر، والحرير، والدخان والخمور، والصناديق والبراميل والسحاحير والبالات والجوالق والعُلَب، إلى غير ذلك من الأَشياءِ المتراكمة الّتي لا نهاية لها في العدد، رأَيتَ ما يحير الفكر، ويذهل العقل، ويتجاوز حدود النعت، ويتعاصى على الإِحصاءِ، ويستحيل على البيان، ولكنهُ ينطق بلسان صدق عن جسامة التجارة واتساع نطاقها في هذه المدينة الكبرى، بل العالم الأَكبر بما لا يُقْدَرُ ولا يُقَدَّر.

(تُونِيلُ التيمس): وهو سرداب مبني تحت النهر يوصل إلى كلٍ من ضفّتيه بين الجهة الواقعة في جنوب دوك لندن، والمحلة المقابلة لها الواقعة على شاطىءِ نهر التيمس الشرقي.

والسبب في إعمالهِ تسهيل المواصلة بين ضفتي نهر التيمس في هذه الجهة، وعدم مزاحمة السفن الواردة إلى الميناء، فإِنهُ لو جعلَ في هذه الجهة المملوءة بالسفن، كوبريات فوق النهر لتعطلت بسببها، ولم يتيسر تفريغها بالسرعة، ولهذا السبب عملوا سرداباً آخر لخصوص المشاة أَمام برج لندن.

أما الأَول فقد ابتدىءَ في أعمالهِ سنة 1825 تحت أَرض النهر بخمسة

أَمتار، ولم يتم إلاّ في سنة 1843 بعد عناءٍ كبير، حتى أُوقف العمل فيهِ مراراً، وكانت المياه تتدفق فيهِ من النهر، فتستلزم إِعادة العمل، وتُميت بعض الْعَمَلة، وقد بلغت مصاريفهُ خمسة عشر مليون فرنك وثلثمائة وخمسين ألف فرنك، وهو عبارة عن ممشيين متجاورتين، عرض كلٍ منهما أَربعة أَمتار وعشرون سنتيمتر، وارتفاع سقفها أَربعة أمتار وثمانون سنتيمتر، وطولها 396 متراً، وكان يُنْزَلُ إلى هذا السرداب بسلّم مظلم، ارتفاعهُ تسعة عشر متراً، فكان من يسلكهُ قليلاً، مع كون الأُجرة زهيدة، وهي عبارة عن پنس واحد، فلا يكفي إيرادهُ للصرف عليهِ، وخسرت الشركة الّتي قامت بعملهِ، حتى إنها باعتهُ بستة ملايين فرنك لشركة سكة حديديّة اتخذتهُ مجازاً لقطاراتها، فصار يمرُّ بهِ في اليوم الواحد أربعون قطاراً.

وأما الثاني ويُعرف (بتونيل البرج)، فقد ابتدىءَ فيهِ سنة 1869، وانتهى في سنة 1870، وهو عبارة عن أنبوبة عظيمة من الحديد طولها 373 متراً، وقطرها متران وعشرون سنتيمتر، ويُنْزل إليهِ في كل طرف بسلّم حلزوني، درجاتهُ 96، ولم تزد مصاريفهُ على 150000 فرنك، وأجرة العبور نصف پنس.

- (الدفترخانة): شُرع في بنائها من سنة 1851 إلى سنة 1866، على حالة لا تَعْمَلُ فيها النيران، لصيانة ما فيها من الأوراق، وسجلات الدولة، وفيها 142 غرفة، طول الواحدة سبعة أَمتار ونصف، وعرضها ثلاثة أمتار وستون سنتيمتر، وارتفاعها أربعة أمتار ونصف، وكل ما فيها من أَرض وسقف وأَبواب وشبابيك من الحديد، وكانت الأَوراق قبل بنائها موضوعة في محال متفرقة، فجُمعت كلها في هذه الدار، ومن جملة ما فيها «دفتر عقارات إنجلتره»، وهو كتاب كبير في مجلدين ضخمين مكتوب في جلود

غزلان منذ زمن غليوم الفاتح سنة 1086، ويوجد بها أيضاً الصك الذي تنازل فيهِ ملك أسكوتلاندة عن مُلكهِ لملك إنكلترة، ونسخة عقد الصلح الذي حصل بين هنري الثامن وفرنسوا الأول، وغير ذلك من الصكوك والعقود المهمة في تاريخ الدولة والأمة.

- (دار المحاكم) بُنيت من عام 1874 إلى عام 1882 لجميع المحاكم البالغ عدد أنواعها تسعة عشر وهي سراي جميلة جدّاً، صُرف في بنائها 750000 جنيه إنجليزي، وطول وجهتها 150 متراً، وأعظم محلاتها الأيوان الوسطيُّ، طوله 73 متراً، وعرضهُ 15، وارتفاعهُ أربعة وعشرون متراً ونصف متر، معمولة أرضهُ بالفسيفساءِ.

- (رحبة ترافَلجَر): وهي من أحسن رحبات لندن، تجتمع فيها الأجانب والغرباءُ من كل جانب، يقصدونها لذاتها؛ بسبب اتساعها، وحسن عماراتها، وكثرة المارة فيها، وسميت بذلك تخليداً لذكر الأميرال نِلْسون المشهور الذي مات موتاً مجيداً في واقعة ترافلجر البحريّة، بعد أن حارب فيها أسطول الفرنساويّة والأسپانيول، وهزمها في 22 أكتوبر سنة 1805، وقد كان هذا الظفر، واسطة في منع إغارة ناپليون على إنكلترة، بعد أن كان في نيتهِ أن ينزل بها، ويتملكها، إذ صار من المستحيل عليهِ بعد انكسار عمارتهِ البحريّة مباشرة هذا المشروع، وقد كان حشد لأجلهِ في بولونيا جيشاً جراراً مركباً من 172000 مقاتل من المشاة، و 9000 فارس، و 2413 سفينة للنقل، وهذا الذي جعل القوم ينظرون إلى نلسون بعين الرضى، ويعتبرونهُ منجي الوطن، ومنقذ البلاد، حتى إنهم أقاموا لهُ عموداً طولهُ 44 متراً في وسط هذه الرحبة سنة 1843، وهذا العمود من الصوان الصَّلد، وفوقهُ تمثال نلسون، ارتفاعهُ خمسة أمتار، وقاعدتهُ من البرونز، وفيها

صور بارزة، تمثّلُ واقعة أبي قير المشهور سنة 1798 منها صورة نلسون هذا وقد شُجّت رأسهُ، ولم يرض هو بأن يُسعِفَهُ الجراحُ الذي كان مشغولاً بمعالجة جُرْح أحد العساكر، حيث قال لهُ العبارة المشهورة عنهُ «حتى يأتيني الدور»،

وفي شرقي القاعدة صورة واقعة كوبنهاج سنة 1801، وفيها نلسون يُمضي على أحد المدافع شروط الصلح الّتي منحها للدانيماركيين بعد أن هزمهم، وفرّق شملهم، وفي غربي القاعدة صورة واقعة سان فنسان سنة 1797، وفيها نلسون مرسوم، وهو يستلم سيف قائد الإسبانيول بعد هزيمتهم، وفي جنوبها صورة واقعة ترافَلْجَرْ سنة 1805، وفيها رسم نلسون وهو في حالة النزع، وفي أسفل هذه القاعدة كلمات مأثورة عنهُ صدرت منهُ حال الموت في واقعة ترافلجر المذكورة، وهذه ترجمتها «تعتمد إنكلترة على أن كل واحد من أبنائها يقوم بما فُرِضَ عليهِ».

وبالرحبة في شرقي هذا العمود تمثال للجنرال غوردون، وهو غوردون باشا الذي مات قتيلاً في خدمة الحكومة المصريّة بالخرطوم سنة 1885.

هذا وفي الجهة الشماليّة من هذه الرحبة الرواق الأهلي، وفي جهتها الغربيّة مدرسة الطب ونادي الاتحاد، وفي جهتها الشرقيّة كنيسة كبيرة، ومن جهتها الجنوبيّة يتفرع طريقان، أحدهما: يُسمى «وَيْتهولْ»، يوصّل إلى سراي البرلمان، والآخر يسمى «نورثُمْبَرْ أَوِينْيو» يوصل إلى رصيف ويكتوريا الذي مرَّ بيانهُ، وبالزاوية الّتي نشأت من الرحبة، وهذا الطريق الآخر الفندق الشهير المسمى «جراند هوتيل» العظيم الاتساع، وعلى يسار هذا الطريق بعد هذا الفندق بقليل محل تياتر، وأمامهُ الفندق الشهير «مترُوبول هُوتيل».

وطريق وَيْتهُولْ المذكور عن يمينهِ أماكن وزارات البحريّة، والخارجيّة، والخزينة العموميّة، والهند، وعن يسارهِ محلات وزارات البوليس والتجارة،

وقصر وَيْتهُولْ، ولا يزال يمتد بين أبنية فاخرة حتى يصل إلى ميدان سراي البرلمان، أو سراي ويستمِينْستر وكنيستها.

ومن الجهة الشماليّة الغربيّة من رحبة ترافلجر يتفرّع طريق آخر في غاية الأهميّة، وهو المسمى «پال مال»، وبجانبيهِ النوادي المعتبرة، وسراي وزارة الحربيّة، وبآخرهِ قصر سان جمس.

وبوسط طريق پال مال هذا «رحبة واتِرْلو»، وفي وسطها عمود الدوك ديورك، وقد شُيّد بواسطة اكتتاب عمومي من سنة 1830 إلى سنة 1833، تخليداً لمجد هذا الدوك، وهو ثاني أولاد الملك جيورج الثالث وارتفاعهُ 38 متراً، وراتفاع صورة الدوك القائمة فوقهُ أربعة أمتار وربع متر.

ويتفرع من رحبة واترلو هذه الشارع المسمى «ريجَنتْ سترِيتْ»، وهو من أحسن شوارع لندرة، ومحط رجال الأغنياءِ، ومسكن الأمراءِ والكبراءِ، ومجمع محال الأكل الفاخرة، والقهاوي الزاهرة، يمتد على مسافة نحو ميل من هذه الرحبة.

ويتقاطع من هذا الشارع الطريق المسمّى «أوكْسُفُورْد سترِيتْ»، وهو من أطول طرق لندن، ومن أحسنها وضعاً وبهجة.

وها نحن نريد أن نعود إلى ذكر أهم ما استلفت أنظارها من هذه الشوارع والرحبات وغيرها، على حسب السير الذي سلكناهُ في هذا الفصل، ولكن قبل ذلك نذكر بعض كلمات عن محل رأيناهُ في أحد الشوارع، فبادرت بذكرهِ لما فيهِ مما يُمدح ويثنى عليهِ، وهو محل **(شركة إنقاذ الغرقى)**، وقد تأسست سنة 1824، وصار لها الآن على شطوط إنجلترة 300 سفينة لإنقاذ الغرقى، حتى تيسر لها في سنة 1880 إنقاذ 26 سفينة، و 800 رجل،

ويكفي هذه الشركة فضلاً ومؤسسيها فخاراً أنهُ حُسب الأشخاص الّذين أنقذتهم من الغرق من يوم وجودها، فبلغوا 34000 نسمة، وكل محطة جعلوها على الشطوط تبلغ مصاريفها 1050 جنيهاً، ومصاريف مستخدميها كل سنة 70 جنيهاً، حتى بلغ مجموع المصاريف في سنة 1888 - 53270 جنيهاً إنجليزياً.

- (قصر الصُوَر الأَهلي): «نشنل جَلرِي» وهو من أَحسن المتاحف الإنجليزيّة بعد بريتش مُوزيوم بُني من سنة 1832 إلى سنة 1838، ثم في سنة 1876 صار توسيعهُ كثيراً، وكذلك في سنة 1885، وفي سنة 1887 حتى بلغ طولهُ 140 متراً، ولهُ وِجهة جميلة جدًّا، وهو معد لحفظ الصور والرسومات، ولم يكن بهِ في أول أمرِه إلّا 38 لوحة، ثم صارت اللوحات تزداد فيهِ بالشراءِ وبالوصايا الّتي كانت تُوصي بها القوم لهُ، حتى بلغت المجاميع الّتي فيهِ الآن 1200 تشغل 22 غرفة، وهذا المتحف مفيد جدًّا بالنسبة لدرس فن الرسم والتصوير، فإِنّ بهِ شيئاً كثيراً من أَعمال أَساتذة هذه الصناعة الّذين نبغوا بإِيطاليا وغيرها.

وغرفهُ كلها موزعة على جميع المذاهب في الرسم والتصوير، وتحتوي كل واحدة منها على أَعمال مذهب من مذاهب التصوير، وكلها صور غريبة، وآثار عجيبة، يحار فيها الطرف، وتستغرق الوصف.

- (مدرسة الطب): بُنيت سنة 1825، وهي عمارة عظيمة نذكر بمناسبتها، وإن كانت بشارع آخر (مدرسة الجراحة)، وقد بُنيت عام 1835، وفيها متحف عظيم أَسّسهُ رجل من الآحاد اسمهُ جُون هُونْتِرْ في سنة 1787، ثم اشترتهُ الحكومة بعد موتهِ بمبلغ 15000 جنيه، وجعلتهُ للمدرسة،

وكان فيهِ إذ ذاك 10000 من المجهّزات التشريحيّة، وفيهِ الآن منها 23000، وهو قسمان الأوّل: خاص بالفسيولوجيا، والثاني: بالپاتولوجيا، ويمتاز هذا المتحف بحسن انتساق الأشياءِ، وكمال ترتيبها، وتمام نظافتها، وغاية المحافظة عليها فيهِ.

وفي هذه المدرسة عدا ذلك مكتبة فيها 35 ألف مجلد.

- (متحف سُوِين) وهو بالقرب من هذه المدرسة، عُرِف باسم مؤسسهِ، وفيهِ أشياءُ غريبة متنوعة جدًّا، محفوظة بترتيب عجيب في 24 حجرة، غالبها صغير.

فأوّل قاعة يُدْخَلُ إليها مزخرفة على الطراز الذي كان مستعملاً في مدينة يُومپيه، وفيها أشياءُ كثيرة واردةٌ من حفائر هذه المدينة الّتي ردمها البركان، ثم كثير من صور الهياكل القديمة معمولة من الجبس، وفيها تمثال سُوِينْ مؤسس هذا المكان، مجسماً، وبعدها غرفة مشحونة بأعمدة وتماثيل، وعلى يمينها رواق الصورَ والرسوم، وفيهِ على صغرهِ 180 لوحة، وغرفةٌ أُخرى ملأَى بالتماثيل والقطع المنقوشة بالنحت وغير ذلك، حتى إن الإنسان لا يمر بينها إلّا بغاية المشقة، فإذا اجتازها وصل إلى سرداب متّسع، فيهِ قبر زوجة من أَسس هذا المكان، وفي غرفة أُخرى تابوت مصري قديمٌ عُثر عليهِ سنة 1816، من جهة باب الملوك في صعيد مصر، بالقرب من موقع مدينة طيبة القديمة، وهذا التابوت من أغرب وأبدع ما في هذا المتحف، وهو قطعة واحدة من الرخام طولها متران و80 سانتي متر، وعرضها متر واحد و10 سانتيمترات، وعمقها 80 سانتي متر، وكلهُ مملوءٌ برقوم الهيروجليف من الداخل والخارج، وهو شفّاف بحيث إذا وُضِعَ في داخلهِ

قنديل أمكن رؤيتهُ، مع أنَّ سمك جدرانهِ يبلغ 6 سنتيمترات، والرقوم الهيروجليفيّة الّتي بهِ تتعلق بالملك سيطو الأوّل أبي الملك رمسيس الأكبر، المعروف عند اليونان بسيزوستريس.

وفي هذا المتحف، سوى ما ذكر أشياءُ كثيرة وذخائر نفيسة من صور العمائر والهياكل، ومن الرسوم والتماثيل، إلى غير ذلك ممّا لا يسع المقام تفصيلهُ، وبهِ مجموعة كتب ثمينة، من أقدم الكتب المنسوخة بخط القلم معرضة للأنظار في الطبقة الأولى من الدار.

- (سوق الفواكه والأزهار والخضراوات): هو من أعظم الأسواق الّتي من هذا القبيل، بل هو من أحسن أسواق الدنيا في ذلك، خصوصاً قسم الأزهار منهُ، فإنها تنعش الأرواح بروائحها الزكيّة، وتبهج الأنظار بمناظرها البهيّة، وقد أنشئ منذ سنة 1656، وهو عبارة عن ثلاث مماشٍ متجاورة متّسعة مستطيلة، تمتد من الشرق إلى الغرب.

- (قصر وَيْتْهُولْ): هذا القصر كان متّسع الأرجاء، بعيد الأكناف، يمتد على نهر التيمس إلى داخل المدينة امتداداً عظيماً، وقد كان في أول الأمر ملكاً للرئيس «هوبرت بورج»، فأعطاهُ بملحقاتهِ وكل ما يتعلق بهِ للرهبان الدومينيكانيين، فباعوهُ بعد ذلك إلى رئيس أساقفة يورك، فجعلهُ مستقرًا لهُ ولمن يخلفهُ في هذه الوظيفة، واستمرّ الحال على هذا المنوال، حتى غضب الملك هنري الثامن على نديمهِ «الكاردينال وُلزِي» الذي كان رئيس أساقفة يورك، فأُضيف إلى الأملاك الملوكيّة، وصار توسيعهُ كثيراً.

وفي بعض السنين احترقت منهُ قاعة الولائم، فعزم الملك جاك الأوّل أن يَشيد في مكانهِ قصراً، يكون من أفخر القصور، فلما ابتدأُوا في البناء انتشبت

الحرب الأهليّة، ولم يتِم منهُ سوى قاعة الولائم، ثم احترق ما بقي من القصر القديم سنة 1697، ولم يبقَ سوى قاعة الولائم الجديدة، وهي فاخرة جدًا طولها 34 متراً، وعرضها 17 وارتفاعها 17، وسقفها مزدان بنقوش بديعة، ورسوم جميلة، فلما جاءَ الملك جورج الأوّل حوّلها إلى كنيسة ملوكيّة، ولا تزال كذلك إلى الآن، توزع فيها الملكة الصدقات على الفقراءِ والمساكين يوم خميس العهد من كل سنة.

وإنّ لتاريخ هذا المكان تأثيراً على الإنسان، لا تحدثهُ مشاهدة ما هو عليهِ الآن، فقد كان الكردينال وُلزِي يقيم بهِ الأفراح والمهرجانات الّتي لم ترَ مثلها عيون الزمان، وفيهِ قُبِضَ على إليصابات بأمر من الملكة أختها، وسيقت إلى برج لندن، وفيهِ أُخذ الملك شارل الأوّل إلى الشارع الذي قُتِلَ فيهِ، ومرُّوا بهِ من نقب أحدثوهُ في الحائط.

ولما أطفئت نار الثورة أقام في هذا المكان الملك شارل الثاني، ومات فيهِ سنة 1685، واستمر فيهِ بعدهُ خلفاؤُهُ حتى احترق في سنة 1697 كما مرّ، فنُقِلَ المقر الملوكي إلى سراي سان جمس.

ويعد هذا القصر على طريق وَيْتْهُولْ المتقدم (قصر إدارة البوليس)، وبهِ مجموعة غريبة في بابها، مشتملة على أشياءَ كثيرة من الّتي استعملت في الجنايات، ومن ثم سمّوها (المتحف الأسود).

- ثم (سراي ديوان البحريّة)، ثمّ (سراي قائد عموم الجيش)، ثمّ (سراي الخزينة العموميّة)، وطولها 90 متراً بُنيت في عهد الملك جيورج الأوّل، وبها محل إقامة الوزير الأوّل، وأقلام نظارة المعارف العموميّة، ومجلس شورى الدولة، وديوان التجارة.

- ثمّ (سراي الوزارات): وهي عبارة عن عدة أبنية جميلة متّسعة جدًا، أُنشئت من سنة 1868 إلى سنة 1873، وبلغت مصاريفها خمسمائة ألف جنيه، وبها وزارة الخارجيّة، ووزارة المستعمرات والهند.

- (سراي البرلمان: ويقال لهُ: وِيستمنْستِز)، كان في محلهِ قصر قديم بهذا الاسم، ولكنهُ احترق في عام 1834، وبُني هذا مكانهُ سنة 1840، وبقي يسمى باسمهِ كما يسمى باسم البرلمان، ومسطح الأرض الّتي يشغلها الآن 32373 متراً مربعاً، وفيهِ إحدى عشرة رحبة، ومائة سُلّم في جهات مختلفة، و1100 حجرة، وقد بلغت مصاريف إنشائهِ ثمانين مليوناً من الفرنكات، ومع هذا لم يتم أحد أقسامهِ إلى الآن.

ووجهتهُ الأَصليّة شرقيّة، متجهة نحو نهر التيمس، وطولها 287 متراً، وتنتهي في كلٍّ من طرفيها بجناح بارز، وما بين الجناحين ينقسم إلى ثلاثة أقسام متساوية، تفصلها عن بعضها بروج صغيرة، وبين نوافذ هذه الوِجهة صُفَفٌ مرصوصة عليها صور ملوك إنجلترة، مجسمة، منذ غليوم الفاتح حتى الملكة ويكتوريا، محاطة تلك الصور بشعار هؤلاءِ الملوك، وبالنقوش البالغة حد النهاية في الزخرفة والإتقان.

وبزاوية هذه الوِجهة من جهة الشمال برج الساعة، وارتفاعهُ 98 متراً، وللساعة أربعة وجوه، كلٌّ منها قطرهُ سبعة أمتار، وميقاتِيُّهَا أَحد علماءِ الفلك المشهورين، ويُعرف بها، فضلاً عن معرفة الساعة، اليوم والشهر والسنة، وجرسها أكبر أجراس إنجلترة، بل من أكبر أَجراس العالم، يسمع رنتهُ أهل قسم كبير من المدينة، وزنتهُ 260 قنطاراً.

وبزاوية الوِجهة الجنوبيّة من جهة الغرب «برج ويكتوريا»، وهو بناءٌ عظيم

مربع من أكبر أبراج الدنيا، طول ضلعهِ 23 متراً، وارتفاعهُ 104 أمتار، وفيهِ صُفَّة كبيرة بها صورة الملكة ويكتوريا مجسمة، تحفها النقوش والرسوم، ولذلك نُسِب إلى اسمها، وهي تدخل من جهتهِ إلى السراي عند افتتاح المجالس النيابيّة، واختتامها، وبين البرجين برج متوسط ارتفاعهُ 92 متراً.

أما الوِجهة الغربية، وإن كان طولها مقدار الشرقيّة الّتي على النهر، إلّا أنّها مركبة من عدة أبنية على طرازات مختلفة.

وظاهر هذه السراي كباطنها في الزينة والجمال، وكل ما فيها يشعر بكمال ذوق منشئها، وعلو قدرها، وأن لها في الكون شأناً يذكر، ولا غرو فهي من أفخر العمارات المعمولة على الطراز القوطي، وجديرة بأن يفتخر الإنجليز بها.

ويصعد إليها الزائرون من السلّم الكبير على يسار برج ويكتوريا، فيصلون إلى ممر فسيح، يدخلون منهُ إلى الغرفة الّتي تلبس فيها الملكة ملابسها الرسميّة، يوم حضورها لافتتاح البرلمان، وجدرانها منقوشة بصور بديعة، تمثل الفضائل، والأدب، والتقوى، وعلو الهمة، والإحسان.

وبعد هذه الغرفة القاعةُ المعروفة بالقاعة الملوكيّة أو قاعة ويكتوريا، وطولها 34 متراً، وتمر الملكة منها باحتفال زائد إلى مجلس البرلمان يوم افتتاحهِ، وأرضها مبلطة بالفسيفساءِ البديع، وجدرانها خصصت برسومات الوقائع المتعلقة بتاريخ إنجلتره.

وبجانب هذه القاعة غرفة تسمى غرفة البرنس، وهي غاية في الرونق، بها كثير من صور ملوك إنجلتره مجسمة، وبها تمثال الملكة ويكتوريا جالسة على عرش المملكة، وبكلٍّ من جانبيها مدخل يدخل منهُ، إلى قاعة مجلس اللوردات.

وهذه القاعة في غاية الزينة والزخرفة، معمولة على الطراز القوطيّ، طولها ثلاثون متراً، وعرضها 14 متراً، وارتفاعها كذلك، ويدخلها الضوءُ من اثنتي عشرة نافذة، مرسوم عليها صور الملوك الّذين حكموا إنجلتره منذ غليوم الفاتح، وفي وسط القاعة مقعد من صوف أُعِدَّ لجلوس الرئيس عليهِ، وعلى مقربة منهُ مقاعد أُعدت للوردات على شكل مُدَرَّج، وفي الجنوب عرش الملكة على مرتفع، وعلى يمينهِ مقعد البرنس دُهْ غال، وأمام العرش شبه منبر يرتقي إليهِ من الوزراءِ من يخاطب اللوردات، وفي جانب من هذا المحل أماكن جلوس مخبري الجرائد، والمسموح لهم بالدخول من النّاس، وعلى مقربة من العرش ذات اليمين وذات اليسار مقاعد السفراءِ، وكبار الأمراءِ، وفي صُفَف بدائر القاعة ثمان عشرة صورة مُجَسّمة، وهي صور البارونات الّذين أكرهوا الملك جَانْ سَانْتِيرْ على إصدار أوّل قانون أساسي لإنجلتره.

وبجوار قاعة الأعيان رواق فسيح معمولة أرضهُ بالفسيفساءِ والرخام، وبهِ أربعة شمعدانات ارتفاع الواحد منها خمسة أمتار، وبشرقيهِ محل للطعام، ومحل للشراب، ومحل الكتبخانة، وبغربيّهِ محل تُوضع فيهِ ثياب اللوردات، وبشمالهِ ممشى يوصل إلى الرواق الوَسطِيّ، ومنهُ إلى قاعة مجلس النواب.

والرواق الوَسطيّ مثمّن الزوايا، قطرهُ ثمانية عشر متراً، وارتفاعهُ 23 متراً، مسقّف بالحجر، وبهِ عدة أبواب إلى جهات مختلفة، منها باب يُدْخَلُ منهُ إلى دهليز موصل إلى قاعة النواب، وباب يُدْخَلُ منهُ إلى قاعة مجلس اللوردات، وباب يُدْخَلُ منهُ إلى «قاعة الشعراءِ»، سُمّيَتْ بذلك لاشتمالها على كثير من الرسومات المستخرجة من تآليف أعاظم شعرائهم.

أما قاعة مجلس النواب فطولها 23 متراً، وعرضها 14 متراً، وارتفاعها كذلك، وزينتها أقل من زينة قاعة اللوردات، ومحل جلوس الرئيس مرتفع جهة الشمال منها، وأَمامهُ مقاعد خصص ما على يمينهِ منها بالوزراءِ، ووراءَهم حزب الحكومة، وما على يسارهِ برؤَساءِ أَحزاب المعارضين، ووراءَهم أحزابهم من النواب، وبالقرب من الرئيس غرف خصصت بمخبري الجرائد والأَجانب الَّذين يُصرّح لهم بالدخول، وفي الوسط طاولة يجلس إليها كتبة المجلس، ثم وراءَ ذلك رواق مُسْتَعْلٍ مخصص بالنساءِ، مغطًى بشبكة من حديد.

ويداخل قاعة مجلس النواب غرفتان: إِحداهما: على يمين الرئيس، والأخرى على يسارهِ، يستعملان في تعيين عدد الأَصوات كثرة وقلة، إذا حصل شك في عددها، فيدخل الأَعضاءُ الَّذين من رأيهم «نعم» إلى اليمنى، والَّذين من رأيهم «لا» إلى اليسرى، ويُعَدُّون في حال خروجهم، فتتبيَّن نتيجة الاقتراع بالأَغلبيَّة من غير شبهة، ويظهر عدد الأَصوات بالضبط في كل رأْي، فَيُعْمَلُ بالرأْي الذي جمع أَغلب الأَصوات.

هذا ومن أَهم ما يتفرج عليهِ بهذه السراي (**قاعة ويستمنستر**)، وهي ما بقي من سراي ويستمنستر القديمة، وقد بنيت على الحالة الَّتي هي عليها الآن سنة 1398، وهي من أكبر القاعات الَّتي لم يُحمل سقفُها على عمد، وطولها 73 متراً، وعرضها 21 متراً، وارتفاعها 28 متراً، وصناعة الخشب بها تُعد من أَبدع الصنائع.

وقد حصل بها كثير من الحوادث التاريخيَّة، فقد اجتمع فيها أَوَّلُ پرلمانات إنجلتره، ومن عجيب الاتفاق أن الملك الذي بناها وهو ريشارد

الثاني نُودي فيها من النواب بسقوط حقوقهِ في الملك، وقد احتفلَ فيها ملوكُ إنجلتره إلى جيورج الرابع بإجراءِ رسوم تتويجهم، واحتفلَ فيها أدوارد الثالث بجان الثاني ملك فرنسا، وبداود ملك أسكوتسيا أسيريهِ، وفيها صدر الحكم بقتل الملك شارل الأوّل، ومن عجائب المقدور أن كُرُمْوِل تولى حكم البلاد في هذه القاعة، ثم ما لبث بعد ثمان سنين من توليتهِ أن أُخرِجت جثتهُ من قبرهِ، وكان تحت هذه القاعة، وجَرَّهَا القوم في الطين والوَحلِ، وعلقوا رأسهُ على رمح في هذه القاعة، وبقيت معلقة ثلاثين سنة إلى غير ذلك من الحوادث التاريخيّة الكثيرة الّتي لا يتحمل تفصيلها هذا المقام، وآخر احتفال حصل فيها هو تتويج الملك جيورج الرابع.

هذا والمجالس النيابيّة الإنجليزيّة تتألف «من مجلس الأعيان» و«مجلس النواب».

أمّا «مجلس الأعيان» فأعضاؤهُ الآن 500، منهم 26 عضواً من الروحانيين، وجميعُ أعضاءِ هذا المجلس متساوون في حقوق الاقتراع، لكن يتميّز بعضهم عن بعض، في تقدم الواحد منهم على الآخر في الجلوس والاحتفالات، كما هو مبين في لائحة خاصّة بذلك.

ومداولات هذا المجلس ومناقشاتهُ تُعتبر سريّة كمداولات مجلس النواب ومناقشاتهِ أيضاً، غير أن ذلك لا يمنع حضور الأجانب، ومخبري الجرائد، وأعضاءُ المجلس يكتفون في اتباع قانونهِ في هذا الشأن بتجاهلهم حضور هؤلاءِ الأجانب معهم، كذلك النساءُ ممنوعات بمقتضى القانون من حضور مداولات هذه المجالس ومناقشاتها، غير أنّ ذلك لا يمنع حضورهنّ بحجة جعلهنّ وراءَ شَبَكَةٍ من الحديد، فكأنّهنّ غير موجودات في المجلس.

واللورد رئيس مجلس اللوردات يجلس على مقعد من صوف كما تقدّم، إشارة إلى أنّ غنى البلاد الإنجليزيّة ورفاهيتها منشأهُ التجارة الّتي من لوازمها ذلك، والمحل الذي يلي هذا المقعد الصوفي مباشرة، لا يعتبر في عرفهم جزءاً من مجلس اللوردات، حتى إن الرئيس لو أراد التكلّم في موضوع نزل من هذا المقعد، وجاوز الجزءَ القريب منهُ إلى محل جلوس اللوردات حتى يعد داخل المجلس، وعند ذلك يتكلّم.

وانتخابُ أعضاءِ «مجلس النواب» يكون بواسطة أهالي المقاطعات والمُدن والبلاد، وثلاث مدارس جامعة، وهي مدرسة أوكسفورد وكَيمِبْريجْ ودوبلين، ومن لهُ الانتخاب لا بد أن يكون لهُ مِلْك يختلف كثرة وقلة بحسب اختلاف الأَمكنة.

ورئيس هذا المجلس يجلس تحت مظلة في آخر القاعة، وليس لهُ صوت في المجلس إلّا إذا انقسم الأَعضاء إلى قسمين متساويين، فيُرَجّحُ رأي أحدهما حين ذاك، وعادات مجالسهم النيابيّة منع الخطب المكتوبة، فمَن أَراد أن يتكلّم يقف حيث هو ويلقي الكلام على الأَعضاء مخاطباً الرئيس مشافهة.

- (كوبري ويستمِنْستِرْ): أُعيد بناؤهُ من سنة 1856 إلى سنة 1862، وطولِه 353 متراً، وعرضهُ 26 متراً، ولهُ 7 عيون من الحديد مستندة على قواعد من الصوان، وفتحة العين الوسطى 37 متراً، والأُخرُ فتحة كلٌ منها 35 متراً، وهذا الكوبري من أَظرف وأجمل كباري المدينة، وبجوارهِ على النهر من جهةِ رصيف ويكتوريا، ومن الجهةِ الأُخرى، رصيفُ أَلبِرت.

- (كنيسة ويستمِنْستِرْ): هي موضع دير قديم بناهُ أَحد ملوك الساكسون على ما يقال في حدود سنة 616 باسم بطرس الحواري، وسماهُ بالاسم

المتقدم لوقوعهِ غربي المدينة الأَصليّة، وقد انهدم فبُنيت هذه الكنيسة مكانهُ، وتمّت على الحالة الّتي هي عليها الآن سنة 1254.

وقد أكثر الأَغنياءُ من التبرعات على هذه الكنيسة، حتى صارت من أَغنى الكنائس، ولكن صادرتها الدولة في أَملاكها كباقي الكنائس والديور، ومنعت عنها أُمناءَ الديانة، ثم رجعت عن ذلك، وأَعادت إليهم أمرها وسلطانهم عليها.

ومحل التعبد فيها مبني على هيئة صليب، وبالجانب الغربي منهُ برجان في غاية البهاءِ والجمال، وداخل هذا المعبد، يعجب الناظرين لما هو عليهِ من جمال التناسب وحسن التناسق، وتكامل الانتظام، وبديع الزخرفة، وبهاءِ الرونق، وفيهِ أُرغن عظيم، عُمل في عام 1884 وبالمعبد أكثر من عشرين شباكاً منقوش زجاجها بالرسوم والتصاوير.

وبها قبور للعائلات الملوكيّة، ولكثير من أَعاظم القوم وأَمرائهم، وتماثيل كثيرة ولذلك تنظر الإنجليز لهذه الكنيسة بعين التجلة والاحترام، ويعتبرونها محرابهم الأَهلي المقدّس، بحيث لو دُفن أَحدهم فيها عدُّوا ذلك أكبر شرف وأعظم فخار، فمن ذلك قبور الوزير وِليام بِتْ واللورد تْشَتَم، وتمثال الوزير بِتْ المذكور في حال خطاباتهِ، وتحت قدميهِ التبصر والشجاعة، وبينهما إنجلتره، وعلى يمينهِ ويسارهِ البر والبحر، وتمثال اللورد بيكونسفيلد، ثم بالمرستون متحلياً بنشان الساق، وتمثال الجنرال جون مَالْكُمْ، وهو الذي ثبّتَ دعائم السلطة الإنجليزيّة في الهند، ووسّعَ نطاق أَملاكها هناك، وتمثال اللورد مانسْفِيلد أَحد مشاهير قضاتهم، وعلى يمينهِ العدالة، وعلى يسارهِ الحكمة، وتمثال الأميرال جُونْ بالْشِنْ، وكان قد غرق في بحر المانش مع أَلف رجل في عام 1744، وتمثال الطبيب شِمْبرْلين نائماً في تابوت، وعلى يمينهِ الصحة، وعلى يسارهِ صناعة الطب، وقبر إسحق

نُيوتن ذلك الرياضي الطبيعي الفلكي المشهور، المتوفى سنة 1726، وقبر داروين الطبيعي صاحب المذهب المشهور، المتوفى سنة 1882، وقبر الفلكي العظيم جون هِرْشِلْ المتوفى سنة 1871، وتمثال سپنسيرپرسيڤِلْ رئيس إدارة الماليّة الذي مات مقتولاً في البرلمان سنة 1812، وذلك على هيئة رجل نائم تحفهُ القوة والصِدق والاعتدال مع نقوش تصور الخيانة الَّتِي أَوردتهُ موارد الهلاك، وقبر جُون هَنترْ الجراح الغني بشهرتهِ عن البيان، وتمثال لَيِلْ الجيولوجي المشهور، وتمثال شارل جاكيزفُوكْسْ الوزير الكبير، الذي توفي سنة 1806، يُصَوِّرُهُ وهو يقضي نحبهُ بين ذراعي الحرية، وعلى ركتبيهِ ورجليهِ السّلم، وتحت قدميهِ رجل من الأَرقاءِ قد أُطلق من قيود الاستعباد.

وبجانب هذا التمثال قبر هنري جْرَاتّان المتوفى سنة 1820، وهو من مصاقع الخطباءِ في إيرلانده وكبار رجال الدولة بها، وتمثال اللورد هولاند من رجال الدولة المشهورين، وتمثال جمس كُورْنْوِيلْ على هرم من الرخام الأَبيض أَمامهُ كهف منهُ، عليهِ نقوش تصور واقعة طولون الحربيّة الّتي توفي فيها، وعلى اليمين صورة الفخار، وعلى اليسار صورة إنجلتره، وتمثال الماجور جون أَندرِي الذي قُتل في أمريكا بصفة جاسوس، وإلى جانبهِ صورة إنجلتره لابسة عليهِ شعار الحداد، وقبر ليڤنجستُونْ رحالة أفريقيّة الشهير الذي توفي سنة 1873، وقبر سْتيفنْسُون المهندس الطائر الصيت، وبجانبهِ قبور كثير من المهندسين المعماريّة الّذين شادوا الأَبنيةَ العظيمة، وعملوا الأَعمال الفخيمة، وتمثال شِيكْسْبِيرْ الشاعر الفيلسوف، إلى غير ذلك من قبور وتماثيل كثير من الأَعاظم والأكابر والشعراءِ والعلماءِ والقسس وأبناءِ وبنات وزوجات الملوك، وغيرهم، مما يطول شرحهُ، ويستعصى على اللسان بيانهُ.

وبهذه الكنيسة، سوى المعبد المتقدم، كثير من المصليات والبيع، أهمها بيعة هنري السابع بُنيت سنة 1502، وعلى أبوابها أزهار الورد، تذكاراً لاقتران هنري السابع هذا رأس عائلة تيودور بإليصابات بنت أدوارد الرابع وزعيمة بيت يورك. وقد كان في الاقتران اجتماع شمل البيتين وانتهاءُ الحرب الشهيرة «بحرب الوردتين». وفي هذه البيعة كراسيُّ من البلوط ذات صنع دقيق عجيب، بها تصاوير ورسوم لطيفة، كل كرسي منها مختص برجل من حاملي نشان باث «الحَمام» حين يجتمعون في هذا المكان باحتفال عظيم، وقبة هذه البيعة لطيفة جداً، من حيث جمال عقودها، وبهاءُ نقوشها ورسومها، وبها قبور بعض مشاهير الملوك، وتماثيل كثير من بنيهم وبناتهم، وزخرفتها الفائقة تُعدّ من أعجب العجائب.

وقصارى القول إن بهذه الكنيسة، كما أشرنا إليهِ آنفاً، بيعاً ومصليات كثيرة، وكلها يوجد بها آثار لعظماءِ الرجال، وقبور لبعض الكبراءِ، مما يضيق عن استيفائهِ حجم هذا الكتاب، وبغربيها عمود يُعرف بعمود ويستمنستر، طولهُ 19 متراً، أُقيم في سنة 1859 تذكاراً لتلامذة مدرسة ويستمنستر الّذين ماتوا في حرب القرم، وفي الهند، وبأسفلهِ أربعة أُسود، وفوق ذلك صورة مؤسس هذه الكنيسة، وصورة الملكة إليصابات، مؤسسة المدرسة المذكورة، وبأعلاهُ صورة الملكة ويكتوريا.

أما المدرسة المذكورة فقد أنشئت في عام 1560، وفيها أربعون تلميذاً داخليّة، ويسمّون تلامذة الملكة، و110 تلامذة خارجيّة، وقد نبغ بها كثيرٌ من العلماء. وبشمال الكنيسة من جهة الغرب محل عظيم كان معدّاً في سالف الزمان لحبس المجرمين والاشقياءِ، بني في سنة 1719، وهو الآن مستشفى للمرضى بهِ مائتا سرير.

وبالقرب من هذه المدرسة المحل المسمى (رُويالْ إِكْوِيريُومْ)، وهو عبارة عن عمارة من الآجُرّ طولها 183 متراً، فيها حياض كبيرة ملآى بمياه البحر، وأُخرى بمياه النهر، لأجل حفظ الأسماك وتربيتها بحرارة معلومة، توافق حرارة البلاد المجلوبة منها الأسماك، وهناك بساتين شتويّة وصيفيّة، وتياتر، ومحال ملاهٍ، وغرف للمطالعة، ورواق للصور والرسوم.

(المدرسة الجامعة): المعروفة باسم «يُونِيفِرْسيتي كوليج»، وهي من المدارس العالية، كان إنشاؤها عام 1828، ويتعلم بها التلامذة من جميع المذاهب والأديان، وفي سنة 1881 ضُم إليه ملحقات، ولها قبة جميلة، ويُدخل إليها من باب معمول على الطراز الكورنتي، بجانبهِ عشرة أعمدة، وهو في وسط وجهتها البالغ طولها 131 متراً، وفيها معمل كيماوي، وغرف متسعة للتدريس العام، وتُعلَّم فيها العلوم الرياضيّة والتاريخ الطبيعي، واللغات القديمة والحديثة، والآداب والتاريخ والحقوق والطب، وفيها مكتب صغير للأحداث الّذين لا يتجاوز سنهم 16 سنة، وبها ثلاثون أستاذاً، وألف وستمائة تلميذ، ولها مستشفى أمامها، وهو عبارة عن كلينك القسم الطبي بها، يعالج فيهِ أساتذة هذا القسم في كل سنة نحو 19 ألف، أو 20 ألف مريض.

(بستان رِيجِنْسْ پارك): هو من أَعِظم بساتين لوندره، ومسطحهُ يبلغ 189 هكتاراً، وفيهِ بيوت كثيرة لآحاد الناس، ولثلاثة من الشركات، فيهِ حدائق ناضرة وهي شركة علم الحيوانات وشركة النباتات وشركة الرُّماة.

فأما حديقة الحيوانات، فهي بجهة الشماليّة الشرقيّة، وفيها حيوانات كثيرة منها ما يختفي بالنهار في أَوْجِرَتِهِ ومضاجعهِ، وفي الماءِ أو في داخل الآجام،

ولا يخرج إلاَّ وقت الأكل؛ فلذلك كان أَحسنُ وقت للتفرج عليها، هو وقت إعطائها الغذاء، وهي أنواع مختلفة، كالبشروش وثعالب الماءِ والطيور المجلوبة من أوستراليا والهند وأمريكا الجنوبيَّة، ويوجد منها مائتا نوع، وفيها قصر للقَرَدَةِ، وبجانبهِ محل للخُفاش، وتجاههِ مكان البجع وأَمثالهِ، والديوك الهنديَّة بأَصنافها، والخنازير، والطيور المائية وأَساد البحر، والأَيايل والضباع، والذُّباب، والدِّباب، والذِّئاب والضبَّاب والجمال، والبوم والبط وأَصناف الحداءِ وقط الزبد، وغير ذلك من الحيوانات المجهولة والمعروفة، مما يفوق الوصف.

وأَما حديقة النباتات فبالجهة الجنوبيَّة، وهي روضة أَنيقة يوجد فيها جميع النباتات، وتُعرض فيها الأَزهار بأَصنافها في شهري مايو ويونيو ثلاث مرات، يجتمع فيها الأعيان وأهل التجمُّل من ساكني المدينة، وإلى جانب هذه الحديقة حديقة شركة الرُّماه وهي الثالثة.

(قصر سِنْت جِمسْ): مبني بالآجرّ، بناهُ هنري الثامن سنة 1532، وزاد فيهِ شارل الأول زيادة عظيمة جدّاً حين أحرقت النيران سنة 1697 سراي وَيْتهُولْ، وصار من حينئذٍ مقرّاً ملوكيّاً، ولا زال كذلك حتى تولى الملك جورج الرّابع، فحدثت بهِ حريقة أتلفت كامل جناحهِ الشرقي، وذلك في عام 1809، ولم يبقَ من آثار القصر القديم سوى الباب المطل على شارع سان جِمس، والبِيعة الملكيّة، وغرفة الاستقبال القديمة. وداخل هذا القصر في غاية الزخرفة ونهاية الزينة، وفيهِ تصاوير بديعة، وما زال القوم يسمونهُ بما يدل على أَنهُ مقر الملك، وإن كانت الملكة تركت السكنى بهِ.

وفيهِ كنيسة يسمونها البيعة الملوكيّة تحضرها الملكة وكبار الأعيان أحياناً للصلاة في أيام الآحاد. وكانت الملكة ويكتوريا تقابل الرجال والنساء في هذا القصر إلى وفاة البرنس زوجها، فصارت بعد ذلك تقابل الرجال فيهِ فقط، وتقابل النساء في سراي بوكنهام، وهذان الاستقبالان لهما شأن كبير عندهم، ولهذا تُنبئ بهما الصحف قبل مواعيدهما بوقت، فتحضر النساء متجملات بأفخر الملابس، متزينات بأبهى الحلل، وتأتي الرجال لابسين كساوي التشريف الرسميّة، موشاة بالقصب والذهب، والخدم متزيين بأزيائهم الخاصة بهم وعليهم شرائط وظائفهم، وعلى رؤوسهم قلنسوات مخصوصة، وفي أرجلهم جوارب من الحرير، وشعورهم محملة بالپودرة الكثيرة، وفي أيديهم باقات كبيرة من الرياحين والأزهار، ويلبس سائقو العربات ملابسهم المعروفة، وترى العربات الباهرة تجرها الجياد الفاخرة، وتلتفّ الأقدام بالأقدام وتحار العقول من هذا الازدحام، وتصدح موسيقا[1] الحرس الفرسان تحت شبابيك الملكة، بالنغمات الحسان، ثم تأتي الجرائد في ثاني يوم على ذكر أسماءِ الغادات اللاّتي تشرفن بمقابلة الملكة، فإذا تشرفت بملاقاتها إحدى الفتيات، كان لها بذلك الشرف الباذخ، ودخلت بسببهِ في عِداد السيدات المعتبرات.

(حديقة سنت جمس): نَظَّمها على ما هي عليهِ الآن الملك جورج الرابع، وفيها الخمائل الملتفة، والأزهار الكثيرة المستلطفة، وبركة بديعة بها المياه، لصفائها كأنها مرآة من البلور، تشقها الطيور، فتزيدها بهاءً بألوانها الّتي تروق النواظر، وتسر الخواطر، والخلاصة أن هذه الحديقة

---

(1) في الأصل: موسيقى «المحرر».

الأنيقة من أبهى رياض لوندرة الزاهرة، وفيها قنطرة عظيمة الصنعة توصل بين شارع سنت جمس والميدان المسمى «كِوِينْ سْكُوِيرْ».

(قصر بوكنهام): فيهِ مُقام الملكة، وهو مشيد على الجنب الغربي من حديقة سنت جمس، وقائم على موضع سراي بوكنهام الّتي بناها في سنة 1703 جون شَفِيلْدْ دوك بوكنهام، ثم اشتراها الملك جورج الثالث، وسكن بها سنة 1761، فلما جاءَ خليفتُهُ جورج الرابع غيَّر معالم البنيان إلى ما هو عليهِ الآن، وبقي القصر مع ذلك خالياً إلى سنة 1837 فاختارتهُ الملكة ويكتوريا لإقامتها بهِ، وطول وِجهتهِ الشرقيّة المتجهة إلى جنوب سنت جمس 110 أَمتار، وبهذا القصر دهليز يحتوي على عدة أَعمدة من الرخام، وينتهي إلى رحبة بها قاعات الاستقبال، فيدخل الإِنسان قاعة التماثيل المزينة بصور وتماثيل العائلة الملوكيّة ورجال الدولة، وبعد ذلك قاعة الكتبخانة، وهي مطلة على الحديقة، وعلى شمال الدهليز سُلّم من الرخام العجيب الصناعة سقفهُ منقوش بنقوش من صنع الرسام الشهير تَاوْنْسِنْدْ تُمثّل الصبح والنهار والمساءَ الليل.

وبالطبقة العليا من القصر في وسط الجانب الشرقي منها القاعة الخضراءُ الّتي طولها 15 متراً، وارتفاعها عشرة أَمتار، ثم قاعة العرش الملوكي، وطولها عشرون متراً، مغطاة جدرانها بالحرائر، مزركشة بالنقوش الذهبيّة، وبجهة السقف منها إِفريز من الرخام بهِ صور تُمثّل حرب الوردتين من صنع بِيلي، ثم القاعة الكبيرة الّتي هي قاعة الرقص في الجهة الجنوبيّة منهُ، وطولها 34 متراً، وعرضها 18 متراً، ثم قاعة الرسومات، وطولها 55 متراً، وتحتوي على مجموعة أَلواح رسومات وتصاوير قليلة العدد، لكنها عظيمة الأَهميّة،

ويمكن التفرج على هذه المجموعة، في غيبة الملكة عن القصر بإذن من اللورد الموكل بالسراي.

وخلف هذا القصر، بستان يحتوي على كشك مزيّن بالنقوش والتصاوير البديعة، الّتي عَمِلها كبار الحذاق من الصناع، وإلى جنوب القصر الإصطبلات الملوكيّة والعربه خانات، وفيها نحو 40 عربة لخدمة الملكة، وفيها عربة للاحتفال مصنوعة صنعاً عجيباً، ومنقوشة نقشاً بالغاً نهاية الحسن وغاية الجمال، وقد صُرف في أعمالها 7660 جنيهاً.

(جِرِينْ پَارْك): حديقة بهجة يحدها قصر بوكنهام، وحديقة من جهة الجنوب وشارع پيكادلّي من جهة الشمال، ويبلغ مسطحها 48 هيكتاراً.

(هَيْد پارك): بستان عظيم في غاية الاتساع على مقربة من الحديقة المتقدمة، مساحتهُ 158 هيكتاراً، غُرست أشجارهُ أيام هنري الثامن، وكان قبل ذلك يُصطاد فيهِ الأيل والتيس البري ثم صار ميداناً للسباق، وأقبل عَلَيهِ القوم للرياضة وارتياح الخاطر، ثم تقلبت عليهِ الأيام حتى صار بلقعاً يتبارز فيهِ المتخاصمون، وأشهر مبارزة حصلت فيهِ مبارزة اللورد مُوهَنْ مع الدوك هَامِلْتُون، وقد سقط الاثنان قتيلين في هذه المبارزة، وكان ذلك عام 1712، ثم حفرت فيهِ بحيرة كبيرة متسعة، اتصلت بعد ذلك بنهر التيمس.

وهذا البستان الآن مَحاط بدرابزين من الحديد يُغلق عند المنتصف الليل، وصار من أعظم متنزهات لندن، ولهُ أبواب كثيرة لدخول المشاة، وتسعة أبواب أصليّة لمرور العربات، وبجانب أحدها قوس فَخَار، عبارة عن عقد عجيب لباب غريب، يحتوي على نقوش ورسوم في غاية الجمال، وأرض هذا البستان كأنها مفروشة ببساط من سندس أخضر، وفي كثير من جهاتها

تجد الأشجار ملتفة ببعضها على كيفيّة بديعة، والجهة القريبة من البحيرة يجتمع للتنزهِ فيها أهل الثروة والجمال، فتسير في طريق منها العربات والمشاة، وفي أُخرى الفرسان، فإذا كان الوقت صحواً والجو معتدلاً رأيتَ هنالك منظراً شائقاً، ورأيتَ في الجنوب، عربات متواصلة وكلها فاخرة تجرها أحاسن الخيول وسائقوها متزينون بملابس لطيفة، وفيها السيدات متشحات بأفخر الديباج، متحلّيات بألطف الزينة، ورأيتَ في الشمال الرجال والنساءَ ممتطين صَهْوَة الجياد الأصائِل، متجملين بأَحسن الثياب، وجدير هذا المكان أن يُدعى بستان التباهي والإِعجاب.

ومنظر هذا البستان في أيام الصيف لا يخْلو مما يوجب ابتهاج النفس وانشراحها، وذلك أنهُ قبل الساعة الثامنة من الصباح، وبعد الساعة الثامنة من المساءِ، يُرفع عَلَم في أحد المواضع، فيتهافت الصبيان على البحيرة الّتي تقدم ذكرها، ويخلعون ثيابهم، ثم يسبحون مدة من الزمان، حتى إذا أُنزل العَلم تسارعوا إلى الخروج من الماءِ، وبعد ذلك بربع ساعة لا ترى لهم أثراً في هذا المكان.

وفي الشتاءِ تجمد المياه في البحيرة المذكورة، فيأْتي جماعة من الناس، ويلعبون لُعْبة معروفة عندهم، وهي أنهم يلبسون قباقيب مخصوصة، ويتزلقون لها على وجه الجمد، ويكون المتفرجون كثيرين جدّاً، وحينئذٍ ترى اللاعبين ينهمكون في لُعبتهم من غير أن يلابسهم شيءٌ من الخوف، وذلك لأنَّ هناك جمعيّة اسمها الجمعية الإنسانيّة، ولها محل بجانب البحيرة وخَدَمةٌ مخصوصون، وآلات مستعدة لتخليص من يغرق من اللاعبين.

وكثيراً ما تُعرض الجنود في فسيح هذا البستان، بل كثيراً ما تجمهرت العامة فيهِ وأكثروا اللغط يُحَسِّنون أو يُقَبِّحُون تدبيراً سياسياً ما، وأكبر تظاهر

حصل من هذا القبيل هو الذي وقع في عام 1866، فإن الساخطين اقتلعوا من الداربزين الحديد 400 متر، وجرحوا 250 شرطياً جروحاً بليغة.

وترى حول هذا البستان دور الأكابر والأعيان، ولاخفاء أن هؤلاءِ القوم قد رُزقوا من الثروة ما لا يحيط بهِ إلاَّ علاَّم الغيوب، وقد اعتاد أكثرهم على أن يقضوا معظم السنة في مزارعهم المتسعة الَّتي يمتلكلونها في أنحاءِ بريطانيا العظمى، ولكن العائلات الكبيرة تتخذ لها في لندن قصوراً شامخة، تسكنها مدة فصل معلوم، وكثير من هذه القصور جدير بالزيارة لما حوتهُ من الزخرف الفائق، وما اشتملت عليهِ من أعمال الصناعة الغريبة والنقش والتصوير اللطيف.

(ألبِرْت مِمُورِيَالْ): هو أثر عظيم، شيدهُ الإنجليز تذكاراً للبرنس ألبرت زوج الملكة ويكتوريا المتوفى سنة 1861، ويلغ ما صرف عليهِ ثلاثة ملايين من الفرنكات تحصل نصفها باكتتاب من الأهالي طوعاً واختياراً.

وهو بناءٌ ارتفاعهُ 53 متراً، بهِ قاعدة لها درجات من جميع الجهات، مرسوم عليها 169 صورة من المرمر، تُمثّل مشاهير الصناع في كل زمان، فالموسيقيون في الجنوب، والرسَّامون في الشرق، والمعماريون في الشمال، وصانعو التماثيل في الغرب، وفي الأركان الأربعة صورة الزراعة والصناعة والتجارة والعمارة، وفوق هذه القاعدة تمثال البرنس جالساً متحلياً بالملابس الخاصة بنشان الساق، وارتفاع هذا التمثال، الذي هو من البرونز المموه بالذهب، يبلغ أربعة أمتار ونصفاً، وفوقهُ قبة قائمة على أعمدة من الصوان، وكل هذا الأثر مملوءُ بالتماثيل، من المرمر، والبرونز، والأحجار الملونة والفسيفاءِ البديعة المصنوعة على صفحات

الزجاج، وارتفاع هذا البناءِ جميعهُ يبلغ 53 متراً، وفي أسفلهِ تماثيل رمزيّة في الأركان الأربعة تصوّر أوروبا وآسيا وأفريقية وأمريكا.

(المتحف الهندي): يحتوي هذا المتحف على كثير من النفائس الهنديّة، وفي داخلهِ رحبة متسعة بها صور كثير من العمائر الهنديّة مجسمة، منها وجهة دار، ووجهة حانوت، ووجهة مسكن من مساكن أحمد آباد، وبهذا المتحف صور من آلات الزراعة وغيرها، وتماثيل كثيرة لمعبودات تلك البلاد ودواليب مِن الزجاج تشتمل على الغنائم المأخوذة من برمانيا، وخصوصاً ملابس التشريف الّتي كان يلبسها الملك «تيبو»، وفي الطبقة العليا المنسوجات الهنديّة والأمتعة، ومصنوعات الأخشاب، وأصناف الأسلحة، والخزف والجواهر والسجاجيد، وغير ذلك من أصناف الديباج والأقمشة الثمينة، والمصنوعات الغريبة، وملابس الرجال والنساءِ، وعُدَدِ الخيول، والأغطية المزركشة والشماسي، وسروج الفِيَلَةِ، ومصنوعات المعادن.

(مقابر لوندره): لا تستحق عناية، كبيرة، لأن الانجليز اعتادوا على دفن أكابرهم ومشاهيرهم في الكنائس المعتبرة، ولكن مقبرةِ كنْسِلْ جرين تستحق الذكر مع ذلك؛ لأن لها منظراً بديعاً، وقد أنشئت في سنة 1832، ومساحتها تبلغ 24 هيكتاراً وتحتوي على سبعين ألف قبر، وغالب الآثار فيها عبارة عن حجارة كبيرة ساذجة، إلاّ الّتي بالجهة العليا منها، ففيها كثير من الآثار المتقنة النقش والتمثيل.

(معمل البيرة): ومما هو جدير بالتنبيه عليهِ ويجمل بالسائح التوجه إليهِ من حيث غرابتهُ معملُ البيرة «بَارْكْلي» و «بيزْ كِنْزْ» وشركائهما، وهو من أكبر المحلات الصناعيّة الّتي بلندن، والذي يجعلهُ مستحقّاً للزيارة والتفرج، إنما

هو حسن تنظيمه، وجمال تربيتهِ مع سعتهِ وجسامتهِ، فإنهُ يشغل مسطحاً من الأرض قدرهُ خمسة هيكتارات، ويشتمل على عدد كثير من العمارات والأبنية، والدور ومخازن الحبوب، والرحبات والشوارع والحارات، والمربخانات، وعند مدخلهِ مكاتب، تكتب فيها الزوار أسماءَهم، ويدخل الإنسان، ومعهُ دليل يُطلعهُ على ما فيهِ من الغرائب والعجائب، وفي كل محل منهُ تشم رائحة البيرة، فتحدث نوعاً من التخدير، خصوصاً في القاعات الّتي يُبرّد فيها هذا الشراب عقيب اصطناعهِ، فينبغي الاحتراس من شم الغاز الذي يتصاعد منهُ في هذه القاعات.

هذا والآلات والدنان والقزانات وغيرها من الأدوات الّتي بهذا المحل في غاية الجسامة ونهاية العظم وزيادة الكثرة.

وأما مقدار ما يُصنع فيهِ من الشراب فشيءٌ يفوق الحد والعد، ويكفي في معرفة كثرتهِ، العلم بأن أصحاب هذا المعمل يدفعون إلى الحكومة من الضرائب مائة وثمانين ألف جنيه سنوياً، ومرتب رئيس العملة ألف جنيه سنوياً، وباصطبلاتهِ 150 حصاناً لنقل البيرة في العربات إلى داخل المدينة.

(مستشفى جَاي): أنشأَهُ رجل اسمهُ جَاي سنة 1721، ومن ثم نسب إليهِ، وكان يتجر في الكتب، فحصل على ثروة عظيمة، وأموال جسيمة، فبنى هذا المحل، وهو يشتمل على سبعمائة سرير وعشرة، وإيرادهُ السنوي أربعون ألف جنيه، ويتيسر بذلك قبول خمسة آلاف مريض يعالجون فيهِ، ومعالجة ثمانين ألفاً من المدينة في منازلهم بواسطة أطبائهِ.

وفي رحبتهِ تمثال مؤسسهِ من البرونز مجسماً، وبكنيستهِ تمثال آخر من المرمر إعلاءً لشأن هذا الرجل الخيّر وتأييداً لمجدهِ.

(متحف مادام توسُّو): عبارة عن بناءٍ عظيم ذي طبقتين، العليا منهما مخصصة بتماثيل مشاهير الرجال والنساءِ من الشمع، مجسَّمة لابسة ملابسها المعتادة، موضوعة بجهات هذه الطبقة يفصلها عن المتفرجين فاصل، وبعضها مجعول على الكراسي المعدة لاستراحة المتفرجين، حتى إنَّ الرائي يخال أنهم أشخاص من المتفرجين جالسين على هذه الكراسي، فإذا انتظر هنيهة ولم يجد منهم حركة الحياة جَسُر على لمسهم، فعرف أنهم تماثيل. وهذه التماثيل تجمع مشاهير الملوك وعائلاتهم وكبار السياسيين والعلماءِ والكُتّاب، تُمثِّل المجتمعات الشهيرة على هيئاتها الّتي كانت عليها.

والطبقة السفلى خُصصت قاعة منها بصور كبار المجرمين والأشقياءِ، مُجَسّمة، وقاعة أُخرى ببعض آثار تاريخيَّة، مثل ملابس نابليون الأول، وعربة أَخذها منهُ البروسيان كان يركبها يوم واقعة «واترلو» اشترتها صاحبة هذا المتحف بمبلغ 2500 جنيه إنجليزي، وقاعةٌ نصبت في وسطها الآلة المسماة جيليوتين الّتي قطعت بها رأس لويس السادس عشر ورأس امرأَتهِ الملكة ماري انطوانيت وقت الثورة الفرنساويَّة، وكان مسيرنا إلى هذا المتحف ليلاً بالسكة الحديديَّة الّتي تحت الأَرض من إحدى محطاتها القريبة من الفندق الذي كنّا بهِ.

- (قصر البلور): المسمى «كرِسْتَال پَالِسْ»، هو على مقربة من مدينة لندن، يُذهب إليهِ بالسكة الحديد، يقوم برسمهِ قطار كل نصف ساعة، وهذا القصر مصنوع جميعهُ من البلور والحديد، قام بأَمرهِ مهندس المعرض العام الذي انعقد بلندن سنة 1851، فجمع أكثرهُ من مواد ذلك المعرض حتى أَتمهُ في سنة 1854.

وهو عبارة عن شكل مستطيل ذي جَناحين، طولهُ 490 متراً، تكتنفهُ في بعض الجوانب محلاتٌ، وجهة الشمال منهُ قد احترق بعضها في سنة 1866، وجهة الوسط وجهة الجنوب منهُ، جعل في كلٍّ منهما رحبة، وطول رحبة الوسط 117 متراً، وعرضها 36 متراً، وارتفاع سقفها 53 متراً، وطول رحبة الجنوب 95 متراً، وعرضها 22 متراً، وارتفاع سقفها 33 متراً، وبجانب هذا القصر في كل من ذات اليمين وذات اليسار برج ارتفاعهُ 86 متراً، وقد بلغت مصاريف هذا القصر، وبرجيهِ وبستانهِ الواقع على الجهة الشرقيّة منهُ، مع ثمن الأرض، مليوناً ونصف مليون جنيه إنجليزي، عبارة عن سبعة وثلاثين مليوناً ونصف مليون من الفرنكات.

ولهُ مداخل متعدّدة يدخل إليهِ منها، دخلنا من الذي على جهة الجنوب منهُ في طريق مغطاة بالزجاج طولها 220 متراً، وذلك لأَن هذا المدخل تجاه المحطة الّتي جئنا منها، ولأَن كتاب الدليل دلّنا على أن منظر القصر منهُ أَحسنُ المناظر. وقد صدق؛ إذ بدخولنا من الباب إلى رحبة الجنوب امتد نظرنا منها إلى سائر أَنحاءِ القصر، وهو مصنوع من البلور والحديد كما مر، تُغطي بعضهُ نباتات الأَزهار، وفي جانبيهِ بغير الرحبات، محلات عدة في غاية التنظيم والبهاءِ، مخصص بعضها بتمثيل أَحاسن الأَبنية عند الأَقدمين، وبعضها بعرض حاصلات الصنائع الأَهليّة على من يُريد الشراءَ، تحيط بهذه المحلات الصور المجسمة، والتماثيل المنظمة على أَحسن وضع واكمل اتساق، يعلو ذلك جميعهُ قبة القصر البلوريّة الّتي لا تحجب منظر السماءِ، وإن حجبت تأْثيرات الجوّ والهواءِ.

وفي رحبة الجنوب كثير من صور الملوك مُجَسّمة، منقولة من التماثيل الموجودة في سراي البرلمان، وفي وسط هذه الرحبة صورة الملكة المالكة

الآن[1]، ممتطية جواداً، وفيها بعدها الفسقيّة الشهيرة الّتي كانت بمعرض سنة 1851 في جهة هَيْد پارك، ونُقلت منهُ إلى هنا، تزينها النباتات المائيّة فتزيدها بهجةً وجمالاً.

ورحبة الوسط في كل من جهاتها الأَربع محل الأَول: من جهة الغرب محل الموسيقا، وبوسطهِ أُرغن مشتمل على 4568 أُنبوبة يحرك ما ينفث فيها آلة تتحرك بالماءِ، ويَسَعُ هذا المحل أَربعة آلاف شخص، وقبتهُ قطرها 66 متراً، الثاني: تجاه الأَول، وهو قاعة كبيرة بها مدرج «أَنفتياتر» شهيرة بما يلقيهِ فيها كبار الأَفاضل ومعتبرو الخطباءِ من المقالات. الثالث: من جهة الشمال، وهو محل الأُوپرا، تُمَثَّلُ فيهِ الروايات، ويسع أَلفي نسمة. الرابع: من جهة الجنوب محل الأَناشيد والغناء، وهو قدر المحل الذي قبلهُ، تطرب الحضور فيهِ مشاهير المغنين، وتسمع فيهِ أَحاسن القطع الموسيقيّة، في أَيام معلومة من كل أسبوع، وكلٌّ من هذه المحال الثلاثة تعلوهُ قبة كالأَوّل، والجميع تحت قبة القصر الّتي ذكرناها المرتفعة نحو عنان السماءِ.

وبين رحبة الوسط وجهة الشمال المحترق، بعضها محلات أَبنية الأَقدمين من الجانبين، كما أن واقعة محلات عرض المصنوعات الأَهليّة، واقعةٌ بين رحبة الوسط المذكورة ورحبة الجنوب من الجانبين.

وكل بناءٍ من الأَبنية المذكورة عمارة قائمة بذاتها بوجهة مخصوصة بها، فوقها سقف يناسبها.

---

(1) ڤيكتوريا «المحرر» راجع هامش ص 486.

فالعمارة المصريّة تشتمل على أشياء كثيرة من تقليد آثار المصريين القدماءِ، من ذلك تقليد عُمُد الكرنك، وتقليد قسم من معبد بُنِيَ زمن البطالسة قبل الميلاد بثلثمائة سنة، وتقليد قبر عُثر عليهِ بجهة أبي سنبل من بلاد النوبة، وعلى الجدران رسومات منقولة من معبد رمسيس الثالث بجهة طيبه، ويمقابلها تمثيل محاصرةِ حِصن، ومحاربةٍ حاصلةٍ أمام ذلك الحصن في قديم الأزمان.

ويلي العمارة السابقة عمارة يونانيّة، ثم عمارة رومانيّة اشتملتا على كثير من تقليد آثار هاتين الأمّتين.

ثم عمارة الحمراءِ، وهي تقليد قسم من قصر الحمراءِ مقر الملوك بغُرْنَاطة من بلاد الأَندلس، وهذا القسم عبارة عن رحبة القصر، وقاعات ملوكيّة بدائرها، وهذه الرحبة كانت تُعرَف عندهم برحبة السباع، لأَن بها سباعاً على فسقيّة نقل تقليدها مع سباعها في هذه العمارة، ومن قاعاتها قاعة تسمى قاعة الحكم، وقاعة تسمى قاعة ابن سراج.

وتجاه هذه العمارات من الجانب الآخر، عمارة من تقليد عمارات رومة القديمة، ثم يليها عمارة من عمارات القرون الوسطى، ثم عمارة من عمارات الأَزمان التالية لها، ثم عمارة من العمارات الإِيطاليّة، وبها تقليد كنيسة القديس بطرس الشهيرة مجسمة.

ثم إذا انتهى المار من هذه العمارات وصل إلى جهة الشمال، وهي وإن احترق بعضها كما سبق، لكن بها رحبة فسيحة فيها فسقيّة عظيمة، تزدان بالنباتات المائيّة المجلوبة إليها من البلاد القاصية.

وإذا مرَّ المتفرج من الرحبة الوسطيّة إلى جهة الجنوب رأى بالمحال من الجانبين بدائع المصنوعات الأهليّة من مصوغات، وصيني وبلور وزجاج، وكتب وورق وأدوات كتابة، وموسيقا، ونسيج، إلى غير ذلك من المصنوعات المختلفة الأصناف معرضة كما سبق للبيع.

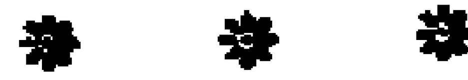
ثم فوق بعض محال القصر أماكن خصصت بالرسومات والتصاوير. وبهذا القصر غير ما ذكرناهُ من محلات الملاعب والملاهي، ما لا يحصى، وفيهِ محال متعددة للمأكولات بحسب حال الآكلين في الثروة والميسرة بين مرتفعة الأثمان وغيرها. وقد أكلنا من أحسن المآكل في أحسن المحلات، ولم يخص الواحد منا على تعدد أصناف ما أكل، إلّا نحو ست شلنات، أعني ثلاثين غرشاً صاغاً.

ثم بعد الأكل، أخذنا نتفرج من خَرْجَةٍ في القصر مطلة على بستانهِ المحاذي لوجهتهِ الشرقيّة، على النيران الصناعيّة المتخذة من البارود الّتي هي من ضمن ما يتفرج عليهِ في هذا المساءِ. وهذا البستان مجعول على الطراز الإنجليزي والطلياني، بمعنى أنهُ كثير المتسعات المكسوة بالنبات الأخضر، ومساحتهُ تبلغ أكثر من ثمانين هيكتاراً.

وإنهُ ليحار الطرف في أحاسن هذا البستان، ويعجز اللسان والقلم عن وصف ما فيهِ من الأشياءِ الحسان، وإنَّ من أبهج ما فيهِ، سوى المتسعات المزينة بالاخضرار، والمظلات المكللة بالأزهار، والأشجار وخضرتها، والنباتات ونضرتها، أشكال الماءِ، وتنوع هيئاتهِ عند إطلاقهِ بالحياض في ارتفاعهِ وانخفاضهِ؛ فإن ارتفاعهُ يبلغ خمسة وسبعين متراً إذا أُطلق من الحياض المنحطة، وخمسة وأربعين إذا أُطلق من الحياض المرتفعة، ويبلغ

مقدار ما ينطلق منهُ في الدقيقة الواحدة 555 متراً مكعباً. وفي البستان كثير من التماثيل، وعدد غير قليل من الأقفاص المشتملة على القردة والطيور بأصنافها.

ومنظر هذا البستان من الخَرْجَةِ التي تفرجنا منها على النيران الصناعيّة المتقدمة هو من أحسن المناظر، لا يعلوهُ غير منظرهِ من أحد البرجين المقامين على يمين القصر ويسارهِ؛ فإن الناظر إذا علاهما يُمتّع نظرهُ بما حوالي البستان من الغياض إلى غاية البصر ومنتهاهُ، فضلاً عن تمتعهِ بمناظر البستان.



(السفر من لندن)

قد عرفتَ من الفصول المتقدمة مقدار هذه المدينة العظيمة بحسب الإمكان، وقد أقمنا فيها ثلاثة أيام كاملات غير يوم الوصول ويوم السفر، وها نحن على أهبة السفر منها اليوم قاصدين صوب المأموريَّة، ولكنا أردنا التعريج على هولانده لمشارفة بعض بلادها، والتفرج على مدينة لَيْدِن، وكتبخانتها المشهورة بالآثار والكتب المشرقيَّة، وعزمنا على التوجه إليها من أبعد الطرق البحريَّة لنجتاز بحر المانش من جهة متسعة غير التي أتعبتنا كما علمت عند مجيئنا؛ لأن البحر كلما كان متسعاً كان تسلطُ الأهوية فيهِ أقلَّ منهُ في غيرهِ، واخترنا أن نسافر أولاً من لندن بطريق البر إلى هَارْوِتْش، ومنها بالبحر إلى روتردام، ومنها بالبر إلى لاَهي، ومن هذه إلى لَيْدِنْ؛ لنبيت بها ليلة بعد الإقامة فيها يوماً، ثم نسير منها برًا إلى أمِسْتِرْدَامْ.

فقمنا من لندن يوم السبت 24 أُغَسطس سنة 1889، والساعة 8 بعد الظهر بالسكة الحديديَّة من محطة «ليڤربول ستريت»، وسرنا حتى وصلنا هَارْوِتْش، وهي اسكلة[1] البحر المراد السفر منها بعد قيامنا بساعة وثلاثة أرباع ساعة.

والمحطة على مقربة من محل مرسى السفينة في هذه المدينة البالغ عدد سكانها 7500 نفس، فركبنا السفينة، إذ كانت مستعدةً في الحا، وإذا بها من السفن الكبيرة المعتاد سفرها في البحار العظيمة، لا كالَّتي جئنا فيها إلى لندن، وأذهبتْ منا كل صبر كما مرَّ.

---

(1) الإسكالة جمع أساكل: الميناء في بحر الروم «إيطالية» المحرر.

فسرنا على بركة الله والساعة عشرة وثلث، وكان الجو هادئاً من الأَهوية، والسماءُ صحواً، ففاجأَنا الجوع، فأَكلنا وشربنا وتمتعنا بلطف النسيم، وأَمضينا وَهْناً من الليل في مطالعة صحف الأَخبار، ومجاذبة أَطراف الحديث، حتى جاءَ وقت النوم فنمنا بغاية الراحة إلى أن أَصبح الصباح.

* * *

(الوصول إلى روتردام)

ورسا الوبوار بنا في ميناءِ هذه البلدة الّتي هي من أَعمال هُولانْدَه، والساعة ثمانية وثلث من صباح يوم الأَحد 25 أُغسطس سنة 1889، فكانت المسافة من هاورِتْش إليها عشر ساعات.

وقبل ذكر التفرج فيها أَذكر لك بعض إيضاحات على مملكة هُولانْده، فأَقول: إن هذه المملكة تحتوي على 4390857 من السكان، وعاصمتها مدينة أَمِسْتِرْدَامْ، ولكن مَلِكتها تسكن مدينة لاهي، فتأْوي إليها الحكومة والمجالس النيابيّة بالتبعيّة لها.

وهي تنقسم إلى أحد عشر إقليماً، ويتبعها كثير من المستعمرات، منها الجاوه وصوماترا وبورنيو وكوراسو وغيرها، بحيث تبلغ سكان مستعمراتها 28000000 من السكان.

وقد عُدَّت بواخرها التجاريّة فبلغت سنة 1883 ستّاً وتسعين باخرة، حمولتها 288008 طونولاطات، وسبعمائة سفينة، وواحدة شراعيّة حمولتها 587473 طونولاطة، وقُدِّرت قيمة الواردات إليها في سنة 1882 بمبلغ 992108000 فلورينو[1]، وقُدّرت قيمة الصادرات منها في السنة المذكورة بمبلغ 752061000 فلورينو.

وجيشها مؤلف من 65014 رجلاً، غير الحرس الأَهلي والجيش الاحتياطي، أَما جيش مستعمراتها فمؤَلفٌ من 30000 رجل.

(1) الفلورينو يساوي ثمانية غروش و3 بارات بالعملة الصاغ كما تقدّم في غير هذا المحل.

ودونمتها الحربيّة كانت في سنة 1884 مؤلّفة من 23 مدرعة، و93 سفينة بخاريّة غيرها، وعدد ملاحيها 6800 نفس.

ومدن هولانده تشقها الخلجان في جميع جهاتها، كما تَشُقُّ غير المدن من أرضها، وفوقها القناطر والسكك الّتي بشواطئها تحفها الأَشجار غالباً.

وأكثر منازلها غير معتنى بزخرفة منظرهِ من الخارج، ومبني بآجُرّ أَسود مُبَيَّضٍ ما بين أطرافهِ بالجِص، وتتعدد طبقاتهُ في المدن الكبيرة إلى ست طبقات، وإن كانت قليلة الارتفاع.

وجميع نواقيس كنائسها تقرع في كل ربع ساعة، بحيث يتضرر من ذلك من لم يتعوّد عليها في أول الأمر.

ومساكنها في غاية النظافة لأنها تغسل أرضها وسُقُفها وجدرانها وشبابيكها من الداخل والخارج، وتمسح مرة بالأَقل كل أسبوع، وشملت النظافة شوارعها وحاراتها حتى عُدت هذه البلاد أَنظف بلاد العالم أجمع.

وأَرض هولانده منخفضة عن باقي القارة الأُوروبيّة، حتى سُميت بما ترجمتهُ «البلاد المنحطة»، ومن ثم كانت أَعمال الجسور والسدود معتنىً بها عندهم كل الاعتناءِ لدرءِ غوائل البحار، واتقاءِ أَخطار الأَنهار، فيصرفون في إنشائها المصاريف العظيمة، وفي ترميمها والمحافظة عليها كل سنة من خمسة ملايين إلى سبعة ملايين من الفلورينات.

والخلجان كثيرة في هذه البلاد كما مر، فتستعمل أولاً للمواصلات، فإن كل جهة تتصل بجميع الجهات المجاورة لها بواسطتها، وثانياً لصرف المياه المستغنى عنها، فتكون مصارف، وثالثاً لأن تكون حدوداً بين الأَطيان

والعقارات والمساكن، فتُحيط بالملك لتحدهُ عن غيرهِ كما يحاط في بلادٍ غير هذه بسياج من الحطب أو الجدران.

وغالب الخلجان فيها عرضها نحو عشرين متراً، وعمقها نحو مترين، وقد تكون أرض مجرى الخليج، مرتفعة عن سطح الأرض المجاورة لهُ في بعض الأحوال، وأعظم خلجان هذه البلاد خليج الشمال؛ فإن طولهُ أكثر من 80 كيلومتر، وعرضهُ 36 متراً، وعمقهُ من ستة إلى سبعة أمتار.

هذا وقسمٌ كبير جداً من هذه البلاد كان في الأصل مستنقعات وبحيرات، فصار إخراج الماءِ منهُ وتجفيفهُ بواسطة سدٌ متين بينهُ وبين الجهة الّتي يرد الماءُ منها إليهِ، ثم بإخراج الماءِ منهُ بآلات رافعة تصبهُ في البحر، أو في خلجان يصل بواسطتها إليهِ، وأرض هذه المستنقعات والبحيرات خصوصاً القريب منها إلى البحر متى أُخرج منها الماءُ الملح، وأُزيلت منها حشائش البحر واعتني في زراعتها، تكون من أجود الأرض وأخصبها.

وقد عزم القوم اليوم على تجفيف «زُوِيدِرْزِي» وهو خليج كبير جدّاً من البحر الملح داخل في البلاد جهة شمالها من الغرب، فمتى صار صالحاً للزراعة زادت هولانده بسببهِ إقليماً جديداً مساحتهُ 176000 هيكتار، وقد قدّروا مصاريف هذا العمل بمبلغ 120 مليون فلورينو، أعني 252 مليوناً من الفرنكات، فيا للهمم! ويا للرجال!.

ويا ليت أهل بلادنا يهتمون عشر معشار هؤلاءِ القوم في ما يعود عليهم بالمنافع الجمة من اشتغالهم في إصلاح أرضهم مع خصوبتها وعذوبة مياهها، وكثرتها حتى كانوا يحوزون بذلك الخير الكثير، والنفع الغزير، وليس ذلك

عليهم بمستصعب، إذا حصل التعاون عليهِ بشركات كما تصنع أهل هذه البلاد، وهو من التعاون على البر والتقوى الذي أمر بهِ الشرع، واستحسنهُ العقل، وظهرت ثمراتهُ للحسّ والعيان، وقام عليهِ واضح البرهان.

وإذ قد عرفتَ هذه البلاد بوجهٍ ما، وفهمت همم رجالها الساعين في خير أنفسهم المجدّين في توسيع نطاق ثروتهم، وعلمتَ أنهم قد أخذوا من البحر الملح، على الرغم منه، ما سمعت، وهم مُتحفظون عليه من غدرهِ، مُحدّقون العيون إليهِ خوفاً من وخيم أمرهِ، وأدركتَ أن بلادهم أنظف البلاد، وأن أرضهم صارت من أخصب الأرض بسبب هممهم العالية، ودريتَ استيلاءَ أهلها مع هذه الأتعاب في بلادهم، وقلة عددهم على كثير من المستعمرات، مع إصلاحها والقيام بمصالحها البالغ عدد سكان هذه المستعمرات، أكثر من ستة أضعاف الهولانديين، فحينئذ سر معي حتى نتفرّج على روتردام الّتي وصلناها الآن قبل قيام الوابور بنا، إلى حيث نقصد بعدها من البلاد.

مدينة روتردام، هذه يبلغ سكانها 190500 نسمة، وهي ثانية مدن المملكة في المتجر، قائمة على الضفة اليمنى من نهر «موز»، حيث يصب فيهِ نهر «روت» ومن ثم سميت روتردام أي: «سد الروت»، وهي تبعد بنحو خمس ساعات عن بحر الشمال، ويخترقها كثير من الخلجان العميقة المتسعة، بحيث يتيسر بواسطتها لأكبر السفن أن ترسو داخل المدينة بجوار مخازنها وحوانيتها ومنازلها، وقد ترتفع مياه هذه الخلجان بحسب المدّ والأهوية زيادة عن ارتفاعها المعتاد من متر ونصف إلى مترين ونصف.

ويُتوصل من جهة إلى أخرى في المدينة بواسطة العبور على كوبريات مختلفة الأشكال والهيئات، مقامة على هذه الخلجان، تفتح لمرور السفن كلما اقتضى الحال ذلك.

ويدخل ميناءَ روتردام نحو أربعة آلاف سفينة في السنة، وأكثر ما يُجلب إليها البن والسكر والأُرز والدخان والشاي والحبوب.

ويوجد بضواحي المدينة معامل مهمة لعمل السفن، وفابريقات للسكر، ولتقطير المشروبات الروحيّة، وعمل الدخان وتجهيزهِ، ومعامل لصنع الماكينات شهيرة بأوروبا. وأهم محطات السكة الحديديّة فيها محطة البورصة، وهي في وسط المدينة، قائمة على معبر شهير غالبهُ من الحديد اتساع كل من حناياهُ ستة عشر متراً. وبجوار هذه المحطة، البورصة، وهي بناءٌ قديم عظيم عُمل في سنة 1722 بداخلهِ رحبة متسعة، تكتنفها مماشٍ مرتفع سقفها على حنايا تحملها عمد. وبقرب هذه البورصة من جهة الغرب محل البوستة والتلغراف، ثم سوق كبير لبيع السمك، يُدخل إليه من ميدان البورصة الذي هو أكبر ميادين المدينة.

ومن أشهر ميادين هذه المدينة، الميدان المعروف بالسوق الكبير، وغالبهُ فوق قنطرة، وفيهِ تمثال يُمثّل أحد رجالهم الشهيرين، ممسكاً بيدهِ كتاباً، وتعتقد العامة أنهُ يقلّب كل ليلة ورقة منهُ، إذا دقّ جرس المدينة الكبير دقة نصف الليل. وبشمال هذا السوق السوق المسمى «هُوجِسْترات» أي: الطريق المرتفع وهو أكثر جهات المدينة حركة.

وبالمدينة متحف للرسم والتصوير، يحتوي على كثير من النفائس، ومتحف للفُرُش القديمة، والأَواني والأَدوات المصنوعة من البلور والصيني

والأسلحة، وحديقة للحيوانات، فيها من الطيور غريبها، ومن الحيوانات المفترسة عجيبها، وكنيسة قديمة مبنيّة بالآجُرّ سنة 1477.

وأعظم متنزهاتها الحديقة الواقعة في غربيها على شاطىءِ نهر موز، والرصيف الممتد على النهر بعدها المسمي «ده بُومپيسْ»، ومعناهُ رصيف الأشجار الصغيرة، نسبة إلى ما غُرس فيهِ، ويوجد عند هذا الرصيف دائماً مئات من الوابورات للسفر إلى باقي بلاد هولانده، وإلى بلاد پروسيا وفرنسا وإنجلترة والروسية، وسواحل البحر الأَبيض المتوسط، مما يزيد هذا الرصيف بهجة ولطفاً.

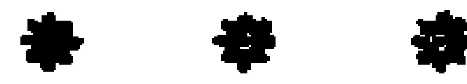
وفي منتهى هذا الرصيف كوبريان يمتدان منهُ على النهر، ويمران على جزيرة في وسطهِ إلى ضفة النهر الأُخرى، أَحدهما ممر السكة الحديديّة، وقد عُمل في سنة 1877، ويرتكز على تسعة عِمد، وثانيهما معد للمارّة والعربات، وقد عُمل في سنة 1878، ولا يرتكز إلاّ على أَربعة عمد مع أن طولهُ 850 متراً. ومما يستحق الذكر بهذه البلد، معامل شركة بحريّة تصنع السفن المطلوبة لها وما يلزمها من الماكينات، فيعمل فيها أكثر من ألف صانع.

فلمّا دخلنا هذه المدينة وتفرجنا فيها أكثر من ساعتين ونصف راكبين عربة، قصدنا المحطة بعد ذلك، وركبنا منها وابور البر قاصدين لَيْدِنْ، فقام بنا والساعة 11 و 32 دقيقة قبل الظهر، وذلك بعد وصولنا إلى روتردام بأكثر من ثلاث ساعات.

وبعد مسير نصف ساعة وصلنا لاهي، ولم يقف الوابور عندها غير ثلاث دقائق، وهي محل إقامة ملكة هذه البلاد وحكومتها ومجالسها النيابيّة، وإن

كانت العاصمة أَمسْتِرْدَام كما مرّ، وعدد سكان لاَهي هذه 1423600 نسمة، وتبعد عن بحر الشمال بنحو أربعة كيلومترات، وهي أقل حركة من مشاهير مدن هولانده في التجارة والصناعة، ولكن ما بها من الطرق المنتظمة والميادين المتسعة، والمتنزهات الفسيحة والمباني العظيمة، جعلها من أحسن مدن أوروبا.

ثم استمرّ بنا السير إلى أن وصلنا مدينة لَيْدِنْ بعد الظهر بأَربعة وعشرين دقيقة من يوم الأَحد 25 أُغسطس سنة 1889، فكانت مسافة السير من لاَهي إليها سبع عشرة دقيقة.



(الوصول إلى لَيدِنْ)

وبمجرد وصولنا ركبنا عربة، وأخذنا ما يلزم الليل من الملابس، أَما باقي الأَمتعة، فتركناهُ بالمحطة، وقصدنا أَحسن فنادق المدينة المعروف لنا من كتاب الدليل، فوصلناهُ، وهو وإن كان لا يماثل الفنادق الّتي رأَيناها قبلهُ في العواصم الكبيرة، لا من حيث الاتساع، ولا من حيث الزخرفة والزينة خارجاً وداخلاً، إلاّ إنهُ لا ينقص عنها في شيءٍ من حيث الخدمة والنظافة، ولا من حيث جَوْدَة المأْكل، كما اتضح لنا من طعام الغداءِ، وإن كان أقل ممّا في تلك من حيث التعدد وكثرةُ الأَلوان.

وأول شيءٍ سأَلنا عنهُ من صاحب الفندق كتبخانة المدينة، فأَخبرنا أَنها مغلقة في أَيام الأَحاد دائماً، ولمّا رأَى منا التكدر من ذلك، وفهم ممّا كتبناهُ في دفترهِ، بمقتضى الأُصول المتبعة في جميع الفنادق، من بيان الأَسماءِ والأَلقاب والوظائف، والبلاد الأصليّة، والجهات المقصودة، أَننا لم نسأَل على تلك الكتبخانة إلاّ للتفرج عليها، قبل توجهنا إلى المؤتمر، وقد قرب وقت انعقادهِ، تفكّر ذلك الرجل الذكي في الحال، أَنهُ لو أخبر المسيو دُه جُويَهْ الأَستاذ الشهير في هذا البلد بمعرفة المشرقيات بحضورنا، وبما نقصدهُ من التفرجِ على الكتبخانة العموميّة، لأَمكنهُ أَن يُسهِّل لنا ذلك، فأَرسل إليهِ في الوقت من أَخبرهُ بالأَمر، فما فرغنا من تعاطي الطعام حتى جاءَ يُبشرنا أَنهُ أخبر هذا الپروفسور بغرضنا، وأَنهُ وعدهُ بأَن يُحضر مفتاح الكتبخانة، ويفتحها لنا، وأَنهُ ينتظرنا ليكون معنا حال التفرج في الساعة الثالثة بعد الظهر.

وكان الوقت قرب من ذلك، فما شربنا القهوة واسترحنا قليلاً حتى أحضر لنا صاحب الفندق من يدلّنا، فسرنا معهُ إلى حيث ينتظرنا الپروفسور، مارّين من شوارع البلدة، وهي مبلطة بالآجُرّ الأحمر، تكتنفها الخلجان من كل الجوانب توصلها إلى بعضها القناطر العديدة، والناس تتكاثر حولنا، ويهرعون إلينا من كل فج بغاية الإسراع، حتى يُحيطوا بنا للتفرج على هيئتنا المشرقيّة غير المعهودة عندهم، فإنهم لبعد بلدهم عن البحر، وكونها غير تجاريّة يندر ورود الأجانب إليها، خصوصاً الشرقيين المتزيين بالزي الشرقي من قفطان وعمامة، وكان ذلك زي اثنين من رفقائنا، ومن طربوش، وكان زي الباقين. والذي يظهر من تكاثرهم علينا وانبهاتهم من هيئاتنا أن القوم كأنهم لم يروا أحداً بالزي الشرقي عندهم قبلنا حتى وقت المؤتمر السادس الذي انعقد بهذا البلد للمستشرقين في سنة 1883.

وإن كانوا ملتزمين حالة الأدب الكامل، والسكون التام، تاركين لنا مكاناً نمشي فيه، ولم يَبْدُ لنا من هيئاتهم ما يدل على عدم الاعتبار، أو الاستهزاءِ، لكن حصل لنا مع ذلك من تكاثرهم علينا وإحداقهم بنا واستمرار شخوص أبصارهم إلينا مضايقة لا مزيد عليها، حتى كنا نسأل الدليل مراراً هل قرب المكان الذي نقصدهُ، إلى أن قابلنا الأستاذ دُه جُويَه، وقد حضر لمقابلتنا من حيث كان ينتظرنا، لأنهُ استبطأنا، فسلم علينا مع البشاشة والترحاب، كأن لهُ بنا معرفة سابقة ومحبة قديمة، وقد توسّم مضايقتنا ممن يحيط بنا، فأخذ يعتذر لنا عنهم، ويحمل ذلك منهم على غرابة الأمر عندهم، وأنهم لم يروا هذا الزي منذ خلقوا إلى الآن، وطلب منهم أن يبتعدوا عنا ما أمكن، مفهماً إياهم تأثرنا منهم، وهم على هذه الحالة، فلبوا طلبهُ في الحال، وابتعدوا وسرنا، ولكن ما لبثنا أن قرب منا غيرهم، وعاد الحال

إلى ما كان، فكلما ابتعد فريق بإشارتهِ تلاهُ فريق آخر إلى أن وصلنا إلى الكتبخانة، ففتحها لنا هذا الأُستاذ، ودخلناها جميعاً، وهي بالمدرسة الجامعة الشهيرة في هذه البلدة.

ومن الحديث المأثور عند أَهل هذه البلد، أن أحد أمرائها المتقدمين مكافأة لأَهليها على مقاومتهم أشد المقاومة هجمات الإِسپانيول عليها في سنة 1574 خيّرهم بين أمرين: بين أن يُعفيهم من الضرائب على الإطلاق مدة سنين معلومة، وبين تأسيسهِ مدرسة جامعة لهم، في نظير صبرهم وإِقدامهم ومدافعتهم العدوّ عن وطنهم، فاختاروا الثاني دون الأول، فأَسس لهم هذه المدرسة.

ومهما كان الأَمر في صحة هذا الحديث، فإنهُ من الثابت أن هذه المدرسة الجامعة شُرع في بنائها سنة 1575، وما تمت وابتُدِئَ في دروسها حتى أَخذت تتوارد إليها الناس من سائر الجهات، وعمّ صيتها، وانتشرت شهرتها في أوروبا جميعاً، وجاءَ إليها أَحسن علماءِ تلك الأَعصر، فدرّسوا فيها، ونبغ فيها جم غفير من العلماءِ المشاهير، وهي باقية إلى الآن على شهرتها العتيقة، خصوصاً قسمي الطب والعلوم الأدبيّة، ففيهما من الأَساتذة ستة وأربعون، ومن الطلبة نحو الثمانمائة، وكثير من الأَساتذة المقررين بها يدرّسون في منازلهم، ولا يدرّس بقاعة التدريس فيها إلاّ القليل منهم، وبجدران هذه القاعة، صور جميع أَساتذة المدرسة منذ أنشئت إلى الآن.

والكتبخانة الّتي بهذه المدرسة أَقدم كتبخانات هولانده، وأجمعها للكتب، وتشتمل على 300000 مجلد مطبوع، و 5600 كتاب بخط اليد، أَغلبها من الكتب النفيسة والآثار العتيقة، منها كثير من الكتب العربيّة

النادرة بالخطوط القديمة والحديثة، وكثير من كتب الجاوه وغيرها من الجهات المشرقية.

وبعد أن مكثنا مدة من الزمان بهذه الكتبخانة، ومعنا البروفسور دُه جُويَهْ، وتفرجنا على ما بها خرجنا منها فدعانا إلى منزلِهِ لشرب السجارة، فتوجهنا معهُ إليهِ، فأجلسنا في كتبخانتهِ، وهي حسنة الترتيب والوضع، وتحادثنا معهُ في أعمالهِ العلميّة وتصحيحاتهِ في الكتب الّتي تطبع عند بريل وغيرهِ، وكنت أتكلم معهُ باللغة الفرنساويّة، وأُترجم منهُ لسيدي الوالد ومن معنا بالعربيّة، ومنهم إليهِ بالفرنساويّة، وهو يُجيد التكلم بها، ولا يتكلم بالعربيّة مع أنهُ يُحسن كتابتها وقراءتها، ولهُ تدقيقات فيها، شأنهُ في ذلك شأن أَغلب المشتغلين باللغات المشرقية، حيث يتعلمونها قراءةً وكتابةً لا تكلماً، وذلك بسبب عدم مخالطتهم لمن يتكلم بالعربيّة حتى أخبرنا أَحدهم في المؤتمر، وهو من المشهورين بالاشتغال بالعلوم العربيّة، أنهُ لم يسمع من يتكلم بها قبلنا، وكان يعتذر لنا الفاضل دُهْ جُويَهْ هذا، في عدم قدرتهِ على التكلم بها بعدم اجتماعهِ على من يتكلم بها من أَهلها.

وقد رأَيت للأستاذ دُه جُويَهْ هذا كتابات كثيرة تدل على تضلعهِ في فهم المعاني العربيّة، أَتذكر منها ما قالهُ وطبع في آخر كتاب «عجائب الهند» بخصوص جزيرة «واق واق» الّتي ذكرت كثيراً في هذا الكتاب، وملخص ذلك أنهُ فَنَّدَ زعم المخرفين القائلين إن اسم تلك الجزيرة، سببهُ شجر بها يثمر ثمراً على شكل طير ينادي بما هذا الاسم صوتهُ، فذكر نَصَّ المؤلف العربي الذي أتى بهذه الخرافة، وأردفهُ بنصوص كثيرة لمؤلفين وُجدوا في أجيال مختلفة مفندة هذا الزعم، ثم أَخذ يستدل من كتبهم على موقع هذه الجزيرة الجغرافي، حتى أثبت أنها جزيرة اليابان، وأيّد ذلك كلهُ بأن ذكر

أن اسم هذه الجزيرة، أعني جزيرة اليابان في لغة من لغات أهلها «واق واق»، فكان ما ذكرهُ قاطعاً للنزاع، وقد أراني مراسلات لهُ من المفارقات مع أحد تلامذتهِ سماهُ لي، وهو الآن مقيم ببطرسبورغ، سلك فيها مسلك المرحوم الشيخ حسن الآلاتي الشهير بكتاباتهِ في المفارقات.

وبعد مجاذبة أطراف الحديث معهُ والائتناس بهِ، خرجنا من منزلهِ وهو معنا، قاصدين مطبعة بريل المشهورة بالمطبوعات العربيّة، وكان قد أرسل إلى رئيسها أن يفتحها، وينتظرنا فيها، فإنها كانت مغلقة بسبب يوم الأحد، فدخلناها، وقابلنا صاحبُها بالبشر والسرور، وتفرجنا على المخازن وآلات الطبع، والكتب العربيّة النفيسة، واشترينا منها الجزءَ الحادي والعشرين من كتاب الأغاني، ولم نكن نعلمهُ قبل، وأهدى إلينا هذا الرئيس كتاب فهرست المطبوعات العربيّة عندهُ، وقد احتوى على كثير من الكتب العربيّة النادرة الوجود ببلادنا، ولم يطبع منها شيءٌ عندنا إلى الآن.

ثم ودّعنا صاحبنا البروفسور وصاحبَ المطبعة بعد أن أخبرانا بعزمهما على حضور المؤتمر، وانصرفنا راكبين عربة للتخلص ممّا شاهدناهُ قبل، وكنا أغلقنا نوافذ المطبعة المطلة على الطريق لاحتجاب العالم عنّا، فسرنا بالعربة نتفرج في شوارع البلدة، حتى وصلنا الفندق، وكان ذلك بعد الغروب فبتنا بهِ إلى صباح اليوم الثاني، فركبنا عربة إلى المحطة، وقمنا من روتردام والساعة سبعة و18 دقيقة صباحاً من يوم الاثنين 26 أغسطس سنة 89 قاصدين أمستردام وكولونيا.

وها أنا أصف لك مدينة لَيْدِنْ:

هي من أقدم مدن هولانده عدد سكانها 45500، وإن كانت تسع أكثر من ذلك، ويخترقها نهر رين العتيق، ويتشعب فيها تشعبات عديدة تكون خلجاناً،

وقد رأت أوقات شدةٍ لا مزيد عليها أعظمها من الإسبانيول من أكتوبر سنة 1773 إلى مارس سنة 1774، كما أنها رأت من أوقات الهناءِ والصفاءِ أيام حظها في الصناعة ما لا مزيد عليهِ.

وأقدم بناءٍ في هذا البلد هو القصر القديم القائم على أكمة في وسطهِ، ويوجد غيرهُ في ضواحي البلد كنيسة قديمة بُنيت في القرن الخامس عشر من الميلاد.

وأعظم شوارعها الشارع المسمى «بْرَيْلِيسْتِرَاتْ» ومعناهُ «الشارع المتسع»، ويخترقها من أولها إلى آخرها، وبهِ ديوان بلديّة المدينة ومتحف الآثار القديمة.

ويشتمل هذا المتحف على إحدى عشرة قاعة مملوءَة بنفائس الآثار القديمة، من يونانيّة ورومانيّة ومعبودات هنديّة وآثار مصريّة من الموميات والتوابيت، والأحجار المكتوبة بالكتابة الهيروجليفيّة ذات اللون البهج، كأنما عُملت الآن مع أنها من قبل المسيح بأزمان كثيرة، ومن الطيور والحيوانات المصبَّرة، والحليّ وأدوات الزينة والصور الصغيرة المصنوعة من الحجر والخشب، ومن أوراق البرْديّ المكتوبة، والأدوات والآلات المصنوعة من البرونز والفخار، فيحق لهذا المتحف أن يباهي أحسن المتاحف الأوروبيّة.

وبهذا البلد متحف للتاريخ الطبيعي، شهير بما حواهُ من الأشياءِ الصينيّة واليابانيّة وغيرها المجلوبة من بلاد العرب، ومن بلاد الهند الشرقيّة.

وبالمدينة حديقة للنباتات جُلبت إليها سائر النباتات من الأقطار البعيدة كبلاد الهند وغيرها، وجُعل في محال مغطاة بالزجاج ما يحتاج منها لحرارة أكثر من حرارة هذا الإقليم الطبيعيّة، فغُرس فيها شجر القرفة والكينا والبن

والقطن والكافور، وكثير من أشجار النخل، وغير ذلك من الأشجار الغريبة عن هذه البلاد، وبجانب حديقة النباتات الرصدخانة الغنيّة بشهرتها عن الذكر. ويوجد بالبلدة غير ذلك دار آثار تُدعى «بالمتحف البلدي» تحتوي على جميع الآثار البلديّة العتيقة.

وفي المدينة الاسبتاليات المنتظمة، وفضلاً عن مدرستها الجامعة الّتي سبق ذكرها توجد بها مدرسة للبحريّة ومدارس غيرها كثيرة.



(الوصول إلى امستردام)

بعد خروجنا من لَيْدِنْ في صبيحة هذا اليوم، كما مرّ، وصلنا أمستردام، والساعة ثمانية ونصف، أي بعد مسير ساعة واحدة واثني عشرة دقيقة فقط، فتركنا أمتعتنا بالمحطة، وركبنا عربة، وأخذنا نجول في شوارعها وأطرافها أكثر من ساعة ونصف، وهي عاصمة بلاد هولانده وإن لم تكن مقر حكومتها، كما سبق، قائمة على فرضة صغيرة من خليج «زويدرزي» اسمها «إي» عند مصب نهر «أمستل»، وعدد سكانها 378700 نسمة، وتبلغ بضواحيها 400000 نسمة، وتجارتها كانت من أعظم متاجر العالم في القرن السابع عشر والثامن عشر، ولاتزال مهمة جداً، فقد بلغت السفن بمينائها سنة 1882م 1702 حمولتها 900000 طن، وهي من أهم المراكز التجاريّة بأوروبا، بالنسبة للحبوب والغلال والحاصلات الزراعيّة، الّتي تُجلب إليها من مستعمراتها في الهند، خصوصاً الدخان والبن الوارد من جاوه، والسكر والأُرز، والروائح العطريّة والصناعة فيها مهمة أيضاً؛ إذ بها شيءٌ كثير من فابريقات السكر، ومعامل الدخان والسجائر، ومصانع الألماس ونحتهِ، ومحلات صنع الكافور، ومعامل الماكينات والآلات وصنع الشموع وغيرها.

ويخترقها كثير من الخلجان في جميع أنحائها، فتقسمها إلى 90 جزيرة، تتصل ببعضها بواسطة 300 قنطرة وعمق هذه الخلجان المشغول بالماءِ من متر إلى متر وثلث، ومثل ذلك من الطين والوحل تحتهُ وتنصرف مياهها في

بحر الشمال بواسطة خليج يصب في ترعة موصلة إلى هذا البحر تسمى «كنال بحر الشمال»، ثم تتجدد مياهها مراعاة للصحة بعد رفع أَوحالها بواسطة كراكات. ومنازلها مرتفعة لكنها ضيقة غالباً، مبنيّة بالآجُرّ الأَحمر، وهيئتها الخارجيّة ساذجة. وقسم البلدة القديم يمتاز عن الجديد بضيق سككِهِ، وكونها أَقلّ اعتدالاً وانتظاماً من سكك القسم الجديد منها.

وهذه المدينة بأَسرها قائمة عماراتها على أَوتاد غليظة من خشب تختلف في الطول من أربعة أَمتار إلى ستة. وذلك لأن أَرضها الفوقيّة عبارة عن أَوحال ورمال غير ثابتة، فاحتيج إلى هذه الأَوتاد للتوصل إلى الأَرض الثابتة الصُلبة ليعتمد البناءُ عليها، ويكون بذلك متيناً، وإن استلزم ذلك كثرة المصاريف، فإن ما يُصرف على ما تحت الأَرض في العمارات النصفُ من مصاريف العمارة كلها، وهذا فضلاً عما في هذه الأَخشاب من الأَخطار، فإنّ باختلال بعضها في سنة 1822 حصل وقوع مخزن عظيم من مخازن الغلال إلى الماءِ، وتلف جميع ما كان فيهِ، مع أن هذه الأَوتاد عرضة لحيوانات صغيرة جداً تأْكلها من الأَسفل، فتعرض مساكن المدينة إلى أخطار عظيمة، لا تقل عن الأخطار الّتي تتهددها من جهة البحر وهجماتهِ لانخفاضها عنهُ، ولهذا أُقيمت السدود الْمُحْكَمة، وجُعل لها القناطر الضخمة والخُلجان الْمُهِمّة، والْهِمّة مبذولة دائماً في التحفظ عليها، حتى إنَّ ما يصرف للتحفظ على هَذه السدود والقناطر والخلجان، مبلغ أَلف فلورينو كل يوم من الأَيام.

ومينا هذه المدينة هو فرضة «إِي» القائمة هي عليها، وقد تغيرت معالمها من سنة 1872، فبنيت فيها الأَرصفة الجسيمة والسدود الْمُحْكَمة، وصارت من أَعظم المينات التجاريّة الأُوروبيّة، وفي هذه الميناءِ أُنشئت جزيرة صناعيّة

أقيمت فيها المحطة المركزيّة للسكك الحديديّة، ويكتنف هذه الجزيرة جزيرتان صناعيتان، وجُعلت الجهات الشماليّة من هذه الجزر الثلاث، رصيفاً متسعاً ترسو إليهِ السفن المخصصة بمواني هولانده ومواني إنجلترة، بخلاف السفن الكبيرة، المعدة لمواني الهند وأمريكا، فإنها ترسو على أرصفة بعيدة عن هذا بقليل، ويقرب هذه الأرصفةِ، الأرصفةُ المهيأة لمرسى سفن الحكومة الحربيّة.

وما يصرفهُ الأهلون والحكومة والشركات التجاريّة في هذه الأعمال النافعة المهمة، وما ينفقونهُ من النفقات توصلاً إلى انتفاع بلدهم هذا، بالاستكشافات المستجدة النافعة، الّتي تظهر في عالم الموجودات العلميّة، جديرٌ أن يزيد في شأن هؤلاءِ القوم، ويخلد لهم في تاريخ الهمة أَحسن الذكر.

وقد لاحظ القوم بُعْدَ المسافة والمخاوفَ في طريق الوصول إلى هذه العاصمة، ومنها بحراً بواسطة خليج زُويدِرْزِي، وأَرادوا قرب الوصول وإزالة المخاوف، فأنشأُوا كنالاً من سنة 1819 إلى سنة 1825، وصَرَفوا عليهِ ثمانية ملايين فلورينو، وجعلوا اتساعهُ من 35 متراً إلى 40 متراً، وعمقهُ أكثر من ستة أمتار، وهو يخترق هولانده الشماليّة كلها متجهاً نحو الشمال، حتى يصب عند مدينة هِلْدِرْ الواقعة على مدخل خليج زويدرزي من بحر الشمال، ومن ثم سُمّي هذا الكنال «نُوردهُولاَنْدِشهْ كنال» أي: كنال الشمال.

ثم رأَوا بعد ذلك أن هذا الكنال غير كافٍ بالنسبة لاحتياجات الملاحة التجاريّة واتساعها يوماً بعد يوم، فعزموا في سنة 1862 على توصيل أمستردام بالبحر من أَقرب طريق، وأَخذوا في سنة 1865 في حفر كنال آخر، فلم يأْتِ أول نوفمبر سنة 1876 إلاّ وقد تمّ، وسموهُ «كنال بحر

الشمال»؛ لأنهُ وصّل أمستردام إلى بحر الشمال، وطول هذا الكنال 25 كيلومتر، وعرضهُ من 60 متراً إلى 100 متر، بحسب اختلاف المواضع (كنال السويس عندنا عرضهُ من 80 متراً إلى 100 متر)، وعمقهُ من 7 أمتار إلى 8، وارتفاع المياه فيهِ أقل من ارتفاع المياه بأمستردام بخمسين سنتيمتر، وقد جُعل في مدخل هذا الكنال ثلاثة أهوسة تمنع صَدَمات الأمواج عنهُ، أَحدها عرضهُ 22 متراً، والآخران عرض كل واحدٍ منهما أحد عشر متراً، وجُعل أمامهُ من جهة البحر أَرصفة من الأحجار ممتدة إلى مسافة 1400 متر لدفع طغيان البحر عنهُ، وبُني في مدخلهِ فناران، وقد بلغت مصاريف هذا الكنال 35 مليوناً من الفلورينو اختصت منها مدينة أمستردام بستة، وتحصل عشرة ملايين من بيع الأرض الّتي على حافتيهِ ومدخلهِ، واختصت الحكومة بباقي المبلغ.

هذا وأَهم ميادين هذه المدينة الميدان المسمى «دَام» وهو في وسطها، متسع جدّاً، وبجوانبهِ البورصة، والكنيسة الجديدة، والسراي الملوكيّة، وتتفرع منهُ السكك المهمة، والشوارع الأكثر حركة، وبهِ أَهم مواقف عربات الترامواي، وبالقرب منهُ محطة بحريّة للوابورات الّتي تذهب إلى المينا.

أَما البورصة فبناءٌ عظيم بُني من عهد غير بعيد، فإِنهُ تمّ في سنة 1845، وأُقيم على 3469 وَتِداً، ويشتمل داخلهُ على رحبة مسقفة بالزجاج، تُحدق بها مماشٍ مرفوعة السُّقُف على عمد عظيمة، وهذه البورصة جديرة بالتفرج عليها، خصوصاً في أوقات الاشتغال بالأعمال التجاريّة فيها، ومن العادة أن يترك هذا المحل للأطفال حديثي السن، يلعبون فيهِ أسبوعاً في كل عام من شهر أُغسطس أو سبتمبر، وسبب ذلك على ما يُحكى أن الأطفال

اكتشفوا في سنة 1622 على مكيدة للإسپانيول، كانوا يريدون بها إحراق البورصة، وانبنى على اكتشافهم المكيدة عدمُ تمكين العدو من إجرائها، فكوفئوا بذلك كل سنة. وأما الكنيسة الجديدة المذكورة فمن أُحاسن مباني هولانده الدينيّة.

وأما السراي الملوكيّة فكانت داراً لبلديّة المدينة، وقد ابتدئَ في بنائها سنة 1648، وتمت سنة 1655، وهي قائمة على 13956 وَتِداً، وطولها 80 متراً، وعرضها 63 متراً، وارتفاعها 33، وارتفاع برجها 51 متراً، وقد أَهدتها المدينة سنة 1807 إلى لويس بوناپارت ملك هولانده، وجعلها مقرّاً لملكهِ، وهي مزينة من الداخل والخارج بأَحسن النقوش، وأبهى الرسومات والصور.

ومن جنوب هذا الميدان يتفرع شارع «كَلْفِرسْتِرَاتْ» ، وهو من أَهم شوارع البلدة، تحفهُ الدكاكين المزخرفة والفنادق العالية، والقهاوي المنتظمة، وحركة المارّة فيهِ لا مزيد عليها، خصوصاً في الليل لامتناع سير العربات ليلاً فيهِ.

ومدرسة هذه المدينة الجامعة تشتمل على خمسين أستاذاً، وستمائة طالب، وهي في غاية الاستعداد خصوصاً بالنسبة للعلوم الطبيعيّة، فإنَّ معامل الكيماءِ والطبيعة وحديقة النباتات، معتنىً بها كل الاعتناءِ فيها، وكتبخانة هذه المدرسة شهيرة في بابها، لما احتوت عليهِ من نفائس الكتب وغرائبها، وفيها نحو مائة أَلف مجلد.

ولأَهل هذا البلد اعتناءٌ لا مزيد عليهِ بفن الرسم والتصوير، فإنهم لم يكتفوا بما في متحف المدينة العمومي، من غرائب الرسومات ونفائس التصاوير الّتي رسمها أشهر أَساتذة الهولانديين وغيرهم، بل حصل بعض

الآحاد منهم على مجموعات عديمة النظير، فأهداها إلى المدينة، مثل «فُودُوز»، فإنهُ أهدى إلى المدينة مجموعة عظيمة، صرف في جمعها مبالغ وافرة، وأهداها فوق ذلك مالاً كثيراً تبني بهِ محلاً لوضعها، وتستغل من باقيهِ إيراداً للصرف عليها، فبنتهُ وسمّتهُ «متحف فُودُوز»، وبعضهم أبقى ما حصل عليهِ من المجموعات في عائلتهِ يتوارثونها بعدهُ جيلاً بعد جيل، مع المحافظة عليها، مثل مجموعة «سِكْس» التي في دارهِ على ذمة ورثتهِ من سنة 1691، إنما لم يكن في هذه الطريقة ما في الطريقة الأُولى من الإبقاءِ، فإن أحد الشركاءِ في مجموعة سِكْس هذه باع نصيبهُ منها سنة 1877، وهو وإن كان استحصل من هذا البيع على مبلغ 3175000 فرنك فإن[1] المجموعة حُرمت هذا الجزءَ الذي باعهُ.

ومتحف المدينة العمومي السالف الذكر قائم على 11000 متر مربع، ومحاط ببستان يحدق بهِ درابزين من الحديد، ويشتمل فضلاً عن الرسومات والتصاوير المجسمة وغير المجسمة، على كثير من الآثار النفيسة التي كانت قبل بنائهِ - من سنة 1877 إلى سنة 1885 - ، متفرقة في متاحف متعددة، وجهات مختلفة، وعلى كثير من الآثار العتيقة المتعلقة بالصنائع في بلاد هولانده من قديم التاريخ إلى حديثهِ، مما يطول في شرحهِ المقال، ولا يتيسر استيفاؤهُ في مثل هذه العجالة على كل حال.

ومما ينبغي أن يُعرَفَ أن بهذه البلد حديقة للنباتات، وحديقة للحيوانات، وكثيراً من المتنزهات[2]، كما أن بها مخزناً بحرياً لإيداع البضائع من قبيل

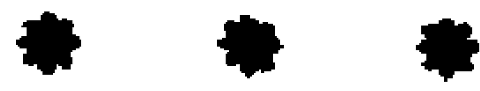
---

(1) في الأصل: «إلا أن» المحرر.

(2) في الأصل: «المتنزهات» المحرر.

محلات «الدُوك» الّتي مر ذكرها بلندن، تصله أكبر السفن البحريّة، ويحتوي على ما لا يحصى من البضائع الهنديّة وغيرها، ثم إن هذه المدينة مشهورة بكثرة الشركات الخيريّة فيها، حتى إن عددها بلغ أكثر من مائة تعمل لاحتياجات المرضى والشيوخ والأيتام والأرامل والمجانين وعديمي البصر، وغير ذلك.

ومن أعظم هذه الشركات المسماة «شركة المنفعة العامة»، ويُقصد بها تعليم طبقة الفقراءِ من الناس، وتحليتهم بحسن الأخلاق والآداب، وهي منتشرة في جميع مدن المملكة، بل وفي غالب مستعمراتها، ويبلغ عدد أعضائها 17400 نفس، يدفع كل واحد منهم من 5 فلورينو إلى 25 في السنة، ومجلس إدارتها بأمستردام، وهو مؤلف من عشرة مديرين، ومن كاتب سر عام، ويجتمع أعضاؤها بهذهِ المدينة، في كل سنة بهيئة جمعيّة عموميّة في ثاني ثلاثاءِ من شهر أُغسطس، وقد أتت هذه الشركة بفوائد جمة، منها تحسين حالة التعليم، بنشر الكتب المدرسيّة اللائقة بالتلامذة والأساتذة، وبتشكيل كتبخانات عموميّة أهليّة، وبإنشاءِ مدارس صناعيّة للفقراءِ، ومدارس للتعليم في أيام الآحاد، وبتنظيم حال أبنية المدارس القديمة، وبتشكيل جمعيات للقراءة والمطالعة، ومنها تشكيل جمعيات للاقتصاد، وصناديق للتوفير، ومنها إعطاءُ مكافآت على أفعال المخاطرة بالنفس، في سبيل إنقاذ الغير من التهلكة، وعلى أعمال الهمة والمروءة[1].



(1) في الأصل: «والمرؤة» المحرر.

(الوصول إلى كولونيا)

قمنا من أمستردام والساعة عشرة وربع صباحاً من يوم الإثنين، الموافق 26 أغسطس سنة 1889، فوصلنا كولونيا والساعة أربعة و40 دقيقة بعد الظهر، بعد أن سرنا نحو ست ساعات ونصف ساعة، ومررنا على أودية نضرة، ورياض خضرة، وبلدان عامرة، وأنحاءٍ زاهرة.

وكولونيا هذه مدينة قديمة جداً، تبلغ سكانها 161200 نسمة، وهي سادسة مدن الامبراطوريّة الألمانيّة اتساعاً، وإن كانت من أعظمها أهميّة حربيّة، قائمة على الضفة اليسرى من نهر «رين»، تشبه نصف دائرة متسعة، ويقابلها على الضفة الثانية من النهر بلدة «دُويتْس»، وتبلغ سكانها 17000 نسمة، وتتصلان بكبريين ممتدين على النهر، أحدهما: للمشاة، وهو غير ثابت، مؤَلف من سفن، والثاني ثابت معمول من الحديد لمرور قطارات السكك الحديديّة وللمشاة والراكبين من الناس، طولهُ 412 متراً.

وأَهم محل يتفرج عليهِ فيها ويتوارد إليهِ السياح كنيستها الكاتدرائيّة، فبمجرد وصولنا إلى المدينة نزلنا بالفندق المسمى «هوتيل هولاّند»، ومعناهُ فندق هولانده على مقربة من النهر وتركنا الأمتعة بهِ وركبنا عربة للتفرج على هذه الكنيسة وباقي المدينة.

وقد شُرع في بناءِ الكنيسة المذكورة سنة 1248، ولم يتم محرابها إلاّ في سنة 1322، واستمرّ العمل الهوينا فيها إلى أن تعطل بالكليّة في القرن السادس عشر، ولم يُرجع إليهِ إلاّ في سنة 1817، واستمرّ من ذلك الوقت إلى سنة

1848، فتمّ البناءُ على الحالة الّتي هو عليها الآن، متسع الوضع، جميل الصنع، مرتفع القباب، محلاة جدرانهُ داخلاً وخارجاً بتماثيل القدّيسين، وصور المُعْتَقدين من أَحسن رسم حُذّاق الرسامين. يكتنفها من الجانبين برجان عظيماً الارتفاع، لا يعادلهما في العلو برج من أَبراج كنائس الدنيا بأسرها؛ إذ يبلغ ارتفاع الواحد منهما 159 متراً.

وأَعظم شوارع هذه المدينة الشارع المسمى «هُوخِشْتَراسِهْ»، حيث تحفهُ الدكاكين العظيمة، والعمارات النظيمة، وأَعظم ميادينها الميدان المسمى «نُويْ مَارْكِتْ»، ومعناهُ السوق الجديد، وبأحد جوانبهِ كنيسة الحواريين، وهي من أَبنية القرن الثالث عشر للميلاد، ذات ثلاثة بروج وقبة عظيمة،

وبهذا البلد فضلاً، عن ذلك، كثير من الكنائس الشهيرة، ومتحف يشتمل على جم غفير من الآثار العتيقة، وعلى رسومات من عمل رسّامي كولونيا الشهيرين.

وديوان البلديّة فيها من الأَبنية المشهورة، وبها حديقة للنباتات، وحديقة للحيوانات، وأعظم التماثيل الّتي بميادينها ثلاثة: أحدها صورة فريدريك غليوم الثالث راكباً جواداً تحفهُ رجال الدولة والقواد، والآخران في مكان آخر، أَحدهما صورة البرنس بسمارك، والثاني صورة المارشال مُلتْك رجلا السياسة والحرب.

وبهذه البلدة صنائع كثيرة، أَخصها صناعة الأَقمشة من الحرير والقطن، وصناعة الدانتيلات، وصناعة الخزف والصيني بأصنافهما، وأشهر صنائعها وأرفعها صيتاً، صناعة الروائح العطريّة اللطيفة، المعروفة «بماءِ كولونيا» - ماءِ الملكة -، وقد اخترعها في القرن السابع عشر «حنا ماري فارينا»، ويوجد منها كثير في جميع المخازن والحوانيت، وخصوصاً في الفنادق

الّتي هي محال تردد الأَجانب، ويباع منها مبلغ جسيم في سائر أنحاءِ الدنيا. وسكك هذه المدينة وطرقها ما أُدخل فيها من الإِصلاح والتنظيم لا يزال أكثرها كثير الاعوجاج، وما ذلك إلاّ لبقاءِ كثير منها على قدمه.

ومنظر النهر فيها يأخذ بالألباب، ويورث العجب العجاب، فلو أنت وقفتَ على أحد الكوبريين ونظرتَ إلى هذا النهر واتساعهِ، ورأيتَ الوابورات البخاريّة منتشرة فيهِ مع الكثرة الّتي لا تدخل تحت العد، متوجهة من الغرب إلى الشرق، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، وعلمتَ قلة أجرة النزول فيها وإقبال العموم عليها لذلك، وتسهيلها الوصول من المدينة إلى الضواحي، ومنها إلى المدينة، وربح الشركات القائمة بأمرها مع هذا، لتذكّرتَ وقوفك على كوبري قصر النيل، وتوجه نظرُك إلى مرأى النهر الحسن، نحو اليمين واليسار إلى ما لا يحُدُّهُ البصر، مع كونهِ خالياً من أمثال ما رأَيتَ بهذه الجهة، اللّهم إلاّ وابورات كوك الراسية هناك، وأنت تعلم أنها ليست للأهلين، وأنها لم تكن مجعولة لسهولة الوصول من المدينة إلى الضواحي، ولا منها إلى المدينة، ولتمنيتَ انتشار أمر الشركات في بلادنا فإنها سبب الخيرات ومصدر التيسيرات ومعدن البركات.

هذا، وبعد أن تفرجنا على ما تيسر لنا التفرج عليهِ بهذه المدينة عدنا إلى الفندق، وتعاطينا طعام العشاءِ، فوجدنا الطعام نظيفاً متقن الصنع، وأعجبنا نظام المحل وترتيبهُ.

وفي المساءِ أَراد بعض الرفاق شراءَ جوارب من الصوف، لاتقاءِ البرد الذي أَخَذْنا نستشعر بهِ، فخرجت معهُ إلى السوق، وما وصلنا إلى منتصف الطريق حتى أحاط بنا القومُ من كل جانب، يتفرجون على ملابس الرفيق

وطربوشي، ويتأملون كل التأمل، ويستغربون كل الاستغراب، حتى سُدّت الطرقات، وتعطلت العربات، وهال أمر الزحام البوليس، فأتى مسرعاً من أماكن عديدة حتى وصل إلينا، والناس محدقون بنا يسيرون حيث نسير، ففرّقهم عنا كل التفرق، ولكن ما لبثنا أن جاءَنا بعدهم أكثر ممن كانوا، وصاروا كلما تفرق جمع تلاهُ آخر، حتى سلّم اللّه، ووصلنا لأول دكان توسمنا أن فيها ما نطلبهُ، فدخلناها، وقد أحدق بها الناس، واشترينا منها ما أردناهُ بالإشارة لعدم وجود من يتكلم بالفرنساويّة فيها، ونحن لا نتكلم بالألمانيّة، وذلك أن أشرنا إلى الجوارب.

وكانت البائعات من النساءِ، ففهمنَ إشارتنا، فأحضرت إحداهنّ إلينا جوارب من القطن، فأفهمناها بالإشارة إلى قميص من الصوف، أننا نريد جوارب من صنف هذا، فأحضرت جوارب من الصوف الرقيق، وكنا نرغب الثخين فأشرنا إليها بما يُفهم ذلك، فأحضرتهُ لنا، كل هذا والناس حول الدكان يتفرجون علينا، والنسوة البائعات محيطة بنا فيهِ يتفرجنَ أيضاً، ونعمت المتفرجات فإن جمال الألمانيات يبهر الناظر، وبعد أن اخترنا ما أعجبنا أحببنا أن نعرف الثمن، فلم نجد طريقاً إلى ذلك، إلاّ أن نضع نقوداً كثيرة أمام البائعة لتأخذ منها ما تريد، فأخذت منها قدر الثمن اللازم، وقد فهمنا نحن بعد الحساب بيننا أنها لم تأخذ إلاّ الثمن المناسب، ثم انصرفنا، وأسرعنا في المسير إلى الفندق، إذ كنا عارفين بهِ بخلاف مجيئنا للشراءِ، فإنّا كنا نبحث عن الدكان الّتي نطلبها، فكنا نمشي الهوينا.

وقد عرفتُ في فسحتي بالنهر ووابوراتهِ في صباح اليوم التالي، أن سبب الزحام في أمس اليوم، كانت ملابس رفيقي، فإني لم أرَ ما رأيت البارحة من الازدحام الجسيم.

(من كولونيا إلى كوپنهاج)

ـ قمنا من كولونيا برًّا والساعة واحدة وعشر دقائق بعد الظهر من يوم الثلاثاءِ، 27 أغسطس سنة 1889، قاصدين مدينة هامبورج، لنبيت بها، فمررنا على محطة دُويِتْسْ، وهي الَّتي سبق ذكرها في الفصل المتقدم، بأنَّها أمام كولونيا على الضفة الثانية من نهر رَيْن، ثم محطة أَويِزْهَاوُسِنْ (وسكانها تبلغ نحو 20000 نسمة، وبجوارها معادن حديد مهمة)، ثم محطة مُونستِر، وعدد سكانها 44000 نسمة (وهي عاصمة إقليم وستفاليا على نهر صغير، وقد حافظت على هيئتها في القرون الوسطى، وعلى ما فيها من الأَبنية القديمة، والكنائس المهمة، خصوصاً في ميدانها المعروف بالميدان الكبير)، ثم محطة أُسْنَبْرُوكْ (وعدد سكانها 35000 نسمة، وقد أسسها شارلمان سنة 783 على قول). ثم محطة بِرِيمَنْ (وعدد سكانها 118600 نسمة وهي أهم مدن بلاد ألمانيا الشماليَّة في المتجر بعد هامبورج، . قائمة على ضفتي نهر ويسبر، فقسمها القديم على الضفة اليمنى والجديد على الضفة اليسرى، والعمارات القديمة الموجودة في الأول تشهد بعظم المدينة في القرون الوسطى، ولطافة مباني الثاني وإتقانها وتشييدها تشهد بعلو مقام هذه البلد بين المدن الشهيرة اليوم بأوروبا)، ثم محطة هَارْبُورج (وعدد سكانها 22300 نسمة على ذراع نهر إِلْبَ الأَيسر ذات تجارة كبيرة بحريَّة)، ثم وصلنا بعد ذلك مدينة هامبورج والساعة 9 و45 دقيقة، أي: بعد مسيرنا من كولونيا بنحو ثمان ساعات ونصف ساعة.

ولكنَّا لم نبت بهذه المدينة كما كنا عقدنا النيَّة تعجيلاً للوصول إلى محل

المأموريّة، فسرنا منها في الساعة العاشرة إفرنكيّة، أي: بعد وصولنا إليها بربع ساعة.

وإني مع ذلك نظراً لأهميّة هذه البلد أذكر بعض تعليقات عليها من كتاب الدليل، حيث قال ما ملخصه:

إن هامبورج من أهم مدن ألمانيا، وأعظم مدن أوروبا تجارة بعد لندن وليفربول، وعدد سكانها يبلغ 510600 نسمة بمن في ضواحيها، ووضعها على نهر إِلْبْ، حيث تُصعد إليها في وقت المدّ السفن الكبيرة الّتي تحتاج إلى ستة أمتار في الماءِ، جَعَلَهَا الواسطة في التجارة بين أنحاءِ البلاد المختلفة، وبين جميع المدن الّتي يصلها هذا النهر، أو تُوَصّلها بِهِ السكك الحديديّة.

وهي مؤلفة من بلدة عتيقة، وبلدة جديدة، وضواحٍ، ويجري بها نهران آخران «ألْستِرْ» و«بيلْهْ» يتصلان بنهر إِلْبْ بواسطة فروع وخلجان تخترق المدينة من جهات عدة.

ومما يدل على سعة تجارة هذه البلد وأهميتها وعظمها ميناؤها المتّسعة، مع ما تشتمل عليهِ من الأحواض والمخازن والأرصفة والأعمال الصناعيّة العظيمة، حتى إن جزءاً من هذه الميناءِ يزيد عن مساحة البلدة بأكملها، وقد بلغ عدد سفنها في سنة 1887م 205 سفن بخاريّة، حمولتها 285462 طنّا، ونحو 300 سفينة شراعيّة وبلغت قيمة البضائع الّتي وردت إليها في سنة 1885 ما قيمتُه 2147000000 مارك[1]، وأهم أصناف التجارة فيها البن والسكر، والمشروبات الروحيّة، والمواد الصناعيّة،

(1) المارك يساوي أربعة قروش و35 فضة بالعملة الصاغ.

والنبيذ والحديد، والحبوب، والزبدة، والجلود وأدوات الزينة والزخرفة، والخمسة الأخيرة من هذه الأصناف أهم مما قبلها، خصوصاً بالنسبة للصادر عنها، وقد ركب البحرَ من مينائها في سنة 1886م 88633 مهاجراً لأقسام الدنيا المختلفة.

ومن وقف بمينائها رأى منظراً بهجاً كأنّهُ ينظر إلى غابةٍ ملتفة بالأشجار من كثرة صواري السفن، تَعلوها الأعلامَ المختلفة على اتساع النهر البالغ من سبعة كيلومترات إلى ثمانية. ومركز تجارة المدينة البورصة، وتجتمع فيها من الساعة 1 إلى الساعة 3 بعد الظهر، نحو الخمسة آلاف شخص يشتغلون بالمتجر.

وأحسن مواقعها الداخليّة جهتها المسماة «بِينَّنْ أَلْستر»، ومعناهُ أَلْستر الداخلي، وهو عبارة عن بحيرة ممتدة من نهر أَلْستر محيطها 1750 متراً، يحدق بها من جهاتها الثلاثة، أبهى دور المدينة، رونقاً وجمالاً وأبّهة وجلالاً، ويتصل بها من جهتها الرابعة «أُوسِنْ أَلْستر» ومعناهُ أَلستر الخارجي، وهو بحيرة ممتدة من النهر المذكور أيضاً، إلّا أنها أوسع من تلك بأضعاف، يفصل بينهما أسوار المدينة القديمة، وقد تحول موضع هذه الأسوار إلى حدائق وبساتين مزخرفة بأحاسن الأزهار والرياحين، هذا فضلاً عمّا يمخَر بالبحيرتين، من السفن البخاريّة والشراعيّة الّتي لا تحصى. وبالمدينة كثير من الحدائق النباتيّة والحيوانيّة والمتاحف العموميّة والخصوصيّة.

هذا وبعد مسيرنا من هامبورج هذه بضع دقائق، مررنا على مدينة أَلْتونَا فوقف الوابور عندها قليلاً. وهي مدينة تجاريّة صناعيّة زاهيّة زاهرة على الضفة اليمنى من نهر إِلْبْ، تحيط بها البساتين والقصور اللطيفة من كل جهاتها،

وسكانها 104719 نسمة. ثم فارقناها إلى كِيلْ لكن تركنا العربات الّتي كنا راكبيها، وركبنا في قطار آخر، فوصلناها والساعة 12 و47 دقيقة بعد نصف الليل، أي: بعد مسافة ساعتين و18 دقيقة من مسيرنا من هامبورج.

وكِيلْ هذه سكانها تبلغ 51700 نسمة، وهي آخذة كل يوم في الازدياد والنمو؛ إذ إنّها من أحاسن ثغور أوروبا، وأهم ميناءِ ألمانيّة حربيّة، وبها مركز قائد محطة البالطيك البحريّة، وقد عملت الحكومة فيها استحكامات مهمة للغاية، وبنت فيها معامل للسفن ومخازن كبيرة للتجارة البحريّة - دوك - تحيط بها الأرصفة فتأتي السفن والبضائع إليها.

وبوصولنا إلى كِيلْ هذه كنا نظن أنا سنستمر في السير برًّا نحو الشمال قبل ركوب البحر، لكنا وجدنا جميع من بالوابور نزلوا منهُ، وأخذوا أمتعتهم، واتجهوا نحو الشرق، فسألناهم عن الطريق الذي يقصدونهُ فما فهم كلامنا أحدٌ، ولم نفهم كلام أحدٍ، فسألنا من بالمحطة من رجالها فكان الحال كذلك، فألهمنا أن نذكر لهم اسم البلدة الّتي نقصدها، ونستفهم منهم بالإشارة عمّا إذا كان الطريق الذي أمامنا يوصل إليها، وتلفظنا بلفظ «كوبنهاج»، وحيث إن أسماءَ الأعلام لا تتغير فهم منا القوم ما قصدناهُ، وأشاروا إلينا أن الطريق الذي هم سالكوهُ يوصل إليها، وأن نتّبعهم، فاتّبعناهم، وأخذنا نعدو وراءَهم، ولم نجد من يحمل شنطاتنا، كأن المحطة ليس بها حمّالون، أو أخذهم من سبق، فحملناها بأنفسنا اتّباعاً لمن رأيناهم فعلوا ذلك من الّذين كانوا بالوابور.

فأمّا من كان منّا متاعهُ خفيفاً كما ينبغي أن يكون في الأسفار، لاسيما الطويلة مثل هذه، فإنّهُ حملهُ بسهولة وَعَدًا، وأمّا من كانت حملتهُ ثقيلة فإنّهُ تململ وتضجّر، ولم يمكنهُ العدو، فخشية انقطاعهِ عنّا في الطريق أخذنا منهُ

بعض المتاع، ومع ذلك ثَقُل عليهِ ما بقي، ولم يُطق حملهُ، فإن المسافة طويلة، وحملتهُ ثقيلة، وقد سبقنا القوم كثيراً، فكنا نراهم على مد البصر، وهم يهرولون، وإلى وابور البحر يتسابقون، أمل الحصول على غرف فيهِ بها يبيتون؛ لأنَ غرفهُ لا تكفي سائر المسافرين، كما علمنا ذلك بعد، فتضرر رفيقنا من ثقل الحملة، ولضررهِ تضررنا، وتضجر كثيراً ولضجرهِ تضجرنا، وألقى بحِمْلِهِ لمّا لم يقم بِحَمْلِهِ، وصرخ مستصرخاً، وصاح مستوقفاً، فوقفنا، وأخذنا بيدهِ، وشجعناهُ على ما بنا من تعب العَدْوِ، ومشقة الحمل إلى أن هوَّن الله علينا، ووصلنا إلى البحر. فوجدنا الغرف أخذها من سَبَقَ، فقنِعنا بالصالة، وجلسنا حيث انتهى بنا المجلس، وقد سرَّنا فيها ما وجدناهُ بها من لطائف المآكل والمشارب، فأكلنا ما اشتهينا، وشربنا واسترحنا، وحمدنا الله، ونمنا، وقد سار بنا الوابور منذ نزلناهُ، فما استيقظنا في الساعة السابعة صباحاً إلّا وقد رسا الوابور بمينا كُورْسيرْ، وكانت مسافة سيرنا من كيل إليها خمس ساعات ونصفاً.

وكورسير: هذه بلدة لطيفة من أعمال الدانيمارك، سكانها 3000 نسمة، ومحطة السكة الحديديّة بها قريبة من مرسى الوابورات جدًّا، ومدخل مينائها ذو منظر بهج. فركبنا وابور البر بعد أن انتظرنا وقت قيامهِ قليلاً، وأجلنا الطرف في محاسن ومنازه هذه البلد الصغيرة اللطيفة، وسار بنا في جزيرة سيلاند أكبر جزر الدانيمارك متجهاً نحو كوبنهاج عاصمتها، حتى وصلناها في ساعتين وثلث ساعة، وكان جميع سفرنا من كولونيا حيث قمنا بعد ظهر الثلاثاءِ بساعة وعشر دقائق، كما مرَّ، إلى كوبنهاج، حيث وصلناها والساعة عشرة ونصف قبل الظهر من يوم الأربعاءِ 28 أغسطس سنة 1889 اثنتين وعشرين ساعة وثلثاً.

(كوپنهــاج)

هي عاصمة الدانيمارك على درجة 55 ونصف تقريباً من العرض الشمالي، قائم بعضها على الطرف الشرقي من شمال جزيرة سِيلَانْد، وبعضها على الطرف المقابل من جزيرة أَماجِرْ، ويفصل بينهما بوغاز ضيق من بحر سُونْد، هو ميناءُ المدينة، ومجتمع السفن الَّتي ترسو عليها، ويبلغ عدد سكانها بضواحيها 273323 نسمة. وقد تأسست في القرن الثاني عشر للميلاد في موضع قرية حقيرة كانت هنالك لبعض الصيادين، ولا زالت تنمو حتى اتخذها الملك كرستوف مقرّاً لملكهِ سنة 1443، واستمرَّ في تحسينها من أتى بعدهُ إلى زمن الملك كرستيان الرابع فإِنَّهُ أنشأَ فيها القسم القائم على طرف جزيرة أَماجِر كما مرَّ، وسمّي كرستيانْسَهافِنْ نسبة لهُ، وأقام فيها العمارات الشهيرة، وشيّد فيها المحال العديدة، وذلك من سنة 1588 إلى سنة 1648، وأخذ بعدهُ التحسين مطرداً فيها، والتنظيم ملازماً لها، حتى وصلت إلى ما هي عليهِ الآن من النجاح والغنى، وصارت مركز ثروة المملكة، ومقر تجارتها، ودلَّ الإحصاءِ على أَن لأَهليها 457 سفينة تجاريّة، منها 157 بخاريّة، فتنقُل تجارتها إلى البلاد البعيدة، مثل الحبوب والجلود والصوف والزيت والسمن وغيرها، كما أنها تنقُل حاصلاتها الصناعيّة أيضاً مثل المصنوعات الخزفيّة والفخاريّة، والماكينات البخاريّة، ومصنوعات الورق، وغير ذلك.

وقد نزلنا في فندق «كُونْجِنْ أُفْ دَانِمْرَكْ» أي: فندق ملك الدانيمارك، وهو من أَعلى الفنادق وأَشهرها بهذا البلد في أَحسن بقعة من بقاع المدينة،

وبعد أن استرحنا برهة وتناولنا الطعام، ركبنا عربة وخرجنا للتفرج في المدينة ومشارفة محلاتها وسككها وعماراتها. فوجدناها يتخلل بعض جهاتها خلجان متفرعة من البحر، تكتنفها الأرصفة العظيمة بجانبيها، وتعلوها القناطر المحكمة، وقد اتخذت كل جهة متسعة من هذه الخلجان بمثابة ميناءٍ تدخل السفن إليها، وترسو بالبضائع عليها. ورأينا الميناءَ وأرصفتها، والدكاكين القائمة على هذه الأرصفة، في حركة عظيمة، تدل على اتساع التجارة، ورواج سوق الأخذ والعطاءِ في هذه المدينة.

وتوجهنا بعد ذلك نحو وسط المدينة فوصلنا إلى المحل المسمى «لُونْجِنْس نُوتُورِي» ومعناهُ سوق الملك الجَدِيد، وهو ميدان عظيم في وسطهِ صورة كرستيان الخامس على حصان مجسمة، ويتفرع منهُ ثلاثة عشر شارعاً، منها الشارع المسمى «أُوسْتِرجَادِه»، وهو أكثر شوارع البلد حركةً. وعلى يمين هذا الميدان المحل المعروف بقصر شَارْلُوتِنْبِرْج، وهو مقر أكاديميَّة الفنون المستظرفة منذ سنة 1754. وبجنوبهِ التياتر الأَهلي، وهو بناءٌ عظيم يسع 1700 نسمة، على يمين الداخل فيهِ تمثال أَشهر شعرائهم نصوعاً من البرونز، وعلى يسارهِ تمثال أَشهر كتَّابهم كذلك. وبالقرب من هذا التياتر، البنك الأَهلي على مقربة من القنطرة الموصلة إلى جهة «قصر كرِسْتيانْسبُرْج»، وبينهما ميدان في وسطهِ صورة الوطني الشهير يُووِلْ مجسمة من البرونز، ووِجهة هذا الميدان عبارة عن فندق ملك الدانيمارك الذي نزلنا بهِ، وفندق آخر.

وقصر كرِسْتِيانْسبُرْج هذا أشبه بقسم من أَقسام المدينة، قائم بذاتهِ في وسطْ جزيرة، وقد احترق غير مرة، وآخر حريقهِ سنة 1884، ولم يبقَ إلاَّ

بعض أقسام منهُ والعزم معقود على تجديدهِ ثانياً، ويوجد أمامهُ صورة الملك فريدريك السابع على جواد، وهو الذي منح الدانيمرك القانون الأساسي، وتحيط بصورتهِ هذه جملة صور مجسمة تمثّل القوة والحكمةَ والصحة والعدالة، وكان هذا القصر قصر المجالس النيابيّة والمجلس العالي قبل أن يحترق.

وبجوارهِ «الكتبخانة الملوكية»، وقد أسسها كرستيان الثالث في أواسط القرن السادس عشر، وهي معدودة من أعظم كتبخانات أوروبا، وتحتوي على 550000 مجلد منها عشرون ألفاً بخط اليد.

وعلى شرقي هذا القصر بالمينا «البورصة»، وقد تجددت حديثاً، وأصل بنائها من سنة 1619 إلى 1640، وهي ذات برج ارتفاعهُ 47 متراً، وفي وسطها قاعة المعاملات التجاريّة، وحواليها حوانيت للتجارة المهمة، وفوقها محلات أكبر البنوكة وأشهرها، وأعظم شركات السيكورتاه وغيرها.

ووراء البورصة كوبري عظيم يوصل إلى قسم المدينة المسمى كرستيانْهافِنْ، القائم بالضفة الثانية من البوغاز على جزيرة أماجر، كما تقدّم، ومن هذا الكوبري يرى الإنسان برج الكنيسة المعروفة «بكنيسة المُخَلِّص» الشهير ذلك البرج بالارتفاع، وحسن الهيئة، ولهُ سُلّم من الخارج ذو داربزين من الحديد يشتمل على 397 درجة، يُصعد فيهِ إلى ذروتهِ حيث صورة المخلِّص، أي: المسيح عليهِ السلام مجسمة، ويمتد النظر من هذه الذروة إلى شاطئ بلاد السويد.

وبالشمال الغربي من قصر كرسْتيانْسبُورج دار التحف المعروفة «بمتحف تُورفَالْدسِنْ»، وقد بُنيت من سنة 1839 إلى سنة 1848 لحفظ آثار هذا الرجل

الذي اشتهر من أهالي هذه البلاد، في فن الحفر والنقش في الحجر والتصوير فيهِ، وتخليد ذكرهِ، وجُعل قبرهُ في وَسَط آثارهِ فيها، ووجهتها ذات عمد متقنة، يعلوها شكل مثلث من الحجر، صُوِّرَ فيهِ تمثال الظفر والنصر ناتئاً في البناءِ نقلاً عن أحد التماثيل الّتي عملها في هذا المعنى، كما أن وِجهات البناءِ متزينة بالرسوم الناتئة الّتي تمثل استقبال الأَهالي لهُ، واحتفالهم بهِ أيام عودتهِ من إيطاليا آخر مرة لهُ سنة 1838.

على أنّهُ في ابتداءِ أمرهِ وهو صغير كان حقيراً، فقير الأَب، يعمل في عمارة السفن بمعامل ميناءِ كوپنهاج هذه مع أبيهِ، حتى بلغ سن الإحدى عشرة، فدخل في مدرسة النقش والحفر والتصوير - سْكُلْتُوز -، وتحصل بجدهِ واجتهادهِ في سنة 1793 على أعظم مكافأة تُعطى للماهرين، ومن لوازمها أن الذي ينالها يكون لهُ حق السياحة في بلاد إيطاليا على مصاريف الحكومة؛ لإتقان الفن الذي أُعطي المكافأة لأجلهِ، وهو مع ذلك لم يسافر إليها حالاً، بل بقي ثلاث سنين بعدها يداوم الاشتغال بعمل تصاوير الأشخاص مجسمة، وعمل التماثيل ناتئة في الحجر - بارُولِيف -، والبناءِ حتى أبحر إلى إيطاليا سنة 1796، فوصلها بعد سفر طويل، وأَخذ يجتهد للوصول إلى الغاية المقصودة بكل ثبات ونشاط غير مبالٍ بالمصاعب ولا ملتفتٍ إلى المتاعب، ولم تَثْنِ عزمتهُ معاكسة الزمن، ولم تثبطْ همتهُ طوارئ المحن، ولا غرو أن على مقصودهِ حصل، «فكل من سار على الدرب وصل» وقد قيَّض الله لهُ في سنة 1803 توماس هُوپهْ أحد أغنياءِ الإنجليز، فأَوصاهُ على عمل صورة فأَعجبتهُ فأَوصاهُ على غيرها، واستمرَّ مقيماً في إيطاليا، وبلغت الشهرة منهُ أن عدَّهُ العلماءُ أعظم أستاذ في هذا

الفن – سَكلْتُورْ – بأوروبا، وأهم أعمالِهِ وأشهرها هي الّتي عملها من سنة 1803 إلى سنة 1819، ثم عاد إلى بلدِهِ في هذه السنة، واشتغل فيها بعمل التماثيل الدينيّة بالكنائس، وانكبّ عليهِ العظماءُ يطلبون صورهم منهُ مجسمة بالنظر لشهرتهِ وصيتِهِ، ثم سافر ثانيةً إلى رومة، فقابلهُ عظماؤُها بكل تكريم وتعظيم، ومكث بها سنين حتى بلغ الهرم، فعاد إلى وطنهِ سنة 1838، ولكنهُ اعتزل العمل، ولزم الراحة إلى أن بلغ الأَجل المحدود تاركاً نحو نصف الأَلف من آثارهِ المشهورة.

وإنما أتينا على هذه التفصيلات، لبيان وصول هذا الرجل من درجة الآحاد إلى تلك الرتبة الرفيعة، الّتي وصل إليها بمثابرتهِ على العمل بالجد والاجتهاد.

وقد عرف مواطنوهُ قدرهُ أَيّام حياتهِ وبعد مماتهِ، أمّا أيام حياتهِ فلإقبالهم عليهِ، وحرصهم على اقتناءِ أعمالِهِ، وأمّا بعد مماتهِ، فلما شادوا لهُ من هذه الدار الّتي نحن بصددها؛ فإنهم بنوها بخصوصهِ مركبةً من طبقتين ذات قاعات عدة تزيد عن الأَربعين بها جميع آثارهِ تحيط برحبة، وفي وسط هذه الرحبة قبر هذا الأُستاذ.

ولا عجب أن تقدّمت وبلغت أكبرَ درجات الثروة، بلادٌ عرف أَهلوها قدر علمائهم وفضلائهم، ولا بِدْع أَن تمادت على الانحطاط بلاد اتّبع أَهلوها ضد هذا، فلم يجد المؤلف من يشتري تأْليفهُ، ولا من يكافئهُ، ولم يجد الصانع الماهر، من يبذل القليل من المال في اقتناءِ بدائع صنعتِهِ ومساعدتهِ على ذلك.

ولا شك أنَّ أهل بلادنا لهم غاية الاستعداد والقابليّة للمعارف والآداب

والصنائع، والأمل وطيد، والرجاءُ أكيد أنهم بمشيئتهِ تعالى سيبلغون الغاية القصوى، في التقدم والنجاح، ما داموا مرموقين برعاية ولي الأمر حفظهُ الله، مشمولين بسامي همتهِ، موجهة أنظارهُ العالية نحو تشييد أركان العلم والحث على انتشارهِ، والعناية بالمستحقين من أبناءِ الوطن، مكافأةً لهم وتنشيطاً لغيرهم.

هذا وبالجنوب الغربي من قصر كرسْتيانسبُورج المتقدم ذكرهُ السراي المعروفة «بسراي البرنس» وكانت سكناً فيما مضى لولي العهد وفيها الآن:

أوّلاً: متحف أنتيكات الشمال، وقد جمع سنة 1807، واستمرّ التوسع فيه حتى صار أكبر متاحف الدنيا الّتي من نوعهِ بعد متحف استكهلم، وهو مهمٌ جداً بالنسبة لمن يريد معرفة التمدن في البلاد الإسكنديناقيّة بالأزمان العتيقة، ويشتمل على 40000 أثر، فيحتوي على الأسلحة والأدوات والآلات اللازمة في الصنائع وفي المنازل، وعلى مواد الصيد في البر، وعلى كثير من توابيت الأموات في تلك العصور الخالية، وعلى أشياءَ كثيرة غيرها.

ثانياً: متحف خصوصيات الشعوب وأخلاقهم وعاداتهم، وهو مقسّم إلى خمس وثلاثين قاعة بحسب الأزمان والبلاد، فمنها المخصص بالأزمان القديمة من آثار أوربيّة وآسيويّة وأفريقيّة وأميريكيّة، ومنها المخصص بالأزمان المتأخرة من آثار الأمم الّذين لا يزالون على الحالة الأصليّة من عوائدهم، في المعتقدات والملابس، والأسلحة والأدوات، والآلات والفنون والصنائع.

ثالثاً: متحف الأنتيكات غير[1] الشماليّة من مصريّة وآشوريّة وفينيقيّة

(1) في الأصل «الغير» المحرر.

ويونانيّة وورومانيّة، وهو قليل الأَهميّة بالنسبة لما رأيناهُ من نوعهِ في غير هذه البلد.

رابعاً: متحف المسكوكات والمداليات ويحتوي على ثلاثين ألفاً منهما.

ثم بالشمال الغربي من سراي البرنس المتقدمة الطريق المسمى «رَادُوسْتِرَادِه»، ومنهُ يتوصّل إلى الجهة المعروفة بالسوق الجديد والجهة المعروفة بالسوق القديم، ومن هذا يتفرع شارع «نُوجَادِه»، وهو كثير الحركة، ومن أعظم الشوارع أهميّة واعتباراً ينتهي إلى ميدان «كُونْجنس نُوتُورزف».

الكاتدرائيّة: بُنيت حديثاً مكان كنيسة أحرقتها قنابل الإنجليز مذ ضربوا هذه المدينة، وهي على السذاجة من الداخل، ليست مزينة بالنقوش سوى ما رسمهُ تُورْفَالْدسِنْ الذي مرّ ذكرهُ لها، وهو في رومة وحفر بعضهُ بنفسهِ من سنة 1821 إلى سنة 1827 عند عودتِهِ من رومة.

والمدرسة الجامعة: قائمة على الجهة الشماليّة من هذه الكنيسة، وقد بنيت من سنة 1831 إلى سنة 1836 بعد احتراق مدرسة قبلها بنيران القنابل الإنجليزيّة سنة 1807، وأول من أَسس هذه المدرسة بكوبنهاج كرستيان الأَوّل سنة 1479 عقب سياحة ساحها في إيطاليا، وتنقسم إلى خمس مدارس، أساتذتها سبعون وتلامذتها 1200.

وكتبخانة هذه المدرسة الجامعة تحتوي على أكثر من مائتي ألف مجلد، منها أربعة آلاف مجلد مكتوبة بخط اليد من نفائس كتب الهند والعجم القديمة. ومما يستحق الذكر بهذه البلد الكنيسة المعروفة بكنيسة التثليث بالنظر لبرجها المسمى بالبرج المستدير، فإن قطرهُ خمسة عشر متراً،

وارتفاعهُ 36 متراً، فيتمتع الصاعد فوقهُ برؤية سائر جهات المدينة وضواحيها، وبحر الشوند جميعهُ، وميناءِ السويد وسواحلها.

ومما ينبغي أن يذكر هو أن طريق «فُلْدِجادِهْ» يفصل المدينة القديمة عن المدينة الّتي استحدثت مكان الأسوار القديمة، حتى صارت مدينة علياء، وجنة فيحاء، بشوارعها النضرة ومتنزهاتها العطرة ومتسعاتها الخضرة، وهي ذات أربعة أضلاع تحيط بها الأبنية المزخرفة من جوانبها الأربع، على أشكال تروق الناظر، وتسر الخاطر.

وعلى هذا الطريق «قصر رُزِنْبرج»، وهو بناءٌ متّسع محاط بأبراج، أعلاها ارتفاعهُ 100 متر، بناهُ كرستيان الرابع سنة 1604، فسكنهُ، وسكن بهِ خلفاؤهُ من بعدهِ، وصار كلٌّ منهم يجمع إليهِ ما يناسب زمنهُ من الفرش وأدوات الزينة والزخرفة والأسلحة والملابس، حتى صار يحتوي الآن، على أحسن المجموعات المتعلقة بالزينة والرونق من المصنوعات الوطنيّة، وهو من أبهى ما يُتَفَرّجُ عليهِ، وبحديقتهِ صورة كرستيان الرابع مجسمة من عمل تُورفالدِسِنْ.

وإذ أقبل الليل، وطال الأمد في هذا التفرج، واحتجنا إلى تناول الطعام، عدنا إلى الفندق عازمين على الخروج ليلاً للتفرج على حال المدينة فيهِ، وللتوجه إلى متنزه اسمهُ «تيفُولِي» أعلمنا بهِ بعض من عرفناهُ في هذه المدينة، لكن لم يتيسر لنا ذلك بعد؛ لأنّهُ فاجأنا المطر بغتة بكثرة، واشتد البرد معهُ حتى بلغت درجتهُ بالفندق 12 فوق الصفر، ولم نرَ بباريس وصولهُ إلى هذا الحد.

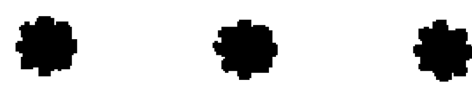
فنزلت إلى القهوة الّتي تحت الفندق المسماة بالقهوة الويانيّة، نسبة إلى

وبانه وإدارتها لصاحب الفندق، وهي في غاية الانتظام على الطراز الفرنساوي، فيها جرائد العالم الشهيرة، فقرأت منها بعض الصحف الفرنساويَّة.

وانتهزت فرصة قلّة المطر، فركبت عربة الترامواي، وهي مارَّةٌ أمام القهوة، وسرت بها إلى حيث انتهى في آخر المدينة، وعدت بها ثانياً، فحصل بذلك التمتع برؤية هذه المدينة الزاهرة ليلاً، وتركنا تيڤولي إلى العودة إن تيسر.

وفي الصباح ركبنا عربة، وقصدنا نحو الساحة المسماة «جُرُونِتجنْ»، ومعناهُ ساحة القَلعة، وهي من أَعظم المتنزهات وأَلطفها بهذه البلدة، يشرف المتفرج منها على بوغاز سُوند، فيرى السفن الراسية في مدخل الميناءِ، فينبهر من جسامتها وكثرتها.

وسرنا بعد ذلك في بعض أَطراف البلدة وما قرب من المحلات الخارجة عنها قليلاً من ضواحيها، وهي في غاية الجمال والبهاءِ والرونق والازدهاءِ، حتى قرب وقت قيام الوابور الذي يسافر من هذه العاصمة، إلى مدينة مالْمُو ميناءِ السويد، فعدنا إلى الفندق، وتحاسبنا مع صاحبهِ، وتركناهُ قاصدين المسير إلى السويد.



(من كوپنهاج إلى مَالْمو)

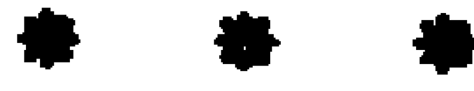
قمنا من كوپنهاج في يوم الخميس 29 أغسطس سنة 1889، والساعة 11 و15 دقيقة قبل الظهر في وابور البحر، بقصد ثغر مَالْمُو، واخترنا هذا الوابور دون سواهُ، وإن كان يقوم من كوپنهاج إلى هذا الثغر وابورات عدةٌ في أوقات كثيرة من النهار؛ لأنّهُ يصل حسب التعريفة إلى مَالْمو قبل قيام وابور البر منها بوقت كافٍ، يتيسر لنا معهُ التفرج في ذلك الثغر، ثم نركب وابور البر بعض النهار وطول الليل، فنصل إلى أستكهلم مقر المأموريّة في صباح اليوم التالي.

ومالْمو هذه أَقرب أسكلة من أَساكل السويد إلى كوپنهاج، يفصلها بوغاز سُونْدْ على مسافة نحو عشرين كيلومتراً، بحيث يرى من في بَرّ منهما كلّ من في البَرّ الآخر بالنظّارة، إذا كان الجو صافياً والهواءُ هادياً.

والوابورات الّتي نزلنا بأَحدها ترسو بلصق الأَرصفة في الميناءين، بحيث يصل المسافر إليها بغير واسطة زوارق، وهي تشبه في الحجم وابورات النيل، ذات طبقتين، يجد الإنسان في إحداهما محلاً متّسعاً، فيهِ مائدة عليها أَحسن المآكل وأنظفها، فيأكل ما يشتهي من الأَطعمة بدون احتياج إلى خادم يخدمهُ؛ لأَنّ الأَطباق المعدة للأكل بها مرصوصة حول المائدة، والأَطباق المشتملة على ما يُؤكَل مرصوصة في وسطها، فيجلس الإنسان إلى المائدة إذا وجد متّسعاً، وإِلّا أَخذ ما يُريد من الأَطباق، وجلس أَينما يريد، وهذه الطريقة مسلوكة في وابورات هذه الجهة، وجميع جهات السويد والنرويج كما رأَيناهُ بعد، فأكلنا مَرِيًا وشربنا هنيًا بعدُ أن سرنا من كوپنهاج، وتفرجنا على

مدخل ميناثها وكيفيّة شكلها وبنائها، ولما أتممنا الأَكل، ودفعنا ثمنهُ عن كل واحد منّا كوروناً ونصفاً، طلعنا على سطح الوابور للتمتع بمنظر البحر، وما لبثنا أن قاربنا مَالْمو فوصلناها بعد مسير ساعة وربع ساعة من قيامنا.

وقد اطّلعنا في صالة الأَكل على إعلان مطبوع بالفرنساويّة والإنجليزيّة والألمانيّة، ترجمة عنوانهِ «إلى حضرات أعضاءِ مؤتمر المستشرقين باستكهلم»، ومضمونهُ إن المسيو هِلْدِبْرَانْد مدير الآثار العتيقة بالسويد والنرويج مستعد للقيام بجميع ما يلزم الأَعضاءَ في ثغر مالمو من الخِدَم والتسهيلات، وهو ينتظرهم بهِ لهذا الغرض عند عودتِهِ من معرض باريس، فمن شاءَهُ لذلك فليسأل عنهُ من المحطة، فعزمنا على مقابلتهِ.



(الوصول إلى مَالْمو)

مَالْمو هذه سكانها 44500 نسمة، وهي رأس إقليم سكانيا من بلاد السويد المشهور بالخصوبة، وكثرة الحبوب من الحاصلات الزراعيّة، وهي شهيرة بالتجارة، وبها معامل تَصنع كثيراً من الأشياءِ، أَخصها الأَلْدوان - القفاز - ، وليست شهرتها بالتجارة حديثة، بل هي كذلك من زمن القرون الوسطى، فإنها اشتهرت بها خصوصاً في السمك المسمى «هاران» وكان يصيده من جهاتها عالم لا يُحْصَى، ولكنها انحطت بعد تلك الأَزمان بسبب نقص صيد الأَسماك المذكورة، وتحوّل التجارة عنها إلى مدينة كوپنهاج، حتى تنازل عدد سكانها في أَواخر القرن السابع عشر إلى أَقل من ألفي نسمة، إلاّ أَنّها أَخذت في النمو من أَواخر القرن الثامن عشر حتى بلغت إلى ما هي عليه الآن من الاتّساع والعُمران.

وميناؤُها واقعة بجهة الشمال منها، وهي في غاية الانتظام، ترسو السفن على أَرصفتها العظيمة القريبة من محطة السكة الحديديّة.

وبوصولنا إلى البر قابلنا أحد محرري الجرائد، فاحتفل بنا لما رآهُ من هيئتنا المشرقيّة الّتي علم منها ما نحن بصددهِ من قصد المؤتمر، وساعدنا في إجراءات الكمرك، ولم تُفتح صناديقنا، وتوجه معنا حتى سلمناها بمحطة السكة الحديد، وأَخذنا بوليصة بها إلى أستكهلم، وسأَلناهُ عن المسيو هلدبراند، فأَخبرنا أنهُ لم يحضر من پاريس إلى الآن، وقال: إني مستعد لسائر الخِدَم الّتي تحتاجون إليها، وأخذ منا تذاكر عُضويّة المؤتمر

الَّتي كنا اشترينا الواحدة منها من مصر بعشرين فرنكاً، ولحاملها حق النزول بالسكة الحديد، من مالمو إلى أستكهلم بنصف الأُجرة المعتادة، فضلاً عمّا يكون لهُ بواسطتها من حقوق العضويّة، وامتيازاتها في المُؤتمر، وقدَّمها لناظر المحطة، فقصَّ منها جزءاً، وسلمهُ الباقي، وأعطاهُ تذاكر الوابور بنصف الأُجرة لنا.

وإذ كان باقياً على قيام الوابور من المحطة نحو الساعتين، ذَاكَرنَا هذا المحرر المهذَّب في التفرُّج على المدينة، ومشاهدة ما فيها في هذه المسافة، فقلنا لهُ ذلك ما كنا أَردناهُ من قبلُ، وسرْنا معهُ من الشمال إلى الجنوب قليلاً، فوصلنا ميداناً عظيماً هو ميدان البلد الكبير، على جهة منهُ دار بلديَّة المدينة، وعلى جهة أخرى قصر المحافظة، وكلاهما من الحسن بمكان.

وسرنا بعد ذلك نتفرج بالطرقات، وهي منتظمة نظيفة معتدلة متّسعة، وعماراتها حسنة مرتفعة، وفي الأثناءِ كنا نتجاذب أطراف الحديث، مستفهمين منهُ عن بعض ما يُهمنا من الأشياءِ، حتى دنا وقت السفر، فعدنا إلى المحطة، وودعناهُ، وقام بنا وابور سكة الحديد والساعة 2 و40 دقيقة بعض الظهر من يوم الخميس 29 أغسطس سنة 1889.

وها أنا أَذكر قبل ذكر الوصول إلى أستكهلم، وما شاهدناهُ في الطريق إليها بعض إجماليات على السويد والنرويج فأقول:

* * *

(إجماليات على السويد والنرويج)

بلاد السويد والنرويج واقعة في شبه جزيرة إسكنديناڤيا الذي هو أكبر شبه جزائر أوروپا، ويشتمل على السويد في شرقيه، وعلى النرويج في غربيه، وعلى قسم من الروسيا في الشمال الشرقي منهُ، وهو بين 71 درجة و10 دقائق، و55 درجة و20 دقيقة من العرض الشمالي، وبين درجتين و45 دقيقة و28 درجة و15 دقيقة من الطول الشرقي لپاريس، فيمتد بمقتضى ذلك على 16 درجة من درجات العرض، وعلى 26 درجة من درجات الطول، أمّا عرضهُ فيختلف بين 420 و700 كيلومتر، ومسطحهُ 759000 كيلومتر مربّع، وطول سواحلهِ 3300 كيلومتر، منها ألفان للنرويج، ويتخلل هذه السواحل عدة خلجان تدخل أرضها على أبعاد طويلة، بحيث لو قيس امتداد السواحل باعتبار هذه الخلجان وشواطئها فيهِ، لبلغ أكثر من ضعف الطول الذي ذكرناه.

ويحدُّ مملكتي السويد والنرويج شمالاً الأوقيانوس الشمالي، وشرقاً روسيا وخليج بوثنيا وبحر بالطيق، وجنوباً بحر بالطيق المذكور وبوغاز كاتيجات وسكاجرراك، وغرباً البحر الشمالي والأوقيانوس الأطلانطيقي. ويفصلهما عن بعضهما سلسلة الجبال الإسكندينافيّة، وطريق عريض يمتد في الجبال المذكورة.

وبهذه البلاد غير السلسلة المذكورة، كثير من الجبال، ترتفع على سواحل النرويج بصفة تكاد أن تكون عموديّة، ثم تنخفض من جهة السويد تدريجيّاً، ويتخللها في جهاتها أودية كثيرة، ومرتفعات عظيمة وصخور

عديدة، بحيث شَبَّهها بعضهم، بموجة من أمواج البحر كبيرة، تحجَّرت وهي تُرْغي وتُزْبِد.

والقسم الشمالي من هذه البلاد كثير الصخور، جبالهُ قفرة، تغشاها الثلوج، ولا ينبت فيها إلاّ أشجار قليلة من الصنوبر، ولا تنمو كثيراً، ويتخلل هذا القسم بحيرات وأجام هائلة، أمّا القسم الجنوبي وإن كَثُرت فيهِ الأَجام لكن تكثر فيهِ المزروعات أيضاً، وهو معتدل وخِصب بالنسبة إلى الأَول.

ونظراً إلى وضع الجبال الطبيعي السالف بيانهُ، تكون مياه الأَنهر في جهة الغرب شديدة التيار، سريعة الانزلاق بخلاف مياه الجهة الشرقيّة، فإنها ليست كذلك، بل تكون على هيئة بحيرات مستطيلة الشكل، تتصل ببعضها أحياناً بشلالات يختلف ارتفاع انصباب الماءِ منها بحسب اختلاف الأَمكنة.

والسبب في كثرة عدد البحيرات في هذه البلاد كثرة الأَمطار، وعدم كفاية حرارة الشمس في تبخير جزءٍ كبير منها، ووضع الأَرض نفسها على هيئة سطوح مُتَحَفِّرَةٍ في بعض جهاتها، فلا تنصرف منها المياه إلى جهة أُخرى وعدم قابلية الأَرض بطبيعتها لكثرة ترشّح المياه.

وسواحل هذه البلاد يتخلل سائر جهاتها خلجان صغيرة ضيّقة، لا يقل عمق المياه فيها غالباً عن نحو 1250 متراً، وتنتهي بتشعبات وتفرُّعات عديدة إلى جهة البحر.

ويوجد على السواحل المذكورة بينها وبين البحر جزر صغيرة وصخور في البحر عديدة، تجعل الملاحة في تلك الشطوط على أخطار ومخاوف، ولكنها كثيرة النفع في أزمان الرياح البحريّة والزوابع، حيث تلتجئ السفن

إلى هذه الخلجان، فتحتمي فيها بواسطة منع الصخور والجزر، غوائل البحر عنها.

وكبار هذه الجزائر تكون إلى جهة القطب، وجميعها كثيرة الجبال، غريبة الهيئة، ذات أشكال عجيبة صنعتها يد القدرة صنعاً لا يقدر عليهِ إلّا الله تعالى، فإحداها كأنما هو قصر هائل، وأُخرى تسمى «تُوزجُو» تمر بجوارها السفن، فيراها الناظر صخرة بها مغادرة على ارتفاع 125 متراً عن سطح البحر، نافذة إلى الجهة الأُخرى طولها 163 متراً، وأرتفاعها من 19 إلى 62 متراً، وعرضها من 11 إلى 17 متراً، إلى غير ذلك من الجزر ذات الأشكال البديعة والهيئات الغريبة.

وهذه الخلجان والجزر الّتي على شاطئ بلاد النرويج، أكثر البلاد المذكورة حركة، بالنظر لمساعدة الصيد فيها على أسباب المعيشة، حيث يوجد على القرب من جزر «لوفوتن» كثيب يكثر فيه السمك المشهور بالحوت «مورو»، فيذهب لأجل صيدهِ خصوصاً في أيام الشتاءِ، لأنهُ يكثر فيها، كثيرٌ من الصيادين، يزيد عددهم على 25000 راكبين نحو 6000 سفينة من السفن الكبيرة، ويشتغل في أعمال هذا السمك وتجهيزاته نحو 100000 نفس أي: $\frac{5}{100}$ من سكان نوريج جميعهم، ويتحصل منه ما قيمتهُ من 55 إلى 60 مليون فرنك في السنة.

ويوجد في تلك الجهات سوى هذا أصناف من السمك كثيرة، وإن كانت أقل منهُ أهمية، منها: السرطان البحري المسمى «هُمار» وَيُصَدَّر منهُ في السنة الواحدة بقيمة مليون ونصف من الفرنكات إلى إنكلترا وحدها، ومما يصاد عندهم أيضاً المحار بأصنافه، أما السمك المسمى «صومون» فيصاد من كثير من الأنهر والبحيرات الداخلة في البلاد، على ذمة ملتزمين يلتزمونهُ

من الحكومة، وهواء هذه البلاد بارد نظراً لموضعها من الشمال، ولكن درجة البرد فيها ليست على صفة واحدة، فإنهُ يكثر في جهة الشرق والوسط زيادة عن جهة الغرب، على سواحل الأطلانطيق بسبب تيّار الخليج الذي هناك، ولذلك لا تتجمد المياه في الخلجان الصغيرة الّتي على ذلك البحر بسواحل النرويج إلّا في آخرها من جهة القارّة بخلاف الجهات المضاهيةِ لها في العرض من بلاد سيبيريا، فإنها تكاد أن لا تسكن، وبخلاف البلاد المقابلة لها في شمال أمريكا، فإنها بسبب البرودة تَلَفَتْ فيها إرسالية فرنكلن العالم الشهير.

حتى لو نظرنا إلى أستكهلم الواقعة في جهة الغرب ببلاد النرويج على ارتفاع أستكهلم، لوجدنا أن درجة الحرارة في سْكُودِسْنَاسْ متوسطها 1,5 فوق الصفر في شهر يناير، و13 في شهر يوليو، فيكون الفرق بين المتوسطين 11,5، أما أستكهلم فإن درجة الحرارة فيها متوسطها 4 تحت الصفر في يناير، و17,5 فوق الصفر في يوليو، فيكون الفرق بين المتوسطين 21,5، على أن الفرق أكبر من ذلك في جهة الشمال من السويد، فناحية يُوكُمُوك مثلاً متوسط الحرارة فيها 1,6 تحت الصفر سائر السنة، ولكن الدرجة فيها 16 تحت الصفر في يناير، و14,4 فوق الصفر في يوليو، فيكون الفرق 30,4. والحاصل أن درجة الحرارة تختلف في هذه البلاد باختلاف الجهات، فهي غاية في البرودة من جهة بحر البلطيق، وأقل منها على سواحل النرويج.

والجهة الشماليّة منها تستديم فيها الشمس مشرقة شهرين ونصفاً صيفاً، لا تغرب، وتستديم شهرين ونصفاً شتاءً، لا تُشرق، ويبقى الشتاءُ فيها تسعة أشهر، فلا فصل ربيع فيها.

وكثرة الأَمطار وقلتها في هذه البلاد، إنما هي بحسب درجة الحرارة

فيها، فهي في داخل النرويج، أقل منها على الشواطئ، وأكثرها في السويد في الجهة الواقعة بين جِفْلِهْ وجُوتَنْبُورْج، وأقل الأشهر أمطاراً شهر مارس، وأكثرها شهر أُغسطس، خصوصاً في جهة الشمال، فينتج من هذا أن أنسب الأوقات لزيارة السويد وشرقي النرويج، هو شهر يونيو، وشهر يوليو.

هذا والزراعة في هذه البلاد لا يمكن أن تكون أحسن ولا أكثر مما هي عليهِ فيها، بالنظر إلى قلة الحرارة بها، على أن زراعتها خير من زراعة غيرها من البلاد الواقعة على منطقتها والغابات فيها متّسعة حتى تبلغ مساحتها أكثر من 66000 كيلومتر مربع، ويتحصّل من أشجار الصنوبر والراتينج فيها مقدار وافر من الخشب، ويصدر جانب عظيم إلى الخارج منهُ، ومن أخشاب البلوط والزان والدردار وشجر السندر.

وفي هذه البلاد كثير من أشجار الفاكهة، فالتفاح منها يوجد إلى درجة 65، والبرقوق إلى درجة 64، والكرز إلى درجة 66 من درجات العرض، أما أشجار الكشمش - عنب الذئب - والشليك والتوت الشوكي، فتنبت في جميع جهات هذه البلاد، حتى يُرى منها بجهة الرأس الشمالي.

وينبت فيها الحنطة إلى درجة 64,5، والشعير إلى درجة 70، وليس ببلاد النرويج من أرض الحراثة أكثر من 2750 كيلومتر، ويوجد بالسويد نحو عشرة أضعاف هذا القدر.

وينبت في جهة الشمال من هذين الجهتين من غير استنبات نبات مخصوص يسمى عندهم «أكْسِيزِيا رِينِيفُورْمِيس»، يستعمل عدة استعمالات، منها خلطهُ مع الدقيق، ويُعمل منهما نوع من الخبز يسمى «فْلاَدِبْرُودْ»، وهذا النوع يعمل في البلاد الجنوبيّة من الحنطة والشعير مضافاً عليهما دقيق البطاطس أو دقيق البسله.

ومن الغريب أن الشعير ينمو وينضج بهذه الجهات على درجة سبعين من العرض الشمالي في تسعين يوماً، كنضجهِ في بلاد فرنسا، وبلاد مصر، ولعل السبب في ذلك طول النهار في بعض أشهر السنة ببلاد الشمال، فتستمر الحرارة والضوءُ فيها زمناً يعادل في التأثير على النبات تأثير درجة الحرارة في غير هذه الجهات، ولكن لا بد من تطبيع الحبوب وتعويدها في هذه البلاد، فلا يصح فيها من أول وهلة الشعير المجلوب من بلاد أشدُّ منها في الحرارة.

ومما يلاحظ في هذه البلاد أن أوراق الأشجار أكبر في جهة الشمال منها في جهة الجنوب، وما ذلك أيضاً إلاَّ من تأثير كثرة الضوءِ لطول النهار. ومن حيواناتها ذوات الأربع الدُّب الأسمر، والذئب، والثعلب والوَعِل والسمُّور والأرنب والرنة، وهو عند أهل الشمال بمنزلة الجمل عند غيرهم. ومن طيورها النسر والبازي والبجع والبط والأوز، وتكثر الطيور الشاطئيَّة على ساحل البالطيق وخليج بوثنيا.

وأهلها الآن كثيرو الاعتناءِ بتربية الحيوانات الأهليَّة كالأغنام والخيول، وقد أحضروا في بلادهم كثيراً من الحيوانات الأجنبيَّة.

ومن معادنها النحاس والرصاص والحديد، وليس لهُ مثيل في حديد العالم أجمع، والتوتيا والفضة والذهب والكوبلت والنيكل والمغنسيا.

وأهل هذه البلاد أشداءُ ذوو شجاعة وبأس، لا يهابون الحرب، كرام أُمناءُ، أولو حشمة وبشاشة، وهم يشربون البيرة - الجعة - أكثر من غيرها من المشروبات، وأكثر طعام الفلاحين منهم اللبن والجبن والسمك، وفي بعض الأماكن اللحم وخبز الحنطة، ويغلب عليهم شُقْرة الألوان، واصفرار الشعور، وتوسط القامة، وشدة حب أوطانهم، والتعليمُ عندهم معتنى بهِ، ومنتشر للغاية.

ويقال: إن قبائل يدعون الإسكندناويّة فتحوا هذه البلاد، وقهروا العشائر الفينيّة الّذين كانوا مستوطنين بها، وسكانها الآن من نسلهم، وكانوا تحت حكم الدانيمرك في الجيل الرابع عشر، فقام «غسطاوْوَازا»، وحرّر السويد من تلك العبوديّة، فاختارهُ أهل البلاد ملكاً عليهم، وظهر بها في أول الجيل الثامن عشر الملك كارلوس الثاني عشر، وكان من أشهر أبطال العالم، افتتح فتوحات عظيمة، وفعل أفعالاً يكل اللسان عن وصفها، لكن قهرهُ الروسيون أخيراً بعدما فتح كثيراً من بلادهم، وأما النرويج فكانت تابعة لولاية الدانيمرك، ثم أُضيفت إلى مملكة السويد من سنة 1814.

ولا تزال الجهتان إلى اليوم منضمتين لبعضهما تحت سلطة ملك واحد، ولكن لكلٍّ منهما مجالس نيابيّة، ووزارة، وجيش وعساكر بحريّة، وميزانيّة، وسياسة قائمة بذاتها منفصلة تمام الانفصال عن الأخرى، حتى منعت القوانين أن يُقيم جيش سويدي في النرويج أو نرويجي في السويد مهما كانت الحالة.

والحكومة في كلٍّ منهما مَلِكيّة مقيدة، شوروِيّة، يقوم بتنظيم القوانين في كل واحدة منهما مجلسان يُعينان بالانتخاب. وعاصمة السويد أستكهلم وعاصمة النرويج كرستيانيا، ويقيم الملك في أولاهما وينوب عنهُ في الثانية أحد أولادهِ.

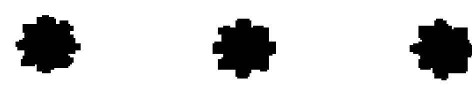
ولغة كلٍّ من الجهتين تخالف الأخرى، وكلٌّ منهما يقرب إلى الألمانيّة أكثرَ من غيرها، إن كان البُعد يسمى قرباً، والأجنبي الذي يتجوّل فيهما يكفيهِ معرفة اللغة الفرنساويّة، لوجود من يعرفها في المدن الكبيرة من متنوّري القوم، حتى كانت لغة المخاطبات الرسميّة.

وقد بلغ عدد سكان السويد في الإحصاءِ الذي حصل أخيراً في سنة 1884

(4644448 نسمة)، ويبلغ عدد أهالي النرويج في الإحصاء المذكور (1913100 نسمة).

وطرق المواصلات كثيرة متنوعة في هذه البلاد، فمنها الوابورات البحريّة لأَسفار شطوطها، والسفر منها إلى بلاد أُخرى، والوابورات النهريّة في البحيرات والأنهار الكثيرة جدّاً، ومنها وابورات السكك الحديديّة متجهة من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن كل جهة من هذه الجهات إلى الجهات الأخرى، ومنها العربات الّتي تسير بالخيل في الجهات الّتي لم تصلها السكك الحديديّة، وهي على صنوف مختلفة وأَشكال متعددة، تتفاوت اتّساعاً وصغراً وكبراً، كما تختلف في عدد الخيول الّتي تقودها سواءً كان لها سائق أو لم يكن، بل سائقها المسافر نفسهُ.

وحيث فرغنا من ذكر هذه الإجماليات الّتي نَعُدُّها ضروريّة لمعرفة ما نحن قادمون عليهِ من البلاد، فلنستمر في السير إلى أستكهلم، وأملنا أن يلقانا بمحطتها صاحبنا الذي وعدنا بذلك، حتى نكون في هذه البلدة كما نكون في بلدتنا الأَصلية، وأَحسن على ما فهمناهُ منهُ، وقد أَرسلنا إليهِ تلغرافاً من كوبنهاج بميعاد حضورنا لأستكهلم، بينّا فيهِ اليوم والساعة، وكان سَبق منّا كتابٌ حررناهُ إليهِ من إحدى مدن إيطاليا ردّاً لخطاب وصلنا منهُ قبيل قيامنا من مصر سيأتي الإلماع إليهِ.



(من مالمو إلى أستكهلم)

سرنا من مالمو والساعة 2 و40 دقيقة بعد الظهر من يوم الخميس كما مرّ، فسار الوابور قليلاً بمحاذاة خليج سُونْد، ونحن ننتظر من مرتفعاتِهِ البحر، ثم انثنى نحو الشرق، فمرَّ بمحطة أكَازِپ حيث مدرسة الزراعة الشهيرة المسمّاة مدرسة «ألْنَرْپ»، ونعمت الجهة الّتي انتخبت لهذه المدرسة الزراعيّة؛ فإن أرضها يخال الماشي فيها أنهُ سائر في وسط حديقة غناء، اعتنى صاحبها في تنظيمها وتحسينها، فأتقن وأبدع وأحسن.

ولا زلنا مارّين بها حتى عبرنا نهر «هُويِهْ» ذي الماءِ النمير، ووصلنا مدينة «لُونْدْ» بعد أن سرنا نصف ساعة من مالمو إليها.

ولُونْدْ هذه بلدة اشتهرت بالمدرسة الجامعة المنسوبة إليها من قديم الأزمان، يبلغ عدد سكانها الآن 14800 نسمة، وفي السابق بلغ عددهم مائتي ألف نسمة على ما يقال.

وهي وإن لم ننزل بها، أَصِفُهَا بعض الوصف لشهرتها بالنسبة لمدرستها، ولنزول أحد أساتذة هذه المدرسة الپروفسور «تِجْنِرْ» عند محطتها معنا بالوابور، وإنهُ لفي غاية اللطف والذكاءِ، وقد نفعنا كثيراً في هذه الطريق، وفي طول مدة الإقامة بأستكهلم كما سيجيء.

على أن هذه البلدة على لطفها ليست كبيرة، فلا يحتاج وصفها إلى تطويل، وذلك أن الإنسان إذا نزل من محطة السكة الحديد واتجه نحو الشرق، وصل في بعض دقائق إلى «الميدان الكبير»، وهو أكبر ميادين

المدينة. فيجد على هذا الميدان الكنيسة الكاتدرائيّة، وهي ألطف أبنية أسكندناويّة، وأجملها في رأي البعض، أُقيمت الشعائر فيها منذ سنة 1145، يكتنف وِجهتها من الجانبين برجان عظيمان، تتخللهما النقوش اللطيفة، متّسعة من الداخل، طولها 61، وعرضها 36، وارتفاعها 21 متراً.

وفي شمال هذه الكنيسة متنزهٌ عمومي تحيط بهِ الأشجار العظيمة من سائر الجوانب، وفي وسطهِ المدرسة الجامعة السالف الإشارة إليها، وقد أُسست منذ سنة 1668، وتشتمل على بناءَين منفصلين: أحدهما المدرسة القديمة، والآخر المدرسة الجامعة الجديدة، ويتردد على هذه المدرسة من الطلبة نحو 800 طالب، وبها متحف شهيرٌ للأشياءِ التاريخيّة.

وشرقي هذا المتنزه على نحو الشمال الشرقي من الكنيسة تمثال البروفسور تِجْنِر مجسماً، وتحتفل الطلبة بيوم دخولهِ في هذه المدرسة، وهو يوم 4 سبتمبر من كل سنة احتفالاً يليق بمقامهِ. وذلك أن تِجْنِرْ هذا نشأ في هذه المدرسة، وصار شاعراً معدوداً ذا تآليف محبوبة (ولد سنة 1782 وتوفي سنة 1846)، فأقاموا لهُ هذا التمثال تخليداً لذكرهِ، ولم يكتفوا بذلك، بل جعلوا الدار الّتي سكنها مدة إقامتهِ بهذا البلد من سنة 1813 إلى سنة 1826 من محلات الآثار المعدودة حيث أَلَّف فيها تآليفهُ الشعريّة الشهيرة، ووضعوا عليها لوحة بها كتابة تدل على ذلك، وهي على الطريق الموصل من محطة السكة الحديد إلى الميدان الكبير.

وبهذه المدينة بعض المتاحف الحيوانيّة والحدائق النباتيّة للوازم الدراسة، فضلاً عما يحدق بهذه البلد من البساتين النظيمة والمتنزهات العظيمة، وينكشف للرائي من أحدها بجهة الشمال الشرقي من المدينة بوغاز سوند

ومدينة مالمو، ويمتد النظر منهُ حتى يرى أبراج مدينة كوپنهاج، فيبتهج بعظم هذه المناظر ولطفها، خصوصاً إذا صادف وقت غروب الشمس وتأثير أشعتها على تلك الجهات البالغة غاية البهاء.

وقد سبق أَنَّهُ نزل معنا من لُونْدْ هذه الپروفسور تِجْنِرْ، ونظن أنهُ لكثرة من كان يحيط بهِ في المحطة، حين مبارحتهِ المدينة من المحتفلين بهِ والمجتمعين لوداعهِ، من نسل تجنر ذلك الذي تقدّم ذكر تمثالهِ والإلماع ببعض آثارهِ، وهو شاب أبيض اللون خفيف الروح لطيف الخَلْق والخُلُق، لا يتجاوز سنهُ الأربعين، تصحبهُ امرأة مُسِنَّة، علمنا أَنَّها والدتهُ، يريد أن يوصلها إلى بلد معلومة تنزل بها، ويستمر هو في السير إلى أستكهلم لحضور المؤتمر ومجتمعاتهِ.

وقد حضر إلينا بالعربة الَّتي نحن بها في أثناءَ الطريق؛ إذ علم من ملابسنا أننا نقصد المؤتمر، فعرَّفنا بنفسهِ، وبقصدهِ، وعرض علينا باللطف وكمال الظرف أن يقوم بما يلزمنا من الخدمة في الطريق، وصار يجلس معنا مرة، ومرة مع والدتهِ، حتى إذا أَنزلها بالمحطة الَّتي تقصدها، اقتصر على جلوسهِ معنا، واشتغالهُ بأَمرنا.

وصرنا في أثناءَ الطريق نتبادل الحديث معهُ باللغة الفرنساويَّة على ما نراهُ من المواضع، وما نشاهدهُ من المناظر، وما نبصرهُ من النباتات والمياه، وما نلحظهُ أحياناً من صلابة الصخور والأَحجار وعدم إِنباتها، مع إحاطتها بالنبات الزمردي من كل جانب دون أن يُكْسَى جسمها الصخري بشيء منهُ.

وانجر بنا البحث إلى ما أَجهد أَنفسهم بهِ هؤلاءِ القوم من التغلب على المستصعبات، وقطع العقبات، في سبيل إنشاءِ هذه السكك الحديديَّة، إذ

لا يخفى ما تستلزم في هاته البلاد الحجريّة من الصعوبة والعناءِ، وصرف طائل المال، فإنهم قد يضطرون إلى قطع الجبل المرتفع مسافات طويلة بالألغام لاعتدال الطريق، وقد يُقيمون الجسور العظيمة، من التراب والأحجار في أواسط البحيرات العديدة، على مسافات طويلة لوضع الخطوط الحديديّة عليها، هذا فضلاً عمّا يقيمونهُ من الكوبريّات على الأنهار، والهُوِيّات والمنخفضات مع ما يلزمها من أعمال البناءِ.

وقد مررنا بعد مفارقتنا لوند بأكمة مرتفعة، عليها شكل هرمي، صار تشييدهُ تخليداً لذكر الصلح الذي حصل بين السويديين والدانيماركيين بعد حرب لوند.

ثم على محطة إسْلُوفْ بالطرف الجنوبي من غابات إسكونيا، وعندها تتفرع السكك الحديديّة إلى جهة الجنوب والغرب والشرق.

ثم على غابات لطيفة من شجر الزان إلى أن وصلنا على محطة «هِسْلهلم» على الجهة الغربيّة من بحيرة «فنجا»، ويتفرع منها فرع بجهة «هلسنجبورج» نحو الغرب، وآخر لجهة «كرِشْتيانْستاد» نحو الشرق.

ثم مررنا بعد ذلك بجهة مملوءَة بالغابات والصخور، تسمى عندهم «سكوج»، ومعناهُ «الغابة» مشهورة في الأشعار الأهليّة ببلادهم، كما أن «لند» معناها الغياض.

واستمر السير بعد هذه الجهة على جهات كثيرة، بين نجود وأغوار وجزر في وسط بحيرات وأكمات، في وسط غابات ومستبحرات ومستنقعات تتخللها أرض مزدرعة ومراعٍ متسعة، أُقيمت في وسطها مساكن منقوشة باللون الأحمر، غطت سقفها الحشائش، وكنائس صغيرة، ومعامل وطواحين تدار بالماءِ على سواحل البحيرات الّتي بها تيار، والوابور يقف على محطات

بين منخفضات ومرتفعات، حتى وصلنا إلى محطة «نِسْيُو» ويتفرع منها فروع كثيرة لعدة جهات، وكانت الساعة 9 و37 دقيقة بعد الظهر أي بعد مسير نحو سبع ساعات.

وكان قد بلغ الجوع منّا حدهُ قبل وصولنا إلى هذه المحطة، وفهم ذلك صاحبنا البروفسور، فدلّنا في أثناءِ الطريق على من اشترينا منهُ بعض بسكويت ولقيمات، منتظرين الوصول إلى هذا المحل، حيث يوجد بهِ من الطعام ما تشتهيهِ الأَنفس، ونزل معنا هذا الصاحب إلى قاعة الأَكل بالمحطة بعد أن أَفهمنا أن الوابور يقف بها عشرين دقيقة، وأَن لا حاجة للاستعجال، وإذا هي محل مستطيل في غاية الاتساع، بوسطهِ مائدة ممتدة، آخذة جزءاً عظيماً من طولهِ ملأَى بالمآكل الفاخرة، من لحوم مشويَّة، وغير مشويَّة من ضأْن وطير وسمك، وأَلوان من الأَطعمة بين سَخْنَة وباردة، وحلواءَ يحيط بها أَطباق صغيرة يأْخذ فيها الإنسان ما يلذ لهُ منها، ويجلس على هذه المائدة إن أَراد إذا وجد متّسعاً أو على موائد غيرها بدائر المحل، أَو يَقِفُ بأَي محل يتكلم مع رفيق، وهو يأْكل، وإذا أَراد طعاماً آخر أَحضرهُ بنفسهِ لنفسهِ، فإنهُ لا خادم، ولا مُراقب ثمة، فمن أَراد شرب بعض المسكرات لا يجد إلّا البيرة، فيفتح من القناني ما يريد.

أما اللبن والشاي فيجد منهما على مائدة مخصوصة كثيراً، فإذا أكل وشرب خرج من هذا المحل، من غير أَن يعارضهُ أحد من الناس، وتوجه من تلقاءِ نفسهِ إلى صاحب المحل حيث هو في محل خارج لا يرى الآكلين، ولا يعرف ماذا أكلوا، فيُخْبِرهُ الإنسان بما أَكل أَو شرب بالأَمانة، سواءً أكل أكلة كاملة، أو شرب قدح شاي أو لبن أو بيرة، فإن أخبر أنهُ أكل أكلة كاملة أُخذ منهُ عن أكلتهِ كوروناً ونصفاً، وإن أَخبر أنهُ شرب

قدحاً من الشاي أو اللبن أو البيرة أُخذ منهُ ثمنهُ فقط، ولما خرجنا إلى صاحبة هذا المحل أخبرها صاحبنا أننا أكلنا أكلة كاملة، وأعطيتها قطعة من العملة فأعطتني باقيها إلّا كوروناً ونصفاً، فتعجبنا من ذلك لقلة ما أَخذت بالنسبة إلى ما أكلنا، وكنا أَربعة فأخبرها صاحبنا أن الآكلين أَربعة، فاعتذرت عن غلطها بأَنَّها ظنَّت أن الآكل واحد، وأخذت الباقي متشكّرة، أَما صاحبنا البروفسور، فكان شرب قدحاً من اللبن والشاي فقط، فأَعطاها ثمنهُ ليس إلّا مع أَنهُ كان معنا داخلَ المحل.

فانظر إلى هذه الأَمانة، وهذا الائتمان، ولعمري لو اتُّبعت طريقة هذا المحل في غير هذه البلاد لما استمر أسابيع حتى يُغلقَ، فإن الناس يكونون بين من يكذب وبين من يهرب، ولكن أَبَتْ مروءة هؤلاءِ القوم إِلّا الأَمانة فأصحاب أَمثال هذا المحل في راحة بال واطمئنان خاطر، لا يخشوْن خيانة ولا خسائر.

وبعد أن عدنا إلى الوابور، أخذنا نتذاكر مع صاحبنا في هذا الشأن، ونطيل التعجب منهُ، فأَخذ يُعَرّفنا حال الأَمانة عندهم واستحالة السرقة ببلادهم؛ لأَنَّهم يستقبحونها، ويعدونها من العيوب العظيمة، فلا يقدمون عليها أَصلاً، حتى أخبرنا أَنَّهُ لا يغلق على دراهمهِ باباً، ولا على ما في منزلهِ من الأثاث وأن غيرهُ كذلك.

وساقنا الحديث في أَمانة أهل هذه البلاد، إلى أن سأَلناهُ عمّا رأَيناهُ بكتاب الدليل، من أن السائح في نواحيها إذا ألزم لهُ شيءٌ وعجزَ عن تَفَهُّم ثمنهِ، لعدم معرفتهِ بلغة أهلها، أَخذ هذا الشيء ممن يبيعهُ، فلاحاً أو تاجراً، وأعطاهُ كيستهُ فيأْخذ البائع منها قدر الثمن لا غير، فأخبرنا بصحة ما ذكرهُ ذلك الكتاب، ولعمري إن هذا لغاية ما يفتخر بهِ.

وقد أشرنا إلى صاحبنا أَننا نريد قهوة، فطلب من أَحد خدم قهوة المحطة أن يأْتينا بقهوة، فأحضرها في صينيّة بها فناجيل بقدر عددنا، وما أَخذنا في الشرب حتى سار الوابور، وبقيت عندنا أَواني القهوة، ولم ندفع ثمنها إلى أن وصلنا إلى المحطة التالية فحضر خادم قهوتها، وأَخذ الأَواني والثمن ونعمت العادة.

وكان آن وقت النوم، ورأَى صاحبنا منا إرادة ذلك، فأَخذ يرينا أَن المجالس الَّتي نحن عليها تُمَدُّ فتزيد، إلى أن تلتقي بالمجالس المقابلة لها، حتى يتكوَّن من الجهتين سرير عظيم يسع من ينام.

هذا وإِنْ أتعب المسافر طول جلوسهِ في محل واحد، فإِن لهُ أَن ينتقل ويتمشى من أَول القطار إلى آخرهِ، وذلك لأَنَّ العربات فيهِ على الطراز المستطيل المستعمل عندنا في بعض القطارات، بجوار غرف الجلوس فيها ممشى طويل ممتد من عربة إلى أُخرى، حتى يصل الإنسان بواسطتهِ من أول القطار إلى آخرهِ بدون أَن يُؤذي أحداً، فإِن كل غرفة من العربة مغلق بابها على من فيها، وبدون أن يتأذى هو من البرد أو المطر؛ فإن الممشى مغطاة مغلقة نوافذها، فلا يتأَثر من فيها ببرد ولا مطر ولا هواءٍ، وهذا كلهُ فضلاً عن إتقان العربات، وحسن هيئتها، ورونق فرشها، وانتظام محلات الأَدب بها، مع سهولة الوصول إليها، مما جعل هذه العربات تماثل عربات أَحسن البلاد الَّتي سرنا بها إلى الآن.

ولا شك أَنَّ هذا الطراز في العربات أَحسن طراز، لاسيما في الأَسفار الطويلة، بخلاف الطريقة الَّتي تكون فيها العربات منفصلات، كل واحدة منها مقسّمة إلى عدة عيون منفصل كلٌّ منها عن الأُخرى، تُفتح أَبوابها على الرصيف من الجهتين كالمستعملة عندنا غالباً، فإِنَّها لا توافق حالة البرد، لأنهُ

بمجرد خروج الشخص منها وفتحهِ الباب يدخل الهواءُ العربة، فيملأُها، ولا يخفى تضرر الرفاق من ذلك، ولأَنَّ الإنسان لا يتأَتى لهُ المشي فيها، ولا الانتقال في أثناءَ سير الوابور منها إلى عربات أُخرى للالتقاءِ بمعارف، أو للفسحة، أو لداعٍ آخر إلّا عند الوقوف بالمحطات.

وقد يضطر مع ذلك لأَن يبقى ما بين المحطة الَّتي نزل منها إلى المحطة التالية لها عند صاحبهِ الذي سار إليهِ، لعدم طول مكث الوابور بالمحطات، وقد لا يكون بعربتهِ محلٌّ خالٍ، وقد يكون المطلوب للمتنقل لا يستلزم طول مسافة، ويكون بين المحطتين مسافة طويلة، ولأَن محلات الأَدب فيها قد لا توجد، أو توجد مع المشقة في الذهاب إليها والإِياب منها، والمكث عندها. كما في القطارات الفرنساوية، فإِن العربة المخصصة بذلك فيها مجاورة للعربة الموضوعة بها الأَمتعة، وهي الَّتي يليها الوابور، ولا يتأَتى الذهاب إليها إلّا عند الوقوف بإِحدى المحطات، فإِذا دخلها الإِنسان اضطر إلى المكث بها حتى يقف الوابور ثانياً، والسبب في ذلك أَنَّ مُدّة وقوف الوابور بالمحطة لا تسع الذهاب إليها، والدخول فيها، وقضاءَ الحاجة، والعودة منها إلى المحل الأصلي، نعم، يجد القاصد أَمام المحل المعهود مكاناً مفروشاً بفرش حسن، وربما وجد بهِ رفاقاً اضطرهم إلى البقاءِ فيهِ ما اضطرهُ، لكن لا يخفى أن المكث في مثل هذا المحل غير مستحسن ولو قصرت المدة.

وأَحسن العربات المنفصلة ما رأَيناهُ منها في إيطاليا أو السويسرة، وهو أن الواحدة منها، وإِن كانت منفصلة عن غيرها، إلّا أن غرفها متّصل بعضها ببعض، ويوجد في إحداها المحل المعهود بدون المشقة السابقة.

وأَحسن العربات كلها راحة ما يسمى «واجُونْ لي» ومعناهُ عربةُ سريرٍ، فإِن الإنسان لهُ بها نهاراً محل متّسع يُفرش عليهِ فراشٌ ليلاً، فيكون سريراً

لنومِهِ، كأنما هو في دارِهِ، وذلك متيسّر في جميع قطارات الأسفار البعيدة، لكن بزيادة على الأُجرة المعتادة.

هذا وقد فعلنا كما أعلمناهُ صاحبنا البروفسور تجنر من تمديد ما كنا جالسين عليهِ، واتصالهِ بما قابلهُ، فكان كما قال، وكان معنا عباءةٌ ومنسوج من الصوف يمسى «كُوفِرْبِيِيهْ»، وهو كثير النفع في الأسفار، يوضع على الأرجل فيدفئها، وجعلهُ في الأصل لذلك كما هو ترجمة اسمهِ، وإن كان ينفع لغير ذلك، مثل أن يتغطى بهِ الإنسان وقت البرد ليلاً في مثل هذه الأسفار، وفي فنادق لم يكن بها الغطاءُ كافياً، إلى غير ذلك مما ينبغي أن يستصحبهُ الإنسان لهُ، وثمنهُ مع ذلك غير كثير، فإنَّهُ يكون من عشرة فرنكات إلى مائة فرنك، فأكثر بحسب اختلاف أصنافهِ، فأخذهُ سيدي الوالد، واختصصت بالعباءة كالمعتاد، وتغطينا ونمنا مع الراحة.

ولولا الليل وظلامهُ والنوم وأحكامهُ، لتمتعنا بالمناظر الحسان المحدقة بنا من كل مكان، فإنّا إذ ذاك كنا سائرين في أرض من أخصب أرض السويد، وأحسنها منظراً، يحدها من جهة الغرب بحيرة «فِتَّرْ»، ومن جهة الشرق بحر البلطيق، وتتخللها الأنهر والبحيرات الكثيرة والشلالات العظيمة الكبيرة، ثم لم نُفق من النوم إلّا بعض دقائق، وإذا قد وقف بنا الوابور على محطة «لُنْكُوبِنجْ»، وهي بلدة متّسعة على ما ذكر في كتب الأدلة، تتعلق بها وقائع حربيّة مشهورة في تاريخ السويد، يبلغ سكانها أكثر من 11 ألف نسمة، ولكننا مع ذلك لم نميز منها شيئاً، وما لبثنا أن بارحها الوابور، وعدنا إلى النوم.

وما استيقظنا ثانياً إلّا وقد وصلنا إلى «نُورْكُوبِنجْ» البلدة العظيمة الأهميّة الشهيرة في السويد بالتجارة والصنائع ومعامل الجوخ والصوف والقطن

ومعامل السفن الحربيّة والتجاريّة، حتى سميت «منشستر السويد» البالغ عدد سكانها 28500 نسمة، يخترقها نهر «مُوتالا» حيث مصبهُ خليج «برَيفِكْ» الممد من بحر البلطيق، فأهميتها ناشئة من اتّصالها بهذا البحر، واختراقها بذلك النهر، ففارقناها، واستمر بنا السير حتى وصلنا محطة «كَتْرِنْهُلْم»، وقد طلع الفجر، فبهرتنا مناظر البحيرات وكثرتها، والمزروعات ونضرتها، والمساكن وبهجتها.

وكلما تقدمنا بعد ذلك وتقدّم النهار وانتشرت أَشعة الشمس زادت المناظر بهجةً وحسناً، حتى وصلنا مدينة «سُودِر تسلجه» الزاهرة، ومتعنا الطرف بما يحيط بها من المرائي الباهرة، وما تشتمل عليهِ من القصور الفاخرة الّتي يسكنها أغنياءُ أستكهلم في غير فصل الشتاءِ، وما لبثنا أَن تجاوزناها سائرين، إلى أن مررنا بمنفذ في الجبل طولهُ 277 متراً، ثم اجتزنا بحيرة «أَرسْنَافِيكْ» على جسر ممتد عليها طولهُ 270 متراً، وعن يسارهِ بحيرة «مِيلار» الشهيرة، ثم مررنا بمحطة أستكهلم الجنوبيّة القديمة دون أن نقف بها، بل سار بنا الوابور بعد ذلك في منفذ تحت الأَرض طولهُ 417 متراً، ثم على كوبري من الحديد ممتد على بحيرة «مِيلار»، طولهُ 222 متراً، واصل إلى جزيرتي «سْتَادِنْ» و«رِيدّارْهُلْمنِ» في وسط البحيرة، وعليهما جزءٌ من المدينة، ثم منهما على كوبري آخر من الحديد طولهُ 247 متراً مارّ بالبحيرة أيضاً، حتى وصلنا إلى محطة أستكهلم المركزيّة، والساعة سبعة وخمس دقائق صباحاً من يوم الجمعة 30 أُغسطس سنة 1889، بعد أن سرنا من مالمو إليها أكثر من ست عشرة ساعة، قطع الوابور فيها 616 كيلومتر.

فلما نزلنا من الوابور لم نجد بالمحطة صاحبنا الذي كنا نظن أَنَّهُ ينتظرنا بها عند حضورنا، ولا أحداً من قِبَلِهِ، ولم نعلم هل حجز لنا غرفاً في أَحد الفنادق، مع أَنَّهُ وعدنا وهو بمصر أنهُ يُرسل من ينتظرنا في حدود السويد، وأَن يكون دليلنا بها، فضلاً عن الانتظار، بمحطة أستكهلم، وأَنهُ يُرسل إلينا بمصر قبل مبارحتنا لها، وبعد سفرهِ منها بمسافة قليلة، الخرائط وكتب الأَدلة الَّتي تلزمنا في جميع سياحتنا، وأَخذ بذلك مُذَكَّرَةً، فلم يصلنا شيءٌ مما وَعَدنا بهِ، اللَّهُمَّ إلَّا كتاباً عربي العبارة تاريخهُ 25 يونيو سنة 1889 موجوداً عندي إلى الآن، أَرسلهُ إلى سيدي الوالد طلب فيهِ أن يتوسط لهُ في مِنحة من الجناب العالي، فقام سيدي لدى سموهِ بالتوسط فيها، فأَجاب سموهُ، ووعد بإنجاز ذلك لهذا الصاحب في المستقبل، فكتب سيدي الوالد إليهِ ونحن في أثناءِ السفر بإحدى مدن إيطاليا كتاباً أخبرهُ فيهِ بما ذكر، وما كنا نظن أَن ذلك يوجب حَنَقاً وغيظاً مع ما كان يظهرهُ لنا من خالص الود والمحبة.

ولكن عوَّضنا الله بَدلهُ صاحبنا الفاضل البروفسور تجْنِر، فإنهُ فضلاً عن نفعهِ لنا في الطريق كما تقدَّم، هَوَّن علينا الأَمر بلطف محادثتهِ، وحسن مؤانستهِ، وصحبنا إلى المدينة، وأَنزلنا «بجراند أُوتيل» أَحسن فندق فيها، وصار يتردد إلينا، ويدلنا على أَهم مواضع المدينة، وأَماكن الآثار، ومحالّ التفرج والتنزه، ويخرج معنا، ويصحبنا في ذلك، وقد تجدد لنا أَصحاب آخرون من أَفاضل أَعضاءِ هذا المُؤتمر، كانوا كثيري التردد إلينا، والاحتفال بأَمرنا، والدلالة على ما يسرنا والحرص على مُصاحبتنا في أثناء مجتمعات المؤتمر، وخلال ولائمهِ واحتفالاتهِ، ليلاً ونهاراً، بأستكهلم وغيرها من بلاد السويد والنرويج الَّتي ذهبنا إليها.

وكان الأَوْلَى من هؤلاءِ جميعاً صاحبُنا القديم؛ نظراً إلى ما كان بيننا بمصر من التودد وسابق العشرة والتردد.

وقد تذكرتُ حال هذا الصاحب عند كتابتي هذا الموضعَ، وقارنت سابق أَقوالهِ بلاحق أفعالهِ، وما أَمَّلتهُ فيهِ بما رأَيتهُ منهُ، وقابلت وعودهُ بِخُلفها، وعهودهُ بخَفْرِها، فعاد لي التأَثر القديم، ورأَيتُ القلم جنح إلى التفصيل والإِطناب والتطويل والاستيعاب، فأمسكت عنانهُ خشية أَن يَنْجَرّ إلى ما لا يُستطاب، وقلت: ليس هذا بأَوَّل صاحب فيهِ الأَمل خاب.

* * *

(وصف مدينة أستكلهم)

قد خصصتُ هذا الفصل بوصف مدينة أستكهلم، وما اشتملت عليهِ، لا باعتبار تفرّقهِ على أيّام إقامتنا بها؛ لأن ذلك أجمعُ للذهن، ولتتفرغ بعدهُ لذكر المؤتمر ومقابلاتهِ واجتماعاتهِ، وجميع متعلقاتهِ إن شاءَ الله تعالى.

أستكهلم عاصمة بلاد السويد، وهي مدينة يسكنها 215000 نسمة، واقعة على ″34–′21–°59 من العرض الشمالي وعلى ″19–′43–°15 من طول شرقي باريس، قائمة على مصب بحيرة «ميلار» – العذبة الماءِ – في خليج عميق من خلجان بحر البلطيق يسمى «سَلْتَسْيُون»، ومعناهُ البحيرة الملحة، وهو للمدينة بمثابة ميناءٍ عظيمة، وإن كانت تغطيهِ الثلوج مسافة أربعة أشهر أو خمسة في السنة.

وبناؤها قائم على جزر وسهول ومرتفعات، تجعل منظرها غريباً عجيباً، بحيث يصح تشبيهها بمدينة وينيسيا أو جَنَوَة أو غيرهما من مدن أوروبا الجنوبيّة الشهيرة بالمياه والمناظر اللطيفة.

وتنقسم إلى ستة أَقسام:

– **الأول:** القسم المسمى «سْتَادِنْ» أي: المدينة القديمة، وهو قائم على أكبر جزر بحيرة ميلار يتوسطها وبهِ القصر الملوكي، ويتبعهُ جزيرتان: إحداهما: جهة الشمال منهُ واسمها «رِيْدارْ هُلْمِنْ»، والأخرى جهة الغرب منهُ، واسمها «هِلجِنْسُهلْمِن»، وهذا القسم أهم بُقْعَةٍ في المدينة بالنسبة للتجارة.

- الثاني: قسم «نُورزمَلْم»: وهو شماليُّ المدينة والبحيرة، ويتبعهُ جزيرة «بلاَزِيهُولْمِن»، وهو أجمل أقسام المدينة وأنظمها، وبهِ الشوارع المتّسعة والميادين الفسيحة والمحطة المركزيّة الّتي نزلنا بها والفنادق المعتبرة.

- الثالث: قسم «أُوسْتِرْمَلْم»: وهو شرقي القسم الثاني، ومشابه لهُ في الانتظام واتساع الشوارع.

- الرابع: قسم «كُونْجِسْهُلْم»: وهو غربي القسم الثاني، وفيهِ كثير من المعامل والمصانع والمستشفيات.

- الخامس: قسم «سُودِرْ مَلْم» أي: الناحية الجنوبيّة، فإنهُ جنوبي البحيرة والمدينة، وهو أكبر الأقسام اتساعاً، وإن كان أَقلّ أهمية من باقي الأَقسام.

- السادس: قسم «سَالْستِيُو إِرْنِة» أي: قسم جزر البحيرة الملحة، ويشتمل على جزر «سْكِيپسْهُلْمِن» و«كَسْتِلْهُلْمِن» و«دِيُورْجَارِدِسْتادِنْ»، ويتّصل بها جزيرة «بِكْهُلْمِنْ».

وأَقسام المدينة يُتوصل من بعضها إلى بعض بكوبريات، أهمها الكوبري المعروف بكوبري القناطر، وهو يوصل من قسم «سْتادِن» إلى قسم «سُودِرْمَلْم»، ثم كوبري «نُورْبْرُو»، أي: القنطرة الشماليّة، وهو يوصل من قسم ستادن المذكور إلى قسم نور ملم ثم كوبري «وازا»، وهو يوصل بين هذين القسمين أيضاً من جهة أخرى.

ولنتكلم على هذه الأَقسام مبتدئين بقسم «سْتَادِن»، ثم نأْتي بعدهُ على أقسام الشمال الثلاثة، ثم قسم الجنوب، ثم قسم جزر البحيرة الملحة.

(قسم سْتادِن): يتوصل إلى هذا القسم من كان بالأَقسام الشماليّة الّتي بها

الفندق الذي نزلنا فيهِ بواسطة الكوبريِ المسمى «نُوزبُرُو» الممتد على أَحد محال انصباب بحيرة «ميلار» بخليج «سَلْتِسْيُون»، وهو مبني من الحجر الصوان، فوق عمد منهُ بهِ سبع قناطر، مشغولةٌ جهتهُ الغربيَّة بدكاكين يُباع فيها كثير من الأشياءِ، وجهتهُ الشرقيَّة بحديقة، ويقصدهُ الناس فَيَرَوْن أَحسن مناظر استكهلم حركةً وتجارةً وظَرْفاً ونضارةً.

وبالجهة الشرقيَّة من هذا القسم رصيف مبني بالحجر الصوان في غاية العظم والمتانة ترسو عليهِ المراكب التجاريَّة.

وتجاه هذا الكوبري، **القصر الملوكي** في الزاوية البحريَّة الشرقيَّة من الجزيرة على مرتفع من الصخر، وقد ابتُدِئَ في بنائهِ سنة 1697، ولم يتم إلَّا في سنة 1753 بعد أن تعطَّل العمل فيهِ زمناً لمناسبة بعض الحروب، ويشتمل على طبقة أَرضية، وعلى ثلاث طبقات أَعلى منها، وشكلهُ مستطيل، طولهُ 123 متراً، وعرضهُ 116 متراً، في وسطهِ رحبة متّسعة مربعة تقريباً، وسُقُفهُ غير محدّبة، فلا تظهر للرائي من الخارج، ولوِجهتهِ الشماليَّة والجنوبيَّة جناحان طالت بهما هاتان الوِجهتان، حتى قارب طولهما بسبب هذين الجناحين ضعف الأَصل، ويصعد إلى وِجهة هذا القصر الشماليَّة من جهة الكوبري، بمنحدر متقن الصنع يسمى «مطلع الأَسدين» نظراً إلى صورتي أَسدين مجسمتين، موضوعتين في أَوَّل هذا المطلع، من صنع أَحسن المصوّرين الوطنيين، وللقصر مدخلان غير هذا، أَحدهما من جهة الغرب، وهو مدخلهُ الأَصلي، والثاني من جهة الجنوب.

وأَحسن محلاتهِ «قاعات المواسم والاحتفالات»، وهي في الطبقة الثانية منهُ، فمنها قاعة «ضباط الحرس»، منقوشة بأَحسن النقوش وصور الأَسلحة

المختلفة، ومنها «قاعة الرقص والموسيقا»، و«قاعة الاستقبال»، و«القاعة الحمراء»، وسقوف جميعها وجدرانها فيها رسوم وقائع تاريخيّة متعلقة بالبلاد، ومنها «القاعة الكبيرة»، وطولها 48 متراً، وعرضها سبعة أمتار، و«قاعة الاحتفالات»، وطولها 41 متراً وعرضها 35 متراً، وهما منقوشتان بأحسن النقوش والصور، ويكثر فيهما التذهيب والزخرفة.

وفي الطبقة الأُولى «قاعة سيرافين» نسبة إلى أرقى النياشين السويديّة وأعلاها، (وهي الّتي قدّم واحداً منها في 19 أبريل سنة 1891 الموافق 10 رمضان سنة 1308 صاحبُ المقام السامي ولي عهد الحكومة السويديّة، وهو بمصر إلى المغفور لهُ الجناب العالي الخديوي مُحمَّد توفيق الأَوَّل، وفي هذه الطبقة أيضاً قاعة «المجالس الشورويّة» وهي الّتي يفتتح فيها الملك المجالس المذكورة، ثم «قاعات سكنى الملك إسكار الثاني المُعَظَّم» وبجوارها «قاعات سكنى الملكة قرينتهِ»، وفيها أيضاً من الجهة الشرقيّة محلات سكن صاحب المقام السامي ولي العهد، وقاعات سكن حرمهِ المحترم، وبجنوب رحبة السراي كنيسة القصر.

وتجاه وِجهة القصر الجنوبيّة ميدان واصل إلى البحيرة بانحدار أُقيمت فيهِ مِسلة ارتفاعها ثلاثون متراً، تذكاراً للوفاءِ الذي لقيهُ الملك غوستاوْ الثالث من أهالي أستكهلم في حروب فنلانده، من 1788 إلى 1790 حين انحراف أشرافها عنهُ، وانتصارهم لأعدائهِ، وقد أقام هؤلاءِ الأَهالي لملكهم هذا في مقابلة ذلك تمثالاً مجسماً على الميناءِ.

وغربي هذا الميدان «الكنيسة الكبيرة» - أنشئت سنة 1264 - وتحتوي على نقوش نفيسة وأَعمال بديعة بالفضة والعاج والأَبنوس، وعلى شمعدان

ذي سبعة فروع من النحاس أهداهُ إليها بعض الملوك في القرن الرابع عشر، ولوحتين كبيرتين من الرسم تمثّل إحداهما يوم الحشر والحساب.

فإذا مشى الإنسان من هذا الميدان قليلاً، وصل إلى «الميدان الكبير»، وهو واقع في منتصف هذا القسم، وأعلى محل فيهِ وبإحدى جوانبهِ محل البورصة، وقد بنيت من سنة 1767 إلى سنة 1776.

وقد حصلت في هذا الميدان حوادث كثيرة سفكت فيها الدماء، وقتل في إحداها الملك «مانيوس لادولاس» سنة 1820 ثلاثةً من عائلتهِ، وأبشعها الحادثة الشهيرة «بحمّام الدم» فإن كرستيان الثاني ملك الدانيمارك قتل فيها في يومي 10 و11 نوفمبر سنة 1520 خلقاً لا تُحصى، طمعاً في تثبيت سلطتهِ على بلاد السويد، ولكن ما لبث أن حبط سعيهُ، وزال ملكهُ عن هذه البلاد، وخلّص غستاؤ وازا مُلْكَها من يدهِ سنة 1523 لنفسهِ ولعائلتهِ بعدهُ.

وفي الجهة الغربيّة الشماليّة من هذا القسم «ميدان ريدّازهُوسْتْ» قائم بهِ تمثال غوستاؤ وازا مخلّص هذه البلاد من أيدي الدانيماركيين، أقامهُ لهُ الأشراف عام 1773 المتمم مائتين وخمسين عاماً من حين تخليصهُ البلاد من الدانيماركيين.

وعلى هذا الميدان «سراي رِيدّازهُوسْت» المعروفة أيضاً بسراي الأشراف، – بنيت من سنة 1648 إلى سنة 1670 –، وفي الطبقة العليا منها، قاعة الأشراف كان يجتمع فيها مجلسهم النيابي إلى سنة 1866 مُحلّى جميع جوانبها بشعائرهم، وفي الطبقة الأرضية قاعة كبيرة مثلها فيها

صور الماريشالات الذين كانوا من أعضاءِ المجلس النيابي من سنة 1627 إلى سنة 1865 .

وهذه السراي هي الّتي تخصصت بعقد جلسات المؤتمر فيها عام حضورنا بهِ، وسيأتي تمام الكلام عليها عند ذكر انعقاد المؤتمر ومجتمعاتهِ.

وفي منتهى هذا الميدان، كوبري يوصل إلى جزيرة «رِيدّازهُلْم» الصغيرة، وأشهر ما بهذه الجزيرة كنيسة رِيدّازهُلْم، ولها برج عالٍ يبلغ ارتفاعهُ تسعين متراً، وقد جُعلت منذ زمن مقبرةً لملوك السويد وعظمائهم، وبجدرانها نقوش شعائر الّذين حازوا نياشين «سِيرَافين» من أهل هذه الديار في حياتهم.

وبها أيضاً سراي المجالس النيابيّة، وسراي المجلس العالي السويدي، فإذا جاوز الإنسان هذه الجزيرة إلى الكوبري الممتد منها إلى جهة الشمال، وتعدّاهُ، وجد جزيرة صغيرة أُعدت بها مدرسة لتعليم السباحة من طرف البلديّة منذ عهد قريب، سيأتي الكلام عليها في فصل مخصوص.

(الأقسام الشماليّة): وهي ثلاثة كما تقدّم قسم الشمال الوسطي وشرقيُّهُ وغربيُّهُ، ولنبدأ الكلام فيها بالفندق الذي نزلناهُ بالقسم الوسطي.

وهو على رصيف متّسع تجاه القصر الملوكي، يفصل بينهما قسم من البحيرة الملحة، بناهُ رجل فرنساوي اسمهُ كاذِبِيه بترغيب الملك لهُ، وتشجيعهِ عليهِ، وقد اعتنى في تشييدهِ كل الاعتناءِ، فجاءَ مماثلاً لأَحاسن فنادق أُوروبا المعدودة من الدرجة الأُولى، وسمّاهُ «جْرانْدْ أوتيلْ»، وجعلهُ ذا خمس طبقات بعد الطبقة الأَرضيّة، ويشتمل على مائتين وخمسين حجرة، وعلى نحو عشر صالونات للمسافرين الأَعاظم، وخمس للأَكل والمجتمعات والمواسم والولائم، يسع الواحد من هذه نحو مائتي نفس،

وفيهِ كثير من المُرْقِيَاتْ، ومحلات المطالعة والاستراحة، وحمامات متعددة، ومحل قهوة، ومحل للجرائد من سائر جهات العالم، وبهِ الحلاقون، كل ذلك بغاية الزخرفة، فالصالونات المخصصة بعظماءِ المسافرين، والعموميّة مزينة مذهبة مفروشة بأبهى الفرش وأغلاها، وأبهج البسط وأعلاها، وجميع محلاتهِ مرونقة متقنة الطلاءِ، فكأنما هو قصر ملوكي، وقد صرف عليهِ منشئهُ مبالغ طائلة، فقد بلغت مصاريف البناءِ والفرش واللوازم ثلاثة ملايين من الكورونات، وبلغت أثمان أدوات المائدة وما يتعلق بها مليونين، فبلغ الجميع خمسة ملايين، فإن قيل: إنّ في الرواية بعض غلو قلنا: إنهُ ليس بعجيب أن يُصرفَ هذا المبلغ في شؤون محل، وشراءِ أرضهِ وإنشائهِ مُعَدٌّ لأن يسع القدر الوافر جداً من الناس، مع ما يلزم لهم من الاستعدادات، مستضاءٍ جميعهُ بأنوار الغاز، ووجهتهُ قد وُضعت فيها المواسير من سائر جهاتها من الأسفل إلى الأعلى لتُستضاءَ بها متى استلزم الحال ذلك، فتصيرها كرابعة النهار، وتسطع على ما جاورها من البحور والأنهار. مستعِدٌّ لنزول الملوك والأمراءِ والعظماءِ، وإتقان صنعهِ، والاعتناءِ بشأنهِ وكثرة خدمهِ، وجعلهِ في أحسن موضع من المدينة، تُضاهي هيئتهُ فيه الحسن والجمال، هيئة القصر الملوكي القائم أمامهُ، بل تزيد، لولا ما يتصورهُ الخيال في ذلك القصر عن الأُبهة والجلال.

وإذا مشى الإنسان على الرصيف المذكور متجهاً نحو الغرب مرَّ بمتنزهٍ على البحيرة معروف «بحديقة السلطان» في قسمهِ الذي من جهة الميناءِ صورة كارلوس الثاني عشر مجسمة، وفي قسمهِ الآخر صورة كارلوس الثالث عشر، وهو أحب ملوك السويديين إليهم، وبوسطهِ فسقيّة عظيمة.

وإذا تخطّى هذا المتنزه، وسار قليلاً على الرصيف وصل إلى ميدان

«غستاوْ أَدلف»، وهو أَمام القنطرة الشمالية الّتي سبق ذكرها، وسمي بذلك نسبةً إلى الملك غستاوْ أدْلف لقيام تمثالهِ فيهِ سنة 1796، ويجتمع بهذا الميدان في اليوم السادس من شهر نوفمبر كل سنة الذي هو يوم وفاتهِ جموع كثيرة، ينشدون الأَناشيد الوطنيَّة، ومنها نشيدُه الذي أَلَّفهُ أيام حرب لهُ مشهور.

وعلى يمين هذا الميدان قصر يعرف «بقصر ولي العهد»، وقد بني من سنة 1783 إلى سنة 1793، وعلى شمالهِ فندق ريدبرج، وهو لصاحب الفندق الذي نزلناه بهِ أيضاً معدود من أَحسن فنادق البلدة، وعلى يمينهِ التياتر الكبير، بناهُ الملك غستاوْ الثالث من سنة 1775 إلى سنة 1782، وكان محبّاً للأَدب وأَهلهِ، معتنياً بشأْنهِ، محط رحال الأدباءِ والشعراءِ والعظماءِ، ومطمح أنظار المشتغلين بفن الموسيقا والأَناشيد، فتقدمت في زمنهِ الأدبيات السويديَّة تقدماً عظيماً.

ويتفرع من ميدان غوستاو أدلف هذا طريق «فِريدِسْجَاتِنْ»، ومعناهُ طريق الصلح، وهو كثير الحركة، توجد بهِ أكاديمية الفنون المستظرفة، ومحل البوستة العمومي.

ويتفرع من الميدان والطريق المذكورين كبار طرق أستكهلم، وأكثرها اتّساعاً ونظاماً، أخصّها «درُوتِنْنجَاتَنْ» طريق الملكة «ورِيجرِ نْجِسْجاتَنْ» طريق نائب الملكة.

وعلى طريق الملكة هذا بعد مجاوزة أَولِهِ ببعض دقائق «المتحف الشمالي»، والمقصود منهُ معرفة أَحوال الشعوب في الشمال من سويديين ونورويجيين، وعوائدهم وطبائعهم كيف كانت في الأَزمان الغابرة، وكيف

كانت فيها ملابسهم، وآلات زراعتهم وصناعتهم وأسلحتهم، وهو وإن كان حديث الإنشاءِ لأَنَّهُ أُنشئ في سنة 1873، لكنهُ اجتمع فيهِ من الأشياءِ ما لم يتيسر بغيرهِ في أزمان طويلة، وهو كل يوم مع ذلك في ازدياد، حتى إنَّهُ زيد على محلاتهِ الأُولى أماكن أُخر كثيرة.

ويحتوي هذا المتحف على كثير من القاعات رُصَّت فيها الأشياءُ بحسب كل صنف من الملابس والأَدوات والآلات والأَسلحة والفروشات، كل مع مثلهِ، وبحسب التواريخ، حيث رُوعي في ترتيبها أَنْ يكون الشيءُ مع معاصرهِ في التاريخ، وبحسب البلد والإِقليم، ففُصِلت فيهِ الأشياءُ المتعلقة ببلدٍ أَو إِقليم عن غيرها، فيا لهُ من متحف بديع، جمع فأَوعى، ويا لهُ من منبئ يخبر الإنسان من أَهل هذه البلاد، كيف كان أَهلهُ يصنعون في الأَزمان الخالية، وكيف كانوا يتعيشون، وكيف كانوا يلبسون، وكيف ترقى بهم الحال إلى ما وصلوا إليهِ في المآل، ولا شك أَنهُ إذا قارن الحال بالماضي يظهر لهُ الفرق، ويعجبهُ حالهُ، وَيَنْعَمُ بالهُ، ولكنهُ وقد علم أن الجد في السعي واسطة النجاح يجتهد في العمل إلى بلوغ الأَمل، ويَحُثُّ نفسهُ على الاستمرار في التقدُّم إلى الأَمام، حتى ينال من السعادة أوفاها، ومن الثروة أَقصاها، ومن المعيشة أَهنأها، ومن الأَمانيّ أَرْقاها.

وعلى هذا الطريق أيضاً سراي أكاديمية العلوم، وقد تأَسست سنة 1741، وكان أَوَّل رئيس لها دَهْ لِيبِنِّيهْ، النباتي الشهير، وعدد أعضائها الآن 175 عضواً، منهم 100 سويديون ونرويجيون.

وينتهي هذا الطريق بمحل الرصدخانة، وهو على مرتفع يرى الرائي منهُ أَحسن المناظر.

وبهذه الجهات البستان الشهير باسم «هُمْلْ جِيرْدِنْ»، أنشئ في القرن السابع عشر، ويحتوي على كثير من الأشجار اللطيفة.

وفي القسم الجنوبي، من هذا البستان «الكتبخانة الأهليّة»، وقد بُنيت من سنة 1870 إلى سنة 1876، وتحتوي على أكثر من مائتي ألف مجلد، منها ثمانية آلاف بخطّ اليد، وفي هذه كثير من الغرائب والكتب النادرة منها نسخة توراة باللاتينيّة، عليها هوامش بخط لُوتِيرْ، صاحب مذهب البروتستانت المشهور.

هذا وبشرقي الفندق الذي نزلنا بهِ «نَتْسِيُونال مُوزِيتْ» - المتحف الأهلي -، وقد بني من سنة 1850 إلى سنة 1865، وهو بناء مرتفع متقن لهُ وجهة عالية يشتمل على طبقة أرضيّة بها «المتحف التاريخي»، و«متحف الميداليات»، وعلى طبقة أعلى منها بها «متحف الصناعات» و«متحف الصور المجسمة»، وعلى طبقة ثانية بها «متحف الرسومات والتصاوير».

وأوّل ما يستوقف النظر بالطبقة الأرضية، ثلاث صور مجسمة كبيرة في الدهليز، تمثل معبودات أهل الشمال الثلاثة في الأزمان القديمة، وهي «أُودِينْ» و«تُوزْ» و«فْرَيْزْ».

ومجموعة «المتحف التاريخي» ابتدئ في جمعها في القرن السابع عشر، ولكنها زيدت كثيراً في هذه الأيام بهمة المسيو هِلْدِبْرَانْد رئيس المتحف الملوكي، وهو الذي ذكرنا إعلانَ انتظارهِ لأعضاءِ المؤتمر بثغر مَالْمو عند وصولنا إليهِ، وتشتمل هذه المجموعة على جميع الآثار العتيقة الّتي عُثِر عليها بالسويد، من الأسلحة، وأدوات المهرجان، والزينة والأدوات المنزليّة، وهي من أجمع المجموعات الّتي من هذا القبيل.

ويحتوي «متحف مصنوعات الفخار والصيني» على 4500 مصنوع من صنيع أشهر الصناع في سائر الأمكنة والبلدان، كالصين والهند واليابان والبندقيَّة وفرنسا والنمسا والروسيا وألمانيا، إلى غير ذلك من البلاد على اختلاف الأزمان. ويشتمل متحف الصور المجسمة من الحجر أو البرونز أو غيرهما من المعادن على عجائب الغرائب. و«متحف الرسومات والتصاوير» بهِ أكثر من 1300 لوحة من صنع أعظم الرسَّامين من بلاد السويد وغيرها قديمهم وحديثهم.

هذا وفي الرحبة الَّتي أمام المتحف، صورة شخصين مُجَسَّمة من البرونز، تُمثِّل «المبارزة بالسكين» جديرة بأن يُتفرج عليها، وهي تعبِّر عن شخصين يتبارزان بالسكين، على الطريقة الَّتي كانت متبعة عند الأُمم الأسكندناويَّة من أهل هذه البلاد قديماً، وذلك أن يربط المتخاصمان برباط من الجلد بحيث يكون صدر كلٍّ منهما لصدر خصيمهِ، وتُعطى لكلٍّ منهما سكين قصيرة يمسكها بيدهِ اليمنى، ويضرب بها خصيمهُ كيف شاءَ حتى ينتهي الحال بموت أحدهما لا محالة، أو بموت كلٍّ منهما، وقد رُسمت على جوانب القاعدة الَّتي جُعلت عليها صورة المتخاصمين صورٌ ناتئةٌ في الحجر رمزاً إلى سبب المبارزة، وما يترتب عليها تُمثِّل واحدة منها السكر، فإنَّهُ يُذْهِب العقلَ، وواحدة الغَيْرة المتسببة عن الحب، وواحدةٌ حزنَ امرأةِ القتيل وأهلهِ.

(قسم الجنوب): وموقعهُ بالأَرض القارَّة من جنوب جزيرة ستادن، يتوصل منها إليهِ بكوبريين من الحديد، قائمين على ملتقى بحيرة ميلاز بالبحيرة الملحة، ويمتاز عن غيرهِ من أقسام المدينة بارتفاع سككهِ بمناسبة عُلُو أرضهِ عن باقي المدينة، حتى إنَّهُ يُصعد من شاطئ البحيرة إليهِ

بالتدريج مسافة، ولأجل أن يسهل الصعود إليهِ أنشأوا عام 1883 برجاً من الحديد «هيشْنْ» على شاطئ البحيرة، ارتفاعهُ مساوٍ لارتفاع أرض القسم عن الشاطئ، جعلوا بداخلهِ مُرْقِياً يتحرك بالبخار، يوصل إلى سطح البرج في نصف دقيقة، بأُجرة قدرها 5 أوز[1] في الصعود، وثلاثة في الهبوط، فيجد الإنسان بهِ محلاً للأكل والراحة إن أراد، ويتوصل من هذا السطح بكوبري من الحديد امتدادهُ 150 متراً إلى مستوى القسم بميدان «مُوزِبيَاكِهْ»، وهو أكبر ميادينهِ، بأحد جَوَانبهِ مدخلا حديقة «مُوزِبيَاكهْ»، وهي محل تنزه وتفرج مشهور.

وقد صحبنا إلى هذا القسم صاعدين بهذا المُرْقِي، صاحبنا المسيو هيدين في يوم من الأيام، وتفرجنا بدلالتهِ على هذه الحديقة الغناء، وهو شاب من أهل السويد، يبلغُ عمرهُ نحو خمس وعشرين سنة، أحب السياحة في بلاد المشرق، ورغِبَ في أهليها، حتى ساح في بلاد العجم، وتركستان، والبصرة وبغداد وغيرها من بلاد آسيا الوسطى، مع ما في السياحة في هذه البلاد من الصعوبة والمشقة، وكتب رحلةً في سياحاتهِ، وتعلّم في أثناءِ أسفارهِ لغة الترك الأصليّة الّتي يتكلم بها أهل أذربيجان وغيرها من هذه البلاد القاصية، وهي غير محلاة بما دخل في اللغة العثمانيّة الحديثة من الألفاظ العربيّة والفارسيّة وغيرها، حتى إنّهُ ينطق بها كما ينطق أصحابها من التفخيم والهيئة، وقد تعرّف بنا منذ حضورنا إلى أستكهلم بمناسبة عضويتهِ في المُؤتمر، فكان من ضمن من يفرّجنا على المدينة وضواحيها أوقات الفراغ من أعمال المؤتمر واجتماعاتهِ الرسميّة وغير الرسميّة مع

---

(1) الأور هو جزء من عشرين من الكورون.

اللطف وكمال الإنسانيّة احتفالاً بشأننا، لاسيما مع حبهِ للشرقيين، وولوعهِ بمعرفة لغاتهم وآدابهم، وقد كان يحتفل بنا سواهُ أفاضلُ أعضاءِ هذا المؤتمر وأعاظمهم، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، وسيجيءُ لهُ بعض تفصيل.

وقد رأينا ونحن بسطح البرج وبحديقة مُوزيباكِهْ المذكورة، مناظر أستكهلم وضواحيها وأرباضها على هيئة لا ننساها، للطفها وبهجتها، وحسن رونقها، وكانت البحيرة الملحة «سَالْتِسْيُونْ» يمنة منا، والبحيرة العذبة «ميلار» يسرة، فكنا نبتهج بمرآهما، وما فيهما من الجزر الكبيرة والصغيرة، والسفن البخاريّة والشراعيّة، كذلك ما بين سفن راسية، ووابورات صغيرة تنقل الركاب والأشياءَ من طرف إلى آخر، ومن جهة إلى غيرها من جهات المدينة وضواحيها، ممّا تحار منهُ العقول، وتنبهر منهُ النواظر، ويشهد لأَهل هذه العاصمة بعلو الهمة وحسن القيام بمهام السعي في أمر المعاش واكتساب الثروة والغنى.

وبمناسبة ذكر النقل بهذه السفن، نتعرض إلى ذكر وسائل النقل بهذه المدينة، وهي العربات على اختلاف أصنافها، فتسير في المدينة وضواحيها بالخيل أو البخار ودفع أجرة الراكب فيها، مما يُستغرب، ويُتعجب منهُ، فإنّها إمّا أن يكون لها موظف لاستلام الأجرة فيتقدم أمام الراكب، ويُقَدِّم إليهِ صندوقاً بيدهِ مغلقاً مثقوباً من أعلاهُ بقدر ما يسع قطع النقود، فيضع الراكب أجرتهُ بالصندوق في ذلك الثقب من غير مراقبة عليهِ، وإمّا أن لا يكون لها موظف لذلك، فهذه موضوع بجانب بابها صندوق مغلق مثقوب كالأوّل، فيضع الراكب أجرتهُ بهِ بدون مطالبة ولا مراقبة، وإذا أراد صرف نقد لدفع الأجرة منهُ أعطاهُ للموظف أو السائق حسب الحالتين

المذكورتين، فيعطيهِ ما صرفهُ بهِ من النقود جميعها في ورقة مختومة فيفضها الراكب، ويضع منها الأُجرة بالصندوق بنفسهِ، وعلى كل حال كان يمكنهُ أن لا يضع شيئاً، أو يضع أَقل من الأُجرة، حيث لا رقيب عليهِ، ولكن المروءة وعلو الهمة وشرف النفس تمنعهُ من الخيانة، وهذا نظير ما ذكرناهُ فيما سبق بإحدى المحطات في الطريق من أَمر ترك الطعام لمن يأكل بدون مراقبة عليهِ مع دفع ثمن ما أكل أو شرب بحسب إِخبارهِ صاحب الطعام، فيا عجباً لأَمانة أهل هذه البلاد وائتمانهم!!

ومن وسائل النقل أيضاً الوابورات، فمنها المخصصة بالنقل في داخل المدينة من شمالها إلى جنوبها ومنهما إلى الجزر، وبعكس كلٍّ، وهذه الصغيرة، ومنها المخصصة بالنقل من المدينة إلى ضواحيها على شواطئ البحيرة العذبة أو البحيرة الملحة، وهذه كبيرة بالنسبة إلى الأُولى، ومنها المخصصة بالنقل إلى سواحل المملكة وغيرها من البلاد الأَجنبيّة، وهي أكبر من الأُوليين، وإِن اختلفت في نوعها كبراً أو صغراً، حسب اللزوم.

– (قسم جزر البحيرة الملحة): ويشتمل على جزيرة «سْكيپسْهُلْمِنْ»، وأَهم ما بها دارٌ للعساكر الطوبجيّة، وهي بناءٌ مشيد، يحيط بهِ أربعة بروج ومدرسةٌ للحربيّة، وقد وضع أمامها حجر تذكاراً للإرساليّة الَّتي اجتاز بها العالم الشهير «الپروفسورُ نُورْدُنْشُلْد»، من سنة 1878 إلى سنة 1880 البحر المتجمد الشمالي في السفينة المسماة «ويجا».

وعلى جزيرة «كَسْتِلْهُلْمِن»، وتتصل بالسابقة بكوبري من الخشب، وتُقصد بالتنزه لجمال مناظرها وما جاورها.

وعلى قسم «دِيُوزجِيرْدِسْ سْتَادِن» من جزيرة «دِيُوزْ جيرْدِنْ» في جهة الغرب منها، وهو جزءُ المدينة الذي لم يزل باقياً على بنائِه بالأَخشاب.

وعلى جزيرة «بِكْهُلْمِنْ»، وهي جزيرة صغيرة بالقرب من هذا الجزءِ بها معامل كثيرة لصنع القطران.

هذا وسكان هذه العاصمة لهم ميل كبير إلى اكتساب العلوم والمعارف، وقد شيدوا كثيراً من المكاتب والمدارس، وسَعَوْا في تأَلُّفِ جملة جمعيات علميَّة منها جمعيَّة المعارف، وجمعيَّة الفنون المستظرفة، وأكاديميَّة الثمانية عشر السويديَّة الشهيرة، الَّتي من ضمن أعضائها صاحبنا الفاضل البروفسور تِجْنِرْ الذي تقدَّم ذكر مقابلتنا بهِ بالسكة الحديد، ومنها مدارس للمعارف والطب والمساحة والتجارة والتصوير، حتى مدرسة للصم البكم.

وتجارتها في غاية الرواج، وكذلك الصناعة منها صناعةُ الساعات والآلات المستعملة في الفنون الطبيعيَّة والرياضيَّة وصياغة المصوغات والحليّ، وفيها جملة معامل للدخان، والجوخ ونسج القطن والكِتّان، والحديد، والحرير، وتكرير السكر، وعمل الزجاج والخزف والصباغة، وعمل السفن وما يلزمها.



(التوجُّه إلى محل المؤتمر)

بعد أن نزلنا بالفندق المتقدّم ذكرهُ، وأخذنا ما يلزم لنا من أحاسن الغرف، وصالوناً للاستقبال رعاية لحالتنا الرسميّة، واسترحنا زماناً قليلاً اجتمعنا في أثنائهِ بجانب الكونت دُه لاَندبرج، فإنهُ كان نازلاً هو وحضرة الكونتيسه حرمهِ بهذا الفندق أيضاً، وقد أوصلنا مكاتبات عديدة وردت إليهِ من لدن أهلنا بمصر، لِيُسَلِّمَهَا إلينا كما كنا عرفناهم بذلك، فحصل لنا الاطمئنان، وزال اشتغال بالنا من جهتهم، ركبنا عربة وقصدنا سراي «رِيدّارهُوسْت» الّتي خصصت باجتماع المؤتمر، لنتعرف الحال قبل انعقادهِ، ونستفهم عما عساهُ أن يلزمنا بخصوصهِ من السكرتاريّة، فوصلنا هذه السراي في بعض دقائق لقربها من الفندق، فإذا هي محل مشيد متقن البناء، لهُ طبقتان أرضيّة وعُلويّة، لكن الأرضيّة مرتفعة بدرج عن أرض الميدان الذي أمام السراي، وسألنا عن محل السكرتاريّة لنكتب أسماءنا اتباعاً لما ذكر بالوجه العاشر من «پروجرام المؤتمر»، وكان قد طُبع ووزع علينا بمصر قبل سفرنا منها، وهو مشتمل على بيان الإجراءات الّتي تلزم الأعضاء، وبيان أعمال المؤتمر، وكيفياتهِ بأستكهلم وكرستيانيا عاصمتي السويد والنرويج، من أوّلها إلى آخرها، ومبيِّن فيهِ اليوم والساعة، وسنأتي على ذكر بعض فقرات من هذا الپروجرام حسب اللزوم.

فوجدنا محل السكرتاريّة هذا قاعةً متّسعةً جدّاً، فيها كثير من الكَتَبَةِ، وبعضُ أعضاءِ المؤتمر الّذين سبقونا، فقابلونا جميعاً بالترحيب والاحتفاءِ،

---

(1) في الأصل: «الإجراآت» المحرر.

وعرّفنا بهم أوّل من تَعَرّفَ بنا من كتبة السر، وهو رجل لطيف الأخلاق، يعرف العربيّة وأرانا ثلاثة دفاتر للكتابة فيها.

- **أوّلها**: دفتر الأسماء فكتب كلٌ منا فيهِ اسمهُ، وبلدهُ، ومحل إقامتهِ بأستكهلم.

- **وثانيها**: دفتر قيد الكُتب الّتي تُقَدَّم لسموّ الملك أسكار الثاني بمناسبة انعقاد هذا المؤتمر من المؤلفات الجديدة وغيرها طبقاً للوجه الحادي عشر من البروجرام، وقد كنت أحضرت معي نسخة من كتابي «جغرافية مصر» الذي ألّفتهُ سنة 1879 لإهدائهِ لسموّ الملك، فوجدت حضرة الكونت ده لاندبرج أهدى عني نسخة منهُ كنت أهديتها إليهِ قبل مبارحتهِ مصر، فأهديت إليهِ النسخة الّتي كنت أرغب تقديمها بدل ما أهدى عني وشكرتهُ على ذلك[1].

- **ثالثها**: دفتر لبيان المواضيع الّتي يُريد عرضَها الأعضاءُ على المؤتمر،

---

(1) وقد ورد لي بعدُ من جناب رئيس سكرتاريّة سموّ الملك كتاب بتاريخ 7 سبتمبر سنة 1889 معلن بقبول سموهِ لمؤلفي المذكور، وتشكره لي على إهدائهِ، وهذا تعريبهُ:

«سيدي:

«إنهُ بناءً على أمر جلالة الملك أتشرف بإحاطة جنابكم علماً بوصول مؤلفكم الذي تفضلتم بإهدائهِ إلى جنابهِ الملوكي بصفة كونهِ حامي حمى مؤتمر المستشرقين الثامن الدولي، ورئيس شرف لهُ، وقد كُلفتُ من حضرتهِ الفخيمة بإبلاغكم جزيل ممنونيتهِ، ومزيد مسرتهِ من تلك الهديّة النفيسة التي قدمتموها إلى سدتهِ العليّة، وحضرتهِ الملوكيّة. وتفضلوا يا سيدي بقبول فائق احترامي وأكيد اعتباري لحضرتكم.

الإمضاء

رئيس سكرتارية جلالة الملك

ده سلستج

ليكون لهم حق التقدّم في العرض على من كتب بعدهم ما عزم على عرضهِ.

فكتب سيدي الوالد كتابهُ المسمى «بعجالة البيان في شرح ديوان حسّان» وكتابهُ المسمى: «الكلام على حال التعليم الجاري الآن بمصر في المكاتب والمدارس والجامع الأَزهر».

وكتبت رسالتي المعنونة: «بنبذة في إبطال رأي القائلين بتعويض اللغة العربيّة الصحيحة باللغة العاميّة في الكتب والكتابة».

وكتب حضرة الشيخ حمزة فتح الله رسالتهُ المسماة «بباكورة الكلام على النساء في الإسلام».

وكتب حضرة محمود إفندي عمر كتابهُ المسمى «أَمثال المتكلمين من عوام المصريين».

وبعد المحادثة والمؤانسة مع من لقينا من الأَعضاءِ وغيرهم، والتفرج على محال السراي، ومعرفة المعد فيها لافتتاح المؤتمر وجلساتهِ العموميّة، قصدنا العودة إلى الفندق، فقابلنَا حضرة الكونت دُه لاندبرج، وأَخْبَرَنَا أن سموّ الملك سيشرف محل السكرتاريّة بسراي المؤتمر في هذا اليوم الساعة 3 بعد الظهر، ويرغب أن يتعرّف بنا بهذه المناسبة قبل مقابلتنا المقابلة الرسميّة في اليوم التالي، وطلب منا حضرتهُ بناءً على ذلك أن نكون بمحل المؤتمر في الساعة الَّتي عيّنها لنحظى بشرف التعرّف بسموّ ملك تلك البلاد، فانصرفنا إلى الفندق على أن نتغذّى، ونستريح، ونعود قبل الوقت الذي تعيّن.

(أَوّل مقابلة سمو الملك المقابلة غير[1] الرسميّة)

قصدنا سراي المؤتمر قبل الوقت المعيَّن للمقابلة، فوجدنا بها حضرة الكونت ده لاندبرج، فأَعاد تفرجنا على القاعة المعدّة لافتتاح المؤتمر وانعقاد جلساتهِ العموميّة، وهي مُستطيلة، مرتفعة السقف جدرانها، ملأَى بشعائر الأُمراءِ السويديين رَسْماً عليها تسع نحو ستمائة نفس، يُدخل إليها من بابٍ في وسطها، وفي صدرها مرتفع بنحو أَربع درجات يتوسطهُ سرير الملِك، وعن يمينهِ ويسارهِ ومن خلفهِ كراسي مُعَدَّة لأعضاءِ عائلتهِ، ووزراءِ حكومتهِ، وسفراءِ الدُّول لدى عظمتهِ، وأَمامهُ ترابيزة كبيرة عليها ما وسعتهُ من الكتب الّتي قُدِّمت إليهِ بمناسبة المؤتمر، وبجانبها الأَيمن ملاصقةً كرسيًّا رئيس المؤتمر، وكاتب أسرارهِ، وبالبعد عنها يميناً ويساراً كراسي قليلة أَخبرنا حضرة الكونت أن الّتي على اليمين منها خصصت بجلوس وفد جلالة الخليفة الأَعظم ووفد العجم، وإن الّتي على اليسارِ منها خصصت بجلوس الوفد المصري.

ويلي هذا المرتفع من جهة اليسار مرتفع أقل منهُ علوّاً منفصل عنهُ، وعن باقي القاعة مما يليهِ بحاجز خُصص هذا بمندوبي الحكومات الرسميين لدى المؤتمر، ومندوبي بعض المدارس الجامعة.

وما عدا هذين المرتفعين من القاعة يجلس بهِ باقي أعضاءِ المؤتمر، وقد خصص بالنساءِ فيها محل مرتفع يُشرف على الجالسين، ويُصْعَدُ إليهِ بسلّم من خارجها يسع نحو مائة وخمسين.

---

(1) في الأصل: «الغير» المحرر.

وقد أعطى حضرة الكونت كلّ واحدٍ منا علامة العضويّة في المؤتمر، وهي شبه وردة من قماش لمّاع ملوّنة بالألوان الّتي في عَلَمَيْ السويد والنرويج، مثبتة في زرٍّ يُجعل في عروة السترة، فوضع كلٌّ منا علامتهُ في الموضع المعد لها، ثم نزلنا إلى قاعة السكرتاريّة، فوجدنا بها كثيراً من الأعضاءِ مشتغلين بكتابة أسمائهم، وما يريدون من الاستعلامات وغيرها.

ووقع بصرنا على واحد من بين الحاضرين لابس طربوشاً، طويل القامة، كامل الجسم، كثّ اللحية أسودها، رَحْب الصدر، عظيم الوجه، فأحدقنا نحوهُ النظر فرأيناهُ محدقاً نظرهُ إلينا كذلك، فإذا بنا كأن قوةً جذبتنا إليهِ، وجذبتهُ إلينا، فتسارع كلٌّ منا إلى الآخر، وتصافحنا تصافح أحباب طالت غيبة بعضهم عن بعض، وقد تفرّس فينا إننا مندوبو مصر، وتفرّسنا فيهِ لهيئتهِ أنّهُ مندوب جلالة سلطاننا المُعَظّم، وعرف كلٌّ منّا صاحبهُ، وإذا هو العالم الفاضل المحرر الشهير صاحب السعادة أحمد مدحت إفندي، رئيس تحرير جريدة «ترجمان حقيقت»، وصاحب التآليف المشهورة، فأعدنا المصافحة، وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وكنا متّجهين إلى باب القاعة، وإذا بداخل طويل القامة ذي لحية كثيرة الشيب حسن الطلعة، تلوحُ عليه سيما الهيبة والوقار لابس ألبسة ملكيّة، بإحدى يديهِ عصا، وبالأُخرى قبعتهُ، ووراءهُ رجال لابسون ملابس ملكيّة أيضاً، ففهمنا من احتفال القوم بهِ أنّهُ الملك أسكار الثاني، قد حضر كما أخبرنا حضرة الكونت، وكان يصافح باليد بعض من بممرّهِ فلما انتهى إلينا، وكان صاحب العطوفة مدحت إفندي أوّلنا من جهتهِ، قدمهُ لسموهِ حضرة الكونت، فصافحهُ باليد، ومنحهُ تلطافتهِ العالية والتفاتاتهِ السامية.

ثم قدّمنا الكونت إلى سموهِ يَقْدُمُنا سيدي الوالد فصافحهُ، وأخذ يخاطبهُ

ممسكاً بيدهِ طول المخاطبة مسافة طويلة سألهُ في أثنائها عن صحة الجناب العالي الخديوي الأفخم، قائلاً كلما ذكرهُ: «مُونْ أمي لُوكِيدِيوْ» أي: حبيبي الخديوي، وفي خلال محادثتهِ لسيدي الوالد صافحني بيدهِ الأخرى، وطلب مني أن أكون ترجمانهُ لسيدي الوالد، وأن أُعيد الاستفسار منهُ عن صحة مولانا الخديوي، وأوضح تشكرهُ على إرسال الوفد المصري، ومزيد سروره من جعل سيدي الوالد رئيسهُ، فشكرهُ سيدي الوالد على التفاتهِ وتعطُّفاتهِ، وبلغهُ من مولانا الخديوي تسليماتهِ وتحياتهِ، فأفهمتهُ ما قال، فتلقاهُ بمزيد البشر، كل ذلك بغاية البشاشة، وكمال الملاطفة وحسن الرعاية، حتى إنَّهُ كان يستفسر من سيدي عن حال رحلتهِ، ويتنزَّل للاستفهام عن حالتهِ، واختتم حديثهُ بأنهُ سيقابلنا في الغد المقابلة الرسميَّة، وودَّعنا قائلاً: «أورُوڤوار» أي: إن شاءَ الله نتلاقى، وصافح بعدنا رفيقنا حضرة الشيخ حمزة فتح الله، وحضرة محمود إفندي عمر، ثم خرج، وما لبثنا أن خرجنا بعدهُ.

أما سيدي الوالد فتوجه مع حضرة الكونت لمقابلة جناب ناظر الخارجيَّة، وهو رئيس مجلس الوزراءِ، ثم عاد إلى الفندق، فأسرع جناب ذلك الرئيس برد الزيارة إليهِ بهِ.

وأما أنا فخرجت للتفرج في أنحاءِ المدينة مع أَحد من تعرفت بهم اليوم من العلماءِ المستشرقين، ولما قرب الغروب عدت إلى الفندق، فأَخبرني سيدي بزيارة رئيس الوزراءِ، وبما لقي منهُ من لطف السجايا، ولين الجانب، وكمال الاعتبار، ولا يُستغرب ذلك من أَهل هذه البلاد حسب ما رأَيناهُ من الاحتفال والبشاشة والتكريم والتعظيم لشأْننا من جميعهم، خصوصاً ما رأَيناهُ من سموّ مليكهم الجليل من الملاطفة والتعطف

والالتفات في مقابلتهِ لنا هذا اليوم.

ثم جاءَ وقت العشاءِ، فخرجنا إلى قاعة المائدة، فوجدنا بها محلاً معدّاً لنا، فجلسنا فيهِ، ومعنا باقي وفدنا، وجلس معنا فيهِ حضرة الفاضل مدحت إفندي، وحضرة الكونت، واثنان من أَفاضل العلماءِ المستشرقين، عَرَّفَنَا بهما حضرة الكونت المومأ إليهِ، وهما حضرة الپروفسور جُلْدِتْسِيْرْ الأُستاذ بمدرسة بودابست الجامعة في عاصمة هنكاريا، كما هو أحد أَعضاءِ أكاديميّة العلوم الهنكاريّة، وحضرة الپروفسور أُوجست مُوللر معلم الأَلسنة المشرقيّة بِدار المعارف بكونكسبرج من أَعمال ألمانيا.

أما الأَوّل منهما وهو الپروفسور جُلْدِتْسِيْر فإنهُ يحسن التكلم بالعربيّة، وهو أَفصح من رأَيناهُ يتكلم بها من العلماءِ المستشرقين، ولا غرابة في ذلك، فإنهُ أخبرنا أَنَّهُ أَخذ العلوم العربيّة عن علماءِ الجامع الأزهر بهِ، حتى تلقّب بالأزهريّ، وعلى ما أظن أنهُ أخبرنا أن من ضمن مشايخهِ بالأزهر حضرة العلامة الفاضل الجِهْبَذ الكامل الشيخ مُحَمَّد الأَشموني، وهو مهذب إلى الغاية، حسن الأخلاق، ربما لا يتجاوز سِنُّهُ الأربعين على ما يظهر، وهو متوسط القامة، ذو لحْية بها بعض شعرات بيض، واضع نظارة دائماً على عينيهِ معلقة في سلسلة من الذهب دقيقة، وقد حضر بهذا المؤتمر مندوباً من قِبَلِ حكومة النمسا.

وأما الثاني، أي: الپروفسور أُوجست موللر فهو أَسودُ اللحية واسع الجبهة، ويظهر أَنَّهُ يعادل الأَوّل في السن، ولكن لا يفصح بالعربيّة مثلهُ إلّا أنّهُ يحسن كتابتها، وقد كتب إليّ في ورقة زيارةٍ تحت اسمهِ بالعربيّة ما لفظهُ «المعروف بابن الطحان» فلعلهُ كان بمصر لتلقي العلوم العربيّة كصاحبهِ المتقدم

الذكر، فسمى نفسهُ بابن الطحان، ويمكن أن يكون هذا اللفظ ترجمة اسمهِ الحقيقي، ثم هما متلازمان في الصحبة لا يكاد أَحدهما يفارق الآخر.

فتجاذبنا مسافة الأكل كلها، ومسافةً بعدها مع هؤلاءِ الأَفاضل أَطراف الحديث في مواضع كثيرة، حتى انجرَّ الكلام إلى المقارنة بين المشرق والمغرب والشرقيين والغربيين، وطال البحث في ذلك.

هذا وكنا قرأْنا في الجرائد ونحن بمصر أن حضرة الفاضل العلامة الشيخ مُحَمَّد محمود الشنقيطي تعيَّن مع حضرة صاحب العطوفة مدحت إفندي مندوباً من قِبَلِ الجناب السلطاني، فلما لنا بهِ من سابق الصحبة وارتباط الألفة سأَلنا عنهُ حضرة المومأ إليهِ، فأَفادنا أَنَّهُ بارح دار الخلافة إلى پاريس في مأْموريَّة، وترك حضرة الشيخ بالآستانة، وأنهُ يمكن أن يحضر هنا قريباً.

ثم بعد ذلك انصرف كلٌّ منا إلى محلهِ، وصرنا نتردد منذ هذا الوقت إلى هؤلاءِ الأفاضل، وهم يترددون إلينا، ونزورهم ويزوروننا حتى انتهاءِ المؤتمر.



(مقابلة الملك المقابلة الرسميَّة)

لما كان الميعاد المحدد لهذه المقابلة الساعة الثانية بعد الظهر في يوم السبت 31 أغسطس سنة 1889 التالي ليوم قدومنا اجتمعنا قبلهُ بقليل نحن ورفيقانا في الوفد بصالوننا في الفندق، لابسين ملابسنا الرسميَّة، فحضر عندنا حضرة صاحب العطوفة مدحت إفندي، ثم أَتى حضرة الكونت ده لاندبرج، وكانا لابسين ملابسهما الرسميَّة أيضاً، فأخْبَرَنَا حضرة الكونت بحضور عربات السراي الملوكيَّة، لتوصلنا إليها.

وهذه السراي وإن كانت أَمام الفندق لا يفصل بينهما إلَّا الميناءُ كما ذكرناهُ في وصف مدينة أستكهلم، لكن يلزم للوصول من الفندق إليها، الاتجاهُ إلى جهة اليمين مسافة، إلى أَن يصل الإنسان إلى الكوبري الموصل إلى جزيرة شتَادِن، ثم يثني بعد العبور عليهِ إلى جهة اليسار، حتى يصل إلى مدخل هذه السراي.

فركب سيدي الوالد وحضرة مدحت إفندي في صدر العربة الأُولى، وأمامهما الكونت ده لاندبرج، وركب معي في العربة الثانية حضرتا الشيخ حمزة ومحمود إفندي عمر، وسرنا جميعاً بين أناس مصطفين مِن الجانبين، يزيد عددهم عن عشرة آلاف، جميعهم يحيينا، الرجالُ برفع القبعة، والنساءُ بإشارات التحيَّات، مع إظهار البشاشة والبشر كل ذلك ورجال البوليس منتشرون بالطريق يحيوننا أيضاً، ونحن نرد تحيات الجميع بالإشارة، حتى وصلنا إلى السراي، فقابلنا أوَّلاً بعض الياوران، ثم بعض

رجال التشريفات، ثم رئيس التشريفات في قاعة الاستقبال الكبرى، وكلّهم بملابسهم الرسميّة ونياشينهم، وما منهم أحد إلّا قابلنا بالتعظيم والتكريم.

وبعد أن انتظرنا بعض دقائق بهذه القاعة أمام المحل الذي فيهِ الملك مستعدّاً لملاقاتنا (والسر في هذا الانتظار على ما يخطر بالبال إفادة القادم مهلة الراحة، وإزالة الدهشة، حتى يكون اللقاءُ على أتم ما يكون من التأهب)، أتى رئيس التشريفات، وأخبرنا بما كان أخبرنا بهِ الكونت ده لاندربج أوّلاً من أن سمو الملك سيقابل حضرة مدحت إفندي على انفرادهِ، ثم يقابل الوفد المصري بعدهُ، فتوجّه حضرة مدحت إفندي معهُ للمقابلة، وبقينا ننتظر ورجال الحاشية الملوكيّة يؤانسوننا، حتى خرج مدحت إفندي، فدخلنا ومعنا الكونت ده لاندربج، فوجدنا جلالة الملك واقفاً مستعدّاً لمقابلتنا لابساً ملابسهِ الرسميّة، متحليّاً بالنشان العثماني من الدرجة الأُولى، فصافح السيد الوالد باليد، وصافحنا كذلك، فسلم إليهِ سيدي الوالد المحرر الخديوي الكريم المرسل برسم سموهِ، وخاطبهُ بالخطاب الآتي نصّهُ:

(مولاي):

«أُقدّم لجلال مقامك الرفيع الشأن تحايا التعظيم والإجلال والثناءِ الفائق من لدن مولاي خديو مصر المُعَظّم، مؤيداً ذلك بتقديم محرر سمّوهِ المنطوي على خالص المودة، المتضمن تعييني وتعيين رفاقي، الماثلين بين يدي عظمتكم، للحضور في المؤتمر العمومي العلمي، الذي توجهت خواطركم الملوكيّة إلى انعقادهِ في هذه المملكة العامرة، لما يترتب عليهِ من الفوائد المهمة لنشر العلم وتقدمهِ واتحادهِ، باشتراك القريب والبعيد والشرقي والغربي فيهِ، ولم يكن ذلك ليتأتى إلّا بتوجيهِ همة الملوك إليهِ، فلك يا

مولاي الفضل الجزيل على ذلك المسعى الجميل، وأختم قولي بتقديم واجبات تشكراتي لما نلت من لطف الرعاية الملوكيَّة لاسيما في هذا الموقف النبيل، لا زال موقف إجلال ومنتهى كمال».

فبعد أن ترجم حضرة الكونت إلى جنابهِ العالي، مقالة سيدي الوالد، أجاب سموُّهُ بما يفيد إظهار الممنونيَّة والمسروريَّة، من قدوم هذا الوفد المصري للحضور بمؤتمر المستشرقين، من قِبَل حكومة الجناب العالي الخديوي، متشكراً من ذلك الجناب العالي على اعتنائهِ بإرسال الوفد المصري، وجعلهِ تحت رياسة سيدي الوالد، وعلى ما أهداهُ من الكتب الَّتي أرسلها إلى سموّهِ، وقد قدَّم سيدي الوالد إليهِ فهرست هذه الكتب المهداة مكتوباً بخط أحسن خطاطي نظارة المعارف، مشتملاً على أسماءِ الكتب، وما أُلِّفت فيهِ، وأسماءِ مؤَلفيها، وهي 141 مجلداً من نفائس الكتب العربيَّة في فنون شتى قد اعتُنِيَ في تجليدها وتذهيبها، وقد سبق إرسالها إلى حضرة الكونت على يد قنصل السويد والنرويج بالإسكندريَّة، كتعريفهِ لنا قبل سفرهِ، ثم أخبرنا عند قدومنا أستكهلم بوصولها إليهِ على التمام.

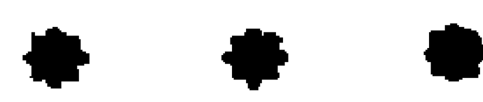
وبعد المكث معهُ هنيهةً كرر فيها سموهُ السؤَال عن حال مولانا الخديوي المُعَظَّم، وتنزَّل إلى ملاطفتنا، انصرفنا، وقوبلنا بمثل ما قوبلنا بهِ أوَّلاً من الاحتفاءِ والاحتفال، وركبنا العربات الرسميَّة، والجموع تحيينا إلى أن وصلنا الفندق، ممتدحين سمو الملك شاكرين حسن تعطفاتهِ، مسرورين مما لاقيناهُ من حاشيتهِ، ممنونين مما حيتنا بهِ تلك الجموع في الذهاب والإِياب.

ولا غرابة في ذلك من هذا الملك العظيم المتأَسِّي بهِ حاشيتهُ وأهل بلدهِ،

إذ الناس على دين ملوكهم، فإنَّهُ قد تربى في مهد الفضل، وتغذّى بلبان العرفان، وصرف نفيس عمرهِ في تحصيل العلم، حتى سما ذكرهُ، وارتفع صيتهُ بين الملوك، وقد وُلِدَ سنة 1829، ومن حين جلس على أَريكة الملك، وهو مجدٌّ في تشييد أمر العلم، وانتشار المعارف ببلادهِ، حتى صارت تباهي أَحسن الممالك وأكبرها في التقدم والمعلومات، واشتهر بين العلماءِ بتآليفهِ وسابق المصنّفين بتصانيفهِ، والشعراءَ الوطنيين بأَشعارهِ وأَناشيدهِ، حتى تُرجمت مؤلفاتهُ إلى كثير من اللغات، وتسارعت الجمعيّات العلميّة والنوادي الأَدبيّة إلى إثباتهِ في عداد أَعضاءِ الشرف منها.

ولا شك أَنَّ من كانت هذه أوصافهُ ومزاياهُ حسنت معاملاتهُ وكرمت أَخلاقهُ، واتّجهت أَفكارهُ إلى نفع رعاياهُ، وتوجهت رغباتهُ إلى جلب ما فيهِ الصالح لبلادهِ، كما هو حال هذا الملك، ولذا صار معظماً عند الجميع محبوباً لأَحزاب المملكتين على السواءِ.

هذا وبعد أَن عُدنا إلى الفندق، واستبدلنا ملابسنا الرسميّة بالملابس المعتادة خرجنا للتفرُّج بالمدينة، ثم عدنا في المساءِ وبتنا، وما زلنا بعد ذلك في تفرُّج واشتغال بما يلزم، حتى كانت الساعة السابعة بعد الظهر من اليوم التالي يوم الأحد، أوّل سبتمبر سنة 1889 المخصصة باجتماع أَعضاءِ المؤتمر اجتماعاً وُدّياً بقاعات فندق جراند أوتيل الذي نحن بهِ للتعارف، فتوجهنا إلى هذا المجتمع لهذا الغرض.



(الاجتماع الودّي)

جُعل هذا الاجتماع كما قلنا لتعارف أعضاءِ المؤتمر بعضهم ببعض قبل اجتماعهم الرسمي في اليوم التالي، فتوجّه البعض كما توجهنا بِصفة وديّة وملابس غير رسميّة إلى قاعات من الفندق أُعِدّت لذلك، وهي قاعة وسَطِيّة، وأَربع قاعات بجانبيها في غاية الاتّساع، بحيث يسعنَ نحو ثمانمائة نفس.

وأَعضاءُ المؤتمر ينقسمون إلى أعضاءِ رسميين مندوبين من قبل حكومات، أو مدارس جامعة كبرى، أو جمعيات علميّة شهيرة، وإلى أعضاءِ غير رسميين، وإلى ضيوف الملك.

أما ضيوف الملك فمنهم وفد العجم، ورئيسهُ حضرة محسن خان معين الملك، وكان سفير الشاه لدى الخليفة الأَعظم بالآستانة، وأعضاؤهُ حضرة الفاضل نجف علي خان، وكان مأمور الشاه السياسي بالقطر المصري ونيروز خان، وحسن خان، كاتبا سر سفارة العجم بالآستانة، ومنهم بعض علماءَ من أوروبا بصفة أَحباب الملك الخاصّين.

وأما الأعضاءُ الرسميون فاثنان عن جلالة الخليفة الأَعظم، وهما حضرة الفاضل مدحت إفندي، وحضرة الأستاذ العلامة الشيخ مُحَمَّد محمود الشنقيطي، وتسعة عن حكومة أُوستريا هنكاريا، وواحد عن حكومة باذ، وثلاثة عن بَاڤَارِيَا، واثنان عن بُوسْنه وهرسك، وواحد عن البريزيل، واثنان

عن مملكة الدانيمرك، واثنان عن فرنسا، واثنان عن حكومة الهند، وثلاثة عن إيطاليا، وواحد عن اليابان، وأربعة عن هولانده، وواحد عن البرتغال، وواحد عن رومانيا، واثنان عن روسيا، وواحد عن مملكة ساكس، وواحد عن مملكة سيام، هذا فضلاً عن مندوبي حكومة مصر الأربعة.

وأما مندوبو المدارس الجامعة الكبرى فستة من ألمانيا، وخمسة من أوستريا هنكاريا، واثنان من باڤاريا، واثنان من الدانيمرك، واثنان من الممالك المتحدة بأميركا، وواحد من فنلانده، وستة من بريطانيا الكبرى، وواحد من الهند، وواحد من إيطاليا، واثنان من روسيا، وواحد من القزان، واثنان من السويد.

وأمّا مندوبو الجمعيات العلميّة فثلاثة من ألمانيا، وخمسة من أوستريا هنكاريا، وواحد من بلجيكا، واثنان من الصّين، وواحد من الولايات المتحدة بأمريكا، وواحد من فنلانده، وأربعة من فرنسا، وعشرة من بريطانيا، وواحد من الهند، وثلاثة من إيطاليا، وأربعة من هولانده، والهند التابعة لها وواحد من روسيا.

ومجموع الأعضاءِ الّذين صار الاكتتاب منهم بالاشتراك في هذا المؤتمر 646 عضواً، منهم السويديون والنرويجيون حَسْب ما اتضح كل ذلك من المطبوعات الّتي وُزّعت علينا ببيان أعضاءِ المؤتمر عند وصولنا هذا المجتمع في هذه الليلة.

فإذا استنزلنا من هذا العدد الأعضاة النرويجيين، وعددهم كما يتضح من المطبوعات المذكورة آنفاً ثلاثة وأربعون، وفرضنا أن الّذين اكتتبوا بعضوية

المؤتمر ولم يحضروا، ومن ذلك بعض الجمعيات العلميّة، وعددهم من 50 إلى 100، كان عدد الحاضرين في مجتمع هذا المساءِ من 500 إلى 550 عُضواً.

وفي المطبوعات الّتي أَخذناها عند الدخول النسخةُ الأُولى من «يوميّة أخبار المؤتمر»، بُيّنَ فيها ما سيصير إجراؤُهُ في احتفال غد بغاية الإيضاح، وكل يوم يُعطى للأَعضاءِ نسخةٌ بما سيصير في اليوم التالي محررة بقلم سكرتاريّة المؤتمر.

وكُتِبَ في هذه النسخة الأُولى أَنَّ افتتاح المؤتمر سيكون غداً ثاني سبتمبر سنة 1889 بسراي «رِيدّازهُوسْتْ»، وأَنَّ الصعود إلى قاعة الافتتاح، وهي المعروفة «بقاعة الشعائر»، يكون من السُّلّم الكبير، والدخول إليها من الباب الذي بالجهة اليمنى، وأَنَّ أعضاءَ المؤتمر مرجو حضورهم إلى هذه القاعة والجلوس بمحلاتهم المعدّة لهم فيها قبل الساعة 11 و45 دقيقة؛ ليكونوا مستعدين لحضور سموّ الملك، وأَنَّهُ لا يقدم إلى سموّهِ إلاّ الأعضاءُ المندوبون من قبل الحكومات الأَجنبيّة، ومن يتفضّل بقبولهِ من غيرهم، وأنهُ ليس لأحد أن يتكلم في هذه الحفلة غيرُ الّذين تقرر بالسكرتاريّة أنهم يتكلمون؛ إذ زمن هذه الحفلة محدود ولا يتأَتى إطالتهُ زيادة عن اللازم، وأَنّ قسماً من الكتب المهداة إلى سموّ الملك قد وُضع على الطاولة الموجودة أَمام سموّهِ الجالس عليها رئيس المؤتمر، وكاتب أسرارهِ، وباقيها وُضِع في قاعة القسم الثاني من الفصل الأوّل مع غيرهِ من الهدايا.

إذ قاعة الافتتاح لا تسع أن تُوضع فيها جميعها، وأنهُ بعد انفضاض الحفلة ومبارحة سموّهِ الجلسة يتوزع الأعضاءُ على القاعات المخصصة بالفصول الّتي

اختصوا بها لانتخاب الرؤساءِ والوكلاءِ وكُتّاب الأَسرار لكل فصل، . ما عدا أعضاءَ الفصل الرابع والفصل الخامس، فإنّهم لعدم وجود محلات كافية مع قلتهم يقون بقاعة الاحتفال فيتخبون فيها من يتخبون، وأنّهُ وضعت كتابات على كل محل لبيان ما خصص بهِ من الفصول، وأن مخبري الجرائد يقفون عند حفلة الافتتاح بنوافذ القاعة، ويكون المخبرون الأَجنبيون وراءَ السفراءِ، والمخبرون السويديون وراءَ مندوبي الحكومات الأَجنبيّة.

وأَنّ أعضاءَ المؤتمر مَرْجُوٌّ منهم كل الرجاءِ أن يستديموا واضعين الوردَة الّتي أعطيت لهم بألوان عَلَمَي السويد والنرويج في صدورهم، ولا يغني عنها التزين بملابسهم الرسميّة ونياشينهم؛ إذ صدرت التنبيهات الشديدة على سائر المستخدمين بأن لا يُدخلوا من لم يكن حاملاً لهذه العلامة، وأَنّ أَعضاءَ المؤتمر من أَجانب وسويديين هم ونساؤُهم يدعوهم سموّ الملك إلى الحضور بالاحتفال الذي سيحصل إكراماً لهم بقصر «دْرُوتْنُنْجُهلمْ» الملوكي في مساءِ يوم الاثنين 2 سبتمبر سنة 1889، فيركبون لذلك في وابورات ثلاثة «تيسَّان» و«ڤيكتوريا» و«ڤكسهلم»، تنتظرهم على رصيف جزيرة «رِيدّازهُلْم»، فتسير بهم في الساعة السادسة مساءً نحو ثلاثة أَرباع ساعة حتى تصل بهم إلى القصر المذكور، وتعود بهم نحو الساعة تسعة ونصف إلى حيث أَحضرتهم، وأَنّ الرجال في احتفال الافتتاح يكونون بكساوي التشريف والنياشين، ويكونون أيضاً كذلك في احتفال دُروتْنُنْجُهلمْ، ونساؤُهم في هذا الاحتفال الأخير يكنّ بالملابس المعتادة، ويلبسن القبعة.

هذا ما جاءَ في يوميّة أخبار المؤتمر عن إجراءَات اليوم التّالي، وستستمر

على الظهور لكل يوم يوميّة حتى ينتهي المؤتمر، وينفض، مراعاةً لضبط الأَعمال وإعلانها لعموم الأَعضاءِ قبل الوقت بمسافة تسع استحضارهم لها، واستعدادهم لما يُطْلَب منهم إجراؤُهُ، وهي محررة باللغة الفرنساويّة.

وبعد مطالعتنا ما جاءَ بهذه اليوميّة وإطلاعنا على جدول أسماءِ أعضاءِ المؤتمر دخلنا إلى حيث الأعضاءُ مجتمعون، فوجدناهم متفرقين في قاعات الاستقبال، يتحدَّث كل منهم مع آخر، ويتعارفون ببعض بمبادلة أوراق الزيارة المكتوب عليها أسماؤهم، وبمجرّد دخولنا رأينا منهم إقبالاً علينا، واتجاهاً لجهتنا، واعتناءً بشأننا، واحتفاءً واحتفالاً بنا، وصار من نعرفهُ منهم يعرّفنا بمن لم نعرفهُ، ويعرّفهُ بنا حتى تكاثرت أصحابنا وتعددت معارفنا.

وقد وجدنا بهذه الحفلة صاحبينا اللذين أكلا معنا أمس، وهما البروفسور جُلْدتْسِيّر «الأزهري» والبروفسور مُولِلر «ابن الطحّان»، وصاحبنا هيدين الشاب الذي تعلّم لغة الترك في السياحة بآسيا الوسطى مع ما في السياحة بتلك البلاد من مشاقّ السفر ومخاوفهِ وعدم دوام تيسر الركائب، وعدم انتظام محلات النوم، وعدم الاستعداد في الأكل، وقد سبق لنا الثناءُ على هذا الشاب، وذكرنا أنهُ كثيراً ما صاحبنا في أستكهلم وضواحيها.

فساعدنا هؤلاءِ الصحب أيضاً على التعرّف بأعضاءِ المؤتمر، فعرفنا منهم عدداً عظيماً، ودامت الصحبة، واستمرّت روابط الأُلفة مع بعض من عرفناهم في هذا المساءِ وبعدهُ ممن سأعقد لبيان بعضهم فصلاً مخصوصاً بعد هذا تحت عنوان «من تعرّفنا بهم في المؤتمر».

وأقتصر الآن على ذكر ما أدهشني وأعجبني من اجتماع هذه الخلائق،

وقد بلغ عددهم 550 نسمة كما تقدّم، يموجون في هذه القاعات، وينتقلون من قاعةٍ إلى أخرى، ومن محلٍّ إلى آخر، وكأس حديثهم دائرٌ بينهم مع كونهم وافدين من أَطراف الدنيا مشرقها ومغربها جنوبها وشمالها، وفيهم من سائر أَصناف العالم، أَبيضهم وأَسمرهم، على اختلاف مذاهبهم واعتقاداتهم، بين مسلمين ومسيحيين ويهود ومجوس وعَبَدَة أَوثان، وعلى اختلاف ملابسهم فالهندي لابسٌ ملابس بيضاءَ من أَوّلها إلى آخرها، حتى القَلَنْسُوَة حسب الشكل المخصوص بطائفتهِ، والعجمي متزيٍّ بقلنسوة سوداءَ، والتركي والمصري بطربوشٍ أحمر، والأَزهري من المصريين بقفطان وجبةٍ وفرجيّة وعمامة، والقسيس بملابس مَذْهَبِهِ، والعربي الجزائري بملابس صوف بيضاءَ على الشكل البدويّ، والجركسي بقلنسوة مخصوصة وسترة ذات فتحات بارزة في صدرها معدّة لوضع الأَسلحة والبارود، وعلى اختلاف اللغات وتعدُّدها بين عربي وتركيّ وفارسيّ وچركسيّ ويونانيّ وهنديّ ومالِيّ ويابانيّ وعبرانيّ وفرنساويّ وإنجليزيّ وألمانيّ وطليانيّ وسويديّ ونرويجيّ، إلى غير ذلك.

وأخص من هؤلاءِ الأَقوام المشتغلين باللغات العربيّة، فقد بالغوافي إكرامنا والاحتفاءِ بنا، وكثيراً ما أَخبرونا بإسلامهم وبمعتقداتهم السُّنيّة، حتى «إِن أَحد أصحابنا» حين عرَّفنا بأَحدهم قال: «هذا مسلم قح»، وهم لازمونا وسيّدي الوالد، وصاروا يُقدّمون إليهِ من يُحبُّون أَن يتعرّف بهِ، وتبادل أوراق الزيارة، إلاّ أنّ النساءَ كُنّ لا يكتفينَ في الغالب بهذه الأَوراق المطبوعة، بل يطلبنَ من السيّد الوالد أن يكتب اسمهُ بخطهِ في مذكّراتهنّ، ليبقى ذلك أثراً لهُ عندهنّ، وتذكاراً لهنّ.

ولمّا جاءَ وقت تعاطي الطعام، وكان نصف الليل بالتمام، فُتِحَت أبواب قاعة كبيرة فيها موائد متعدّدة على الطراز الوطني في هذه البلاد، أعني أنّ المآكل مرصوصة في وسطها على طولها في أطباق مناسبة لها في الكبر والصغر، تحيط بها أطباق صغيرة معدّة للأكل فيها، وملاعق وسكاكين وشوك، وسائر لوازم الأكل، فالآكل يأخذ ما يستحسن ويختار لنفسهِ ما يحلو، ويأكل أينما يريد على الموائد الوسطيّة إن وجد فسحة، أو على إحدى الموائد الموضوعة في جوانب القاعة إن وجد سعة، أو واقفاً يتحدّث ويتسامر مع من يريد، وكيفما يُريد، فإن فرغ صنف أخذ غيرهُ، وهكذا حتى يكتفي، والمآكل الّتي أُعِدّت في هذه الليلة أعدّها منظمو المؤتمر على نفقاتهم إكراماً للأعضاءِ، وهي من قبيل ما يسمّى «بالأطعمة الخفيفة»، فإنّها كانت تشتمل على مأكولات باردة من لحم الضأن والطيور والدجاج، وعلى حلواءات وبعض مشروبات خفيفة ليس إلاّ.

فأجهد العلماءُ المستشرقون أنفسهم وأفرغوا جهدهم في خدمة سيّدي الوالد، فمنهم من أَوسع لهُ محلاً يجلس فيهِ، ومنهم من كان يسأَلهُ عمّا يريد فيحضرهُ إليهِ، ومنهم من كان يسأَلهُ عمّا يرغب أن يشرب من المياه المعدنيّة أو العاديّة، فإنّهم تحاشوا شرب غير ذلك إجلالاً لهُ، وجلسوا بجانبهِ وبجانبنا، نأكل ونتسامر فيما يكون في الغد بحفلة الافتتاح، وبعدها، وفيما يكون في الاجتماع بالفصول، والحديث ذو شجون، فكنا ننتقل من موضوع إلى غيرهِ، وكل ذلك مما يدل على شدة رغبة هؤلاءِ الأفاضل في خدمتنا، والتفضّل بمساعدتنا، ومما يشف عن رغبتهم في استماع التكلم بالعربيّة، واجتهادهم في أن يتكلموا بها، وإجهادهم أنفسهم في تفهيم مقصودهم منها، فمنهم من كان يصل إلى فهم ما يُلقى إليهِ بتأَنٍّ

كامل ولفظ واضح، ومنهم من كان يرغب في أن يُفيد ما في ضميرهِ بالعربيّة، فلا تمكّنهُ عجمتهُ منهُ، وليس ذلك بغريب فقد أَخبرنا بعضهم أَنَّنا أَوّل من سَمِعَهُ يتكلم بالعربيّة، أَمّا من جاءَ منهم إلى بلادنا ومكث بها زمناً مثل البروفسور جلدتسِيْرَ، ومثل الأستاذ شيفر رئيس مدرسة الأَلسنة المشرقيَّة بباريس فكان كلٌّ منهم يتكلم بالعربيّة، ويُحسن النطق بها وفهمها وتفهيمها، وكنت أترجم لمن لا يفهمهما تكلماً ونطقاً، ولمن يفهمها ولا يتكلم، حتى انتهى قسم كبير من الليل، ولم ينتهِ الكلام، فودعنا صحبنا، وتفرق كلٌّ إلى مضجعهِ.

* * *

(من تَعَرَّفْنَا بهم في المؤتمر)

تقدم الكلام في أننا تَعَرَّفنا بحضرة الفاضل أحمد مدحت أفندي مندوب السلطنة السنيّة العثمانيّة بهذا المؤتمر، وهو مدير المطبعة العامرة بالآستانة، ومن أعضاءِ مجلس الصحة والكورنتينات وباشكاتبهِ، ورئيس تحرير جريدة «ترجمان حقيقت»، وحائز لرتبة بالا الرفيعة، ومن مشاهير المؤلفين العثمانيين، وأعظم محب لوطنهِ. وساعٍ في إعلاءِ شأنِهِ، وكذلك في أننا تعرّفنا بالپروفسور جُلْدتْسِيَرْ «الأزهري» والپروفسور أوْجُسْتْ موللر «ابن الطحان»، وبالشاب هِيدِين، وأذكر هنا غيرهم ممن صار الاجتماع معهم والتعرف بهم في مجتمعات المؤتمر حسب ما أتذكر.

فممن عرفناهُ وفد العجم ورئيسهُ محسن معين المُلْك خان، وكان سفير العجم في الآستانة، وهو رجل مهذّب عالم عارف بالسياسة، ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الجسم، يعرف بعض اللغات الأَجنبيَّة، وأعضاؤهُ حضرة الفاضل الجنرال نجف علي خان، وكان معتمد دولة إِيران السياسي لدى حكومة الجناب الخديوي المُعَظَّم، وهو معروف بالفضل وسعة الاطلاع، وحضرتا حسن خان، ونيروز خان، من كتبة السر بسفارة العجم بالأَستانة، وقد سبق أن هذا الوفد الرسمي من ضيوف ملك السويد أَعني أن مصاريف إقامتهم على حساب سموّهِ، وإن كانوا نازلين بإحدى جهات الفندق الذين نحن بهِ.

وممن عرفناهُ وفد فرنسا، وهو مؤلف من جناب المسيو شِفِّر أَحد أعضاءِ

المجتمع العلمي الفرنساوي، ورئيس مدرسة الأَلسنة المشرقيَّة بباريس، وهو يُحسن التكلم بالعربيّة والتركيّة، وقد سبقت لهُ الإقامة بمصر مدة بصفة مترجم بالقنصلاتو الجنراليَّة الفرنساويَّة فيها زمن جنتمكان مُحمَّد علي باشا وبعدهُ، كما أنهُ أَقام مدة في بلاد الدولة العليَّة، وعرفنا مع هذا الفاضل ابنهُ، ومن المسيو أُوپّيرْ أحد أَعضاءِ المجتمع العلمي أيضاً، وأَحد أَساتذة المدرسة الشهيرة «بكوليج ده فرانس»، وهو يعرف اللغة التركيّة أيضاً، وإن كان تكلمهُ بها أَقل من رفيقهِ الموماً إليهِ.

وممن عرفناهُ وافد الجزائر وهو حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ شعيب بن عبدالله قاضي تلمسان، سنُّهُ نحو الستين، وربما زاد ملابسهُ من الصوف الأَبيض كما هو الحال في لبس المغاربة هو والشيخ بشير كاتب محكمتهِ، وقد أَتى معهُ ليكون ترجُماناً لهُ.

وممن عرفناهُ وفد بوسنة وهرسك وهو مؤلف من خلوصي أفندي محاسبجي الأَوقاف، ومن الدكتور كِرِسْمِيرِيكْ.

وممن عرفناهُ جناب البارون ده كْرِيمِرْ أَحد وافدي النمسا من أعضاءِ المجتمع العلمي بها، وكان وزير ديوان التجارة هناك، وقبل ذلك كان من أعضاءِ صندوق الدين العمومي بالقطر المصري، وهو مهذَّب الأَخلاق إلى الغاية، ويُحسن التكلم باللغة العربيّة، وقد بلغنا أنهُ توفي ببلدهِ بعد انفضاض المؤتمر بقليل.

وممن اجتمعنا معهُ جناب الپروفسور بْرُوكْش باشا من وافدي ألمانيا، الشهير بمعرفة اللغات المصريّة، وكنا نعرفهُ بمصر مذ كان ناظر مدرسة اللغات القديمة بها، وقد أَقام فيها زمناً طويلاً، ويُحسن التكلم بالعربيّة وغيرها من اللغات المشرقيّة كالتركيّة والفارسيّة.

وممن عرفناهُ حضرة البروفسور مكس مُولْلِر من أساتذة مدرسة دار العلوم في أكسفورد من أعمال إنجلتره، وهو مشهور في أوروبا وغيرها باستكشافاتهِ العلميّة وتعمقهِ في معرفة ألسنة الهند والصين، يبلغ من العمر نحو الستين سنة، أبيض اللون مُشَرَّبٌ بحمرة، لحيتهُ وشارباهُ محلوقة، إلاّ ما جاور الأذن، تصحبهُ امرأتهُ، وهي تعرف اللغة الألمانيّة والفرنساويّة فضلاً عن الإنجليزيّة.

وممن عرفناهُ من الأعضاءِ الروسيين الأستاذ كُوتْوَالْ، مدير كتبخانة دار المعارف بقازان، وهو شيخ هرم يبلغ عمرهُ نحو الثمانين، تصحبهُ ابنتهُ مدام كِره لْلِنْبِرْج، لمساعدتهِ على السفر ومعاونتهِ فيهِ، وسيدة من الروسيات متوطنة ببلاد القازان، اسمها الذي اشتهرت بهِ في المؤتمر كلنار، والحقيقي لِيْدُفْ، أما الشيخ الهرم كوتوال أو «يوسف كُوتْوَالْ» كما كتب ذلك بيدهِ في ورقة أعطاني إيّاها تذكاراً باسمهِ، فهو من أحسن من رأيناهُ محبّاً للإسلام والمسلمين، ومتبحراً في العلوم الإسلاميَّة، ولهُ معرفة تامة بالعربيّة والتركيّة والفارسيّة، فضلاً عن معرفتهِ كثيراً من اللغات الأوروبيّة كالفرنساويّة والألمانيّة، زيادة على لغتهِ الأصليّة الروسيّة، ولهُ تلامذة كثيرون في مدن الروسيا، وفي مدارسها الجامعة الكبيرة، وأخبرنا أنهُ طبع وصحح كثيراً من كتب العقائد الإسلاميّة المستعملة ببلاد التتار، وأنّهُ كثير الاختلاط بعلمائهم، مشغوف بمصاحبتهم، حتى إن حُسْنَ الظن في عقيدتهِ لا يختلف فيهِ اثنان في تلك البلاد.

وأما بنتهُ مدام كِرَه لْلِنْبِرْج، ويبلغ سنّها نحو الخمسين، فهي طويلة القامة، سمراءُ اللون لا تعرف غير لغتها وبعض الفرنساويّة، وقد أتت لمساعدتهِ وخدمتهِ في السفر كما أسلفناهُ تاركةً أولادها عند زوجها.

وقد صاحب سيدي الوالد هذا الشيخ، وكلما طالت الصحبة راقهُ حديثهُ، وأعجبتهُ دماثة أخلاقهِ، وظهر لهُ حسن اعتقادهِ وقد سألهُ ذات يوم عن الشيخ مُحمَّد عيَّاد الطنطاوي من أعاظم علماءِ الأزهر المتبحرين في علوم الأدب، صاحب التآليف العديدة، والشعر الرقيق، وكان توجه إلى بلاد الروسيا، وأقام بها، هل هو حيٌ أو ميّتٌ وهل أعقب ذريّة أو لم يعقب، فأخبرهُ الشيخ كوتوال كما قيدتهُ وقت ذاك في ورقة محفوظة عندي، أن الشيخ مُحمَّد كان بالمدرسة الكبرى، وبديوان الخارجيَّة بسان بطرسبورج معظماً غاية التعظيم، محترماً إلى النهاية، مرتباً لهُ معاش عظيم، وكان لهُ ولد وزوجة، وأنَّهُ مات في سنة 1862 على ما يتذكر، وماتت بعدهُ زوجتهُ، وكانت من مصر علويّة، وبعدها توفي ولدهُ، وكان اسمهُ أحمد على ما يظن، وأن الشيخ مُحَمَّداً المومأ إليهِ دُفن في بطرسبورج، حيث قبور المسلمين بها، وقبرهُ معلوم هناك، وكذلك قبر زوجتهِ وابنهِ.

وأمّا مَدَام كلنار أو مَدَام «أولجاده لِيهْ دُفْ» فروسيَّةٌ من عائلة غنيَّة، ولها أملاك متّسعة في قازان، كانت تستعمل فيها كثيراً من العملة التتاريين، فعرفت منهم بعض كلمات رغَّبتها في تعلم التركي، فتعلّمتهُ، وأحبت أهلهُ حبّاً شديداً، وتعلّمت ما يدخل فيهِ من العربي والفارسي، وهي تعرف مع ذلك زيادة عن لغتها الأصليّة الروسيّة اللغةَ الإنجليزيّة والألمانيّة والروميّة والفرنساويّة، وتجيد فن الرسم والتصوير، مع أن سنها على ما يظهر لا يتجاوز الأربعين، وقد أخبرتنا أنها لشغفها بمحبة العثمانيين تلبس في القازان ملابسهم، وتُلبس أولادها الطرابيش، وهي في غاية الاطلاع، وفرط الذكاءِ، ذات رقة وملاطفة، وكثيراً ما تحادثنا معها في عوائد الشرق والشرقيين، وقد طلبت من سيدي الوالد أن يكتب لها أبياتاً يذكر فيها

اسمها، فأنشأ لها أبياتاً كتبها لها بخطهِ ضاعت مني صورتها، وعندي من آثار هذه المحترمة المحِبّة للشرق وأَهلِهِ ورقة بها صورتها، وتحت الصورة كتبت بخطها بالعربي هذه الكلمات:

«لجناب الحضرة عبدالله فكري باشا» في 16 محرم سنة 1307 تذكاراً من مخلصتك.

«كلنارليه دف»

وممن عرفناهُ حضرة الكونت أَنجِلُو دِي جُوبِرْناتِسْ الأُستاذ بدار المعارف العليا بفلورانسا، وافد حكومة إيطاليا بهذا المؤتمر، وهو زيادة عن تضلُّعهِ في العلوم الشرقيّة خطيب بلغتهِ، بليغ تأْخذ أَلفاظهُ بالألباب، لزيادة رقتها ووفور انسجامها وحسن إلقائها.

وممن اجتمعنا به صاحبنا البروفسور دُه جُويهْ الأُستاذ بدار معارف لَيْدِن، وقد سبقت لنا ملاقاتهُ بالمدينة المذكورة كما تقدّم، وقد حضر معهُ إلى المؤتمر أَحد أصحاب مطبعة بريل الّتي مرّ ذكرها بليْدِن.

وممن عرفناهُ المسيو دِيرِنْهَيْم رئيس هذا المؤتمر عن السويد، وهو رجل لطيف الأَخلاق مشهور في بلادهِ بسعة المعارف والاطلاع، متوسط القامة بلحيتهِ شيب، يتكلم بالفرنساويّة، وقد كان من الوزراء وهو وقت المؤتمر رئيس دار المعارف بأُبْسَالَا، ورئيس المجتمع العلمي الزراعي.

وممن عرفناهُ المسيو هِلْدِبْرَاند وهو رئيس متاحف المملكة الأَثريّة، كثير التضلع في التاريخ وآثارهِ.

وممن عرفناهُ المسيو دُهْ بيلجِزْ من وافدي أَلمانيا، وهو شاب كثير

المعارف والتحبب إلى الشرقيين بسبب خدمتهِ بقنصلاتو ألمانيا في سلانيك، وسياحتهِ في البلاد العثمانيَّة، وقد تودَّد إلينا كثيراً، وانتظرنا في برلين، فتفرَّجنا معهُ عليها في العودة كما سيأتي الكلام عليهِ.

وممن عرفناهُ شاب من الإنجليز سكن مصر مدَّة اسمهُ المستر لِيُونْ، غاب عني لقبهُ المميِّز لهُ، ولم أعثر على ورقة زيارتهِ في أوراق الزيارات الَّتي عندي، ولكن لم أَنْسَ ما عرضهُ على أحد أقسام المؤتمر، مما زعمهُ نافعاً لدفع الصعوبة الَّتي يجدها الأَجانبُ في تعلُّم العربيَّة من جهة عدم الشكل في حروفها، وذلك أن تُستبدل الحروف العربيَّة بحروف أَجنبيَّة، ويستبدَل شكلها بحروف أجنبيَّة تدلُّ على الشكل، بحيث إن الباءَ مثلاً يوضع بدلها الحرف الذي يقوم مقامها في الحروف الإفرنكيَّة، ثم يوضع بعدها ما يدلُّ على الشكل من الحروف، فيكتب للدلالة على الضمة O، وللدلالة على الفتحة A، وعلى الكسرة i، أمَّا الحروف العربيَّة الَّتي لا يوجد لها نظيرِ في اللغات الأجنبيَّة فيشار إليها بحرف يقاربها أَو يماثلها من حروف اللغة الأجنبيَّة، ويُوضع تحتهُ علامة تميِّزهُ عن أَصلهِ الموضوع لهُ، فالثاءُ مثلاً يشار إليها بحرف التاءِ تحتهُ نقطة مثلاً، وكذلك الحاءُ والخاءُ والدال والصاد والضاد والطاءُ والظاءُ والعين والغين والقاف يشار إليها بما يقاربها، أَو يماثلها، ويجعل تحتها العلامة المميِّزة لها عن أصلها الموضوعة هي لهُ، وهو يُريد أن تسير هذه الطريقة الَّتي اخترعها بالنسبة لسائر اللغات الَّتي تُكتب بالحروف العربيَّة كالفارسيَّة والتركيَّة، وقد عثرتُ في الأوراق على مذكرتهِ الَّتي قدَّمها إلى المؤتمر بهذا الصدد ممضياً عليها باسم ليون، والغالب على الظن أنهُ من الأغنياءِ الَّذين لا شيءَ يشغلهم في تقضّي

أوقاتهم، فيتخذون التسيُّح لقضاءِ العمر، فتعرض لهم في سياحاتهم أفكار، قد تكون نافعة، وقد تكون مثل هذه الفكرة.

ومِمَّنْ عرفناهُ البروفسور أَدَلْبَرْطْ مَرْكس الأُستاذ في دار معارف هدلبرج من أعمال ألمانيا.

وممن عرفناهُ جناب الفاضل الأُستاذ لِيتْنِرْ رئيس المدرسة المشرقيّة سابقاً في لاهور من أعمال الهند، والآن هو رئيس المدرسة والمتحف الشرقيين في وُوكين بقرب لندن، ومعهُ ابنهُ شاب فاضل.

وهذا الدكتور الشهير يَعْرِف خمسةً وعشرين لساناً، ويتكلَّم بها، وقد اشتهر بِمحبتهِ للمسلمين، والذب عنهم، والتعرض لإزالة ما داخل أفكار بعض الأُوربيين على غير حقّ من جهتهم، ولهُ في ذلك آثار مشهورة، وأَفعال مبرورة، منها الجامع الذي قام بتشييدهِ خدمة للمسلمين بووكين بالقرب من لندن بمصاريف جمعها من المسلمين، ومن أحبابهِ الإنجليز، أَرانا رسمهُ، فإذا هو متّسع بهج، وهو على نيّة الاستمرار في هذا السير، والحث على تشييد غير هذا الجامع في غير هذه المدينة، مع ترتيب دروس إسلاميّة في الجوامع الّتي ينشئها، ومنها إنشاءُ جريدة عربيّة سَمَّاها «الحقائق» أَهدانا الجزءَ الصادر منها في يوليه سنة 1889، وقد جاءَ فيهِ تحت اسم الجريدة أنها «مجلة علميّة أدبيّة تصدر مرة كل ثلاثة أشهر من مركز إدارة إنشائها، وُوكِينْ من أعمال بلاد الإنجليز من دار الشرفاءِ المشرقيين لترويج العلوم المشرقيّة» وأذكر منها رسالة بحروفها أنشأها هذا الفاضل وهي:

* * *

(الإسلام ومدارسهم)

« لحضرة العالم العلامة الدكتور ليتنر المشهور »

« وُفِّقْتُ بما ندر أن يكون لمسيحي بأن قد درستُ العربيّة في مدرسة جامع من جوامع الأَستانة قبل الحروب الروسيّة الَّتي اضطرمت نارها من سنة 1854 إلى 1856 وبعدها أيضاً.

«ثم كان لي بعد ذلك أن أُناظر مئات من مدارس إسلام الهند –، وما قصدت في كتابة هذه المقالة أن أذكر التقارير المسهبة التفصيل التي قد رفعتها إليَّ أُلوف منها، وإنما إظهاراً للحق، ودفعاً للزور، ودرءاً[1] للغرور، ولإقامة الحجة على الَّذين وَهِموا فقالوا: إنها قد أصبحت بيوت الإِثم لا بيوت العلم، إلى غير ذلك مما رشقوها بهِ من سهام الذم، ونبال الوقيعة، مما لا وجه للصحة فيهِ، ولا حاجة لي إلى إثبات ذلك، فإن الخَاصة والعامة من سكان البلاد على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وتباين آرائهم، لا يرَوْن فيهم عيباً، ولا يسلمون بشيءٍ من تلك الدعاوي الفارغة الَّتي لا طائل تحتها. . . ، ولا يخفى أَنَّ الإسلام من أعظم الأمم حبّاً للدين، وتمسكاً بعراهُ، وهم لا يباشرون أَمراً ما لم يوطدوا أَركانهُ على المبادئ الدينيّة، وحاشا لله أن يجيز الدين شيئاً من مثل تلك المنكرات –، وأَما ادعاءُ البعض على أن المسلمين لا ينشئون مدارس لتهذيب البنات فذلك برهان على أن المدعين قد خضعوا لأَحكام الوهم، حتى صاروا يحسبون النور ظلاماً، والظلام نوراً، والمدارس العديدة لبنات إسلام الهند لا مدارس الحكومة، وربما صار بهم الوهم إلى أعظم من ذلك والعياذ بالله.

---

(1) في الأصل: «ودراً» المحرر.

والصحيح أَن للمسلمين في تلك البلاد مدارس زاهية زاهرة أكثر من أن تُعَدّ، قد أنشئت لتهذيب الذُكران والإِناث، يأتيها البنات وعلى وجوههنّ البراقع، ويُبَكِّرُ إليها الفريقان وهم موسومون بسمات الآداب والتهذيب، لا يلامون بملامة، ولا يؤخذون بشين أو عيب، غير أنهُ قد حدث مرة أَن بعض الصبيان رَمَوْا بعض فتيان المسيحيين بالحجارة، فعاقبهم الإمام أشد العقاب، فلزموا الأدب، وقد عرف بالاختبار أن أولاد الأعيان، إنما هم لغيرهم في حسن السلوك مثال وقُدوة، ومن المقرر أَن أبناءَ المشرق قد فُطِروا على السكينة والرزانة، وزد على ذلك أَن لا امتداد للمعائب في المشرق قدر امتدادها في المغرب، وإنما قد ضربت علينا الخُيَلاءُ، فوهمنا أن مدارسنا أجدرُ بالتثقيف وإتقان العلم من مدارسهم، لكنني أقول: والحق أَولى أَن يقال: إِن التمرين في مدارس الإسلام أعظمُ وأَرفعُ إتقاناً، وما سمعت أو عرفت مدة إقامتي في الهند مناظراً للمدارس المذكورة بوقوع أَدنى حادث يعود عليها بالشين أو العار.

وأَما ما كان من ذلك فقد حدث في بعض البيوت المختصة بالحكومة، ولا ريب أَن التأثر الديني واعتبار التهذيب وإطاعة المهذبين واحترام الوالدين، وتتميم الواجبات في مدارس إسلام الهند أَفضلُ كثيراً ممّا هو في مدارس الحكومة التي قد اتخذت مبادئ الآداب للتهذيب بدلاً من المبادئ الدينيَّة، وإنني لا أخشى أَن أقول: إن حكومة الهند قد أخطأت خطأً[1] عظيماً باتخاذها في هذه الأيام الأخيرة الخُطة المومأ إليها؛ إذ لا يُفيد تعليم الآداب على حدّها ما لم تقترن مبادئها بمبادئ الدين -، وإذا قيل: إنّ السبب في ذلك أَن الإسلاميَّة لا تؤول بتابعيها إلى التمدن والتنور قلت:

(1) في الأصل: «خطاءً» المحرر.

ذلك وهمٌ؛ إذ القائل لا يعرف دين الإسلام، فيستطيع الحكم فيهِ، كما أَن من لا يعرف العربيّة لا يقدر أن يستحسنها أو يستهجنها.

والمسلمون يعترفون بأن النصارى واليهود آل كتب منزلة، وهم يعلّمون أولادهم احترام الدينَيْنِ، والقرآن الشريف يأمر بالمحاماة عن الجوامع وكنائس النصارى واليهود حيثما ينادى باسم الإله الواحد، وفيهِ أَن المسيح من رَوْح الله وأنّهُ قد صنع العجائب الفايقة، ويذكرون اسمهُ بإكرام لا تذكرهُ بهِ أُمّتُهُ. وقد أَظهر المسلمون من السخاءِ ما خوَّلهم ثناءً جميلاً؛ إذ قدَّموا شيئاً كثيراً من النقود تبرعاً لإنشاءِ مدارس للعيسويين، حتى لبناءِ الكنائس أيضاً، حالة كون العيسويين لم يقدموا لهم من المال تبرعاً لإنشاءِ معابدهم إلّا شيئاً قليلاً، وقد ساد الترك المسلمون اليونانَ والأَرمن واليهود، وما أوقعوا بهم ضرراً، ولا أحدثوا في أحوالهم الظاهريّة والباطنيّة تغييراً مهمّاً.

وفي الهند أَجاز قضاتهم تقليل الأَوقات للمحافظة على الحقوق الماليّة - وشرعهم الشريف يخوّل الثيب حقوقاً أكثر مما تخولها القوانين الإنكليزيّة -، وبمنعهم الشبانَ من مجالسة الشابّات يتمكّنون من صيانة عرضهم والمحافظة على شرفهم، ويُكرمون الأَرملة التقيّة إكراماً لائقاً، ويتخذونها لهم مثالاً حسناً وقدوة صالحة، وهم ينظرون إلى الحيوانات بعين الحنو والشفقة، ويتّقون الله بسلامة القلب وخلوص النيّة ونقاوة الضمير، وقد كان الأَولى بدعاة الدين المسيحي أن يسعوا في أن يوفقوا بينهم وبين النصارى، وأن لا يلقوا التنافر والتباغض بين الأُمتين بالجدال الذي لا فائدة منهُ.

وإنني أرى أنهُ من الواجب على الحكومة إذا شاءت المحافظة على السّلْم والسكينة، أن تجعل الدين من أَعظم الأُمور المهمة لنجاحها وتأْييد كلمتها

وتوطيد سلطتها؛ إذ السياسة وحدها لا تمكّنها مما فيهِ ترغب، وإليهِ تميل، وإنما يرتاح خاطرها، وتقرُّ عينها عندما تسعى في رفع أعلام دين رعاياها بسعيها في إحكام سياستها وتعزيز قوّتها؛ إذ الحكومة والدين توأمان، ولا نجاح بلا دين، كأمّةٍ بلا شرف وبلا شهامة، صار بها الحال إلى الخراب العام. وقد برهن لنا الاختبار أن معاضدة المسلمين ليست بذات أهميّة من جهة الدين فقط، بل من جهة السياسة أيضاً؛ فإن معاضدتنا للدولة العليّة العثمانيّة قد عادت علينا بعميم النفع وجليل النجاح -، وإنني لأنصح للحكومة أن تبذل الجهد في تهذيب أبناءِ مسلمي الهند وتعليمهم الفنون الحربيّة، وأن تمنحهم حقوقاً ذات شأن في الجنديّة فإن في ذلك تعزيزاً لسلطتها وتثبيتاً لوطأتها، فإنَّ قوّتها العسكريّة تصير أضعاف ما هي عليهِ الآن فتمكن من توطيد ما لها من النجاح والفلاح.

«وما تجاسرتُ على تأليف هذه الرسالة، إلّا بعد أن اختبرت، واطلعت على أفكار كثيرين من رجال الحزم والذكاءِ، من نخبة المسيحيين الّذين قد بحثوا عن خفيات المشاكل، ودقيق المسائل البحث العميق، فكان لهم أن يعرفوا غوامض الأمور وكنه مكنونات السياسة؛ إذ قد أدّبهم الدهر، وحنّكتهم الأيّام. والله الموفق إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل». اهـ.



(افتتاح المؤتمر)

تقدَّم أَنَّ افتتاح المؤتمر سيكون وقت الظهر من يوم الاثنين 2 سپتمبر سنة 1889، وأن الحضور إليهِ يكون بالملابس الرسميَّة.

فقبل الوقت أَحْضَرْنا عربتين[1]، ركب في إحداهما حضرة مدحت إفندي وسيدي الوالد، وركبنا نحن الثلاثة باقي الوفد المصري في الأُخرى، وقصدنا سراي «رِيدَّارْهُوسْت»، مارين بين أُلوف مِن الخلائق مصطفين على جانبي الطريق، بغاية الانتظام والاحتشام مع التعظيم للمارة والإكرام، حتى وصلنا ميدان «وازا» الذي تُشرف عليهِ السراي، فوجدنا الازدحام أَشد والعالم لا يحصى لهم عد، بحيث لا يتيسر المرور من غير المحل الذي خصصهُ البوليس بمرور الأَعضاءِ، وهم يتواردون أَفواجاً، ويتوافدون فرادى وأَزواجاً، مشاةً وركباناً، زرافات[2] ووحداناً.

ووِجهة السراي مزينة بأعلام الأُمم المختلفة تخفق من جميع الجهات، مغطاةً بالرياحين والأَزهار، مرسوم بأَعلى هذه الوِجهة صورة الأَهرام وأَبي الهول إِشارة إلى مصر، وتعظيماً لأَمرها، يحيط بهما غيرهما من رسوم التماثيل المشهورة، في الهند والصين والبلاد النائيةِ والممالك القاصية.

والسُّلَّم الذي يُصعَد فيهِ إلى قاعة الافتتاح مصطفٌ عليهِ العسكر، لابسين أَحسن ملابسهم متحلّين بأَجود أَسلحتهم منتخبين من طوال الرجال ذوي الهيئة والشهامة، يُسلّمون على الأَعضاءِ السلامَ العسكري للتعظيم والاحترام.

---

(1) في الأصل: «عربتان» المحرر.

(2) في الأصل: «ظرافات» المحرر.

فصعدنا فيهِ حتى وصلنا إلى تلك القاعة وقد سَبَقَنا إليها كثير من الأَعضاءِ، ثم جلسنا بالمحل المعدّ لنا، وما زالت الأعضاءُ تتوارد، والسفراءُ تتوافد، والأمراءُ العظام وأكابر المملكة الفخام، حتى غُصَّ المكان، وبلغ عدد من بهِ من الأَعضاءِ وغيرهم من السفراءِ وعظماءِ المملكة نحو ستمائة نسمة، غير النساءِ المتفرجات، وهنَّ جالسات بالمرتفع الذي وصفناهُ آنفاً، فكان المنظر بهجاً لاتساع المحل وزينتهِ وزخرفتهِ وتحلّي من بهِ بالملابس الرسميَّة على اختلافها، مزركشة بالقصب، مجمّلة بالذهب، تعلو صدورهم نياشين الفخار، ويلوح عليهم سمات الهيبة والوقار.

وبينما الحاضرون على هذا الحال من السرور والابتهاج بهذا الاجتماع والساعة اثنتا عشرة، إذ صدحت الموسيقا[1] عند باب السراي ونادى منادٍ بهذا النادي: الملك آتٍ، فقام الناس للتعظيم، واتجهت الأَنظار إلى ذلك القادم الكريم، فدخل متحلياً بملابسهِ الرسميَّة، متجملاً بنياشينهِ الملوكيَّة، يقفوهُ ولي عهدهِ، ويتبعهما رجال معيتهِ الكرام، ووزراؤُهُ العظام لابسين الملابس الرسميَّة، وأَخذ الملك يتقدَّم شيئاً فشيئاً ماسكاً قبعتهُ بيدهِ مشيراً بالسلام على الحاضرين، طَلْق الوجه مبتسماً، حتى وصل إلى درج المرتفع، ثم إلى سريرهِ المعدّ لهُ بعد أن صافح المندوب العثماني، ومندوب شاه العجم، وانثنى إلى جهتنا فصافح سيدي الوالد، وصفاحنا بعدهُ، وجلس على السرير لحظة، ريثما استراح، ثم قام فقام القوم لقيامهِ، فخطب بالفرنساويَّة بصوت مرتفع خطبة ملخص ترجمتها لفظهُ:

«يا حضرات أعضاءِ المؤتمر،

---

(1) في الأصل: «الموسيقى» المحرر.

«لقد حصل لي مزيد السرور حينما أجاب مؤتمر العلوم الشرقيّة مذ كان مجتمعاً برِيانه دعوتي للاجتماع هذه المرة في عاصمة بلادي، وزاد سروري اليوم إذ رأيت اجتماع العلماء المشرقيين والمستشرقين الأفاضل حاصلاً بالفعل على هذه الهيئة الواجب تبجيلها واحترامها وتعظيمها وتكريمها.

«وإنكم قد أتيتم يا حضرات الأفاضل من بلادكم البعيدة، وقطعتم المسافات الطويلة، تاركين أقطاركم المشمسة، لتنشروا أشعة المعارف، وتَبُثُّوا منها التالد والطارف في هذه البلاد المعدودة من الممالك المتحلية بالآداب من قديم الزمان.

«ولا غرو في ذلك فأنوار المعارف المنتشرة في هذا العصر ثمار أفكاركم ومنشآت أعمالكم، ونتيجة معاناتكم ومكافحاتكم، فأنتم مبددو جيوش ظلمات الجهل، بما تحملونهُ من أسلحة العِرفان والفضل، وأنتم الأحق بما خاطب بهِ نابليون عسكرهُ قائلاً: «إن أربعين عصراً تتباهى بأعمالكم»، فإنكم بتأسيساتكم العلميّة، . وأبحاثكم الاستكشافيّة في هذه الأيام، أمطتم اللثام عما أكنّتهُ تلك العصور الخالية في أعماقها من المخبّآت والأسرار.

«وقد دلّت التواريخ الشرقيّة في رواياتها العديدة على ما كانت تبذلهُ الملوك في سبيلِ العلم والعلماءِ من المال، تشجيعاً وترغيباً، حتى إن النعمان كان يملأُ فم النابغة الشاعر الشهير باللؤلؤ، والمأمون كان يجيز على البيت الواحد من الشعر الجيّد بألوف من الدنانير، ونحن ملوك هذا العصر، وإن كنا لا ننقدكم تلك اللآلئ العظيمة والدنانير الجسيمة، لكن نُعَوّضكم عنها محض محبتنا، وكامل مودتنا، ونعضّدكم حسب طاقتنا في أعمالكم النافعة للجنس البشري، السائرة بهِ نحو الإِسعاد والتقدم الدائمي، ونقتدي بالخلفاءِ والملوك الأقدمين في أن نَشد أَزْرَ العلماءِ، ونقتفي أثَرَ

(1) في الأصل: «المخبئات» المحرر.

الحكماءِ في استكشافاتهم العلميّة، فتمسك بحبالها، ونتعلق بأذيالها ونرغب في اقتنائها، ونُشَوّق إلى انتشارها فإنا نجد فيما تعثرون عليهِ من كنوز الآثار ما ينبئنا عما خلا من الأعصار.

وإنّا وإن لم نتمكن في هذا القرن التاسع عشر، يا حضرات أفاضل الشرق، وأوروبا، وأمريكا من أن نؤدّي لكم الضيافة على وجهها، كما كانت تُؤدّي إليكم، لو جئتم هذه الديار قبل الآن بألف سنة، لكننا نعوضكم عنها التمتع بمناظر ما حوتهُ بلادنا هذه من جبالها المرتفعة، وبحيراتها المتّسعة، وخلجانها وأنهارها، وعظم أشجارها، ونضرة أزهارها وغرائبها الطبيعيّة، وبدائعها الخلقيّة، وإني أُؤمل أنهُ بعد مشاهدتكم بلادنا وهيئاتها ووقوفكم على محاسن صفاتها، يبقى لها في ألسنتكم الذكر الجميل، وينطبع لها في مفكرتكم وقع جليل، لا تُنسيهِ كرور الأيام والعصور ومرور الأزمان والدهور.

«وإني أرجو لكم كمال التوفيق في المذاكرات التي تدور عليها أبحاثكم في هذا المؤتمر، مؤدّياً واجب الترحيب والتأهيل على تشريفكم هذه البلاد، معلناً بافتتاح المؤتمر الثامن للعلوم المشرقيّة».

فلما فرغ الملك من خطبتهِ أكثر الحاضرون من التصفيق استحساناً وتشكراً، ثم جلس وجلسوا.

فقام المسيو دَيْرِنْهَيْم رئيس المؤتمر عن السويد، وألقى مقالة بالفرنساويّة، وجّه فيها الكلام إلى سموّ الملك وأعضاءِ المؤتمر ملخصها:

«إن بلاد السويد والنرويج كانت علماؤها مشتغلة قديماً في مكاتبها المدرسيّة ومجتمعاتها العلميّة بالعلوم الطبيعيّة والرياضيّة أكثر من غيرها، ولم تتجدّد الرغبة في تعلّم الألسن والعلوم المشرقيّة إلّا من نحو عشر

سنين، فجدُّوا فيها، ومن جدَّ وجد، وها نحن نترجّى أن تزداد نجاحاً، وتُصيب فلاحاً، وتكثر الرغبة فيها لدى الخاص والعام بانعقاد هذا المؤتمر في بلادنا، وإشراق علوم المشرق بأرضنا، وأن الأهالي جميعهم صغيرهم وكبيرهم يتشكرون لوفود حضرات الأعضاءِ الفضلاءِ إلى هذه الأنحاءِ، ويَعُدُّون انعقاد المؤتمر في عاصمتي بلديهم من أكبر الحظ والسعد لديهم».

ثم قام بعد هذا الخطيب حضرة الكونت ده لاندبرج، وتلا خطبة بالفرنساويّة، خاطب بها سموّ الملك وأعضاءَ المؤتمر عَرّبنا منها ما يأتي قال:

«مولاي إني لأَعجِز عن ذكر ما خالج قلبي من المسرة والحبور لرؤية تحقق آمال السنين الطوال، كيف لا، وعلماءُ الشرق والغرب قد اجتمعوا في عاصمة المملكة الإسكنديناويّة، وقد أصبح الشرق الذي هو مهد علوم آبائنا منتعشاً بنشأة جديدة بناءً على ما صرفهُ ملوكهُ من العناية، وقد هرع علماءُ الشرق من أقاليم مختلفة طبقاً لأَوامر مواليهم إلى هذا الاحتفال الذي يُعَدُّ عيداً من أعياد العِلم، فكان ذلك جالباً لتمكين العلاقات بين الشعوب الَّتي فرّقت بينهم المسافات الطوال والعوائد المتباينة، وقد حضر الكثير من المشتغلين بالعلوم الشرقيّة، من علماءِ أُوروبا لتبادل أفكارهم مع علماءِ الشرق خدمة للمعارف، وتقوية لصلات المودة فيما بينهم.

«وقد ساح في بلاد الشرق منذ أربعين سنة جلالة الملك الآمر بانتظام هذه الجمعيّة، باحثاً كما هو دأبهُ الآن، عما طاب من جليل الآثار، فشغفتهُ حبّاً بلاد الشرق التي لا يعدم المتجوّل فيها فوائد جمّة من أجل فوائد تاريخ الأزمان الغابرة، وهو من عهد أن تبوّأ أريكة الملك لا يزال ميّالاً إلى ما أحبهُ في عنفوان شبابهِ، وقد افتتح علماءُ هذا الزمن الفتوحات العلميّة الجمة، فأصبح طريق تاريخ الشرق معلوماً مسلوكاً بعد أن كان مجهولاً

متروكاً، واستمر جلالة الملك بعد جلوسهِ على سرير الملك كما كان في أثناءِ شبابهِ متتبعاً تقدم العلم الشرقيّ، رغماً عن اشتغالهِ بِمهام حكومتهِ. وقد قال أحباؤنا سكان وادي النهر المقدّس: «إن من ذاق ماءَ النيل لا يسلوهُ فلا بد لهُ من الرجوع إلى مصر» وهذا المثل يصدُق على العلماءِ، فإن من ذاق منهم لذّة البحث وحلاوة العلوم الشرقيّة كان كمن يطرُق طريقاً لا يُحِب الخروج منهُ، وللشرق محاسن لا تَشُوق عامة الناس فقط، بل تأخذ بألباب ملوك الأَرض وأقيالها؛ ولذا ترون جلالة الملك مشتركاً معنا في البحث عن العلوم الشرقيّة، وهو لم يجمعنا في عاصمتي مملَكتهِ إلّا لشمولهِ بعالي أنظار جلالة الملك أسكار، وجعلهِ تحت ظل حمايتهِ، وقد صرَّح لي جلالتهُ منذ سنين برغبتهِ في استقبال العلماءِ المستشرقين، ثم أمرني بأن أُبلّغَ رغبتهُ في ذلك إلى مؤتمر ويانه، ولا يخفاكم ما كان من تلبية دعوتهِ الملوكيّة بمزيد السرور، وهذه الجمعيّة الشهيرة برهان على ما قُوبلت بهِ تلك الدعوة من حُسْن الإجابة والمبادرة إليها.

«مولاي - إنني لما كُلّفت من قبل جلالتكم بتأليف هذا المؤتمر بناءً على ما فوَّضهُ إليكم مؤتمر ويانه، قد اشتغلت بذلك تحت أنظاركم العالية، ومدد كرمكم الذي لا يُحدُّ، وعين عنايتكم الّتي لا تنام، وتلقّيت من جلالتكم الأَوامر والتعليمات الّتي يقتضيها الحال، وقد تفضلتم، كرماً منكم، ذكّرني مكارم الخلفاءِ بتحقيق أَقصى أُمنيتي، الّتي هي تقديم زملائي الغربيين والشرقيين بين يدي مليك وطني المُعَظّم، فاسمح لي أيها الملك الجليل أن أقدم لذاتكم الفخيمة جزيل الشكر في حضرة مندوبي الشعوب المختلفة عوائد[1] وأَدياناً، وإنّ صِدْقَ وَلائي لوطني وحسن إِخلاصي لملِكي يقضيان

(1) في الأصل: «عوائداً» المحرر.

عليّ بأن أكون نافعاً لهما مدة حياتي، ولهذا قبلت خدمة العلم متطوّعاً، وإني لأفتخر اليوم برؤية أَهلهِ يقدّمون أَمام كرسي جلالتكم عبارات الشكر ويتقرَّبون إليكم بصفاءِ الإخلاص.

«سادتي - كان من اللازم مراعاةً للعادة المتبعة في المؤتمرات السابقة أن أكلمكم في شأن علماءِ السويد المستشرقين، ولكنني أُعافيكم من ذلك؛ لأَنَّهُ لا يحسن بالإنسان أن يتكلم عن نفسهِ، ولأَن أحد أبناءِ وطني كفاني مؤنة ذلك بما كتبهُ أَخيراً في هذا الموضوع بإحدى المجلاَّت السويديَّة، وإني مع ذلك لا أَرى بُدّاً من أن أستأذنكم في التكلم عن مؤتمرنا وعنكم، فأقول: إن عامة الناس لا يفرقون في المعنى بين كلمتي الشرق والمستشرق، وقد انتدبتُ يوماً للتكلم في موضوع شرقي فتعرض لي شخص حَسَن الملبس، وسأَلني: أَين موقع الشرق من الدنيا؟ وقد كان أَحد الساسة الأَجانب يظن أن المستشرقين كناية عن عَصَبات متجمعة لفتح الشرق.

ولا شك أَنَّ كلام هذا السياسي الساذج في جهالتهِ لا يخلو عن بعض صحة، لأَننا يا حضرات السادة لم نخرج عن كوننا عَصَبَةً مؤلفة لحل مسأَلة الشرق العظمى، فإننا بما لدينا من عُدَد الحرب الهائلة، نهدم قلاع الأَفكار الفاسدة والغلطات الكاسدة حجراً حجراً؛ ولأَننا نبعث بأَحكام الانتقاد ودقتهِ نوراً يصل إلى أَقاصي تاريخ البشر، وقد تكلَّم جلالة الملك عن ميدان حربنا هذه بما ينطبق على الحق، وذلك الميدان مفتوح لجميع الناس، ونحن نحارب في صفوف الشرقيين لمصلحة الشرق، مسجّلين في صفحات التاريخ، الذي نحن قائمون بتحريرهِ، أُصولهُ وتمدنهُ وعظمتهُ ومسراتهُ وأَحزانهُ، فكيف لا يكون الشرقيون حلفاءَنا في تلك الحرب، وكيف لا يمدُّون إلينا يد المساعدة لكشف الغِطاءِ عمّا لا تصل إليهِ أنظارنا،

ونحن لا نعادي أحداً، ولا نتكلم في شأن الأديان بالاعتراض عليها، ولكننا نُعْجَبُ بنور العلم أَينما سطع، ولا نتعرض لمعتقَد، خشية أن يتناول ذلك طَرَفاً من تلك الحقائق الَّتي نبحث عنها في الشرق.

«هذا والعلم معظَّمٌ في الشرق كما هو محترمٌ في أُوروبا، فإِن العلماءَ عند المسلمين موعودون بالأَجر في الدار الأُخرى كما جاءَ ذلكَ في القرآن.

«ثم معلوم أَنّ المسلمين والنصارى صَلَّوْا معاً في جامع الأَمويين بدمَشق مدة سبعين عاماً، وأَنّ النصارى كانوا مقبولين في جميع الوظائف، وقد قضى دين الإِسلام بقبول الإِسلام منهم، أو بدفعهم الجزية، ولم يُعهد بالأَزمنة المتأَخرة من التسامح بقدر ما كان في تلك الأَزمان، وهذه الحروب الصليبيَّة الناشئة عن الجنون وفساد العقل والقساوة، قد جمعت بين محبي المخاطرة وارتكاب الأَهوال، وبين الجهَّال والمتدينين الَّذين أَضرُّوا بصلات الغرب مع الشرق، وأَحدثوا التنافر السياسيّ الذي لا يزال شيءٌ منهُ إلى الآن، والمسلمون ليسوا أكثر تعصباً من النصارى فإِنني عائش بين ظهرانيهم منذ 17 سنة، ولم أَجد منهم إِلَّا كل محبة ولطافة وشأْنهم في عدم التعصب حد السيربُولْوَرْ سفير بريطانيا في القسطنطينيَّة إلى ما كتبهُ إلى اللورد روسل بتاريخ 27 يوليو سنة 1864 حيث قال ضمن كتابهِ: «وفي الحقيقة فإِني لا يمكنني إِلَّا الإِذعان بروح التسامح وعدم التعصب اللذين يبديهما الدين الحاكم قِبَل البروتستانت، فإن ذلك التسامح وعدم التعصب ينذُر وجودهما حتى في الممالك النصرانيَّة».

«وإِني أناشد النصارى بذمتهم بأَن يقولوا الحق، فيعترفوا بأَنّهم طالما نسوا ما قالهُ المسيح من جهة الأَمر بالمساواة والتحابب.

«وقد أخطأَ من زعم أن الإِسلام يمنع التقدم الجديد؛ إذ بني حكمهُ على

آراءِ بعض علمائهِ، فإن الإسلام الحقيقي يبعد عن تشدُّق هؤلاءِ العلماءِ بُعْدَ النصرانيَّة عن تعاليم قُسُس القرون الوسطى.

«ويرغب بعض الناس تغيير كل شيءٍ في الشرق حسب أفكارنا في طرفة عين، غير مفكر أن الشعوب اعتادت على ما يرغب تغييرهُ منذ آلاف من السنين، فهذه تركيًا الجديدة قد أدخلت إِصلاحات في بلادها، وهذه مصر الَّتي يُقَدِّسُها التاريخ محكومة بقوانيننا، فهلاً يجب علينا أن نحالف تلك الأُمم عوضاً عن مناوأتها، ولست أُوجه ما أَقول إلى علماءِ السياسة ولا إلى السياسيين، ولكن أُخاطبكم بهِ أيها السادة فإِن بيدكم الطريقة الَّتي يكون بها ارتباط الشرق والغرب أَلا وهي طريقة العلم، وهي تجذب الشرقيين إلينا للاشتراك معنا في عملٍ واحد ومساعدتنا في أَبحاثنا وباستشارتهم والانتفاع بهم تُزال العقبات الكثيرة الَّتي تمنعنا عن نَيل المقصود، فتكون أعمالنا سهلةً نافعةً، وقد وجد مستشرقو الإنجليز بالهند زملاءَ فضلاءَ من أَهالي تلك البلاد، فينبغي أن نقفو أَثرهم، وليس ملوك الشرق مبغضين لما ندرسهُ، فإِن أَبحاثنا لا تعود على بلادهم إلَّا بالفخر، فهذا جلالة السلطان، وهذا شاه العجم، وهذا خديوي مصر، قد أثبتوا لنا ذلك بإرسالهم إلى هذا الموسم العلميّ خلاصة علمائهم، وبرهنوا بذلك على أنهم ورثة الخلفاءِ والأُمراءِ الَّذين كان دأْبهم من قديم الزمان حماية العلم والآداب، ولا شك أَن عناية الملوك والأُمراءِ قُدوة تقتدي بها الشعوب، فمتى نظر ملوك الشرق إلى أحباب الشرق بعين العناية كان ذلك مؤَدياً إلى نجاح مشروعاتنا.

«وإِن مؤتمراتنا نحن معاشر المستشرقين لا تشابه المؤتمرات الأُخرى، ولذا كانت أَعمالنا لا تُضاهى بغيرها من الأَعمال، فإن قصدنا البحث عن أَقدم بلاد الدنيا الخارجة كلها عن حدود أُوروبا، ومشتملة على عدد عديد

من الشعوب المختلفة؛ ولذا كان علمنا حقيقاً بأن يسمى أجنبيًا، وحيث كنا لا نختلط مع هؤلاءِ الشعوب إلّا فيما ندر، كان ذلك يلجئنا إلى التنقير عما نحن بصددهِ في نقوشهم وكتبهم، ولما كان كل تمدن من تمدن تلك الشعوب مخالفاً لتمدننا وصعب الفهم كان من اللازم الذهاب إلى الشرق للاطلاع على ما بقي من آثارهِ كي يسهل بذلك فهم ما يُسْتَصْعَب منهُ».

ثم أطال الشرح في ذكر الشرق والمستشرقين إلى أن قال:

«إن جلالة الملك أُسكار قد أَمر في 8 يناير سنة 1886 بإنشاءِ جائزتي شرف، ليكافئ بهما من يؤلف أَحسن تأْليف في موضوعين مهمين: أَولهما: تاريخ اللغات الساميَّة، وثانيهما: تاريخ حالة تمدن العرب قبل الإسلام، ولم يعزُب عن جلالة الملك صعوبة الخوض في مسائل مثل هذه، وكانت اللجنة الَّتي أَلَّفها جلالته للنظر فيما يُقدَّم من التآليف في هذين الموضوعين قليلة الأَمل في تأْدية وظيفتها؛ فإن أَول الموضوعين المطلوب التأْليف فيهِ صعب جدّاً؛ لأَن حالة معلومات الإِنسان الآن وقلة كفاءَتهِ لا تسمحان لهُ بأَن يُحيط بجميع اللغات الساميَّة، فمن ذا الذي يمكنهُ أَن يحيط كل الإِحاطة باللغة العربيَّة والعبرانيَّة والسريانيَّة والحبشيَّة، ويُحيط بما كان للأَشوريين من العلم والتمدن، وما كان لتلك الملل المتقدم ذكرها من الآداب، إن ذلك ليكاد يستحيل وجودهُ في شخص واحد، فالمستشرقون من العلماءِ لم يُخاطروا بأَنفسهم في سبيل تأْليف تاريخ اللغات الساميَّة، وقد قال أُستاذ مدينة ستراسبورج نفسهُ إنهُ ليس في وُسعهِ أن يشرع في تأْليف مثل هذا.

أَمَّا الموضوع الثاني فربما كان أَسهل من الأَول، ولكن الأَسانيد فيهِ عديمة

الوجود، نعم، إنهُ قد يمكن تأليف التاريخ بطريق التقريب بالاستنباط مما بقي من أَشعار وتأليف الأَقدمين، ولكنَّ المستعربين من العلماءِ يُفَضِّلُون الانتظار حتى تنتشر التآليف الموجودة بخزائن كتب أُوروپا والشرق، ومن ثم كانت اللجنة آسفة على أن لم يتقدم لها أي مؤلف أُوروبي من المستشرقين في الموضوعين الآنفي الذكر، أَما العرب فقد كانوا أكثر إنتاجاً؛ إذ أَلَّفوا ستة تآليف بلسانهم، وأَرسلوها إلى اللجنة، ومن ضمن تلك التآليف تأليف واحد جدير باستلفات نظر اللجنة عنوانهُ «بلوغ الأَرب في معرفة أَحوال العرب» أَلَّفهُ الشيخ محمود شكري إفندي الأَلوسي من بغداد، وهو وإن لم يكن مستوفي الشرائط الَّتي اشترطتها اللجنة إلَّا إِنَّهُ كثير المزايا، حتى استحق أن يُعرض شأنهُ إلى جلالة الملك.

أَما باقي التآليف فكانت عبارة عن مجموعات عديمة الجدوى مستنبطة من كتب من الدرجة الثانية والثالثة، وكانت كلها خالية بالكليَّة من أَفكار وانتقادات مؤلفيها، وكان البعض منها مشوباً بمسائل دينيَّة لا محل لها في مواضيع سابقة على الإِسلام، وذلك هو الذي ألجأ اللجنة إلى الصفح عن ذكرها، والذي يدل على اعتبار أُوروپا لكل عمل خالٍ من الأَفكار الدينيَّة يقوم بهِ علماءُ الشرق هو ما أَمر بهِ جلالة الملك من منح مؤلف «بلوغ الأَرب» الميدالية الذهبيَّة المعدة للفنون والعلوم، ليحملها على صدرهِ معلقة في شريط وَازًا وسترسل تلك الميدالية إلى الشيخ الأَلوسي بواسطة سفير مملكتي السويد والنرويج.

ولم يُضَيِّع جلالة الملك فرصة هذا الموسم العلميّ بدون أن يُبرهن على حسن التفاتهِ، وشدة ميله إلى علم الشرق، فإِن جلالتهُ لمَّا لم يتقدم مؤلفٌ ما إلى اللجنة وجَّهَ أَنظارهُ إلى مؤلفات أُلفت ونشرت، وهي في المواد المتعلقة بالمواضيع الَّتي عُرض التأليف فيها على العلماءِ، فأَنعم بالميداليتين الذهبيتين

إلى اثنين من أشهر العلماءِ خدما اللغات الساميّة بما نشراهُ من التآليف، فأول هذين العالمين هو «تِيُودُورزنُولْدِيكْ» المدرس بمدرسة ستراسبورج، الغني عن المدح الذي كل تأليف من تآليفهِ يُعد من جليل المؤلفات، ولكنهُ لسوءِ الحظ لم يمكنهُ أن يحضر هذا المؤتمر لموانع صحيّة، وكان يود جلالة الملك أن يسلمهُ الميدالية في حضرتكم أيها السادة العارفون فضل أستاذنا وصديقنا هذا، وإني مكلّفٌ من قِبَلِ جلالتهِ بأن أؤدي إلى المسيو نولديك شعائر احترامهِ لهُ، وأسفهِ من عدم حضورهِ بهذا المؤتمر.

«وقد كنت بدمشق منذ سبع عشرة سنة، فصادفت بها شابًا هنكاريًا عالماً، كثير التواضع اسمهُ الياس جُولْدتسِيّر، يُحسن التكلم بالعربيّة، وكان يجدهُ الإنسان في الأسواق والحوانيت والقهاوي، وفي كافة الأنحاءِ، وكان هذا الشاب العالم تلميذاً لشيخنا الطيب الذكر بمدينة ليبريج، وقد حذا حَذْوَ أُستاذهِ، وفتح أبواباً جديدة لمعرفة دين الإسلام وآدابهِ ولغتهِ، وكان يحب العربيّة حبًا شديداً، فنبغ فيها إلى درجة عظيمة، وكان أوّل من اهتدى إلى معرفة أسرار الإسلام، وهو الآن مقيم في مدينة بودابست في حارة هوللووتسا الصغيرة، وقد أرسل إلينا جملة مؤلفات جليلة القدر من تآليفهِ، ونشر في هذه الأيام مؤلفاً جديداً محكم التحرير في العرب قبل الإسلام.

وهذا العالم الجزيل الفضل الواقف على نظامات العرب هو الذي أنعم عليهِ جلالة الملك بالميدالية الذهبيّة الثانية، وإنكم أيها السادة تعرفون حياة المسيو جُولْدتْسِيّز ومقامهُ، وتعرفون أن من يقصد مؤلفاتهِ يجد فيها شذور الذهب الإبريز، وغاية القول: إن طبع هذا العالم المفطور على الصدق والإخلاص، واعتدال مشربهِ في الانتقاد، أكسباهُ أصدقاءَ مخلصين في

وطنهِ، وفي جميع البلاد الَّتي تحترم العلم -، وإني أرجو المسيو جُولدتِسِيِّر أن يتقدم ليستلم الجائزة المنعم بها عليهِ من يد جلالة الملك الشريفة.

«وإني أختتم ذكر محبي العلم باسم الأمير الشرقي الغزير المعارف، محب علم بلادهِ ولغتها الذي أراد أن يثبت لكم أنهُ يقدر خدمات علماءِ أوروبا للعلوم الشرقيَّة حق قدرها، ألاَ وهو سموّ خديو مصر مُحمَّد توفيق المُعَظَّم، فإنَّهُ أنعم على الأُستاذ دُه جُويَهْ بالنيابة عن جلالة الخليفة الأعظم بالنشان المجيدي من الدرجة الثانية مكافأَة لهُ على تآليفهِ الَّتي نشرها في تاريخ العرب وجغرافية بلادهم، وإذعاناً بما صرفهُ من الهمة في نشر تأْليف الطبري، وإني أرجو المسيو دُه جُويَهْ بأن يتقدم ليستلم من يد جلالة الملك النشان والأمر السامي بمنحهِ إليهِ.

«وإنني أيها السادة لم أذكر إلى الآن سوى المؤلفين، على أنني لا يمكنني أن أنسى فضل من يعممون فوائد المؤلفات بطبعها ونشرها بين الناس، فإننا معشر المستشرقين، يجب علينا أن نُقر لهم كل الإقرار بجليل خدماتهم، وممن يستحق الذكر من بينهم بيت «بريل» بمدينة لَيْدِن الذي تأسست باسمهِ المطبعة الشهيرة تحت رياسة الموسيو فَانْ أُورْديتْ، والموسيو دُه سْتُوبْلاَرْ، وهي مفتوحة الأبواب للمستشرقين، فلا تردّ لهم طلباً، غير مهتمة بسوى خدمة العلم، مقدمة صالِحَهُ على منافعها الخصوصيَّة وإن لها على المستعربين من بين باقي العلماءِ اليد الطولى الَّتي تستوجب خالص الشكر والثناءِ، فإنَّها بعناية المسيو دُه جُويَهْ قد نشرت من كبار المؤلفين مؤلفاً مشتملاً على عشرين مجلداً للطبري غير واثقة بالحصول على ما أنفقتهُ في سبيل نشرها، وذلك ما دعا إلى الإنعام على المسيوفَانْ أُورِديتْ بالنشان

المجيدي من الدرجة الثالثة من لدن سموّ الخديوي الساهر على مكافأة من يقدمون خدمة إلى مملكة جلالة الخليفة الأعظم، وإني أهنئ حضرة المسيو المومأ إليه بهذا الإنعام وأرجوهُ أن يتقدم ليستلم من يد جلالة الملك الفخيم ذلك النشان والأمر السامي المؤذن بمنحهِ إليهِ».

ثم تلاهُ حضرة الفاضل محسن خان سفير سموّ شاه العجم بالآستانة العليّة ومندوبهُ بهذا المؤتمر، وتلا مقالة بالفارسيّة من إنشائهِ، ضمنها شكر سموّ أسكار الثاني على عنايتهِ بالمعلومات المشرقيّة، وتخلّص فيها إلى ذكر آداب الشرقيين، وسعة علومهم ومعارفهم، فصفق لهُ الحضور استحساناً، كما صفقوا لمن سَبقهُ من الخطباءِ، وأثنى عليهِ سموّ الملك.

ثم تلاهُ مندوب الحضرة السلطانيّة جناب الفاضل مدحت إفندي، فألقى باللغة التركيّة مقالة بليغة يخاطب بها سموّ الملك ملخصها:

«حشمتپناها (يا ملجأ الحشمة والاحترام)،

«إن متبوعي الأعظم وسلطاني الأفخم صاحب الشوكة الغازي عبدالحميد خان، حامي حمى المعارف العثمانيّة، القائم بشعائر العلوم الملّية، تلقّى بكمال المحظوظيّة طلب سموّكم اشتراك السلطنة السنيّة العثمانيّة في أعمال المؤتمر الثامن الذي تقرر اجتماعهُ للمستشرقين بعاصمة بلاد سموّكم، وقد أعلى - أدام الله ملكهُ - شرف أحقر عبيدهِ هذا، وزاد قدر عاجزيتهِ بانتخابهِ لحضور هذا المؤتمر، وعدّه من المنسوبين إلى المعارف ببلادهِ المحروسة.

وإن انتخابي لهذه المأموريّة من مليكي العلي الشأن أَعُدُّهُ في ذاتهِ من حسن الطالع، ومزيد الإسعاد، ويزيد عندي هذه المحظوظيّة ويُعلي شأنها كونهُ وسيلة لي في أن أعرض أسنى التبجيل والتعظيم بذاتي على سموّ

أُسكار الثاني، مليك السويد والنرويج المُعَظَّم، أَمير العلماءِ، وعالم الأُمراءِ الذي زين تاريخ العلوم والفنون بما وَهَبها من حمايتهِ ومنحها من عنايتهِ.

«يا عالي الجناب»،

«إِنَّ مَنْ حضر هذا المؤتَمر من سائر أنحاءِ العالم ووُجد في هذا الجمع الحافل من العلماءِ والفضلاءِ يشاركني في المحظوظية بالحضور لدى سدتكم، ويضيءُ ضميرهُ ما يُضيءُ قلبي من السرور والحبور بالمثول بين يدي عظمتكم، وإِنَّ هذا القرن التاسع عشر لجدير بأن تحسدهُ الأَعصر الخالية والأَزمان الماضية لما شمل العلم والعلماءَ فيهِ من رعاية الملوك لهما وعناية السلاطين بهما، وقد يتيسر لأَهل العلم وأَصحاب الفضل أن يجتمعوا إخواناً حول منصة المباحثة يتذاكرون فيما يُعلي شأن الإنسان، ويوجب سعادتهُ».

«وليس من المتصوّر أن فرداً من أَفراد العالم لا يقدر هذه النعمة حق قدرها أو يتأَخر عن القيام بواجب شكرها».

«فمن أَجل ذلك أَرى من وظائفي المقدسة الابتهال إلى الحق، جلَّت قدرتهُ، وعلت كلمتهُ أن يُطيل بقاءَ جميع الملوك المحامين للمعارف المشوِّقين لأَربابها، وأن يمنح سموكم من بينهم كمال الصحة وطول العمر ودوام العافية، كما أَرجو أَن جميع أبناءِ النوع الإِنساني يشاركونني في هذا الدعاءِ، ويعترفون معي بقدر هذه النعمة وحقيَّة ذلك الثناءِ، ويتَّحدون معي في التأمين – آمين».

فلمَّا فرغ من خطبتهِ صفق القوم استحساناً، وتشكروا لهُ، وأَثنى عليهِ جلالة الملك، ثم قام بعدهُ سيدي الوالد، وأنشد قصيدتهُ هذه:

اليومَ أسفَر للعلوم نهارُ ... وبدت لشمس سمائها أنوارُ
وزهت فنون العلم وازدهرت بها ... أفنانها وتناسقت أنوارُ
وغدت لأرباب المعارف دولةٌ ... غرّاءُ صاحبُ مُلكها أُسكارُ
أسكارُ الثاني الذي اعترفت لهُ الـ ... أقطار وارتفعت بهِ الأقدارُ
وَرَعى حقوق العلم يُعلي قدرَهُ ... فَنَما بهمتهِ لهُ مِقدارُ
وَدَعَا لهُ الفضلاءَ دعوة ناصرٍ ... للعلم فهو بهم لهُ أنصارُ
هي دعوةٌ طنَّت بآذانِ العُلى ... وتناقلت أخبارَهَا السُّمَّارُ
عَرَفت بقيمتها البلاد وأهلها ... وملوكها وتسامع الأقطارُ
أمرٌ أميرُ المؤمنين أعارَهُ ... نظراً وأنظارُ الكبارِ كبارُ
فسرى بهِ في مصر من توفيقهِ ... نورٌ ومن بركاتهِ أسرارُ
وإذا المليك أراد يُنجح مقصداً ... نالتهُ من توفيقهِ آثارُ
مولىً لهُ في كلّ مكرمةٍ يدٌ ... ولكل موقع مقصد أنظارُ
وأعان كلُّ زعيم مملكةٍ لهُ ... بشؤون أهل بلادهِ استبصارُ
يحدو إلى أرض السويد أماثلاً ... من قومِهِ أمثالهم أخيارُ
مستظهرين بدعوة الملك الَّتي ... عَمَّت وما لسماعها إنكارُ
فتسارع العلماءُ تلبيةً لهُ ... بالطوع تسبقهم لهُ الأخبارُ
يقتادُهم صيتٌ يشوق سماعهُ ... ويسوقهم شوقٌ إليهِ مثارُ
سمعوا بشهرتهِ وصيت ثنائهِ ... سمعاً يذكّرهم بهِ التكرارُ
وسما بهم في أُستُكُلمَ بأمرهِ ... نادٍ تَشَاخَصَ دونهُ الأبصارُ

جمعتهُ من شرق البلاد وغربها وجنوبها وشمالها الأقدارُ
ألقت بأفلاذ الكبود إليهِ من أبنائها في حُبّهِ الأمصارُ
نادٍ بهِ احتفل الأفاضلُ حفلةً بحديثها تتقادم الأعصارُ
جُمعت لثامن مرةٍ معدودةٍ في الدهر لا يُنْسَى لها تذكارُ
جمعتهم الأقدار جمع سلامةٍ والله في أقدارهِ مختارُ
متآلفين بعيدُهم بقريبهم والفضل أقربُ وُصلةً تُمتارُ
من كل فيّاضِ القريحةِ وِردُهُ عَذْبٌ وبحر علومهِ زخّارُ
تتدفق الأفكار نحو يراعهِ فيفيضُ من أُنبُوبِهِ تيارُ
من كل معنىً شفَّ عنهُ لفظهُ كالخمرِ نمَّ بها الزجاجُ تُدارُ
ومؤزَّرٍ بالفضل مشتمل بهِ منهُ شعارٌ زانهُ ودِثارُ
حَبْرٌ إذا وَلِيَ اليراعَ بنانهُ زان الطروسَ بوشيها الأحبارُ
ويغوص أعماقَ المباحثِ باحثاً عن كشف كل فريدةٍ تُختارُ
دُرَرٌ يروقُ الطرفَ منها رونقٌ بهجٌ تحار بوصفهِ الأفكارُ
لذَوِي المفاخر من حلاها زينةٌ تبقى ولا يَبْلى لهنَّ فَخارُ
لا زال مُلْكُ الفضل معمور الذُرى بذويهِ ممدوداً لهُ الأعمارُ

فصفق القوم، وابتهج العارفون باللغة العربيّة والفنون الأدبيّة، وتشكر لهُ سموّ الملك، وأثنى عليهِ الأعضاءُ، وطلب منهُ كاتب المؤتمر نسخةً من القصيدة، وطلبها كثيرٌ سواهُ، وقد نسخوا منها عدة نسخ بعد الحفلة، منهم حضرة الفاضل الجنرال نجف علي خان مندوب سموّ الشاه لدى

سموّ خديوي مصر، ووافدهُ لدى المؤتمر قد كتب نسخة منها لنفسهِ، ونسخة لرئيس وفد العجم، والظاهر أنهُ أرسل صورتها لجريدة «أَختر» الّتي تطبع بالفارسية في الآستانة؛ فإننا وجدناها بعد عودتنا إلى مصر مطبوعة في عدد هذه الجريدة الصادر بتاريخ 20 محرم سنة 1307 الموافق 16 سپتمبر سنة 1889.

ثم قام بعد سيدي الوالد حضرة الكونت ده لاندبرج، وتلا خطبة عربيّة جواباً لصاحب العطوفة مدحت إفندي مندوب جلالة الخليفة الأَعظم، ولسيدي الوالد مندوب سموّ الخديوي الأفخم وهي هذه:

«مضت القرون المتوالية وحمى المعارف ملحوظ بعنايات الخلفاءِ؛ إذ كانوا يستجلبون رجالها إلى نواديهم بما يبذلون لهم من واسع النفقات، وما يسنون من الجوائز، حتى تكاثرت وفود العلماءِ على ساحاتهم، وازدحمت أَفواج الأُدباءِ بأَبوابهم، ممّا كان باعثاً لهمم الطالبين على النشاط حتى عمت الفائدة وانتشرت المنفعة. هذا المفضل الضّبي، والأَصمعي، وأَبو عبيدة وأَضرابهم ممن تقدمهم أَو تأَخّر في الزمان عنهم، لولا تلكم الجوائز الهائلة التي حصلوا عليها من المهدي والرشيد وغيرهما وصلت العلوم المأثورة عنهم إلى ما نراها عليهِ اليوم من انتشارها بين الخافقين، وفي جمع المأمون للعلماءِ ومناظرتهُ إيّاهم، المرة بعد الأُخرى، في عدة من أَنواع العلوم العالية ما يكفي حجة لأَن العلم كان إذ ذاك تحت حماية الخلفاءِ.

ونحن الآن في عصر لا جَرَمَ يُذَكِّرُنا بذلك الزمن المبارك، فهذا سلطان الوقت، صاحب الجلالة عبدالحميد الثاني، لا يزال يبدي من غيرتهِ على

المعارف ما يجعل أيامهُ بالأيّام الماضية أشبه، فلقد أرسل إلى مجتمعنا هذا حضرة الفاضل مدحت إفندي الجامع في كتابتهِ بين حسن السبك وقوة المعنى، ولا ريب أن في انتخاب مثلهِ لهذا المجتمع حجة دامغة على معرفة الباعث برجال الأهليّة واللياقة، وهذه أوّل مرة أُرسل فيها من قِبَلِ الحضرة السلطانيّة العالية لأجل اللغة التركيّة رجل تركي بحت، حرّ الفكر والقول، فهو نخبة الترك علماً بفضل المرسل، وتكرِمةً للمرسل إليهِ، فنحن نشكر جلالة السلطان الأعظم على هذه العناية الفاضلة، راجين أن يدوم اتحادنا مع جلالتهِ في المقاصد الخيريّة؛ لأنّا لا نسعى إلّا لما يسعى إليهِ من نفع الشرق وأهليهِ، قائلين جميعاً بوحدانيّة رب العالمين.

«وحبّذا لو أن جلالتهُ جعل المعارف في الشرق تحت حمايتهِ السلطانيّة؛ فإن لهُ يداً لا تعلو عليها يد، والعلم متى حُفظ جانبهُ اشتدت رغبة الطالبين فيهِ، وهذا ممّا يوجب انتشارهُ بين أفراد الرعيّة التي ترى يقيناً أن جلالتهُ لها أبٌ شفوق، يسرهُ أن يجد أبناءَهُ كلهم راتعين في بُحبوحة الكمالات الإنسانيّة، على أن جنابهُ الأعظم أنبهُ في مثل هذا من أن يُنبَّه، فإنهُ بالحقائق أعلم من كل عليم، ثم إني أُوجه الآن خطابي إلى صاحب السعادة العلامة الشهير الفاضل عبدالله فكري باشا رئيس الوفد المصري، ووزير المعارف بمصر سابقاً، فكلنا يعلم أن مصر من أقدم الممالك في المدنيّة، وآثارها أعيان تشهد بفضلها القديم، ولها فخر الأسبقيّة على أكثر بلدان المعمورة، فيجب علينا ألّا نبخسها اليوم حقها، ولا نسقطها عن منصِبها الكمالي، فلقد أصبحت على تقهقر البلاد الشرقيّة منبع المعارف، ومظهر الآداب، ولاسيما منذ استولت العائلة العلويّة على عرش الحكم فيها؛ فهذه علوم اللغة والنحو

والفقه في مصر لا تزال تقرُّ بها العيون، وتطيب النفوس على فقدانها، أو جزء عظيم منها، فيما عداها من الأقطار، وتلك مدرستها الكبرى الجامعة المعروفة بالأَزهر أشهر مدارس الشرق قاطبةً؛ فلذلك ما برح وفود الطلاَّب إليها من كل حَدَب من شاسع النواحي ينسِلون، حتى من مكة والمدينة الشريفتين، وذلك لكمال معدات العلوم فيها، ولا خفاءَ أن صاحب السموّ الخديوي المعظَّم هو الحامي لها، الغيور عليها، المعتني بتكثير وسائلها في بلادهِ ما أمكن، فهو أَيَّدهُ الله بفضلهِ، لا يجد طريقاً لتقدم المعارف في مصر إلّا مهّدها للطالبين، فانتهجوها صراطاً مستقيماً لا يلحق مجتازهُ عثور كما هو رغبة الحضرة العليّة السلطانيّة.

«وإن عاصمة مصر وهي القاهرة لا شك أن لها من اسمها نصيباً، فنرجو لها دوام التقدُّم حتى تكون قاهرةً بعلومها لما دونها من البلاد، ومثل هذا القهر لا يُعاب؛ فإن الغاية منهُ حَسَنة، ورب متعقّب ينكر علينا معاشر الأُوروبيين عنايتنا بالمعارف الشرقيّة والآداب الإسلاميّة، زاعماً أن لنا في ذلك غايةً سيئة، معاذ الله، فإنما مقصدنا الحقيقي أَنما هو إيقاف الغربيين على كنهِ ما في الشرق مما لا يزال مجهولاً لديهم، لكيلا يغتروا بظاهر ما في بعض الكتب الَّتي أُلّفت في أحوال الشرق على عدم رؤية مؤلفيها إيّاهُ، ومع ذلك فإن طلب العلم مندوب إليهِ، قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] وفي الحديث الشريف: «العلماءُ أُمناءُ الله على خلقهِ» فنحن نضرع إلى الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتّبعون أَحسنهُ، وأن يصل مقاصدنا بالنجاح فهو نعم المعين».

ثم خطب المسيو «شِيفِرْ» وافد فرنسا بالفرنساويّة، ثم الكونت «أَنجِلُو

ده جُوِيْرْنَابِسْ» وافد إيطاليا بالإيطاليّة، ثم خطب عالم إنجليزيّ بالإنجليزيّة، ثم يابانيّ باليابانيّة، ثم راهب هنديّ بالهنديّة، ثم وثم إلى أن انتهى جميع الخطباءِ ممن استقرّ عليهم الرّأي بالأَمس، والجميع يصفق للخطيب عَقِبَ خطبتهِ، والملك يشكرهُ على حسن مقالتهِ حتى انفضت الحفلة والساعة 2 و10 دقائق بعد الظهر.

وانصرف الملك بعد أن صافح بعض الأَعضاءِ، ومنهم الوفد المصريِ، فتوجه الأَعضاءُ إلى المحال المخصصة بانعقاد الفصول لانتخاب رؤَسائها وكتبة أسرارها، وتوجهنا نحن إلى قاعة الفصل الأَول من القسم الأَول المخصص بلغات الأُمم الإسلاميّة وآدابها؛ فإنهُ اللائق بنا، والمناسب لنا من بين سائر فصول المؤتمر الّتي سيأْتي الكلام عليها. وهناك عرض حضرة الكونت ده لاندبرج أن لا تكون الرياسة منحصرةً في شخص واحد لعدم توهّم التمايز، وأن تكون دائرة بين عدة أشخاص بالمناوبة، وهم المسيو دُه جُويَهْ وافد هولانده. ويظهر أن هذا العرض كان على سابقة اتفاق بين الكونت وباقي الأَعضاءِ؛ بدليل إقرارهم على هذا المقترح بدون مناقشة، وهكذا كان الحال في الانتخاب بالنسبة لغير هذا القسم من الأَقسام والفصول على ما نُمي.

ثم دار الحديث بعد هذا الانتخاب، وبعد تعيين كاتب سر الفصل في معرفة ما إذا كنا نبدأُ في العمل اليوم من الساعة 3 إلى الساعة 5 بعد الظهر، كالمقرر في الپروجرام المطبوع أَو لا نبدأُ، فانحط الرأي بعد مداولة على ما رآهُ الأستاذ جُلْدِتْسِيِّر من أن لا بُداءَة في هذا القسم اليوم، وأن يكون بدءُ العمل في اليوم التالي، فعدنا إلى الفندق لتغيير ملابسنا

الرسميّة، واستبدالها بالملابس المعتادة ابتغاءَ الاستراحة، حتى يأْتي وقت لبسها ثانية عند التوجه إلى دعوة الملك بقصر دُرُوتْنِنْجُهْلْم، حيث تسير الوابورات من المينا إليهِ، والساعة 6 بعد الظهر من هذا النهار.

وما لبثنا أن عدنا إلى الملابس الرسميَّة، وركبنا العربات قاصدين رصيف رِيدّارْهُلْم، فوجدنا الوابورات في انتظارنا، وركبناها، وأَقلعت بنا سائرة في بحيرة ميلار قاصدة ذلك القصر في الساعة المعينة.

* * *

(دعـوة الملك)

بقصر مصيفهِ في دُرُوتْنِنْجُهُلْم

يتوصل إلى هذا القصر بطريق البر بالعربات، وبطريق البحيرة بالوابورات، وتقوم عدة مرات في اليوم من المحل الذي نزلنا منهُ، فتصل إلى موقع هذا المصيف في نحو ثلاثة أَرباع ساعة فقط، بأُجرة نصف كورون.

أما نحن أعضاءَ المؤتمر فقد ركبنا الوابورات الملوكيَّة الَّتي كانت في انتظارنا، وسارت بنا تمخر في بحيرة ميلار، نمتع النظر بما على شاطئها من الأَشجار والأَزهار، وبما بها من الجزائر اللطيفة والمناظر الظريفة، وهذه البحيرة ملأَى بالجزر، لا تخلو جهة منها من جزيرة صغيرة أو كبيرة، فصرنا نُسَرّحُ لاطرفَ فيها أَماماً وخلفاً وذات اليمين وذات الشمال. بما اشتملت عليهِ من الرونق والبهاءِ، وما كُسِيَت بهِ فطرة من كمال الازدهاءِ، وما حوتهُ من محلات مصيف الأغنياءِ ومتنزهات[1] الأمراءِ والعظماءِ، حتى جاوزنا فرع هذه البحيرة الذي يتجه نحو أُبْسَالاَ، واستمر بنا المسير إلى الأَمام ننتقل من جزيرة إلى جزيرة، والشواطئ ملأَى بالأَهالي، يحيوننا بالإشارة والعبارة، رافعين أصواتهم وقبعاتهم ومناديلهم إشارة إلى الفرح بالاستقبال، وأمارة على السرور والابتهال، حتى وصلنا إلى جزيرة «لوفون» إحدى هاتِهِ الجزر القائم عليها قصر دُرُوتْنِنْجُهُلْم.

---

(1) في الأصل: «متزهات» المحرر.

وهو بناءٌ رفيع ذو طبقتين، وجهتهُ متجهة نحو البحيرة، بينهما ميدان فسيح، ووراءَ القصر حديقة متّسعة متقنة النظام، تُناظر أَحسن متنزهات[1] أُوروپا المشهورة في البهجة وحسن الرونق والإحكام.

وقد تأَسس هذا القصر في أَواخر القرن السادس عشر بأَمر الملكة «كاترينه يَاجِلُّون»، واحترق بعد ذلك، فأُعيد إنشاؤهُ بعد مائة عام ووجه الملوك منذ ذلك الحين أنظارهم إليهِ، فزينوهُ ببديع الرسومات وجميل الصور، وحسّنوا في حديقتهِ وطرقاتها وسككها وسائر جهاتها، حتى بنى أَحدُهم، أدولف فريدريك سنة 1770، في هذه الحديقة بناءً لطيفاً على هيئة معابد الصينيين وزيَّنهُ ببديع آثارهم ومنتخبات تحفهم، وأَراد أَنْ يُهدي هذا البناءَ إلى قرينتهِ يوم عيد ميلادها، ولكن أَسرَّ ذلك في نفسهِ ولم يُبدهِ لأَحد؛ ليكون إهداؤهُ لها مفاجأَة على غير سابقة انتظار منها؛ ليزيد بذلك سرورها، ويتم بهِ حبورها.

ويشتمل القصر المتقدم على كثير من المحلات في طبقتين، أهمها في الطبقة الأُولى دهليز فسيح مزخرف موصل إلى أربع قاعات متّسعة، يُتوصل بباب من كلٍّ منها إلى الأُخرى، وهي قاعات المقابلات الرسميَّة والاحتفالات التشريفيَّة، وجميع محالِّهِ منورة بما لا يُحْصَى من المضيئات، وكذلك ميدانهُ وحديقتهُ، مزينان بأَحسن الزينة منوران بأَبهج أَنوار الكهرباءِ.

وقد قابَلَنا حال وصولنا رجال تشريفات الملك، فصعِدوا معنا إلى القاعات الَّتي ذكرناها، وأَخذنا نمشي فيها، ونمتّع الطرف بما حوتهُ من الصور والرسومات الَّتي تُمثِّل وقائع السويديين الحربيَّة برًّا وبحراً مع

(1) في الأصل: «متنزهات» المحرر.

الروسيين والألمانيين والفرنساويين، إلى أن انتقلنا إلى أحسن هذه القاعات إتقاناً وأكثرها زخرفة وأعظمها اتساعاً، وقد رُسِم فيها صورُ مَن ملك أُوروبا من الملوك قبل أربعين سنة ومنها صورة السلطان المُعَظَّم المرحوم عبد المجيد خان والد الخليفة الأعظم الحالي مولانا السلطان عبدالحميد خان، فجعلنا نتفرج على صور هؤلاءِ الملوك، ونأتنس بمن لقيناهُ من الأساتذة المستشرقين، ونتحادث معهم حسب مقتضيات الأحوال، فتارةً في زينة هذا القصر واستعدادهِ، وأُخرى فيما ينجر إليهِ الحديث بالمناسبة من أخبار المتقدمين الغربيين والشرقيين والجنوبيين والشماليين، ومسامرة هؤلاءِ الأفاضل لا يملها السمع، ولا يكل منها اللسان، وملاطفتهم لا يستطيع وصفها الإنسان.

وبينما نحن في هذا الائتناس نتفرج على الزينة الَّتي أُعِدّت بحديقة السراي وميدانها، والَّتي أَعدَّها الأهلون بالوابورات الصغيرة، الَّتي اكترَوها وركبوها ورسوا بها في أطراف البحيرة أمام القصر على مد البصر، وهي مئات، وأكثر من مئات، وإذا بالملك رسا بوابور صغير على الساحل، وبمجرد نزولهِ إلى البر اشتعلت الصواريخ الَّتي أُعدت في ميدانِ القصر، وتبعها ما أعدَّهُ الأهلون في وابوراتهم من ألعاب البارود، حتى كان المنظر بالغاً في العظم ما لا يوصف، والأهالي تصيح بما معناهُ «يعيش الملك يعيش» قائلة «هورّاه» أربع مرات، على حسب عادة البلاد، مما يسمع ضوضاؤُهُ من مسافات بعيدة.

وممَّا يُؤكد ما لهذا الملك الفاضل في قلوب رعاياهُ من الحب والمكانة، وأخذت الموسيقا[1] الملوكيَّة، وكانت على باب القصر، في أداءِ السلام،

(1) في الأصل: «الموسيقى» المحرر.

ولكنها لم تطل ليتمكن الملك من تحية ضيوفهِ، فصار يحيّي الجميع ببشاشة وجه، ويصافح البعض، ويزيد على ذلك بعض كلمات لمزيد الإكرام حتى وصل إلينا، فصافحنا مبتدئاً بالسيد الوالد، ملتفتاً إليهِ كل الالتفات حتى خاطبهُ بما لفظهُ «فانطزيّه كثير» مردفاً ذلك بالاستفسار منهُ عما يقول فيما يراهُ، وعن أحوال صحتهِ وإقامتهِ وراحتهِ في هذه الديار، فشكر سيدي الوالد سموهُ على التفاتهِ إليهِ بما يليق بعالي مقامهِ من واجبات الشكر والتعظيم، وقد تشرفت بالقيام بترجمة ما دار بينهما من الخطاب الملوكيّ والجواب التشكريّ اتباعاً لما أشار إليّ الملك بهِ في أول مقابلة من أن أكون الترجمان بين سموهِ وبين سيدي العزيز.

واستمر سموهُ بعد الفراغ من تحيتنا يُحيي من لقيهُ من ضيوفهِ نساءً ورجالاً، وسمح بأن تقدّم إليهِ الأعضاءُ غير[1] الرسميين الّذين لم يُقدَّموا إليهِ إلى الآن، فنالوا شرف المثول بين يديهِ، وحصلوا على التفاتهِ، ودام هذا الحال نحو ساعة، والموسيقا الملوكيّة تصدح بأحسن الأنغام حتى أُعدت موائد الطعام.

فأخذ الملك في النزول إلى الطبقة الأرضيّة من القصر، وتبعهُ الضيوف والأمراءُ البالغ عددهم نحو سبعمائة نفس، وفيهم من النساءِ نحو مائتي نفس، حتى دخلوا قاعات الأكل، وهي تحت القاعات العلويّة على اتساعها، والأطعمة مرصوصة على موائد في وسطها، حسب عوائد البلاد، يأخذ منها الإنسان ما أراد ليتعاطاهُ، في أي موضع شاء، غير ملتزم في ذلك ترتيب الأطعمة ولا ملزم بهِ.

(1) في الأصل: «الغير الرسميين» المحرر.

فأخذ الملك يأكل، والضيوف كلٌ على حسب راحتِهِ وما يشتهيهِ، وأحاط بسيدي الوالد جماعة من فضلاءِ الأصحاب التزموا خدمتهُ في الطعام، ومسامرتهُ في الكلام، وأخذنا نحن تارة نأكل، وتارة نَخْدُمُ من نساءِ هؤلاءِ الفضلاءِ زوجة هذا، وأُخرى زوجة ذاك، فنتاول هذه صنفاً تشتهيهِ، ونناول تلك شيئاً تبتغيهِ، وذلك من أعظم مراتب الشرف عند الغربيين، فهم يوجبون خدمة النساءِ، وتعظيمهنَّ، وأداءَ ما يوجب راحتهنَّ؛ لأَن الرجل يقوى بطبيعتهِ على ما لا تقوى عليهِ المرأة من مشاق الأعمال، ولما كانت عوائدهم ظهور النساء في مجامع الرجال التزموا خدمتهنَّ، والقيام بمعاونتهنَّ وملاطفتهنَّ.

على أن تلك الأميرات عالماتٌ فاضلاتٌ، وكل من حواهُ هذا المحل من النساءِ في هذا المساءِ كنَّ لابسات ملابس في غاية الاحتشام، مغطاةٌ صدورهنَّ إلى الرقبة، مستورة أيديهنَّ، بعيدات عما يَكُنَّ عليهِ في جمعيات الرقص والمخاصرة، وما شابهها، فإنهنَّ يكنَّ فيها مكشوفات الصدور والأيدي، وبعض الظهور إلى حالة لا يستحسنها من كان على غير هذه العوائد، وكنَّ بهيئتهنَّ الكماليَّة في هذه الليلة حيث يتباحثنَ في العلم مع العلماءِ. ويتجاذبْنَ حديث الفضل مع الفضلاءِ بعيدات عن هيئاتهنَّ في ليالي الرقص والمخاصرة، حيث يلتف الذراع على الذراع، ويقرب الصدر من الصدر، والوجه من الوجه، ويدور الحديث المناسب لهذه الهيئة الموافق لمقام هذه المخاصرة في أثناء الرقص وحالتهِ، والطرب ومزاحمتهِ.

هذا وقد كان الملك في أثناءِ الطعام يشرب على صحة الملوك الَّذين أَرسلوا الوفود إلى المؤتمر، وكلما شرب على صحة ملك صدحت الموسيقا بسلام ذلك الملك، وهكذا لما شرب سمّوهُ على صحة الخديوي المُعَظَّم صدحت الموسيقا بالسلام الخديوي.

ولما فرغ الملك من الشرب على صحة من تقدّم أراد أن يشرب على صحة جميع أعضاءِ المؤتمر جملةً، فرفع القدح، وأشار بالإصغاءِ، وقال:

«يا حضرات أعضاءِ المؤتمر الكرام

«إنني وإن كنت وجدت نفسي كثيراً ولله الحمد مذ عشت في أوقات سعادة وهناء، إلّا أني لم أجد نفسي قط في حالة أسعد من الّتي أنا عليها الآن؛ إذ لا سعادة تعادل حظ الوجود في مجتمع مثل مجتمعكم أنتم يا خلاصة العرفان، ويا ثمرة فضيلة الإنسان.

«فقياماً بشكر هذه النعمة، ووفاءً بالواجب لهيئتكم الجديرة بالاحترام والإعظام، أشرب هذا الكاس».

ثم شرب، فصاح الجميع بالدعاءِ قائلين ما معناهُ: «ليعش الملك»، مراراً، وأردفوها «هُورّاة» أربع مرات، حسب لغة البلاد كما تقدّم، وقَصَدَ وفدٌ من أكبر الأعضاءِ سِنًّا في الحال صوب الملك نيابة عن جميع الأعضاءِ، وفي يدهم الأقداح، فلما قربوا منهُ رفعوها فوق رؤوسهم مكررين الدعوات، ووافقهم باقي الأعضاء حتى إذا فرغوا من الدعاءِ بالمرة الرابعة شرب الجميع الكأس على صحة الملك، وكانت الساعة تسعاً ونصفاً، وقد آن وقت الانصراف، فخرجوا جميعاً، وركبوا الوابورات الّتي كانت لا تزال في انتظارهم، وسرنا عائدين إلى أستكهلم.

وكانت الشواطئ جميعها من القصر إلى المدينة ملأى بالأهالي، واقفين وبأيديهم المضيئات الباروديّة تسطع بسائر الألوان، يُحيُّون أعضاءَ المؤتمر، ويصيحون بما معناه: «يعيش أعضاءُ المؤتمر» متبعين ذلك بقولهم: هُورّاهْ أربع مرات، معيدين ذلك كلما صاح واحد منهم بذلك، أو صاح مَن بالوابورات، بمعنى: يعيش السويديون، ويعيش الملك، أو غير ذلك.

وكانت الزينات تتبعها الزينات في القصور القائمة على الجزر الّتي في ممرنا، وفي الأشجار، بأشكال تدهش الألباب، حتى صوّر أحدهم برج إيفل بالبارود الملوّن، فكان يخيل للرائي أنّهُ ذلك البرج في ليالي زينتهِ، وصوّر بعضهم بعض رايات الدول بالقناديل وبالبارود ذي الألوان، فيحسب الرائي أنّهُ يرى راية الدولة المعهودة لهُ في غاية الوضوح، وما زال الوابور يسير الهوينا، والأهالي تبتهج فرحاً وسروراً، والمصابيح تسطع نوراً، حتى وصلنا في أكثر من ساعة إلى الرصيف الذي نزلنا منهُ، والمدينة كلما قاربناها تبيّنا زينتها الباهية، وأنوارها الزاهية، والأهالي في انتظارنا على غاية الازدحام، يبلغ عددهم الألوف المؤلفة، وفي أيديهم المصابيح المنورة بالبارود الملوّن، تسطع أشعتها على مسافات بعيدة، وهم مع هذه الكثرة في غاية الانتظام، موسعين للأعضاءِ طريقاً فسيحة يمرون فيها من الرصيف إلى الشوارع، فتراهم بجانبي هذه الطريق مصطفينَ كأنّهم بنيان مرصوص، لا يبدون مزاحمة، ولا يبدو منهم غير شارات الترحيب بالأعضاءِ والاحتفال بهم صائحين: «فليعش المؤتمر، فلتعش أعضاؤهُ».

ولم تكن زينة المدينة من الداخل في هذه الليلة ابتهاجاً بافتتاح المؤتمر بأقل من زينة الخارج، فكنا نرى الدور العالية والقصور المشيّدة على تعدد طبقاتها وشدة ارتفاعها منارة بأزهى ما يكون، وأبهى ما يتصوّرهُ المتقن المتفنن في فنون الزينة والزخرفة والتنظيم.

فتفرجنا بالمدينة، ومتّعنا الطرف بهذه المناظر المدهشة، والأنوار المنعشة، والناس يحتفلون بنا، ويكررون تعظيمنا، ونحن نظهر لهم علامات السرور على هذه الألطاف، حتى عدنا إلى الفندق، فوجدنا وِجهتهُ

الطويلة، العريضة العظيمة الارتفاع، مزينة من أولها إلى آخرها، بأنوار الغاز على أشكال بديعة، وأفانين غريبة، بواسطة أنابيب متفرعة في سائر جهات الوِجهة، موضوعة بطريقة متينة تدل على أَنها وُضعت مع البناءِ، فدخلنا الفندق وأَردنا قبل النوم أن نتفرج على الزينة، فنظرْنا من خرجة الصالون المطلة على الوِجهة زينة الميناءِ وأَنوارَها الساطعة، وقدر مدّ البصر، وابورات على سطح البحيرة تعلوها الرايات، متغيبة في الأَضواءِ المنبعثة أَشعتها منها، والميدان والرصيف الواقعين أَمام الفندق مزدحمين بالأَهالي، ينتظرون عودة من بقي من الأَعضاءِ ليؤَدوا لهُ واجبات الترحيب والإِكرام، وقد لمحونا بطربوشينا في الخرجة، فصاحوا: هُورَّاه، وتبعهم غيرهم وأَعادوا ذلك مراراً، ونحن نكرر الشكر لهم حتى دخلنا، وقد مضى قسم كبير من الليل.

* * *

(بعض تفصيلات)
في تقسيمات المؤتمر وأعمالهُ

ينقسم المؤتمر بالنسبة لأعمالِهِ إلى خمسة أقسام:

- **القسم الأَول:** قسم الأَلسنة الإسلاميّة والساميّة، نسبة إلى سام بن نوح، وفيهِ فصلان: **الفصل الأَول:** يختص بلغات أهل الإسلام وآدابهم، **والفصل الثاني:** يختص باللغات الساميّة غير العربيّة.
- **القسم الثاني:** قسم الأَلسنة الآريّة، أي: أَلسنة الآريين، وهم أُمم أَصلهم من بلاد الهند، ومن نسلهم أَهل أُوروبا الحاليون.
- **القسم الثالث:** قسم الألسنة الأفريقيّة، ومنها اللسان المصري القديم.
- **القسم الرابع:** قسم آسيا الوسطى والشرق الأقصى.
- **القسم الخامس:** قسم ماليزيا وپولينيزيا.

وقد جُعلت رياسة الفصل الأَول من القسم الأَول للبارون دُه كْرِيمِزْ والمسيو شِيفَرْ والمسيو دُه جُويَهْ بالمناوبة بينهم، وعُيّن لكتابة السر فيهِ المسيو مكس بِرْخِمْ.

وجُعلت رياسة الفصل الثاني منهُ للمسيو فِيزْ، وجعل لهُ نائبان المسيو كُوْلْسُنْ والمسيو أُوپِّيْر على التعاقب بينهما، وعُيّن لكتابة السر فيهِ المسيو نُولانْدِزْ والمسيو پِنْيِنْ.

وجُعلت رياسة الشرف في القسم الثاني لحضرة محسن معين الملك خان

وافد العجم، ورياسة العمل فيهِ للمسيو مكس مُولِلرْ والمسيو وِبِيرْ والمسيو شْپِيجِلْ على التناوب بينهم، وعُيِّن لكتابة السر فيهِ المسيو لَنْمَنْ والمسيو يُوهَانْسُونْ.

وجُعلت رياسة القسم الثالث لسعادة بروكش باشا.

وجُعلت رياسة القسم الرابع والخامس للمسيو شْلِيجِلْ، وجُعل لهُ نائبان، وهما المسيو كُوسْت والمسيو كُورْدِيِيهْ، وعُيِّن لكتابة السر فيهما كلٌّ من المسيو بُول والمسيو سْتُوْلِپهْ، ثم انفصل القسم الخامس، وجعل المسيو كَرْنْ رئيساً لهُ، والمسيو كوسْتْ نائباً للرئيس، والمسيو سْتُوْلِپْ كاتباً للسرّ فيهِ.

واللغات الرسميَّة الَّتي لا يجوز استعمال غيرها في جلسات المؤتمر العموميَّة، وهي الَّتي تجتمع فيها جميع أعضاءِ سائر الأَقسام، هي الفرنساويَّة والنمساويَّة، والإنجليزيَّة، والطليانيَّة، واللاتينيَّة، واللغات الشرقيَّة، وأَما في جلسات الأَقسام، فللرئيس أن يقبل غير اللغات المذكورة.

هذا وتعدُّد اللغات في هذا المؤتمر، وعدم تكلم أَعضائِه في ما يخص كل لغة بلسان أَهل تلك اللغة، جعل الكثيرَ من الأَعضاءِ لا يفهمون ما يُلقيهِ العلماءُ فيهِ من الكلام والمقالات، فهؤُلاءِ من علماءِ أُوروپا الَّذين تكلموا في العربيَّة، وفي الحديث وأُصولهِ، وفي التاريخ ونتائجهِ الَّتي استنتجوها منهُ، وغير ذلك من متعلقات العرب وآدابهم لم يتيسر لنا معشر الوافدين المصريين، أن نقف حق الوقوف على أبحاثهم في مواضيعها، حتى نتمكن من مناقشتهم في نفس الجلسات، ومبادلة الأَفكار معهم في شأْن ما أَلْقَوهُ، فإِنَّ غالبهم تكلم بلغاتهم الأُوروپية غير[1] المعلومة لنا، ولم يتكلم واحد منهم في

(1) في الأصل: «الغير المعلومة» المحرر.

الجلسات بالعربيّة في تعبير ما أرادهُ، فلو اقتصرنا على حضور الجلسات ولم نصطحب مع من اصطحبنا منهم صحبة خصوصيّة لما تيسر لنا أن نفهم بعض ما عرضوهُ، ولما تمكنّا من مبادلة أفكارنا معهم بشأنهِ، وإبداءِ ملحوظاتنا وآرائنا لهم فيهِ.

فكان الواجب أن يكون الكلام بلسان القوم الذّين يتكلم الباحث في لغتهم، فيكون بالعربيّة إِذا كان كلامهُ يختص بلُغَةِ العرب، أو بالحديث، وبالتركيّة إذا كان كلامهُ يختص بلغة الأَتراك قديمة، وهي لغة جِيغَتَاي، أو حديثة، وهكذا.

وإلاّ فكيف يتسنّى لأَرباب الفصل الأول من القسم الأَوّل مثلاً الذي كنا من أعضائِه أن يفهموا المباحث الَّتي أُلقيت في أثنائِهِ المتعلقة بلغة أَهل الإِسلام وآدابهم، وقد أُلقيت بلغات مختلفة، غير العربيّة، بعضها بالفرنساويّة، وبعضها بالإنجليزيّة، وبعضها بالنمساويّة، وبعضها بالطليانيّة إلى غير ذلك من اللغات الأُوروبيّة، فهلا كان الأَجدرُ أن يكون الكلام بلغة العرب الَّتي جرى البحث فيها، فالواجب أن يُعتبر هذا في المؤتمرات المستقبلة.

وبمناسبة ذكر المؤتمرات أذكر تواريخ المؤتمرات الماضية قبل هذا، ومحلات اجتماعها:

فالمؤتمر الأول	بباريس سنة 1873.
والمؤتمر الثاني	بلندن سنة 1874.
والمؤتمر الثالث	بسان بطرسبورغ سنة 1876.
والمؤتمر الرابع	بفلورانسه سنة 1878.

والمؤتمر الخامس ببرلين سنة 1881.
والمؤتمر السادس بلَيْدِن سنة 1883.
والمؤتمر السابع بوِيانَه سنة 1886.

هذا وقد تقرر أن تكون جلسات هذا المؤتمر في الأقسام بمحال مخصوصة غير قاعة الافتتاح، وأن جلساتهُ العموميّة تكون بالقاعة المذكورة، وتجتمع فيها أعضاءُ جميع الأقسام، وهي ثلاثة: جلسة الافتتاح، وجلسة الاختتام، وجلسة بينهما، وتقرر أنّهُ لا يزيد الكلام من العضو في هذه الجلسات على عشرين دقيقة.

على أن الكلام في الجلسات العموميّة أو الخصوصيّة لا يكون إِلّا بعد أَن يُقيد طالبُ الكلام رغبتَهُ في ذلك بسكرتاريّة المؤتمر، ويُبيّن الموضوع الذي يريد أَن يبحث فيهِ، وليسِ لهُ أَن يتكلم مع ذلك، عموميّةً كانت الجلسات أو خصوصيّةً، إلاّ على حسب الترتيب الذي قيد طلبهُ فيهِ، بحيث لا يتقدّم على غيرهِ في ذلك.

وقد وُزِّع على الأعضاءِ قوائم طُبع فيها جميع المواضيع على حسب الترتيب الذي قيدوا طلبهم فيهِ، وجُعل فيها باب لكل قسم ذكرفيهِ أسماءُ طالبي التكلم على حسب ترتيبهم، وتبين أمام اسم كلٍّ منهم الموضوع الذي يرغب البحث فيهِ، فبلغت المواضيع في الفصل الأَول من القسم الأَول 24، وفي الفصل الثاني منهُ 26، وفي القسم الثاني 22، وفي الثالث 19، وفي الرابع 11، وفي الخامس أَربعة.

وبمناسبة ذكر عدد المواضيع، أذكر ما تيسر من المواضيع الّتي خطب فيها الأَعضاءُ بأقسام المؤتمر، على سبيل الإِجمال، بدون أن أتعرض

للتفصيل والإحاطة، وذلك لأن الإحاطة بهذه المواضيع المتعددة، في اللغات المتنوعة، والآداب المختلفة، تكاد أن تكون مستحيلة يعجز عنها كبار العلماءِ، على أن كاتب أسرار المؤتمر نفسهُ، تعهد رسمياً أن يطبع تفاصيل أَعمالهِ، مستعيناً في ذلك بالأَفاضل الَّذين بحثوا فيهِ وخطبوا في مواضيعهِ، فإِنَّهُ طلب من كل واحد من أعضاءِ المؤتمر بحث في موضوع، أَن يُعطيَ السكرتاريَّة ملخص ذلك الموضوع بالكتابة، وليس عندي في بيان المواضيع غير مذكراتٍ مختصرة جدّاً، ولم يكن حضوري في غير الفصل الأولُ من القسم الأول إلّا متفرجاً، ومع ذلك لم يمكني أن أُحيط بتفاصيل ما أُلقي بهِ، لما مرَّ من أن غالب التكلم فيهِ، كان بغير اللغات الَّتي أَعرفها، فمن أَراد زيادة الوقوف على المواضيع، ومعرفة التفاصيل، فلينتظر الكتاب الذي وعد بهِ حضرة سكرتير المؤتمر.

وهذا ذكر ما وعدنا بهِ إجمالاً، وهو أنهُ تكلم في الفصل الأَول كثير من الأَعضاءِ، ومنهم الوفد المصري، وسيأْتي الكلام فيهِ، فخطب الموسيو مُولِلر خطبة تكلم فيها على تاريخ الحكماءِ لابن القِفْطي، وألقي المسيو إِيتيهْ مقالة تكلم فيها على معجم الأُدباءِ لياقوت، وعلى فهرست اعتنى بجمعهِ، والتزم فيهِ ذكر جميع المؤَلفات العربية الَّتي بخط اليد، وخطب المسيو هُومُلْ في أَصل اشتقاق كلمة «رونق»، وتكلم الأُستاذ لِيتْنِرْ على الجامع الذي سعى في بنائِه ببلاد الإنجليز، وعرض على الأَعضاءِ رسومات مأْخوذة بالفطوغرافيا عن بعض محلات ذلك الجامع، وقرأَ المسيو جُلْدتْسِيِرْ ما كتبهُ على أُصول الحديث، وما كتبهُ صاحبهُ المسيو شْرَيْنِرْ على انتشار مذهب الأَشعريَّة، وتلا حضرة الفاضل الشيخ شعيب بن عبدالله قاضي تلمسان ووافد الجزائر

قصيدة من نظمهِ في مدح سموّ الملك أُسكار الثاني، صاحب السويد والنرويج، ومدح المؤتمر، وخطب المسيو ذرِيرَة في أنهُ ينبغي طبع أَشعار الشاعر التركي الشهير المدعو باقي، وألقى المسيو جْرُونيزْت مقالة في كيفيّة الكلمات المركبة في اللغة العربيّة، وأَبدى المسيو لِيث ملحوظات على كتاب «عجائب الهند» الذي طبعهُ إخوان بريل في لَيْدِن، وخطب البروفسور كارلو كِرِسْبُو مُنْكَادَا الطلياني خطبة في فلاسفة العرب الّذين كانوا مع فردريكو الثاني في صِقِلية، وتكلم المسيو هِلْدِابْرَانْد على المسكوكات الشرقيّة القديمة الّتي عثر عليها ببلاد السويد، وخطب الخواجه جرجس بَلِيطْ خطبة في لسان العرب.

وتكلم كثيرون في فصل اللغات الساميّة، فخطب منهم المسيو أُوپّيرْ خطبة تتعلق بالعلوم الفلكيّة عند الكلدانيين، وتفاسير عبارات كثيرة من عباراتهم في الفلك والتنجيم، وتكلم المسيوسِيمُنْسِنْ على بعض كتابات مكتوبة بلغة تَدْمُر، هي الآن بمتحف كوپنهاج، وخطب المسيو مُونْتِيهْ خطبة في ما يعتقدهُ بنو سام في الحياة الآخرة، وكيف وصل إليهم هذا الاعتقاد، وفي أي وقت، وأَلقى المسيو هَلِيفْي مقالة في «سيروس»، أَحد ملوك الفرس وأَملاكه بحسب ما استنتجهُ من الكتابات القديمة الّتي استخرجت من بابيلون، ومنْ التوراة، وأَلقى مقالة ثانية في أَداة التعريف في اللغات الساميّة، ومقالة ثالثة في حالة فلسطين قبل سِفْر الخروج، وخطب غير هؤُلاءِ في غير ذلك.

وتكلم كثيرون في القسم الثاني، أي قسم الأَلسنة الآريّة، فخطب البروفسور جُوبِرْنَاتِس في بعض المعبودين عند الهنود، فتكلم على معبودهم «إِندرا»، وعلى معبودهم «جانيسا»، وأَطلعَ الأَعضاءَ على

رسومات مستخرجة من جهات كشمير استدل منها على وجود معبود بتلك الجهة غير هذين، وتكلم المسيو هِلْدِبراند على الأصل في لغات الساميين ومعناها، وتكلم المسيو بُورْچيسْ على تقدم الاستكشافات التاريخيَّة في بلاد الهند، وخطب المسيو كازْلُويتْشْ في طرق الديانات الوثنيَّة ومذاهبها، وما يتعلق بمعبوداتها وآلهتها، والأستاذ لِيتْنِزْ في لغة هُنْزَهْ وأهلها، والپروفسور تجِنْرِ تكلم عن حرف اللام في اللغات الهنديَّة الأُوروبيَّة، وألقى المسيو كارُولِيدْ مقالة في لغات آسيا الصغرى الأرِيَّة، وخطب غيرهم في لغة البراهمة، وتكلم غيرهم في غير ذلك.

وتكلم كثيرون في القسم الثالث أي: قسم الألسنة الإفريقيَّة، فخطب المسيو بُورْجَاز في كيفيَّة النطق بالكلمات المصريَّة القديمة، وتكلم المسيو پيلْ في مقالة بملحوظات لهُ على بعض الإشارات والرموز الهيروجليفيَّة، وفي أُخرى على الكتابات الهيروجليفيَّة الواقعة على الآثار الَّتي بمتحف أُستكهلم، وفي مقالة أُخرى بملحوظات عموميَّة متعلقة بالقاموس الهيروجليفي، وبالكيفيَّة الَّتي يجب أن يكون عليها هذا القاموس بالنسبة لحالة العلم الآن باللغة المصريَّة العتيقة، وفي مقالة غيرها على سيرة المستشرق السويدي أُوكِّرْبِلاذْ الشهير، وتآليفهِ، وخَطَبَ بروكش باشا خطبة بيَّن فيها كيفيَّة استكشافهِ طريقة المقاييس عند قدماءِ المصريين وفصَّلها، وقارنها بالطرق الَّتي كانت توجد عند غير المصريين من الأُمم القديمة، وتكلم المسيو دِيدِه كِنْد في الجيش الذي جرَّدهُ أَحد الفراعنة على يهوذا، وقدم المسيو كُوسْت رسالة كتبتها السيدة إدواردس بخصوص الاستكشافات الَّتي استكشفها فلندرپتري بالفيوم، وتكلم بعد ذلك المسيو سايس على

بعض آثار جهات الفيُّوم، ثم تكلم بعدهُ السنيور ماروكيّ على نتيجة أبحاثِهِ في الكتابات والآثار الهيروجليفيَّة الموجودة بكتبخانة الفاتيكان برومة، وأعلن تصميم حضرة البابا على طبع جميع هذه الآثار المصريَّة ونشرها، ثم تكلمت السيدة هربرت على بعض آثار بالفيوم، وقال السنيور سكيَاپَارِلْلي مقالة تكلم فيها كتابة في زمن أمونفيس الأول، هو أول من عثر عليها، وقدم المسيو أمِيلِينُو تقريراً في حالة المعابد المصريَّة القديمة مرفوعاً من جرانِ بك إلى ناظر الأشغال العموميَّة بمصر في سنة 1888، وقرأ رسالة حررها المسيو مَاسْپيرُو برسم المؤتمر في كتابة هيروجليفيَّة وجدها بوادي الحمامات، ثم ألقى مقالة في الأشعار والأدبيات القبطيَّة، وتكلم غيرهم في غير ذلك.

وتكلم كثيرون في القسم الرابع، أي: قسم آسيا الوسطى والشرق الأقصى، فخطب المسيو پُولْ بُولْ خطبة في كيفيَّة كتابة الكلمات الصينيَّة، وكتب المسيو هَارْلِتس في الفلسفة عند الصينيين، وكتب المسيو إِينُويِّهْ على اختلاف الفلاسفة الصينيين بالنسبة لطبيعة الإِنسان، والمسيو ليون فِيرْ على الصنائع الَّتي تُحَرِّمُها الديانة البوديَّة، وخطب جناب أمير خان ينتس في انتشار اللغة الجغَتَائيَّة في الخمسة القرون الأَخيرة، وقدم المسيو «دَايِهْ» رسالة كتبها في العوائد الَّتي تستوليها الحكومة على الأَرض في الصين، وقدَّم غيرهم خطابات ورسائل، وخطبوا خطباً غير هذه.

وتكلم كثير في القسم الخامس، أي: قسم ماليزيا وپولينيزيا، فقدّم المسيو كَارُولْسْفَيلْد رسالة في أَلسنة أُوستراليا، وتكلم الپروفسور فانْ دِيزْليت على كتاب «عجائب الهند»، وأَتى ببراهين، يُريد أن يثبت بها أن

الحكايات الَّتي احتوى عليها «ذلك الكتاب» على لسان سياح العرب والعجم ليست من قبيل الخرافات، بل هي حقيقيَّة، وكتب المسيو أرستيذمار في لغة الجاوه، وفي لغة ماليزيا، وقدَّم قاموساً بلغات ماليزيا ومدغشقر، وكتب غيرهُ وخطب في غير ذلك.

هذا وقد ورد في الفقرة السابعة من پروجرام المؤتمر ما ترجمتهُ:

«المرجو كل الرجاءِ من كتَّاب الأَقسام أن يقدّموا إلى كاتب السر العمومي بعد كل جلسة ملخص المواد الَّتي اشتغل بها القسم في الجلسة المذكورة، وبيان المواد الَّتي ستعرض في الجلسة التالية لها، والمرجو من أَعضاءِ المؤتمر أن يقدموا إلى كاتب القسم الذي هم من أعضائِه ملخص ما سيعرضونهُ عليهِ، وأن يقدّموا لكاتب السر العمومي ملخص ما سيعرضونهُ على الجلسات العموميَّة».

وجاءَ في الفقرة الثامنة من الپروجرام المذكور:

«أَعمال المؤتمر ستطبع وتنشر على مصاريفِهِ، لكن لا يدرجُ فيها إلَّا ما قدَّمهُ الأَعضاءُ فيهِ وقت انعقادِهِ، وكان لهُ أَهميَّة علميَّة».

وهذا هو مصداق ما ذكرناهُ آنفاً من أَنَّ أَعمال المؤتمر سينشرها كاتب سرهِ، وأَن من أراد التفصيل ينتظر وقت نشرها.

وكاتب السر العمومي هو حضرة الكونت ده لاندبرج قنصل جنرال السويد والنرويج في القطر المصري، وتحت أَوامرهِ كُتَّاب أسرار عديدون.

ويحسن بنا قبل إتمام هذا الفصل أن نبين أَسماءَ أعضاءِ الشرف بالمؤتمر، وأسماءَ رؤَسائِهِ للسويد والنرويج، ولجان تشكيلهِ بهاتين المملكتين، مقدّمين

على ذلك كلهِ، اسم رئيس الشرف بالمؤتمر، وحامي حماهُ ألا وهو سموّ أُسكار الثاني ملك السويد والنرويج المعظم.

فأعضاءُ الشرف هم:

سموّ إمبراطور البرازيل دُونْ پِدْرُو ده القنطره، وحكومة البرازيل الآن جمهوريّة، وكانت في وقت المؤتمر أَمپراطوريّة كما لا يخفى.

وسموّ شاه العجم ناصر الدين وسموّ ولي عهد السويد والنرويج الپرنس غستاف وصاحب المقام الملوكي جران دوك ده ساكس شارل ألكسندر، وصاحب المقام السامي جران دوك ده ساكس كوبورج أي جرتا إِرنست الثاني، وصاحب المقام الإمپراطوري الملوكي الأَرشيدوك رِنْيِهْ، وسموّ خديو مصر الأَفخم، وصاحب المقام الملوكي البرنس شارل السويدي، وصاحب المقام الملوكي الپرنس أُوجين السويدي والپرنس أوسكار برنادوت.

أما رئيس المؤتمر في السويد فهو المسيو دِيرِنْهَيْم، وكان من وزراءِ الدولة السويديّة، وهو الآن رئيس داري المعارف في أُوپسالا وفي لوند، ورئيس الأَكاديميّة الزراعيّة الملوكيّة.

وأَما رئيس المؤتمر في النرويج فهو المسيو سْفرْدُرُوپْ وزير المعارف بالمملكة النرويجيّة، ووكيلهُ المسيو لِيبْلَيْنْ مدرِّس اللغة المصريّة القديمة بدار المعارف في كرستيانيا.

وأما لجنة تشكيل المؤتمر في السويد فقد تأَلفت من المسيو أَلمِكْفِيسْت الدكتور في العلوم الأَدبيّة، وأُستاذ اللغات بدار معارف أُوپسالا، والمسيو فِيز الدكتور في العلوم الأَدبيّة، ورئيس مجمع القسس بمدينة أَستكهلم، والمسيو

هنس هِلْدِبْرانْد الدكتور في العلوم الأَدبيَّة، ورئيس متاحف المملكة، والكونت كارلو ده لاندبرج، والمسيو إِزَايَسْ تِجْنِز الدكتور في العلوم الأدبيَّة، ومدرِّس اللغات الساميَّة بدار معارف لوند، وأَحد أَعضاءِ الأَكاديمية السويديَّة الثمانية عشر.

وأما لجنة تشكيل المؤتمر في النرويج فقد تأَلَفت من المسيو بليكس الدكتور في العلوم الأدبيَّة، وكان وزير المعارف بالدولة النرويجيَّة، وهو أَحدأَساتذة دار معارف كرستيانيا الآن، والمسيو بِوُجْهْ الدكتور في العلوم الأَدبيَّة، ومعلم العلوم الدينيَّة بدار معارف كرستيانيا، والمسيو لِيبْلَيْن مدرِّس اللغة المصريَّة القديمة بدار معارف كرستيانيا، والمسيو سَيْبِلْ الدكتور في العلوم الأَدبيَّة، ومدرِّس اللغات الساميَّة بدار معارف كرستيانيا.



(مقالة سيدي الوالد)

عند تقديمهِ للمؤتمر شرح أول قصيدة من ديوان سيدنا حسّان وذكر من تلاهُ من الخطباء

في يوم الثلاثاء 3 سبتمبر سنة 1889 وهو اليوم التالي ليوم الافتتاح اجتمع أعضاءُ الفصل الأول من القسم الأول من أقسام المؤتمر، وهو كما سبق المختص بلغات أهل الإسلام وآدابهم في المحل المخصص باجتماعهِ، وكان عدد الحاضرين، من أعضاءٍ ومتفرجين، نساءٍ ورجالٍ، يبلغ نحو مائة وخمسين، فأشار الرئيس إلى سيدي الوالد بالتكلم من جهة شرحهِ على ديوان حسّان بن ثابت رضي الله عنهُ، وقد سمّاهُ «عجالة البيان على ديوان حسّان»، فصعد منبر الخطابة، والأبصار شاخصة إليهِ، والحواس متجهة لهُ، وبيدهِ شرح القصيدة الّتي شرحها من ديوان سيدنا حسّان لِيقدّمَهُ إلى المؤتمر، وأعرب عن ذلك بمقابلة أسعدني الحظ بأن كتبت منها ما أمكنني وقت إلقائها، وهو هذا:

«بسم الله وحدهُ،

«قدّمت للعرض على عُلوّ أنظار حضرات الأماجد الحضار، من كبار أَصحاب الأَنظار، ولُباب أرباب الآثار أنموذجاً من شرح ابتدأْتُهُ على ديوان سيدنا حسّان بن ثابت الأَنصاري رضي الله عنه. وهذا الأُنموذج عبارة عن شرح أَول قصيدة من ديوانهِ، وهي من أَشهر قصائدهِ الطويلة، أولها:

«عَفَتْ ذَاتُ الأَصابِع فالجِواءُ   إِلى عَذْرَاءَ باطِنُها خَلاءُ»

فإن اتسع الوقت والأَجل لبلوغ الأَمل بإتمام هذا العمل سلكت في سائر الشرح على النسق الذي نسقتهُ في الأنموذج الذي نمقتهُ، وإلّا صَحَّ أن يكون شرحاً مستقلاً للقصيدة المذكورة.

فكثيراً ما رأينا القصيدة من كلام المتقدمين أو المتأَخرين يُفْرِدُها الواحد، والكثير من العلماءِ، بالتأْليف والتصنيف، مثل لامية العرب للشنفرى، واللامية المعروفة ببانت سعاد لكعب بن زهير رضي الله عنهُ، ومن كلام المتأَخرين اللامية المعروفة في مقابلة لامية العرب بلامية العجم للطُّغرائي، وكذلك لامية ابن الوردي، وهكذا البديعيات الميميات وغيرها.

«وإنما اخترت الشعر لأنهُ ديوان العرب، وسجل أَخلاقهم وعاداتهم، ودفتر وقائعهم وغزواتهم ومعاملاتهم ومجاملاتهم، وقاموسُ كلماتهم ولغاتهم من مفرداتهم ومركباتهم، وهو الحجة في إثبات كلامهم في نثرهم ونظامهم.

«بخلاف نثرهم فإنّهُ ليس بهذه المثابة؛ لأَن القائل منهم يجعل لما يقول من شعرهِ من تأَنقهِ فيهِ، وترويهُ لهُ، واحتفائهِ بهِ، واحتفالهِ لأَجلهِ ما ليس لنثرهِ، لكون الشعر أَيسرَ على الأَلسنة، وأَسْيَرَ إلى أَقاصي الأَمكنة، فللشعر ما ليس للنثر، من فضل الانتشار والاشتهار، والاستمرار والاستقرار، على ممر الأَعصار؛ فلهذه الخصائص زادت بهِ عنايتهم وبعُدت فيهِ غايتهم.

«واخترت من بين دواوين العرب ديوان حسّان بن ثابت رضي الله عنهُ لمكان شهرتهِ في الجاهليّة والإسلام حتى صار شاعرَ رسول الله ﷺ الذابُّ عن حضرتهِ المناضل لعدوه من جهتهِ حتى أَفْحَم الفصحاءَ وأَسْكَت البلغاءَ ونال عندهُ اليد البيضاءَ والدرجة العلياءَ».

«وسلكت في شرحهِ أن أتكلم على ما قد تمس الحاجة إليهِ من بيان مفرداتهِ والاستشهاد عليها بما أجد من شعر العرب، وما قالهُ ثقاة علماءِ اللغة فيها، وأتكلم على الإعراب فيما قد يختلف المعنى باختلافهِ أو ما عساهُ يخفى على بعض المبتدئين، وعلى القواعد عند اقتضاءِ الحال، وقد أتعرّض لذكر الخلاف وتفصيل القول فيهِ، وعلى حلّ المعنى بحسب ما أراهُ في غير ما قد يُستغنى عنهُ لظهورهِ، أو سَبْقِ ما يدل عليهِ، وأذكر ما قد أشار لهُ الناظم رضي الله عنهُ، أو سيق الكلام لأجله من الوقائع وسائر الأغراض، مستشهداً عليها بما يناسبها من شعر، وما يدلُّ لها من نقل إلى نحو ذلك ممّا يعلم بالاطلاع على ذلك الأنموذج، ليكون الشرح جامعاً بين اللغة والتاريخ والرواية، مضافاً إلى ما يستفاد من أصلِ المتن وسياق الكلام من أخلاق العرب وعاداتهم وطباعهم، وما يمدح ويذم، ويُحبُّ ويكرهُ عندهم، ولا يخفى أن حسَّان رضي الله عنهُ من المخضرَمين الَّذين عُمِّروا[1] جاهليَّةً وإسلاماً، وشعرهُ الموجود في ديوانهِ بعضهُ من كلامهِ قبل الإسلام، وبعضهُ في الإسلام، فجمع كلامُهُ بين الحالتين، حتى ربما وُجد ذلك في القصيدة الواحدة كالقصيدة الَّتي شرحناها في هذا الأنموذج، وهذا أيضاً أحد الأوجه الَّتي حملتني على إيثارهِ على غيرهِ، واختيارهِ دون سواهُ.

«وقد وجدت نسخاً متعددة من شعرهِ في مصر القاهرة، وفي القسطنطينيَّة دار الخلافة السنيَّة، وغيرهما في جملة روايات، ومنها نسخة برواية أبي عبدالله العَدَوِي مكتوبة في سنة 419، مكتوب في آخرها أنها منقولة من نسخة قرئت عليهِ سنة 255 من الهجرة، وقيَّدْتُ عندي ما وُجد في النسخ من اختلاف رواية ونقص وزيادة، إلّا ما وجدتهُ ساقطاً بالمرة بعيداً عن مظنّة الصواب،

(1) في الأصل: «عمّروا» المحرر.

لا يستحق الإثبات، فتكامل من ذلك ما يكفي مجموعهُ لأَن يتحرر منهُ سِفر يكون بقدر الإمكان أَصحَّ وأجمع ما رأيت من نسخ الديوان».

فصفق الحاضرون استحساناً لما قال، وتبعهم في ذلك من لا يفهم العربيَّة منهم اعتماداً عليهم، وطلب بعضهم من حضرة الأستاذ الفاضل الوطني العالم الكامل، من هو من أكبر المحبين لدولتهِ، وأكثر الناشرين لمحامد ملتهِ صاحب العطوفة مدحت إفندي وافد الدولة العليَّة، أن يُلَخِّص لهم هذه المقالة بالفرنساويَّة، فلخصها لهم أَحسن تلخيص، وأكمل توضيح، فزاد استحسان الحاضرين، وفَهِمَ من لم يفهم أولاً ممن لا يعرف لسان العرب، وقد أَحب بعض العلماءِ المشتغلين بالعربيَّة من الحاضرين وأَظنهُ الأُستاذ دُه جُويَهْ أَن لو قرأ عليهم سيدي الوالد شيئاً من شرحهِ، فقرأ عليهم شرح بيتين حسب ما اتفق بالمصادفة عند فتحهِ الكتاب، فاستحسن ذلك الجمع، وأعادوا التصفيق، وزادوا في الاستحسان، وطلب أَحدهم أَن يقرأ شرح بيت آخر، فقرأ، فزاد السرور وعلا التصفيق، وأعرب لهُ الأستاذ دُه جُويَهْ زيادة تشكر الجميع لهُ بالنيابة عنهم، فصادقوا على تشكر هذا الفاضل بإظهار علامات القبول والرضاءِ من تصفيق الجميع عند ذلك، ثم نزل سيدي الوالد من المنبر، فأخذ كاتب السر شرح القصيدة منهُ ليجعلهُ ضمن أَعمال المؤتمر الَّتي ستطبع وتنشر.

وتلا السيد الوالد على منبر الخطابة كثير من العلماءِ، وجم غفير من الفضلاءِ، وتكلم كل في موضوعهِ الذي أَراد بلغتهِ الَّتي اعتاد، وكان عند فراغ كل من كلامهِ يسأَل الرئيس الحاضرين عمّا إذا كانت لديهم ملاحظات في الموضوع الذي تكلم فيهِ الخطيب، فكان يتقدّم البعض إلى إبداءِ

الملحوظات، ويُجيبهُ الخطيب، حتى إذا أَتَمَّ كلامهُ تلوهُ بالتصفيق والاستحسان.

واستمرَّ الحال على ذلك إلى أن جاءَت نوبة حضرة رفيقنا الشيخ حمزة فتح الله، فقدَّم رسالتهُ الَّتي جمعها في حقوق النساءِ وسمَّاها «باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام» فصفَّق لهُ الحاضرون.

وبهذه المناسبة أذكر قصيدة حضرة رفيقنا الموما إليه الَّتي امتدح بها مليك هذه البلاد، وإن كان إنشادهُ لها في غير هذه الحفلة، وهي قصيدة طويلة ضافية الذيول، رنانة الحجول، مطلعها:

حَمْدُ السُّرى يَا أُخَيَّ الْعَوْدِ والنابِ أَنْسَاكَ وَعْثَاءَ إِغْبَابٍ وَإِخْبَابِ

وقد أَبدع فيها الناظم وأَغرب، وأَرقص وأَطْرب، فأَتى فيها من غريب الأَلفاظ وعجيب الكلمات بما دلَّ على تعمقهِ في اللغة، فمن اطلع على أَبياتها، وكان ذا فطنة تمكّنهُ من فهم معانيها، وحل مبانيها علم أن مذهب حضرة الناظم، ليس كمذهب من يرى استعمال الألفاظ القريبة المأْخذ من الشعراءِ كالبحتري، حيث قال:

وركِبْنَ اللَّفظَ القريبَ فأَدرَكْـ ـنَ بِهِ غايةَ المُرادِ البعيدِ

هذا و«السُّرى» سير عامَّة الليل، و«الْعَوْدُ» الجمل المسن الذي جاوز في السّن البازل، والمخلف و«الناب» الناقة المسنة، سَمَّوْها بذلك حين طال نابها وعظم، و«الْوَعْثاءُ» المشقة كما في القاموس وفي اللسان «ووعثاءُ السفر» مشقتهُ وشدتهُ، وروي عن النبي ﷺ أنهُ كان إذا سافر قالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفرِ وَكَآبَةِ المُنْقَلَبِ» أي شدتهِ ومشقتهِ». انتهى.

ولفظ «وعثاء» مضاف إلى لفظ «إغباب» المعطوف عليهِ إخباب، وهما إِن كانا بكسر الهمزة أو بفتحها ليسا بمعنى السفر. أو الأَسفار، إذ لم نجدهما بهذا المعنى في جميع ما بأَيدينا من كتب اللغة مع كثرتها، وغاية ما يمكن حمل الإغباب عليهِ، إن كان بكسر الهمزة، أَنْ يكون الإِغْباب مصْدَرَ أَغَبَّ الماشيةَ صاحبُها، أي: جعلها ترد يوماً، وتظمأُ يوماً، أَو تظمأُ يوماً وليلتين وترد بعد ذلك، وهذا وإن كان يمكن في غير السفر لكنهُ في السفر أكثر، وفي اللسان «وغَبَّ بمعنى بَعُدَ» لكنهُ لم يأت لهُ بمزيد حتى كان يقال: إِن الإِغْباب بمعنى الإِبعادِ - وإن كان بفتح الهمزة أن يكون من قولهم مِياهٌ أَغْبابٌ أي: بعيدةٌ أَوْ يكون جمع غُبٍّ بالضَّمّ أي: الغامض من الأَرض - والإخبابُ بكسر الهمزة مصدر أَخَبَّ الدَّابَةَ صاحبُها، أي: جعلها تسير الخَبَبَ، وهو نوع من العَدْوِ، وَبفتحها إِمّا جمع خَبَبٍ بالمعنى المذكور، أو جمع خُبٍّ بالضم بمعنى الأَرض الغامضة.

والمعنى أَنَّ حمدَ سير عامل الليل، يا أَخا البعير المسنّ، والناقة المسنة الصَّغيرَ أَنساك مشقة جعلك مطيَّتِك ترد يوماً، وتظمأُ يوماً أو تظمأُ يوماً وليلتين، وترد بعد ذلك، ومشقةَ جعلِك مطيتك تسير الخبب هذا على جعل الإغباب والإخباب بكسر الهمزة، وعلى جعلهما بفتحها أَنساك مشقة المياه البعيدة أَو الغوامض من الأرض، ومشقة سَيْرات الخَبَبِ أَو الغوامض من الأَرض.

هذا ما أَمكن حمل الإغباب والإخباب عليهِ على الكسر أو الفتح، وقد يكون حضرة الناظم أَراد غير ذلك، فإِنهُ بعيد مرامي النظر سديد المرام إذا نظم أَو نثر.

فانظر أيُّها القارئ نفثاتِ هذا السحر الذي أودعهُ هذا الفاضل مطلع قصيدتهِ، وتأمَّل كيف استعمل التجريد الذي هو من المحسّنات البديعيّة، إذ جرد من نفسهِ شخصاً مصاحباً للبعير والناقة مؤاخياً لهما، كناية عن كثرة الأسفار، وموالاة الترحال، رغبةً في بث علوم الشرق بين أهل الغرب، وكيف جاءَ، حفظهُ الله، في استهلال كلامهِ بالصعب الممتنع ليناسب بين وُعُورة الألفاظ وَوُعورَة الأسفار، فجاءَ الكلام ملائماً للمقام مع مراعاة براعة الاستهلال.

ولا يفوتَنَّك ما في هذا الكلام من الطِّباق الذي هو من المحسّنات البديعيّة؛ حيث جمع بين الأُنثى والذكر من الجِمال في بيت واحد على ما بينهما من التَّضاد.

وقد أتى في هذا البيت وفي غيرهِ من أبيات القصيدة، بما يُفيد أن سفرهُ كان على الجِمال جَرْياً على سُنَّة العرب في أسفارهم، ليفيد أهل الغرب عادات العرب في أشعارهم، مع أنهُ منذ خرج من مصر إلى حين وصل إلى عاصمة السويد لم يركب غير عربات البر وسفن البحر.

وأمّا ما دُوِّنَ في الكتب من أنهُ ينبغي انتقاءُ الألفاظ السهلة المتداولة والابتعادُ عن الغريبة فلعلهُ بالنسبة إلى من قَصرُ عن التبحر في اللغة وأفانينها، لا بالنسبة إلى أمثال حضرة الناظم الفاضل.

وجل القصيدة جارٍ على هذا المثال منسوجٌ على ذلك المنوال، مشحونٌ من أشباه العَوْد، والناب، والإِغْباب، والإِخْباب، بما يؤكد للقارئ أن حب اللغة حَقَّر في عين حضرة الناظم وعثاءَ هذا الكلام.

ولنسرد لك بعض أَبيات من هذه القصيدة لتكون عنواناً على باقيها، قال بعد المطلع:

فأَنْتَ إِنْ هَوَّدَتْ وجناكَ أَو وَخَدَتْ   فـمـا حُـمـادَاكَ إِلّا حـمـدُ أَغـبـاب

ومنها:

حَيا الحيا مَهرةً عني وأَينُقها   بصالح مِنْ أَجَشِّ الصوب مِسكاب

ومنها:

فيا حُداةُ أَغِذُّوا السير حيث وميـ   ـض الثغر منها بإِرْقالٍ وإِرقاب

ومنها:

وحاديَ الركب نشوانَ الحُدَاءِ فَتَسْيار   الـهُـوَيـنـا بـهِ تـسـيـار مـيـقـاب

ومنها:

والعِيسُ شِنْشِنةُ فيها إذا اتَّأَدَتْ   بـهـا حـداةُ سـراهـا عَـوْد أُوّاب

ومنها:

فأَوْمَأَت للبنان الرَّخصِ خَضْبهُ   قانٍ من الدّمع وَكَّافٍ بمِيزاب

ومنها:

لا يُبْعِدَنَّكِ عَنّي سعيرُ بائكةٍ   تَـفـلـي نـواصـي بـيـداءٍ بـجـوَّاب

ومنها:

كَم خُلّب سحٌ عنهُ صيبٌ غدقٌ   أَحـيـا الـشـراء لِـذي جِـدٍّ وَدَعَّـاب

ومنها:

والبينُ لا عاد قلبُ النيب لا نعمت ... لا قلب أغربة سيمت بِتَنْعاب

ومنها:

وَلَم أُجاوز شُبَيْنا في لُبانتها ... ولا الأَخَصّ فما عذري لِعَتَّاب
عَلَّ الأَمانيَ قد هامت رَكيتُها ... بفتح ما كان دون الحاج من باب

ومنها:

إِن الثَواءَ ثَواءَ والقصورَ قبو ... ر العاجزين ولا إِبراءَ للخابي[1]

ومنها:

أُسكار الشان قد أَحيا العلوم بها ... فأَصبحت كخضمْ بين أَثغاب
أُسكار الثاني قد أَحيا مآثركم ... يا عرب بَاحَة فيها بعد أَحقاب

وبعد فراغِه من إِنشادها صفّق لهُ الحاضرون استحساناً وابتهاجاً.

* * *

(1) سبقهُ إِلى معنى هذا البيت ابن درّاج حيث قال:

أَلم تعلمي أَن الثواءَ هو التّوَى ... وأن بيوت العاجزين قبور

(مكتب السباحة)

بعد فراغنا من أعمال المؤتمر في هذا اليوم يوم الثلاثاءِ 3 سبتمبر سنة 1889 توجهنا إلى مكتب السباحة لحضور الاحتفال الذي هُيِّئ فيهِ إكراماً لأعضاءِ المؤتمر، فوصلناهُ في الوقت المحدد لذلك، وهو الساعة الخامسة بعد الظهر، وهذا المكتب على مقربة من سراي المؤتمر، قائم بلصق جزيرة سْتُرمسبازج الصغيرة، شبيه بحمامات الإسكندريّة البحريّة، وهو عبارة عن ممشى عريضة دائرة حول الماءَ، مرتفع سطحها عن سطحهِ بنحو مترين أَو ثلاثة، وفي الجهة المقابلة للباب تجاه الداخل محلٌ من الخشب مرتفع بهِ عدة طبقات، ملاصق طرفهُ لطرف الممشى من جهة الماءِ الذي في الوسطِ، يُصعد إلى طبقات هذا المحل في سلّم بداخلهِ، وليس لهذه الطبقات حواجز من جهة الماءِ الداخل، فترامى التلامذة منها إلى الماءِ كلٌ بحسب تقدمهِ في معرفة السباحة، فمنهم من يهبط إلى الماءِ من الطبقة الأُولى رمياً بنفسهِ، ومنهم من يهبط مما فوقها، وهكذا إلى آخر الطبقات.

وقد صُفَّت الكراسي على الممشى حوالي الماءِ لجلوس أعضاءِ المؤتمر ونسائهم، وكان جلوس الملك وولي عهدهِ بجهة الباب تجاه المحل ذي الطبقات المذكور.

وقد لبس التلامذة ذكوراً وإناثاً أَلبسة من الفلانيلة ملصقةً بالجسم كالتي يلبسها اللاّعبون في الأَلعاب البدنيّة، ولا تمتاز الإناث عن الذكور إلّا بطول شعورهنّ، وكون سراويلهنّ أقلّ التصاقاً بأبدانهنّ لاتّساعها بالنسبة لسراويل

الذكور، وذلك لمن احتاج إلى التمييز بما ذكر، ولم يغنِهِ عنهُ حسن الوجوه الفتان واعتدال القدود الحسان.

فرأينا التلامذة يشكلون على الماءِ باجتماعهم أشكال مثلثات ومربعات ودوائر ومنحنيات على اختلاف الأوضاع في ذلك كلهِ، ومع هذا لا يظهر منهم حراك، ولا ترى أجسامهم إلّا ساكنة، كأنّهم مثبتون في الماءِ بأوتاد.

ولا غرو في كون أهالي هذه البلاد اعتنت بأمر السباحة كل الاعتناء، وأتقنتهُ غاية الإتقان، لأن بلادهم تحفها البحار الهائلة، فضلاً عمّا يتخلل سائر أنحائها من البحيرات والأنهار، مع ملازمتهم ركوب البحر للصيد والاتّجار.

وقد رأينا من الأشكال وشاهدنا من الجراءَة والترامي من الطبقات العالية في الماءِ تارة بالرأس، ومرةً بالقدم، أو بالأيدي، أو بأي جزءٍ من أجزاءِ الجسم، ونظرنا من القدرة على السباحة مع الراحة في الحركات والسكنات ما يُحير الألباب ويوجب الاستغراب.

وممّا يقضي بالعجب العجاب أن رأينا شابة لابسة الملابس المعتادة جالسة وسط المتفرجات، ومعها شمسيَّة مفتوحة تحجب عنها الشمس إسوة غيرها منهن، وإذا بها وقعت في البحر، وصاحت صيحةً اضطربت لها الحاضرات، وطلبنَ لها الإغاثة، وقاربنَ الأخذ في الولولة والبكاءِ لولا أنِ انكشف الغطاءُ، وظهر أنها من تلامذة السباحة أرادت إظهار المهارة في الفن، وقد طفَت على وجه الماءِ عائمة ممسكة بشمسيتها لم تخلع شيئاً من ملابسها فصفّق لها الجميع استحساناً.

وتالله إن آخر منظر لا يخرج لي من بال، ولا يعزب عني بحال، أَن عاينت نحو الخمسين من ربَّات الجمال شكَّلن ثلاث دوائر وسط الماءِ في غاية الانتظام، كل واحدة منها بداخل الأُخرى بحيث إن كل شابَّةٍ ممسكة بيديها رجلي أُخرى، والجميع وجوههن إلى السماءِ، وظهورهنَّ إلى الماءِ، ساكنات لا يُبدين حراكاً من أَنفسهنَ، وإنما يتحركنَ بحركة الماءِ من غير أَن يتغير لهنَّ وضع، وترى شعورَهنَّ الذهبيَّة تتقلب من خفض إلى رفع.

فوا أَسفاهُ على قلة الاتّساع في صناعة الشعر وقصر الباع في الإِنشاءِ والنثر، فإِنَّ هذا أَمر لو استوفاهُ من رآهُ، ووفاهُ حقهُ من يهواهُ، لأَبدع وأَجاد، وأَتى بما يُغرِبُ عن المراد، فهذه الوجوه النضرة، والماءُ والخَضْرة، والجموع المتحابة، والهواءُ المعتدل وصفاءُ الوقت ممَّا يشرح الصدور، ويستوجب مزيد الحبور.

وكان الجميع محدقين بالأَبصار إلى هذه المرائي الحسنة، والأَشكال المستحسنة، تبدو عليهم علامات الاستغراب والاستحسان، منذهلين ممَّا يرَوْنَهُ، حتى إِنّهم لم يشعروا بالليل وغِشْيانهِ، والظلام وإِتيانهِ، إِلَّا بعد انتهاءِ السباحة، فكان ما استولى على كاتب هذه الأَحرف من الانبهات قد استولى على جميع المتفرجين والمتفرجات.

ثم خرجنا جميعاً، والكل يتحدث بما رآهُ، مظهراً للسرور والابتهاج، حتى وصلنا الفندق وأَخذنا نستعد لضيافة الكونت والكونتيس ده لاندبرج حرمهِ في هذا المساء.

(ضيافة الكونت والكونتيس ده لاندبرج)

الكونت والكونتيس قد أعلنا بهذه الضيافة في پروجرام المؤتمر الذي طبع قبل انعقادهِ بأشهر، واستعدًا لها تمام الاستعداد، فجاءَت مستوفيةَ أسباب السرور، مستكملة دواعي الحبور، وهذه ترجمة التذكرة الّتي أرسلاها للدعوة إليها قبلها بقليل:

«الكونت والكونتس ده لاندبرج يدعوان حضرة. . . أَن يشرفهما بالسهر عندهما في يوم الثلاثاءِ 3 سپتمبر الساعة الثامنة مساءً.

والتشريف يكون بقاعات الاحتفالات بفندق جراند أوتيل، والرجاءُ الإفادة».

فقصدنا هذه القاعات بالفندق، وهي فسيحة تسع عدداً كثيراً، مزينة بأَحسن زينة، مزخرفة بأَلطف زخرف، نُقلت إليها الأَشجار الغريبة وغير الغريبة، حتى كأَنَّ بها حديقة غناءَ هُيئت من سنين طوال، قطوفها دانية، وأَزهارها زاهية، تُبهج الناظر، وتسر الخاطر، والخدم القائمون بخدمة المحل ونظامهِ جميعهم لابسون الملابس الشرقيَّة، ولا يخفى ما في ذلك من المناسبة، فإن المدعوّين من المستشرقين، والضيافة من الكونت كاتب سرهم ووظيفتهُ السياسيَّة في البلاد المشرقيَّة، فكأَنَّهُ أَحضر هؤُلاءِ الخدم معهُ من الشرق.

وقد أَحضر في هذه الضيافة موسيقا تياتر الأُوپرا، ومشاهير راقصاتهِ، فإذا

رقصنَ رقصَ مصر لَبِسنَ ملابس راقصاتها، وإذا رقصنَ رقص بلاد السودان أو غيرها من بلاد المشرق لَبِسن ما اعتادهُ راقصات هذه البلاد.

وكان المدعوون منتشرين بهذه القاعات، بين متفرج على الراقصات ومحاسنهن وما يبدينَ من فنونهنَّ، وبين متأمِّل لما حواهُ هذا المكان من الزخرفِ والزينة، ومن فيهِ من صنوف العالم، وبين متحدث مع صاحبهِ من المستشرقين أو صاحبتِهِ من المستشرقات، وبين مشتغل بتعاطي المرطبات، والجميع في غاية الاحتشام وكمال الوَقار، والرجال لابسون ملابس سوداءَ كعادتهم في الولائم والاحتفالات، متحلون بالنياشين، والنساءُ لابساتٌ ما اعتدن لُبسهُ في ذلك.

كل ذلك والكونتيس ده لاندبرج تقابل ضيوفها بمزيد البشاشة وكمال الانشراح.

وهي أَلمانية الأَصل، ورثت من أبيها مالاً، قدَّرهُ بعضهم بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات، حسنة التربيَّة، مهذَّبة الأَخلاق، محبة للخير، تساعد كثيراً من الجمعيات الخيريَّة، وآحاد الفقراءِ، تعرف وتتكلم بكثير من اللغات كالفرنساويَّة والأَلمانيَّة والإنجليزيَّة والطليانيَّة، مع أَنَّها ربما لا يتجاوز سنها الأَربعين.

وكان الفندق مزيناً من الخارج بسواطع الأَنوار كالليلة السابقة، والرصيف أَمامهُ مملوءة بالخلائق الَّذين أَتوا لرؤيةِ أَعضاءِ المؤتمر وكبار رجال الحكومة المدعوِّين، وانتظار تشريف سموّ الملك إلى هذه الدعوة.

وما لبث أَن حضر سموّهُ لابساً ملابس سوداءَ، متحلياً بنياشينهِ، يقدم

حاشيتهُ من الوزراءِ والأُمراءِ، فصدحت الموسيقا بالسلام الملوكي الخاص، ولما دخل حيّا المدعوّين إلى أن وصلَنا فحيّانا، وسأل عن خاطر سيدي الوالد بواسطتي.

وصار بعد ذلك يُحيّي باقي الحاضرين، ويسلم عليهم نساءً ورجالاً، حتى جاءَ وقت تعاطي الطعام، ففتحت محلاتهُ، وإذا بالموائد على طراز البلاد المتقدم ذكرهُ مراراً، إلّا مائدة الملك، فإنها على الطراز الأُوروبي المعروف، فجلس الملك على مائدتهِ وجلس معهُ عليها الوزراءُ والأُمراءُ والكونتيس ده لاندبرج، وبعض السفراءِ.

وكان الملك حال دخولِه إلى الأَكل وخروجهِ عنهُ آخذاً بيد الكونتيس، أَما الملكة حرمهُ فلم تكن بأستكهلم أثناءَ احتفالات المؤتمر جميعها، بل كانت متغيبة في داخلية البلاد، تبغي تغيير الهواءِ لاعتدال المزاج وإزالة الأَسقام.

وبعد خروجهِ من محل الأكل إلى محل الاحتفال أَخذ يتمشى والراقصات ترقص والموسيقا تصدح إلى أن صدحت بالسلام الخديوي، وتبعهُ غيرهُ، والناس في ابتهاج، والليل مجد في السير، حتى خفنا أَن يدركنا الصباح، فانثنينا إلى محلات النوم نبتغي الراحة لننشَطَ لأَعمالِ الغد.

وذلك أَنّهُ من مقتضى البروجرام ويومية المؤتمر أن يشتغل أَعضاءُ الأَقسام في المحال المخصصة بهم من الصباح إلى وقت الظهر، وأَنهم بعد ذلك يسافرون في الساعة الثانية بعد الظهر بقطار خصوصيّ مجانيّ مارين بمدينة أُبسَالَا إلى جَمْلاَ أُبسَالاَ، أَي: أُبسالاَ العتيقة، وهي تبعد عن الأُولى بمسافة عشر دقائق، وبها تستقبل الأساتذة والتلامذة أعضاءَ المؤتمر بالاحتفال اللائق،

ويقدمون لهم «رَحيق الآلهة» على قبور «أُودِين» و«تُور» و«فْرَيْز» معبودات هذه البلاد قديماً، ثم بعد هذا يُهدى للمؤتمر باسم الملك أثر يخلّد ذكر هذا المجتمع بين العلماءِ إلى الأَبد، وذلك بحضور جميع موسيقات أستكهلم الحربيّة.

ثم تكون العودة بعد هذا إلى مدينة أُپسالا، وبها يُضيف أَهل المدينة وتلامذة دار المعارف أَعضاء المؤتمر، ويسمعونهم أنغام الموسيقا الصوتية الّتي يترنمون بها من غير آلة.

ثم تكون العودة من أُپسالا على القطار المذكور والساعة عشرة وربع مَسَاءً، والوصول إلى أستكهلم يكون الساعة 11 و56 دقيقة، أَمّا الملابس فتكون الملابس اليوميّة المعتادة.



المسير إلى أُبْسالا القديمة ثم إلى أُبْسالا الجديدة

وضيافة الطَّلَبة والبلديَّة بها

سار أَعضاءُ المؤتمر على قطارين متعاقبين، والساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاءِ 4 سبتمبر سنة 89 إلى جَمْلَا أُبْسَالَا، أي: أُبْسَالَا القديمة، وكان الوصول إليها بعد مسير نحو ساعتين، فوجدنا في انتظارنا هنالك خلقاً لا يحصى عددهم، نقلتهم الوابورات إلى ذلك المحل من أستكهلم وغيرها من سائر أنحاءِ المملكة.

وأُبسالا القديمة الآن قرية لا تذكر بعدما كان لها من المجد في الأَزمنة الخالية، فإنّها كانت مقراً لملوك السويد أَيّام عبادة الأَوثان، وكان معبدها الشهير قائماً حيث الكنيسة الصغيرة الَّتي بها اليوم، وبجوار هذه الكنيسة عدة أَكمات، أكبرها ثلاثة، قطر الواحد منها 60 متراً، وارتفاعهُ 18 متراً، تُنسب إلى معبوداتهم الثلاثة «تُور» و«أُودِينْ» و«فْرَيْزْ»، وقد كانت قبوراً لهم كما دلَّت على ذلك الاكتشافات الَّتي حصلت أخيراً.

ومع شدة الازدحام بهذا الاحتفال كانت الأَكام الثلاث خالية منهُ لتخصيص اثنين منها بأَعضاءِ المؤتمر، والاحتفال بتقديم رحيق الآلهة لهم «إِيدْرُوميلْ» بهما، وتخصيص الثالث بتلامذة دار المعارف البالغ عددهم نحو 1600 تلميذ، لابسين ملابسهم الرسميَّة، وهي عبارة عن بنطلون أَسود، وسترة سوداءَ ذات زرائر صفر، وقبعة بيضاءَ قصيرة، حاملين

راياتهم، وهي ثلاث عشرة راية، حسب عدد فرقهم في العلوم الّتي يتلقونها، تُحيط بهم موسيقات أستكهلم العسكريّة مستكملات العَدد والعُدد.

وبوصول الأَعضاءِ أَخذ الأَهالي جميعاً يقابلونهم بالترحيب والتحيَّة، وكذلك التلامذة، وصدحت الموسيقات، وتحرّكت الرايات إِشارة إلى السلام، فكانت تسمع الأَصوات من مسافة قاصية.

وصعد غالبُ الأَعضاءِ على أَكَمَةِ أُودين، فألقى حاكم أُپسالا مقالة تشكر فيها للحاضرين الّذين شرفوا المكان، وتلاهُ حضرة الكونت دُه لاندبرج، فخطب خطبة معناها أَن سموّ الملك، كلّفهُ بأن يقدم من طرفه إلى المؤتمر تذكاراً يخلّد إلى الأَبد، على شرط أن يتناقلهُ رؤساءُ المؤتمرات، جيلاً بعد جيل، وهو قرن من الخرتيت، طوله نحو نصف متر، مكسوٌّ بالفضة والذهب، على شكل القرون الّتي كانت الآلهة القديمة تشرب فيها مشروبها المسمى إِيدرُوميل، وهو من جنس ما يقدّم منهُ للأَعضاء.

وتلاهُ رئيس دار المعارف بأُپسالا، فخطب بالترحيب والتأهيل، وتلاهُ غيرهُ من الأَعضاءِ، والموسيقا تصدح بعد كل خطبة، وجميع الحاضرين يصفقّون، ويرفعون أَصواتهم بالاستحسان.

وبعد الفراغ من الخطب دار على الأَعضاء شراب الإِيدروميل في قرون على شكل القرن الذي أَهداهُ سموّ الملك.

وشراب الآلهة هذا مزيج مصنوع من عسل وماءٍ وبيرة، لطيف الطعم والمذاق، إِلّا إِنّهُ على ما يُقال شديد الإِسكار، ويوجد منهُ في أُپسالا عند باعة المشروبات على الدوام في سائر الأَزمان، أَمّا في غيرها من بلاد

السويد فلا يوجد إلاَّ بالتوصيةِ، ولكن لا يحتاج تجهيزهُ إلاَّ إلى ثوانٍ من الزمان؛ لأَن الأجزاء الَّتي يتركَّب منها متيسّرة في كل مكان.

وبعد الفراغ من الشرب قصد الأَعضاءُ أُوبسالا الجديدة لحضور ضيافة التلامذة والأَساتذة وأَهل المدينة، فركب بعضهم في الوابورات، وبعضهم في عربات حسب ما أَحبُّوا، ومن لم يتيسَّر لهُ من الأَهالي ما يركبهُ توجه إليها ماشياً، وإن كانت المسافة للماشي تبلغ الساعة على ما يقال.

وكان معنا بأُبسالا القديمة والجديدة صاحبنا المسيو هيدين، الشاب الذي ساح ببلاد الترك وغيرها على ما سبق.

وكانت عودتنا إلى أُبسالا الجديدة بالسكة الحديديَّة، فوصلناها في مسافة عشر دقائق، ويتوصّل إليها من أستكهلم بالسفن في فرع من بحيرة ميلار، كما يتوصل إليها بطريق السكة الحديديَّة الذي سلكناهُ، ويخترقها نهر فُوريزيهْ من الجنوب إلى الشمال.

وعدد سكانها نحو عشرين أَلف نفس، وهي آخذة في الاتساع يوماً فيوماً، وشهرتها بدار المعارف الَّتي بها.

ودار المعارف هذه بناءٌ فاخر متّسع مشيد بُني في عشر سنين من سنة 1877 إلى سنة 1886، وبها من الأَساتذة المقررين خمسون، ومن المساعدين لهم نحو ذلك، وعدد التلامذة فيها 1600 منقسمون إلى ثلاثة عشر قسماً بحسب ما يتلقونهُ من العلوم كما مَرَّ، ويسكن كل قسم غالباً في جهة مخصوصة بهِ في المدينة بمساكن يُديرُ حركتها أُناس منهم، يُعيتون لذلك بانتخابهم.

وبهذه البلد نظراً إلى وجود دار المعارف بها كتبخانة من أَجَلّ كتبخانات السويد، تحتوي على 230000 مجلد، منها سبعة آلاف بخط اليد، فيها من نفائس الكتب وبدائع الآثار ما تباهى بهِ أحسن الكتبخانات، وأهم غرائبها نسخة إنجيل ترجمها القسيس أولْفِيلاسْ في النصف الأخير من القرن الرابع للميلاد، وهي مكتوبة بحروف من الذهب والفضة على مائة وسبعة وثمانين قطعة من الجلد حمراء.

هذا والضيافة الَّتي أَعَدَّها لأعضاءِ المؤتمر التلامذةُ وأَساتذتهم وشاركتهم فيها بلدية أُبْسالَا قد جُعلت في قاعة التدريس الكبيرة بدار المعارف.

وهي متسعة جدّاً تعلوها قبة في غاية الارتفاع، جميعها مع هذه القبة مذهّب بصنوف التذهيب العجيب، تسع لا أقلَّ من خمسة آلاف نفس، جُعِلَت فيها مدرّجات تجلس عليها الطلبة، ولكنها رُفِعَت من محالها لمناسبة هذا الاحتفال، ولم يبقَ منها إلّا ما لاصق الجُدران، وقد صار تنوير المحل بالأَضواءِ الكهربائيَّة وأَضواءِ مصابيح الغاز مما جَعَل الليل أَبْهَجَ من النهار.

واجتمع الناس من كل فج إلى هذا المجتمع، وصارت الموسيقات تصدح بأَنغامها المطربة، وتشدو بأَحسن ما اخترعهُ أرباب فن الموسيقا إلى أَن أَتَت نوبة السلام الخديويّ في وقتها المعين لها بالپروجرام، فغنّت بهِ الموسيقا، وتبعهُ التصفيق وارتفاع الأَصوات من جميع الحاضرين، يقصدون بذلك أَداءَ مراسم التحية لنا أَرباب الوفد المصري بتعظيم سلام متبوعنا الفخيم.

ولقد وجدتُ عند ذلك أريحيَّةً، وبالحواسّ انتعاشاً، وفي القلب انشراحاً، واستولى عليَّ الطرب والابتهاج لما سمعتُ، ورأَيتُ من تعظيم وطني من هؤلاءِ القوم المجتمعين من مشارق الأَرض ومغاربها بسبب تعظيم صاحبِهِ وأَميرِهِ.

ثم أَخذت الخطباءُ تخطب، فمن وطني يتشكّر للوافدين، ومن وافد شرقي أو مستشرق يُثني على الأَهلين، ويبث مكارم أخلاقهم، ويُطنب في حسن سيرتهم، وإن كانت الضوضاءُ مانعة السمع عن أكثر ما يُقال، لكن التصفيق لم يمتنع عَقِب ختم كل خطيب المقال.

واستمرت الخطابة حتى جاءَ وقت استماع أنغام الموسيقا الصوتيَّة من التلامذة يترنمون بها، كما تقدم من غير آلة، وهي عالية الصيت والذكر في أُوروبا، فأَصغى الحاضرون، وأَخذ التلامذة يترنمون حتى كأَنَّهم موسيقا كاملة الآلات، بالغة غاية الاستعداد وعددهم يَزيد على مائة وخمسين، ثم صعدوا بعد مسافة إلى البالكون المطل على القاعة، مشرفين على من بها لزيادة تمكن استماع من فيها، وهنالك أَنشدوا ما أَخذ بالأَلباب وقضى بالعُجب العِجاب.

ثم آن وقت تعاطي الطعام، وقد اصطفت موائدهُ في المحلات المعدَّة لهُ خارج قاعة الاحتفال، فأَخَذَنا التلامذة إليها، وتولَّوْا مؤانستنا، وأَخذْنا نأْكل ونشرب حلالاً طيّباً، وكانت الخادمات لنا نساءَ أكابر القوم وأُمرائهم، وقد تَزَيَّيْنَ بالزي الوطنيّ، وتولَّيْنَ خدمة هذه الموائد الموضوعة على الطِراز البلديّ إِشارة إلى كمال الاحتفاءِ وشدة الاعتناءِ.

فالطعام كان لذيذاً، وأَصحاب الضيافة يبالغون في الإِكرام، وهؤلاءِ الأَميرات لا يعادل ملاطفتهنَّ وتواضعهنَّ، ومزيد التفاتهنَّ، وتمام رعايتهنَّ، إلّا جمالهُنَّ الفائق، ولطفهنَّ الشائق، فتبارك الله أَحسن الخالقين.

وقد أَراد التلامذة الموسيقيون أن يشاركوا الجمع في تحيتنا ومؤانستنا فجاءوا يسمعونا في أثناءِ الطعام نغماتهم المطربة.

وبعد الفراغ من الأَكل أَخذنا نتأَهَّب للمسير، فإِن أكثر الليل قد مضى، وموعد السفر قد انقضى، والوابورات في انتظارنا، فركبناها وسرنا حتى وصلنا أستكهلم.

فأَخذنا في النوم والراحة بقلوب منشرحة مرتاحة، لأَستعد في اليوم التالي أَن أُلقي على أَعضاءِ الفصل الأَول من القسم الأَول من أَقسام المؤتمر ما كتبتهُ في الموضوع الذي اخترتهُ.



(نـبــــذة)

في إبطال رأي القائلين بتعويض اللغة العربية الصحيحة باللغة العامية في الكتب والكتابة

في صبيحة يوم الخميس 5 سبتمبر سنة 1889 توجّهنا إلى سراي المؤتمر، وقصدنا المحل المخصص بالفصل الأَول من القسم الأَول، وكانت الأَعضاءُ حاضرة بهِ، فألقيت عليهم النبذة الَّتي أَلّفتها «في إبطال رأي القائلين بتعويض اللغة العربيّة الصحيحة باللغة العاميَّة في الكتب والكتابة»، فكان لي الحظ الأَوفى الأَوفرُ لأَنَّ نالت من هؤلاءِ الأَعضاءه الأَفاضل مزيد القبول والاستحسان والسعدُ الأَتم؛ لأَن شكرني الرئيس عليها، وخطب الأُستاذ البارون د. كريمر خطبةً في مدحها واستصوابها، وبيان المقصود منها، والفخارُ الأَكمل لإجماع الحاضرين على الإِقرار عليها، والسرورُ الأَكبر بتصفيقهم عند انتهائها وتهنئتهم لي بتأْليفها وهي هذه:

«ذهب بعض الناظرين في اللغات المشرقيَّة من رجال أُوروبا إلى أَن اللغة العربيّة المستعملة للتخاطب اليوم في البلاد الَّتي يُتكلم فيها باللسان العربي قد صارت في غاية البُعد عن اللغة العربيّة الفصيحة الأَصليَّة، حتى صح أَن تُعَدَّ كل منهما لغةً مستقلة عن الأُخرى، بحيث لو فرض أَنَّهُ أَتى إلى جهة يتكلم أَهلها باللغة المستعملة الآن كمصر وسوريّة من لا يعرف إلَّا اللغةَ الفصحى لم يمكن أن يفهموا منهُ أَو يفهم منهم إلاَّ بعد طول المعاشرة والمخالطة.

قالوا وغاية ما يمكن لقائلٍ أن يقول في النسبة بين اللغة العاميَّة المستعملة بين العرب اليوم وبين اللغة العربيَّة الفصيحة، هو أَن اللغة الفصيحة أَصل لهذه اللغة العاميَّة، وأن هذه فرع تلك، كما يقال: إن اللغة اللاَّتينيَّة أَصل للغة الطليانيَّة وإِن هذه فرع تلك.

ثم رأى أَهل هذا المذهب أَن اللغة العامية وافيةٌ بحاجات أَهلها في التفاهم، ولهم أَن يستعملوها في جميع أَنواع المعاني عالية ودانيةً، علميَّة وأَدبيَّة وصناعيَّة وشرعيَّة وسياسيَّة، وبالجملة في كل ما يراد من معنى لهُ مكان من ضروريات الإِنسان أو حاجيّاتهِ أو كمالاتهِ، ولهم أن يستعملوها كتابةً وتأليفاً كما يستعملونها نطقاً، أما اللغة الفصيحة فهي من البعد عنهم بحيث لا تصلح للتفاهم بينهم في ضرب من ضروب المعاني، اللَّهُمَّ إِلَّا إذا أنفقوا في تعلّمها أَزماناً طِوالاً، وبذلوا في دراستها ما استطاعوا من جُهْدٍ وقوة.

وبَنَوْا على ذلك، أَن اختصاص العلوم والآداب، وفنون الصنائع وأصول الشرائع، ونحو ذلك باللغة الفصيحة، ممَّا يقضي على أَهل اللغة العربيَّة بالحرمان من التقدم في معارفهم وآدابهم بجميع أَنواعها.

وقد قال بعض مشاهير السياسة في الكلام على مصر ما نَصُّهُ «وإِخَالُ أَن أَمل التقدّم ضعيف ما دامت العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربيَّة لغة القرآن كما في الوقت الحاضر، بدل أَن تتعلم اللغة العربيَّة المستعملة؛ لأَنَّ نسبة اللغة المصريَّة إلى لغة القرآن كنسبة الإيطالياني إلى اللاَّتيني، والإغريقي الحديث إلى الإِغريقي القديم، وعربيَّة الفلاح لغة قائمة بنفسها، وقواعدها خاصة بها، وإذا لم تؤخَذ هذه الاحتياطات الواجبة للحصول على النتائج الفعليَّة

من المدارس المتعددة التهذيبيّة، لاستمر الجيل الجديد كسابقهِ غيرَ صالح لخدمة وطنهِ، سواءٌ كان في القيادة العسكريّة، أو في الصنائع، أو في الخِدم العامة، وتَظَلُّ عبارة - مصر للمصريين - كما كانت اسماً بلا مسمّى» انتهى كلامهُ.

وبالجملة قد قالوا: *إن الأمة العربيّة إذا بقيت علومها وآدابها مُختزنةً في* العبارات الفصيحة، كانت كأنها في لغة أُخرى غير العربيّة، ولا يصل آحاد الأمة إلى حاجتهِ من ذلك إلّا بعد أن يصرف الجزءَ الأهم من عمره في تحصيل اللغة، فلو أن العلوم نُقلت إلى اللغة العاميّة وهي لغة الأب والأم وجميع الخلطاءِ يتعلمها الصبي كما يتعلم المشي والأكل والشرب لكان عندهُ من فضل الزمن ما يصرفهُ في تحصيل تلك العلوم، وهو في أوائل الصبا، وكان الزمن الذي يستغرقهُ في تعلّم اللغة الفصيحة محفوظاً للتوسّع في العلوم والآداب، وبذلك يسهل تعميم الفنون اللازمة لحاجات الأمة، وبثها في أنفس جميع آحادها بدون استثناءِ، فإن أغفلت هذه الوسيلة لم يوجد سبيل لتعميم الفنون، ولا لتحسين التربية العامة، وهكذا لجّ هذا الوهم بأربابهِ حتى كاد يلتحق بالآراءِ المعتد بها.

أما نحن فنخالفهم، ونذهب غير مذهبهم لوجوه:

الأول: أن ما يجدونهُ من الصعوبة في اختصاص اللغة الفصيحة بالعلوم والفنون، واستئثارها بالكتابة، سيجدونهُ في نقل العلوم إلى اللغة العاميّة، بل يجدون في الثاني ما هو أشد من الأول. فإن اللغة العاميّة تختلف باختلاف الأقطار والبلاد بما لا ينقص عن الاختلاف بين العامي والفصيح، بل ربما زاد، فإن جميع ما قالوه في صاحب اللغة الفصيحة إذا ورد إلى بلد من

بلاد العرب الَّتي يتكلَّم فيها باللغة العاميّة، وحالهِ مع أهل ذلك البلد، وحال أهل البلد معهُ، يكون بعينهِ أو أكثر في مصري ذهب إلى بلاد الغرب الأقصى أو الجزائر أو سوريَّة، وهكذا من يجيء من تلك الجهات إلى مصر، إذا كان لم يدخل المكاتب، ولم يسبق لهُ مخالطة أهل البلاد الَّتي جاءَها.

وإنّا لا نشك في أنك إذا قلت لمصري عامي: «كيف حالك» باللغة الفصحى من غير لحن تجده يفهم من هذه العبارة ما أردت، بخلاف ما إذا قال لهُ المغربي «آشِنُك» أو «آشِنْتايا»، وكذلك فهم المغربي العامي إذا قلت له «كيف حالك» أسهل من فهمهِ لقول العامي المصري «إزَّيَّكْ»، وهكذا يفهم المصري قول العربيِّ الفصيح «ما هو» بخلاف قول المغربي (آشْنُوَّا) أو (شِيهُو)، أو قول السوري (شِكْلو)، وكذلك يفهم المغربي والسوري من قولك: «ما هو» أكثر من قول المصري «إيه هُوَّا»[1]، أو «هُوَّا إيه»، وكذلك قولك للمصري: «هذا الوقت» أسهل عليهِ فهماً من قول المغربي «توَّا»، أو «دِزْوَق»، أو «دِزْوَك»، أو قول النابلسي «هَالْقِيتْ»، وقول البيروتي «هَلَّأْ»، بتفخيم اللام، والطرابلسي «هَلَّأْ» بترقيقها، وقولك: «عِمَامَه» أسهل عليهِ من قول المغربي «كَشْطَهْ»، أو الشامي «لَفَّهْ» فإِنَّهُ لا يفهم اللفّه إلَّا بمعنى الثوب الذي يُلَفُّ فيهِ الطفل الصغير وهو رضيع غير مفصّل عليه، وقولك: «النَّعل» أو «النعال» أسهل من قول المغربي «الصبَّاط»، و«كثير» أسهل من قوله «ياسر» أو «بِالزَّاف»، و«العَطفه» أسهل من «الزَّنقه»، و«سفينه» أسهل من «شَقَف»، أو «شَقُّوف»، و«رواق» أسهل من «بُرْطال» وقولك: «إمضا»

(1) قولهُ: (إيه هُوّا) الهمزة في مثل هذه الكلمة والتي بعدها تُقرا ممالة بين الفتحة والكسرة.

أسهل من قوله: «خنفوسه»، وقولك: «أمضيت الكتاب» أسهل من «خَنْفَسْت الكتاب»، و«الكتاب مخَنْفعس»، وقولك: «هل عندك ساعة» أسهل عليه من قول المغربي: «تْمَعاشْ مِنْقَالْ»[1]، وقولك: «كم الساعة» أسهل عليهِ من قول المغربي «قَدَّاش التعديل»، و«حُمُّص» أسهل عليهِ من قول الشامي «أَضَامَة»، وهكذا مما يطول إيرادهُ ولا ينحصر تعدادهُ.

وليس مرادنا هنا الترجيح بين لغة من اللغات العاميَّة وغيرها بأن تقول: إِن المصريَّة أَسهلُ أَو أَرجح من السوريَّة أَو المغربيَّة مثلاً، أَو إِحداهما أَسهل أَو أَرجح من المصريَّة، بل أَردنا أن نُبيِّن أَن اللغة الفصيحة بعد أَن يُجتنب منها في تعليم الفنون والصنائع الغريبُ، وغير المأْلوف استعمالهُ هي بالنسبة لكل واحد من ذوي اللغات العاميَّة المختلفة أَسهلُ وأَقرب تناولاً من اللغة الخاصةِ بغيرهِ ممن لم يخالطهُ، فاللفظ العربي الفصيح بالنسبة للعاميّ المصري أَقربُ من العاميَّة المغربيَّة والسوريَّة، وبالنسبة للعامي المغربي أَقربُ من العاميَّة المصريَّة والسوريَّة، وبالنسبة للسوري أَقربُ من العاميَّة المصريَّة والمغربيَّة، لما يَطْرُقُ أَذآن الجميع من سماع أَلفاظ القرآن والحديث والمواعظ، وغير ذلك مما يعم الجميع كما سيأْتي.

---

(1) قوله: «منقاله» هذه القاف تُقرأ عندهم كالقاف في نطق أهل صعيد مصر، وكالجيم في نطق أهل القاهرة أي: غير معطشة وانظر ما يكتب بهِ مثل هذه القاف إذا أريد نقل الكتابة إلى اللغة العامية انكتب بالقاف، وهي لا ينطق بها كالقاف المعروفة في قراءة القرآن، فيلزم تمييزها عنها أم تكتب بالجيم، فيلزم تمييزها عن الجيم الحقيقيَّة وإلاَّ كيف يتميز مثل قولنا: (قَدُّه) إذا كتبت بالجيم من قولنا (جَدُّه)، ومثل هذا كثير جداً.

وقد اتَّفق لي من نحو سنتين أَنني جُلت في بعض بلاد الشام مع سيدي الوالد، فلقينا كثير من فضلاءِ نبلائها ونجباءِ أدبائها، منهم الفاضل الشهير الشيخ عبدالمجيد إفندي الخاني الخالدي النقشبندي، فكنا نفهم منهم، ويفهمون منا بالسهولة، بخلافنا في التكلم مع العامة السُّوقة، فكثيراً ما كانوا لاسيما إذا أَسرعوا في التكلم يَشْتَبِهم علينا وعليهم الكلام، وينسد الباب دون فهم المرام حتى يترجمَ لنَا الأستاذ الخالدي المشار إليه، وكان يلازمنا أَيام مقامنا بدِمَشق في كل آن ومكان، فقد جمع بيننا وبينهُ من اللغة الصحيحة ما لم تجمعهُ اللغة العاميّة بيننا وبين العاميّ البحت، وما ذاك إلّا لأَن لغتنا العاميَّة المصريَّة غيرُ لغتهم العاميَّة الشاميَّة.

واتفق في سفرنا هذا إلى هذه البلاد أَني دخلت أَيام مكثنا بمدينة باريس عاصمةِ بلاد فرنسا إلى أَحد محال التجارة بها، وهو المعروف بمخازن اللوفر مع السيد الوالد المشار إليهِ، ورفيقينا بهذا المحفل النبيل من مصر، فَلَقِيَنَا هنالك بحكم الاتفاق من غير قصد، رجلٌ من باعة البضاعة بذلك المحل سبق لهُ إِقامة مدة مديدة في بلاد الجزائر، حتى اعتاد التكلم باللغة العاميَّة المتداوَلة بها كأَهلها، فلما توسَّم في زِيّ ملابسنا أَنا من أَهل اللغة العربيَّة، وتحقق ذلك بالسؤال[1] منا، وهو إِنّما يعرف من اللغة العاميَّة المغربيَّة ما عَرَفهُ ببلاد الجزائر، أَخذ يتكلم معنا بتلك اللغة مع طلاقة وذلاقة لسان، غير أَن كثيراً من كلامهِ كان يُشكِل علينا، فما يفهمهُ منا إِلّا رفيقنا الشيخ حمزة، وكذلك كان كلامنا بالنسبة للرجل حتى يُفَهِّمَهُ الشيخ الموما إليهِ، وذلك لأَن الشيخ أَقام سنين من عمرهِ في بلاد المغرب وتونس، فكان يترجم بيننا وبين الرجل إِلى أن جاءَت النوبة إِلى شراءِ ما يختص بي، ورأَيت التفاهم

---

(1) في الأصل: «بالسوأل» المحرر.

بيني وبين الرجلِ لا يتيسر إلاَّ بواسطة الترجمة، فوجدت الأَقربَ تناولاً والأَقل زمناً أَن يكلِّمَني بلغتهِ الفرنساويَّة، ورجوتهُ في ذلك فأَجاب، وسهل تعاطي الكلام بيني وبينهُ، فكانت اللغة الفرنساويَّة الأَصليَّة بالنسبة لهُ الطارئة بالنسبة لي أَقربَ لي وتناولا من اللغة العربيَّة المغربيَّة العاميَّة؛ لمكان التباعد بينها وبين العاميَّة المصريَّة، وكذا كان الحال مع من لَقِينَاهُ غير هذا الرجل من أهل المغرب من الحديثي العهد بالإِقامة في بلادنا، لاسيما إن كان من أهل المغرب الأَقصى، فإِن لغتهُ العربيَّة المغربيَّة تكاد أَن تكون بالنسبة لنا رَطَانَةً أَجنبيَّة، ولو تكلم بالعربيَّة الصحيحة لكان فهمها حتى بالنسبة إلى العامي منا أَقربَ من تلك بكثير.

وأَخبرني السيد الوالد أَنَّهُ لما سافر إلى البلاد الحجازيَّة لأَداءِ فريضة الحج كان فهمهُ لكلام أَهلها، بل أَعراب باديتها أَقربَ وأَسْهَلَ مما مرَّ بكثير جدّاً؛ لقربهِ إلى اللغة الفصيحة، وقد تُسْتَغْرَبُ الكلمة في استعمال أَحدهم فيرجع إليها من يَستغرِبها في كتب اللغة كالقاموس، فتوجد نصّاً مثل لفظ الضِّلِع بمعنى جانب الجبل، قال: وقد سأَلت عاميّاً من أَعراب البادية هناك عن معنى الضلع فقال: الضلع ضلع الجبل، وأَشار إليهِ، وضلع الإِنسان وأَشار إلى ضِلع نفسهِ، فلما وافقت لغتهم العاميَّة صحيح اللغة العربيَّة في البعض، وقربت منهُ في البعض، سهل فهم ما وافق المستعمل في لسان العامَّة، ووجود غير المستعمل فيهِ بكتب اللغة.

بخلاف ما إذا لم يفهم المصري مثلاً قول الشامي في عاميّتهِ الشامية «قَالْشِبن» أو «قُمْبَاز» أو «مِنْتان»، أو لم يفهم الشاميُّ قول المصري في عاميّتهِ المصريَّة «شُرَاب» أو «قَفْطان» أو «عنتري»، بمعنى الثلاثة المتقدمة

على ترتيبها، أو لم يفهم كلاهما من المغربي قولهُ في عاميّة المغربيّة «سُبنُيْ» بمعنى مِنديل، و«سُقلي» إذا كان مشغولاً بالفضة، و«تَشْمير» بمعنى قميص، ويقولون في جمعهِ: «تَشَامير»[1]، أو لم يعرف المغربي ما سبق من كلام كلٍّ من الشاميّ والمصريّ، فأين يجد الواحد منهم بُغيتهُ إذا جاءَ إلى أحد هؤلاءِ كتاب من غير لغتهِ العاميَّة فيهِ شيءٌ من ذلك، وربما لم يكن في بلدتهِ أو بلدة قريبة منها أحد من أهل تلك اللغة ولا معرفةَ بها عندهُ، ولا في شيءٍ من كتب اللغة يجد قصدهُ.

فإذا كنتُ مثلاً في قرية من قرى مصر من غير مراكزها المختلطة بها أصناف الأُمم، وأتاني كتاب من أحد أصحابي في الشام أو في المغرب على لغتهِ، وفيهِ ما لا أعرف فماذا أصنع؟ أأُهمِلهُ بالكليَّة، وربما كان في حاجة ضروريَّة مهمة، أم أسافر إلى موضع أجد فيهِ من يُفَهِّمُني ذلك، ولو كنت في أقصى الصعيد، أم أبعث بهِ إلى عارف باللغتين يترجمهُ لي كما تُترجم اللغات الأجنبيَّة، فقد أصبح كل منَّا إذا تركنا اللغة الصحيحة الجامعة بالكليَّة - لا قدَّر الله - أجنبيّاً عن الآخر من ذوي لغتهِ وبني جلدتهِ بعد أن كان بيننا جامعةُ اللغة.

هذا وممَّا قدَّمناهُ من اختلاف اللغة أنَّهُ قد يوجد في إحدى اللغات العاميّة ما يخالهُ من ليس يعرفهُ شتماً أو عيباً، أو مما يستحيا[2] منهُ بالنظر إلى لغتهِ، وقد وقع من ذلك لكثير من الناس ما لا يُحصى، فما ظنك بمصري نزل بالشام في

---

(1) كذا سمعت من بعض أفاضل المغاربة، وسمعت من غير واحد منهم أنهُ يقال عندهم الواحد «تْشامير» وللجمع «تْشاميرات»، وكلاهما ينطقون بهِ ساكن التاء أولهُ، وهم كثيراً ما يبدأون بالساكن.

(2) في الأصل: «يُسْتَحَيَى» المحرر.

دار وتعهدت لهُ شامية أو شامي بعمل الأَكل، فقال المصري: ماذا آكل؟ فقيل لهُ: «كِبّه»، والكبة في العامية المصريّة مما يستعمل في فظيع الدعاءِ على الغير إذ هو فيها الخرّاجُ الطاعونيّ، والعياذ بالله تعالى، وفي أمثالهم العاميّة «سنة الكبّة يَدْلَعْ لَمْخَطْ» يُضرب لمن يعجب بنفسهِ وهو حقير في ذاتهِ، لدى عدم وجود من يُعتد بهِ كقول القائل:

خَلت البقاع من الرِّخاخ فتفرزنت فيها البيادق

والكبة في عامية سوريّة، طعام معروف لدى أَهلها من أَطيب ما يستلذ عندهم، وإذا قال المصري للمغربي: «بُصّ» فهي عند المصري بمعنى انظر، وعند المغربي بمعنًى من المعاني المستهجنة للغاية.

وكثيراً ما توجد في عامية بعض الجهات أَلفاظ تعد عند غير أهل الجهة سَخَفاً وفُحشاً، بل من أَفحَش السخف، وهي عند أهلها معروفةٌ مألوفة ليست في شيءٍ من ذلك لا تستحيي منها العذراءُ في خدرها.

وقد اتّفق لي من ذلك يوم دخلنا القدس في السياحة الشاميّة أَن سأَلت امرأَة صادفتها في الطريق عن موضع هناك، وهو الفندق الذي نزلناهُ، وكنت قد اشتبه عليّ الطريق إليهِ، فأرادت أن تقول ما معناهُ: «ها هو هنالك»، فأشارت إلى موضع الفندق، وقالت كلمتين أرادت بهما ذلك المعنى يقضي بسببهما الوهم ممن لم يألف تلك اللغة أَول وهلة أن المرأة من فواحش الفواجر المتهتكات، فعجبت من جهرها بذلك الكلام على قارعة الطريق بمسمع غيرها من فتيات من النساءِ، وكنت رأَيتها متقدمة في السنّ، وذلك مما حملني على اختصاصها بالمخاطبة والسؤَال خيفة ما قد

يلحقُ الغريبَ من سوءِ الظنّة، فتأملتها ثانياً لمّا استغربت ذلك منها، فإذا هي كما رأَيت أولاً مسنةٌ عليها سَمْت وقار وسمة كمال، وهي في أَبعد حال مما كان قد ذهب بي إليهِ الوهم وسوءُ الفهم، فلما تكرر سماع ذلك منْ بعض الفتيات بعد هذه المرة لم أجد سبيلاً لسوءِ الظن، ولا أريد أن أُصرّح بأمثال ذلك، وفي هذا كفاية لمن شاءَ ومن أراد ذلك، فربما وقع لهُ إذا تجاذب الكلام مع من لم يسبق لهُ وفادة على مصر، وجرَّت المناسبة إلى ما هو من هذا القبيل.

وكل ما ذكرناه هو بالنسبة للحال الحاضرة اليوم، أمّا لو نقلنا الكلام إلى ما قبل عشرين سنة مثلاً، لنقيس عليهِ ما بعد مثل هذه المدة، لكان الأمر أكبر لما نراه في العاميَّة من التبدل والتغير بتغيُّر الأَعصار، وعدم الثبات والاستقرار.

فلو فرضنا الكلام في سوريّ مثلاً جاءَ إلى مصر، أو مصري ذهب إلى سوريَّة قبل نحو تلك المدة، لوجدنا المصريّ لا يفهم من السوريّ ولا كلمة واحدة، فإن المصري لو سمع من امرأة سوريَّة أو رجل سوري من ذوي السن ممن لم يدخل المكاتب هذه العبارة، وهي «سكلت الحئيم أَلْ لي أُل إينا» لم يفهم ماذا يُريد منها، والمراد «سألت الحكيم قال لي: كُل كينا»، بل لو سمع شاب مصري شاباً سورياً من أهل بيروت يقول اليوم «وَعأت على إجري» لم يفهم ماذا يريد، ومراده «وقعت على رجلي»، وكذلك لو قال السوري للمصري: «انطُرني هَلاً بجي» لم يفهم منهُ أنهُ يقول: «انتظرني حالاً أَجيء»، ولو أراد أحد إحصاء[1] ذلك للزمهُ أن يكتُب سفراً كبيراً هو قاموس اللغتين السوريَّة قبل عشرين سنة مع بعض السوريَّة اليوم والمصريَّة اليوم.

---

(1) في الأصل: «احصأ» المحرر.

فمن أراد نقل العلوم والآداب من اللغة الفصحى إلى اللغة العاميّة لزمهُ أن يحولَ بين السوريين والمصريين والبغداديين والتونسيين والمراكشيين وغيرهم ممن يتكلم باللسان العربي، ويجعل لكل فئةٍ منهم لغة خاصة بهم في معارفهم وعلومهم وآدابهم، ويُصبح المصري إذا كتب كتاباً لا يفهمهُ السوري، والسوري إذا كتب كتاباً لا يفهمهُ المصري، وهكذا سائر الأقوام العربية، فيفقد العرب ما عساهُ يكون بينهم من التعاون على العلم والأدب، ويصيرون إلى حال من الفرقة أشنع مما هم فيهِ اليوم.

بل من دقَّق النظر في أحوال البلاد العربيّة، يجد أن البلاد المصريّة نفسها يختلف بعضها عن بعض، بما لا يقل عن الاختلاف بين العامة وأهل اللغة الفصيحة الصحيحة، فإنَّ أهل الصعيد الأعلى يستعملون من الألفاظ وضروب التعبير ما لا يفهمهُ أهل البحيرة، بل لأَهل مديريَّة الشرقيَّة مثلاً من الأَلفاظ ما لا يفهمهُ أَهل مديريَّة الدقهليَّة الملاصقة لها، إلّا من تكرر سماعهُ لها، بل لأَهل المديريَّة الواحدة في بعض البلاد، ألفاظ تخالف ما هو مستعمل في معناها بالبعض الآخر وللعربان كذلك.

وهكذا نجد في سائر البلاد العربيَّة في ما نعلمُ، ولا نطيل في إيراد الأَمثلة والشواهد على ذلك فوق ما مرّ.

فمن أَراد نقل العلم إلى اللغة العاميَّة، لزمهُ أَن يفرق بين أَهل الأقاليم في معارفهم وآدابهم، وباعد بين أفكارهم، وانقلبت الأُمَّةُ بسعيهِ إلى أُمم مختلفة لا يفهم الأَفراد من إِحداها ما يقول الأَفراد من الأُخرى، وهم أَهل شريعة واحدة وفي سلطان حاكم واحد، وكل واحد منهم في حاجة إلى معونة الآخر في أَقل الضروريات وأَجلّها.

فإن قال أهل ذلك المذهب: إننا نضع كتاباً يحتوي على جميع اللغات العاميَّة في الأَقطار العربيَّة، أو يحتوي على جميع الأَلفاظ المصريَّة مثلاً مُرتَّبة على الحروف والأَبواب، ويُعَيِّنُ فيهِ لغة كل ناحية من النواحي، وتُفسّر بمفاهيم لغات سائر النواحي، فإذا عَثَر أَحد من أَهل الغربيَّة مثلاً، على لفظ في كتاب لأَحدٍ من أَهل جهة أُخرى رَاجَعَ ذلك الكتاب حتى يفهم مرادهُ.

قلنا: لو تسنّى ذلك لنا بالفرض لم يكن ذلك بأَسهلَ من مراجعة الكتب اللغويَّة الَّتي بِأَيدينا اليوم، على أَنَّا إِذا اقتصرنا في كتبنا الصناعيَّة والفنيَّة الَّتي يحتاج إليها عامة الناس، على الموافق للاستعمال الحاليّ والقريب إليهِ من العربي الصحيح، وتركنا الغريب والبعيد عن المستعمل لسَهُل الأَمر جدًا، كأَن نستعمل في تلك المؤَلفات بدل لفظ «اللُّجين» مثلاً لفظة «الفضة» بمعناهُ، فإن الثاني مع كونهِ لفظاً صحيحاً فصيحاً في هذا المعنى هو، كما تراهُ قريب من اللفظ العاميّ المستعمل، لا فرق بينهما إلّا كسر الفاءِ في الصحيح، وفتحها في العامي، فلهذا يفهمهُ العاميّ وغيرهُ، بخلاف الأَول ولذا ندعهُ، ونستعمل الثاني، وكذا نستعمل بدل لفظ «العَسْجَدِ» مثلاً لفظ «الذهب» لقرب الثاني من اللفظ العامي، لا يفرق بينهما إلّا بالدال منقوطةَ في الصحيح، والدال غير منقوطة في العاميّ؛ فلذا لا يتعسر فهمهُ وهكذا. ومن هذا القبيل، ما قصدناهُ، على سبيل التمثيل، من استعمال كلمتي المنقوطة وغير المنقوطة في هذه العبارة، بدل لفظتي المعجمة والمهملة الغالبتين في المؤَلفات، ولم نراعِ هذه الطريقة في كل ما كتبناهُ هنا لأَننا نكتب للخواص لا للعوام. فإذا اعتنينا برعاية ما ذكرناهُ أعني الاقتصار في المؤَلفات الَّتي تحتاج إليها عامة الناس، كما ذكر، لا خاصتهم على مأْلوف الاستعمال، لم يبق من حاجةٍ غالباً إلى مراجعة الكتب اللغويَّة، إلاَّ بالنسبة

لمن نصب نفسهُ للتبحر في معرفة مفردات اللغة وعلومها من العلماء والأُدباءِ، ومن يريد اللَّحاق بهم، والترقي في درجات البلاغة إلى درجاتهم، وما ذاك بمتعيّن على عامة الناس، ولا تدعو إليه ضرورة بالنسبة إليهم، ومن أرادهُ ممن تسمو بهِ نفسهُ عن تلك الطبقةِ للتوسُّل بهِ إلى علوم التفسير ونحوها، وإجادة صناعة النظم والنثر وما يتعلق بها، وجد الكتب الَّتي يحتاج إليها في ذلك حاضرة، والطريق مسلوكة، والطريقة سهلة، والمرام على طرف الثُّمام[1]، بخلاف ما لو تركنا الطريقة العربيَّة في النطق، والمكاتبة والتأْليف كلياً وهجرناها ملياً[2]؛ فإنَ ذلك تندثر بهِ تلك الكتب، وتُتناسى، ويضمحل أمرها ويتلاشى، وبتداول الزمن، يُصبح الوصول إلى ذلك المراد أَصعبَ من خرط القتاد.

على أن العمل في جمع متفرق اللغات العاميَّة وتمييزها، مما يصعب نجاحهُ كلَّ الصعوبة، فإن واضع مثل ذلك الكتاب الجامع، لا يصل إلى الغرض منهُ حتى يخالطَ أَهل كل إقليم، بل كل ناحية، ويسمع كلامهم في جميع المقاصد والأغراض ليتسنَّى لهُ بذلك الإحاطة بجميع الألفاظ، وهذا يستغرق من الزمن والنفقة ما لو صُرف بعضهُ في حمل الناس على التكلم بالفصيح لأَتى بالغرض المطلوب على أَتم وجه وأكمله.

هذا كلهُ إذا قصرنا النظر على مفردات اللغة العاميَّة وما يوجد بينها من الاختلاف الفاحش، فإن نظرنا إلى هيئآت التراكيب الَّتي تختلف أيضاً

---

(1) يقال لما لا يعسر تناوله: «على طرف الثُّمام». «المحرر».

(2) تضمين قرآني وهجرناها ملياً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: 46]. «المحرر».

باختلاف الأقطار والنواحي، لاحتجنا إلى فن نحو خاصٍ بكل قطر، أو بكل ناحية، ولكان على العربيّ منا أن يتعلم كل نحو وُضع لكل لغة حتى يتمكن من فهم ما يكتب في اللغة العاميَّة من أي بلد من بلاد العرب، وهذا يكلفنا من المشقات أضعاف ما يكلفنا تعلمُ نحو اللغة العربيَّة الفصيحة.

ونحتاج أيضاً إلى وضع علم لِرَسْمْ كلمات هذه اللغة العاميَّة؛ لتكون كتابة كل جهة جاريةً على أصول مضبوطة وطريقة واحدة، وإلاَّ صار كل واحد من أفراد الناس يكتب بهوى نفسهِ على حسب ما يَعِنُّ له من غير قاعدة مقررة، ولا قانون ضابط، فمثل «إلّي» في العاميَّة بمعنى «الذي» في الصحيحة هل تكتب بلام واحدة مثل ما يكتب «عِلّي» في اللغة الصحيحة بلام واحدة مشدَّدة جرياً على قاعدة الإدغام المرعيَّة عند أربابها في النطق والرسم، أم تكتب «إلْلِي» بلامين بناءً على أن تلك القاعدة خاصةٌ باللغة العربيَّة الصحيحة لا غيرها كما تكتب «قِلْلِي» من اللغة التركيَّة بمعنى ذي شعر بلامين، و(أَلْلِي) من التركيَّة أيضاً بمعنى خَمسين بلامين، كذلك لعدم رعاية[1] الإدغام عندهم واختصاصهُ باللغة العربيَّة الأصليَّة الصحيحة، ومثل «قَلْ لي» المحرفة من «قال لي» هل تُكْتَبُ بلام واحدة مشدَّدة أم تُكْتَبُ بلامين متصلين أو منفصلين، وعلى كلٍ هل تكتب بألف بين القاف واللام على الأصل للتفرقة بينها وبين «قُلْ لي» المركبة من فعل أمر وجار ومجرور، أم تُترك الألف من الرسم لسقوطها في النطق، وعلى كل هل تكتب بالهمزة بدل القاف «أَلْ لي» أو «آلْ لِي» أو «أَلْلي» أو «أَلّي» أو غير ذلك، ثم على كل هل تكتب بالهمزة في أولها بدل القاف؛ لأن النطق بها كذلك في العاميَّة في بعض البلاد مثل القاهرة، أو بالقاف الحقيقيَّة لأن النطق بها كذلك في بلاد أُخَر كرشيد، أو تكتب بالجيم رعاية الحال النطق بها في بعض آخرَ كالصعيد؛ لأن أهله

(1) في الأصل: «عارية» المحرر.

ينطقون بها بما يشبه جيماً غير معطشة كالجيم العاميَّة المعتادة في القاهرة، أو تكتب بالقاف ويرمز لها بما يميزها عن القاف الحقيقيَّة، أو بالجيم مرموزاً لها بما يُميِّزها عن المعطشة، أو يُوضع لها حرفٌ جديد.

وبالجملة يلزم وضع عِلْم للرسم في هذه اللغة العاميَّة، إذا نقلنا إليها الكتابة والفنون لتتحد الكتابة فيها، وإلاَّ انتشر في كتابتها الخلاف، وعمل كُلٌّ برأيهِ، وعلى حسبما يراهُ الصواب.

ويتسع الاختلاف كثيراً في رسم الكلمة الواحدة في بلدين مثلاً، بل في بلد واحد، بحسب اختلاف الأنظار فيما هو الصواب في الرسم، وهلم جراً إلى سائر ما يلزمنا استحداثهُ من الفنون، لنقل التآليف والكتابة إلى هذه اللغة العاميَّة، وبعد هذا كلهِ نرجع ونقول: إن الزمن الذي يكفينا لتعلم الفنون والقواعد لهذه اللغة العاميَّة، من نحوٍ ورسم، وغيرهما، يكفينا لتعلم لغتنا العربيَّة الصحيحة، ونربح وَحْدَةَ اللغة، وعدم حرماننا من الانتفاع بمؤلفات أسلافنا فوق ألف سنة، مع الاقتصار على الضروري من تلك القواعد اللغويَّة بقدر ما يلزم لعامة الناس لا خاصتهم، كما مرَّ.

فإن قال أحدٌ من أهل هذا المذهب: لا يلزم وضع قواعد لهذه اللغة العاميَّة لأنها معروفة عند العامة والخاصة باستعمالها وتداولها في التكلم فيما بين أهلها، قلنا: لو كان الأمر كذلك لما اضطرت كل أُمَّة من الأمم المتمدنة إلى وضع قواعد لضبط لغتهم الَّتي يتكلم بها كبيرهم وصغيرهم وفاضلهم ومفضولهم، مثل معرفة عامِّيِّنا للغتنا العاميَّة في الأقل، ومع ذلك احتاجوا لوضع القواعد فيها، حسماً لما ينشأُ عن عدم وجود القواعد من الخلل والمفاسد، وقد بيَّنَّا بعضهُ.

فإنْ قالوا: إن الطريق الذي سلكهُ المتقدمون في الإحاطة باللغة العربيَّة الفصيحة، وحصر موادها، وضبط قواعد النطق بها، نسلكهُ فيما نُريد من ذلك للغة العاميَّة، قلنا: كانت اللغة العربيَّة وصلت إلى حد الكمال، واستقرت على حالة رسخت في الأذهان، وثبتت في القرائح، واختلط أهلها من جميع أَطراف البلاد العربيَّة، حتى عرَف كل منهم مجرى التخاطب عند الآخرين، فكان البدويّ من أَهل اليمن يخاطب الحضريّ من أهل الشام والعراق، فلا يرتاب واحد منهما في لفظ مما ينطق بهِ الآخر، إلاَّ أن يكون لفظ طرأً من لغة أجنبيّة، فعرَّبهُ التوليد، وهو مما لا يلتفت إليهِ في لغة واسعة، ثم انقرضت الطبقة الَّتي كان يُعتد بلغتها، ويُستشهد بكلامها في إثبات مفردات اللغة وعلومها، واستقرت لغة القوم على ما كنت عليهِ إلى ذلك العهد، لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً؛ ولهذا سَهُلَ على واضعي قوانينها، وحُفَّاظ موادها أن يحيطوا بأَطرافها، ويأْتوا على كل جوانبها، وأَفادها الشرع الشريف تأْييداً وتأْبيداً، وأَمدّها أَمداً مديداً بخلاف حال العربيَّة المستعملة اليوم، فهي عرضة للتغيّر والتبدل، فحال العربيَّة في هذا الزمان مخالف لحالها في تلك الأزمان، كما أن حال أهلها الآن يختلف عن حال الأسلاف كمال الاختلاف.

الوجه الثاني أَنّ لغة العاميَّة لم تبلغ مبلغ لغة ثابتة في موادها، ولا في هيئآت تراكيبها حتى يعولَ عليها، وتوضعَ فيها العلوم والآداب، وإنما هي تحريف لغة أُخرى، ولهذا نرى التبديل والتغيير فيها كما ذكرنا لا ينقطع، وما ذكروه من المثال غير صحيح، ولن يصح، فإن اللغة التليانيَّة أو الإغريقيَّة الحديثة لغة استقرت، وثبتت، وصارت ملكة في الناطقين بها، لا ينحرفون عنها، كلهم متفقو الكلمة فيها، غير متوافرة عندهم أسباب

التغيّر كما عندنا، ولهذا بعثهم الباعث الطبيعيّ على اعتبارها مدار التخاطب في جميع المقاصد، وليست الحال عندنا كذلك، والفرق بيننا وبينهم ظاهر واضح لا نحتاج في بيانهِ إلى الإسهاب والإطناب في هذا الباب، وإنما نُلِمُّ بهِ بعض الإلمام، وندع ما وراء ذلك إلى تدبر من ينعم النظر في مجاري الأحوال الطبيعيَّة، وترتب المسببات على الأسباب فنقول:

كانت أُمة العرب قبل الإسلام منحصرةً في بلادها غير منتشرة في آفاق الأَرض، تُريد انتشار الجماهير المجمهرة والأُلوف المؤلفة للغلبة والاستيلاءِ والفتوح، لا انتشار الأَفراد أَو الجماعات القليلة للتجارة ونحوها من الأَسباب، فإِن الثاني لا ينشأُ[1] عنهُ أَثر ذوبال وأَهميَّة، بخلاف الأَول، ثم ظهر فيها الدين المُبين الإِسلاميُّ، وكثر وانتشر وقَوِيَ أَهلهُ، وسارت الدعوة إِليهِ على يد القائمين بهِ، الناصرين لهُ، الناشرين كلمتهُ إِلى من جاورهم ومن قاربهم ومن بَعْدَهُمْ وغيرهم، وتوالت على أَيديهم الفتوح حتى انتشروا في مشارق الأَرض ومغاربها مؤَيدين بالظفر، ظافرين بالنصر، وأَسلم معهم من أَهل البلاد الَّتي احتلوها من أسلم، فصار منهم، وانقاد من لم يُسْلم، فدخل في ذمتهم، وأَقام في كل صُقع ناس منهم للقيام بالأَمر وتقرير أَحكام الشرع وتعليم أُصول الدين وفروعهِ، وحفظ البلاد الَّتي دخلت في يدهم من الخروج عن كلمتهم، واختلطوا مع أَهل تلك البلاد على حكم الضرورة في المعاشرة والمحاورة وسائر ما تستتبعهُ المساكنة والمجاورة وأُمور المعاملة، والتصق أهل تلك البلاد بهم.

واختلطوا معهم، وتعلَّموا من لغتهم وعادتهم، وسرى من كل فريق منهم أشياء إلى الآخرِ بحكم المخالطة وتوالي الأَيام والأَعوام عليها، وانتقل ذلك

(1) في الأصل: «ينشاءُ» المحرر.

إلى الأَبناءِ بعد الآباءِ والأَحفاد بعد الأَجداد، إلى أن صار أَهل تلك البلاد الَّتي دخلوها واستولوا عليها مزيجاً مركَّباً صدق فيهِ ما قيل: «نَبَطٌ استعربوا»[1] و«عرب استنبطوا»، وأن يقال: «عجم استعربوا وعرب استعجموا»، وثبتت اللغة العربيَّة في البلاد الَّتي كانت تمكّنت فيها تلك اللغة فضل تمكّن، كمصر مع ما طرأ عليها من التحريف والتغيير، وازداد بطناً بعد بطن وقرناً بعد قرن، لاسيما بعد أن تقلّصت ظلال دولة العرب وخَلَفَهم على البلاد غيرهم من أُمم مختلفة، وأصناف من الناس متباينة تداولتها، واستولت عليها، كما دخلها أيضاً ولا يزال يدخلها أَخلاط من الأُمم للتوطن والإقامة كثير منهم، موافق لأَهل البلاد في أَصل اللغة، ومطلق التحريف، مخالف لهم في كيفيتهِ فيأْخذون مما عند الأَهلين، ويأْخذ الأَهلون مما عندهم، وهكذا صار وقوع التغيير بهذه الأَسباب طريقة غير متغيرة عَرَفَهَا من عَرَفَها، ولا ينكرها إلاَّ من جهل أمرها.

فما ذكروهُ من المثال غير منطبق على الحال كما قلنا لِأُمور كثيرة، منها أَنَّك ترى الإيتاليانيين مثلاً إذا دخل عندهم رجل من أُمة أُخرى للإقامة بينهم فلغتهُ غير لغتهم، فهو إذ خاطبهم أَو كاتبهم فإما أن يخاطبهم ويكاتبهم بلغتهِ، وهو نادر مع من يعرفها، أو بلغتهم المباينة للغتهِ، فلا يحصل من التداخل في الحالين بقدر ما عندنا، أما نحن فإذا دخل عندنا السوري أو المغربي مثلاً فأَصل لغتنا ولغتهِ واحد، ولكنهُ عندهُ تحريف، وعندنا تحريف آخر، فيقع التداخل والتبادل إلى غير ذلك مما قدمناهُ، كما يعلم بالتأمل وصحة النظر، فظهر أَنَّ المثال غير واقع موقعهُ، والقياس غير مصادف محلهُ، ولا يقاس

---

(1) النَّبَطُ بفتحتين والنَّبِيط قوم ينزلون بالبطائح، والعجم خلاف العرب.

المثل إلاّ على المثل، ولا يصح القياس إلاّ عند عدم الفارق و«الفرق مثل الصبح ظاهر».

ثم إنَّ من تتبع أَحوال اللغة العاميَّة المستعملة عندنا، وجد أنها كما تختلف باختلاف الأَزمنة، تختلف أيضاً باختلاف الأشخاص والأمكنة، فإنك تَراها ترتقي إلى القرب من موافقة اللغة الفصحى عند أَهل العلم، وعند البعض، ممن يخالطون العلماءَ، وفي البلاد الَّتي تنتشر فيها الجرائد، وكما أَنك ترى هذه اللغة عند هؤُلاءِ ترتقي إلى هذه الدرجة، تراها تَسْفُلُ وتنحط عن الفصيح عند من لا يعرفون سواها، ولا حركة للسان الجرائد فيما بينهم، وتتغير هيئات المواد وصيغها وهيئات تراكيبها، بحسب اختلاف الأشخاص ومراتبهم في المعرفة بلا تكلف لذلك، ولا قصد إليهِ، ولا تجد لفظاً لهُ هيئة ثابتة عند العامة، بحيث لو غُيِّرت تلك الهيئة لعُدَّ لحناً عندهم وغلطاً بل اللسان فيها مطلق عن كل قيد يذهب في الأَلفاظ حيث يشاءُ الناطق.

فلو أَردنا تقريرها ونقل العلوم إليها لَعَسُرَ علينا تعيين هيئة خاصة في المواد والتراكيب وكان حمل الناس على التزام تلك الهيئة أَشَدَّ عُسْراً - ولكونها تعد تحريفاً لا لغةً وليس لها هيئة ثابتة، ولا سلطة لنا على لسان العامة ما دام التحريف لهُ عادةً نقول: إننا مهما حرصنا على هذه العادة الَّتي سميناها لغة لا نأمن أن نراها بعد قرن واحد، قد صارت إلى ما لا نتصورهُ الآن، ويأتي أهل القرن الثاني ويقولون فيما وضعنا اليوم مثل ما نقول في اللغة الفصيحة، وهكذا يستمر التغيير والتبديل في اللغة العاميَّة، فإمّا أَن يتبعهُ التغيير والتبديل في الكتب والكتابة، كل زمان قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل تبعاً لتغير نطق اللسان كما يريدون أن يكون الآن حتى ما يفهم

جيل من الناس لسان من قبلهم من الأجيال، ولا يفهم لسانهم من يأتي بعدهم، ويصير كل جيل منهم أمة قائمة بنفسها، منفردة بذاتها وحدها عمن قَبْلَها ومن بعدها، وهذا الأمر فضلاً عمّا يتبعهُ من طول العمل فيهِ، وكثرتهِ وتكرره والعناءِ في تقريره، عصراً فعصراً لا يخفى ما فيهِ.

وإمّا أنْ لا يتبع ما يحدث من التغيير والتبديل في النطق تغييرٌ وتبديل في الكتب والكتابة، بل تبقى الكتب والكتابة ثابتة على ما يتقرر أول مرة - لو حصل - مهما تغيَّر التكلم وتبدَّل، وحينئذٍ نرجع إلى ما نحن فيهِ من أن الكتب تكون على لغة، والنطق على غيرها، ويضيع التعب سُدىً، ويصير العمل عقيماً عن الفائدة، بل يزيد على ذلك، أَنا نكون بهذا العمل، قد استحدثنا لغة زائدة، فيزيد الطين بلَّة، وتكون المؤلفات القديمة، المؤَلفة في أكثر من ألف سنة في آفاق العالم وأَقطار الدنيا، مبنيَّة على لغة مهجورة حينئذٍ، وهي العربيَّة الصحيحة، وتكون الكتب الَّتي تستحدث الآن على لغة غيرها، وهي العاميَّة المستعملة الآن التي ستهجر بعد، ويكون التكلم على لغة أُخرى، وهي الَّتي تحدث للنطق بعد جيل مثلاً، فإنْ تَبِعَ تغييرَ الكتب تغييرَ النطق والتكلم على الوجه الأَوّل، تكونُ لغةٌ رابعة، فإن تغير بعد ذلك أيضاً تستجد لغة خامسة، وهكذا تتسلسل اللغات إلى ما لا يتناهى لو حصل ذلك (لا حصل).

فإن قيل: إنْ اللغة العاميَّة الحالية، إنما كانت عرضةً للتغير والتبدّل لعدم تقييدها بالكتابة، وتركها هملاً، تتبع كل ريح، بخلاف ما لو قيدت بالكتابة ودوّنت فيها الكتب، وجرى عليها العلم والتعلم، واستمر الحال جارياً على تلك الحال، فإنها بذلك ترسخ وتثبت، ولا يعتريها التغير.

قلنا: هيهات! فإن اللغة الصحيحة أيضاً كانت مقيدة بالكتابة، مدوّنة فيها

الكتب، جارياً عليها التعلم والتعليم، مؤيدةً فوق ذلك، بأنها لسان الشرع والديانة، ثم انقلبت إلى لغةٍ أخرى على ما يقولون، فلم لا يجوز على غيرها وهو دونها ما جاز عليها وهي بهذه المثابة.

فإن قالوا: يلزم بعد تقرير هذه اللغة العاميَّة وتقييدها بما ذكر، أن نمنع العوام بالحكم والإلزام عن التغيير والتبديل في الكلام، ونلزمهم الاستمرار على الحالة الَّتي تتقرَّر الآن وعدم العدول عنها حتى ترسخ وتثبت، وتصير لغةً مستقرَّة وعادةً مستمرة.

قلنا: إنّ الوصول إلى تلك الغاية لو أمكن الحصول عليهِ، إنَّما يكون على ذلك بصنع المتصنّع، لا بحكم الطبيعة، ولا شك أنَّ حصول الشيء بالصنع لا يكون كحصولهِ بالطبع، ثم هذا المنعُ والإلزام إنما يمكن لو أمكن، ويتم لو تم في الأجيال الطويلة، وبالنسبة للأهالي خاصة، وفي المجامع والمواقع الرسميَّة خاصة، وفي المكاتبات والمخاطبات الَتي تقصد بها الحكومة خاصة، وإلاَّ فكيف، ومن أين يتأتَّى التحكم على الناس بالمنع والإلزام في شيءٍ من الكلام في المحاورة والمحادثة بين أفرادهم، ومع أهلهم وأولادهم وعائلاتهم وقرابتهم وصحابتهم وسائر ذوي تعلقاتهم، وفي خلَواتهم وجلواتهم ومزارعهم ومصانعهم ومحال حرفهم وصنائعهم، حتى تصير القاعدة عامة، والفائدة تامة. هذا ضرب من المحال، وأمر إنما يتصوّر في الوهم والخيال، لا يخرج من القوة إلى الفعل، ومن القول إلى العمل.

والغرض الذي يقصدونهُ من تسهيل العلوم لا يزال مفقوداً في جميع الأَحوال، فإن لسان العامي ليس تحت سلطة الواضع، ولا سبيل لتقويمهِ إلاَّ التربية والتثقيفُ، فإن كان الواضع نفسهُ ساعياً في ترويج التحريف واللسان، مندفع إليهِ، فلا ممسك لهُ عنهُ، ولا تكون لغة النطق هي لغة

الكتابة، ويعود الإِشكال بعينهِ، فلا بد لتسهيل التحصيل، وتعميم التعليم، من صرف النظر إلى شيءٍ آخر.

الوجه الثالث: أَنَّ اللغة العامية جملة مواد اختزِلت من اللغة الفصيحة، وأُضيف إليها بعض ألفاظ أجنبيّة، من لغات الأَقوام الَّذين دخلوا في اللغة، ولم يستطيعوا اللَّحاق بأهلها، وإنما حُفظ منها ما اشتدَّت إليهِ حاجة المتكلمين بها، للتفاهم في الأغراض المعاشيَّة الظاهرة، أما العلوم والآداب فلم يكن لهذه اللغة حظ منها، فلو أَردنا نقل العلوم إليها، لكنا في حاجة شديدة إلى استعارة المواد من اللغة الفصيحة، وصوغها في تراكيب تناسبها حتى تتم الفائدة، فإن لم نفعل احتجنا إلى وضع لغة جديدة للعلوم والآداب، نضمها إلى اللغة العامية الموجودة. ونسمي المجموع لغة عربيَّة عامية تحاكي لُغتي الإيطاليين والإغريقيين الحديثتين، وإنا نجد بعض الكتب الَّتي ترجمت أو أُلفت في سورية وفي مصر، بعبارة تقرب من العامية لعجز المترجمين لها عن استعمال الفصيح في المفردات والتراكيب، قد صار بمنزلة الموجود في لغة أجنبيَّة، ولا يجد المطالع سبيلاً إلى فهمهِ، إلاَّ بالاستفهام من مترجمهِ أو مؤَلفهِ؛ فاللغة العاميَّة لغةٌ قاصرة، ولا سَعة فيها للعلوم ولا للشرائع ولا للآداب ولا للسياسة، فكيف يمكن الاستغناءُ بها عن اللغة الفصيحة.

ولو أَردنا الإطالة في إبطال هذا الرأْي وإيضاح الفساد في مقدِّماتهِ لأتينا بتفصيل يحويهِ سفرٌ طويل، وغرضنا الآن عجالة تثبت رأْينا، فإن دعا داعٍ للتفصيل واستيفاءِ الأدلة والإكثار من الأمثلة رجونا أن نفي بالغرض من ذلك.

والذي نراهُ أن اللغة العامية خصوصاً في مصر وسورية وجزيرة العرب والعراق وتونس وطرابلس الغرب، لم تبعد عن الفصيح بما تصير بهِ لغةً

مستقلة، فإن المواد هي المواد الأصليّة بعينها إلاّ ما زاد عليها، وهو قليل لا يلتفت إليهِ، في تكوين لغة وهيئات التراكيب، ترجع إلى الهيئات المعروفة في تركيب الكلام العربي، غير أنهُ قد عرض على المفردات تحريف وتغيير بنقص، أو زيادة لم يخف بها أصل اللفظ، بحيث لو جُرِّد اللفظ من الزيادة، أو كمل من النقص، أو صُحِحَ من التحريف لم يستبهم معناهُ على العامي، فإن العامي الذي يضع «اللي» مكان «الذي والّتي»، فيقول: «اللي يفعل الخير بينول ثوابهُ» لو قيل لهُ بدل هذه العبارة: «الذي يفعل الخير ينال ثوابهُ» لفهمهُ كما يفهم لفظهُ العامي.

ولا يزال الكثير من العامة يضع الذي مكان إللي، فيستعمل عاميتهُ مع الفصيح، كأنهُ مخير فيهما كاللفظين المترادفين، ولفظ هِنا بكسر الهاءِ لا تختلف عن هُنا بضمها إلاّ بالحركة، ولا ينقلب معناها عند العامي لو نطقت فصيحة، وهذا هو الشأن في جميع الألفاظ المفردة وعلى نحوهِ يكون الخطأ في التراكيب، فإن الذي يفهم «الراجل جه»، يفهم «جاءَ الرجل» والذي يفهم «ما عليهش» يفهم «ما عليهِ شيءٌ»، والذي يفهم «إيه ده» أو «شوهاد» من مصري أو سوري يفهم «ما هذا»، «وأي شيءٍ هذا»، وما شابه ذلك من الاستعمال الفصيح، وقد تقدّم شيءٌ من هذا في مقارنة اللغات العاميَّة، فالتحريف وفساد التركيب لم يذهب بالعامة عن فهم الصحيح بالمرة، بل هم يفهمون منهُ ما اتفق مع ألفاظهم في المادة، وإنما يَعْمَى عليهم فهم الغريب.

وأما قول أرباب ذلك المذهب: «لو فرض أن أتى إلى جهة يتكلم أهلها باللغة العامية المستعملة الآن من لا يعرف إلاّ اللغة الفصيحة لم يكن أن يفهموا منهُ أو يفهم منهم إلى آخره» فمما يخالف العيان والمشاهدة، فطال ما شوهد

كثير ممن يأتون إلى مصر يتكلمون بالعربيّة الصحيحة، مثل بعض الجراكسة الّذين لم يتعلموا من العربيّة إلاّ الفصحى، وليس لهم كتابة إلاّ بها، وبعض المغاربة من أهل فلّاتة وغيرهم، فيتكلمون باللغة العربيّة الصحيحة، فيقضون مآربهم، ومن أعضاءِ هذا المؤتمر الحبر العلامة الشيخ مُحمَّد محمود الشنقيطي، سمعناهُ يتكلم في مصر باللغة الصحيحة، فَيُفهِم غيرهُ وَيَفْهَم من غيرهِ، وجاءَ قبلهُ من أَهل سُقُّطو الشيخ عثمان بن جم، ولم يكن يتكلم إلاّ بها، وكان يُفهمُ ويفهم، حتى اعتاد بعض العامة على التكلم معهُ باللغة الصحيحة من كثرة المخالطة، وأمثال هذا كثير.

وكان العلماءُ لا يتكلمون إلاّ باللغة الفصيحة، ولم يكن بينهم وبين العامة ترجمان، وأَمّا ما يحكى عن بعض العلماءِ من أنهُ كان يسكن في بعض الأماكن المعروفة في مصر بالوكائل، فقال للبواب ذات ليلة يأمرهُ بفتح الباب: «فتحاً بوابُ: مصدرٌ ناب عن فعلهِ» فلم يفهم البواب منهُ، وظنهُ يشتمهُ، وشكاهُ في صبيحة الليلة إلى شيخ الجامع، زمن العلامة الشيخ القويسني، فما دُهي إلاّ من التشدق في الكلام، ولو اقتصرَ على أن قال: «افتح» لفهمهُ البواب بالسهولة، ووافق العامي ولفظ القرآن، وفهمهُ كل من سمعهُ من العامة بلا أدنى صعوبة.

وكيف لا يكون ما نقول: وجميعهم يحفظون شيئاً من القرآن الكريم، يتلونُه في صلواتهم، والغالب منهم يضم إلى ذلك شيئاً من الأدعية والأوراد، وشيئاً من الحديث يستشهد بهِ، ثم هم في كل يوم جمعة يسمعون الخطبة باللغة الفصيحة، وما من سامع منهم، إلاّ تظهر عليهِ علامة الفهم بما يظهر على وجههِ، وفي حركات بدنهِ، ثم هم يسمعون الوعّاظ في المساجد، والكثير منهم يحضرون في دروس العلم، فهم وإن

لم يُحْسِنوا النطق في كلامهم جملةً فهم يفهمون، اللَّهُمّ إلاَّ ما كان من الغريب، أو معقَّد التركيب.

وفساد النطق ليس من الملكات الَّتي يلحق محوها بالمستحيلات كما يزعمون، بل إزالتهُ أيسر من جعل اللغة العاميَّة لغة مستقلة، يُتفاهم بها في العلوم والآداب، وتوضع لها القواعد، وتؤَسس لها القوانين، وما على طالب ذلك إلاَّ تعميم التعليم، وإلزام المتعلم بتقويم لسانهِ عند النطق، وتصحيح عبارتهِ عند الكتابة من مبدإِ التعليم إلى نهايتهِ، فإن المواد لا اختلاف فيها إلاَّ بنوع من التحريف كما قلنا، وهيئات التأْليف لا فساد فيها إلاَّ بنوع من سوءِ الترتيب، فإصلاح ذلك لا يزيد على إصلاح لغة الطفل، إذ ينطق بها، وهو في سن السنتين أو الثلاثة محرفة سيئة التأْليف، ثم لا يزال يصلحها لها المصلحون حتى يكونَ كأحدهم وهو في الخامسة أو السادسة من عمرهِ، وأما ما يرونَهُ من صعوبة المسالك إلى تحصيل اللغة العربيّة الصحيحة، وتعسر نَيلها في الأزمان الطويلة، فذلك لا نراهُ إلاَّ من اعوجاج طرق التعليم، وفساد مذاهب بعض المعلمين فيهِ، لا من بُعْدِ اللغة نفسها عن يد المتناول.

فالذي نراهُ لتسهيل العلوم على العامة، أن تصلح لغتهم بالتقويم على النحو الذي قلناهُ، ثم تكتب الكتب في الآداب العامة والفنون الابتدائيَّة، الَّتي يجب تعميمها ونشرها بين أفراد الأمة كافة باللغة الفصيحة، على شريطة أن لا يخرج الكاتب عن المفردات المستعملة في لغة العامة، فيجمع في تلك الكتب بين موافقة الاستعمال والصحة، فإذا أراد أن يقول: «مغلق» مثلاً فلا يقول: «مرتَجّ» لأنها بعيدة عن الاستعمال العامي، وقد مرَّ شيءٌ من ذلك، ولا يقول أيضاً: «مقفول» من أقفل، بل يقول منهُ: مُقفلٌ.

ولا مغلوق أيضاً فإنها رديئة متروكة، والفصيح «مُغْلَق» فإذا كان المعنى لا لفظ لهُ فيما يقول العامة فيأتي بلفظ عربي، ثم يفسرهُ بما يوضح معناهُ إن لم يكن معروفاً.

وما دخل في اللغة العاميَّة من الألفاظ الأجنبيَّة يمكن طرحهُ منها، واستبدالهُ بأفضل منهُ من اللغة العربيَّة، والأحسنُ والأقربُ للاعتماد والاعتداد، أن يكون هذا بمعرفة جمعيَّة علميَّة تتألَّف من مشاهير الأفاضل، كما ذكره سيدي الأستاذ الوالد في آخر كتابهِ الذي ألفهُ في المقارنة بين الوارد في نصوص الشرع والوارد في الهيئة، فإنهُ إذا كان اختيارُ اللفظ بمعرفة من يُوثق بهم، ويعتد بحسن اختيارهم قوبل بالقبول، وتناولهُ الاستعمال، ومتى استعمل عند بعض القوم سار في البقيَّة، وتمكن في لغةِ كافة كما نراهُ في لفظ اللجنة والمؤتمر مثلاً، فإنهما قبل عشرين سنة لم يكونا معروفين في معناهما إلاَّ عند البعض من أهل العلم خاصة، وقد صارا من بعد استعمال صاحب الجوائب لهما واتباع أصحاب الجرائد لهُ على ذلك، من الألفاظ الَّتي لا يخفى مفهومها.

هذا في المفردات، أما هيئات التراكيب فتكون على أقرب ما يمكن من تآليف العامة على شرط الصحة والفصاحة، ثم بعد ذلك ينظر في اللغة الفصيحة، ويجلب منها ما يحتاج إليهِ في التعبير عن المعاني، الَّتي لا لفظ لها على ألسنة العامة، في أنواع الفنون والآداب، لمن يبتغي الارتقاءَ فيها إلى أقصى غاياتها، فتكون سَعَة لغة الشخص، على قدر سعة علومهِ ومعارفهِ، أمَّا البُلغاءُ والفُصحاءُ، وأَهل الطبقة العليا من الكلام، فلهم في خطاب بعضهم بعضاً ما لا يكون لغيرهم، ولا يجب على أحدهم أن يجتنب من الألفاظ وصور التراكيب، إلاَّ ما يُنكر عند علماءِ المعاني والبيان، وأَهل الذوق من حفظة اللسان، وأَما في مخاطبة العامي فيجمل

بهم أن ينزلوا إلى الطبقة الَّتي يَفهمونهُ بها فإنهم يمكنهم أن ينزلوا إليهِ، وهو لا يمكنهُ أن يصعد إليهم، وبهذا تمتاز طبقة العامة عن طبقة الفصحاءِ البلغاءِ، مع اتحاذ اللغة وسُهُولة الفهم على أَهل كل طبقة فيما يلائم حالها.

فمن كانت لهُ همة تسوقهُ إلى إصلاح في علوم العرب ولغتهم، رجونا لهُ النجاح إذا أَنعم النظر في الطريقة الَّتي ذكرناها وتكميلها، وتعديل طريقة التعليم وتسهيلها، حتى تكون أَقرب الطرق للتوصل إلى المقصود من نشر العلوم، وتعميمها مع بقاءِ الوَحْدَةِ في اللسان، وانتفاع المصري بكتاب السوري، والسوري بكتاب المصري، وكليهما بكتاب المغربي، وهلمَّ جَرًّا، واستفادة كل عربي ممَّا يكتب الآخر في أَي قطر؛ لأَن المواد على هذا لا تختلف عمّا هو موجود في كتب اللغة المحفوظة عند جميع أَهل اللسان، فما استَبْهَم مِنِ الأَلفاظ سَهُلَ مراجعة المعجمات لفهم معناه.

ومن طرق التعديل والتسهيل والإصلاح الَّتي أشرنا إليها، الاقتصار للمتعلم على اللازم الضروري، دون سواهُ، في غير الفن الذي هو بصدد أَن يتخذهُ صناعة لهُ، وحرفة خاصة يستعين بها على معيشتهِ وانتفاعهِ من وطنهِ، وانتفاع وطنهِ منهُ، مع كمال الاعتناءِ بمزيد تمكينهِ في ذلك اللازم، بزيادة التمرين على الاستعمال، وتطبيق العلم على العمل، ثم مساعدة التعقل بالنظر والمشاهدة فيما يستدعيهِ ذلك مثل الطبيعة والكيمياءِ، ولْيُقَسْ ما لم يُقَلْ، فقليل يتقنهُ المتعلّم، ويتمكن منهُ حتى يصير لهُ ملكة راسخة خير جدًّا من كثير يحفظهُ عن ظهر قلبهِ، من غير أن يعرف لهُ معنى، ويعيدهُ على وجه ما سمعهُ كما يقول البَبَّغا.

واللازم الضروري من علم العربيّة لكل ذي حرفة سواهُ، ليس بكثير يعطل عن غيرهِ، لغاية أَن يختار من أَجل ذلك ترك العربيّة الصحيحة بالكليّة، بل هو

وبما لا يزيد عن قواعد اللغة العامية، لو أُريد أن يُجعل لها علومٌ وقواعدُ كما يراهُ من يذهب ذلك المذهب، إذا أُتِيَ الأمر من بابهِ، وسُهِّل سبيلهُ، وأُزيل وعرُهُ.

وما أوهم العسر وهَوَّل الأمر إلاَّ ما قد يكون من ركوب التعاسيف في التعليم، وعدم الاعتناءِ برعاية ما تتأكد رعايتهُ من معاملة كل صنف من المتعلمين بما يليق بهِ، ويناسبهُ، بالنظر إلى ما هو معدّ لهُ، فإذا اعتُني بذلك سَهُل الأمر، ولم يبق بنا أدنى حاجة لترك لغتنا الجامعة لأشتاتنا الموروثة عن أسلافنا.

ثم في هذه الطريقة الَّتي اخترناها ما يحفظ على العرب آدابهم وعلومهم الَّتي أُودِعَتْها كتب الأقدمين، فإن العامي متى تَقَوَّم لسانهُ، كما يُقوَّم لسان الصبي على ما قلنا، وكتبت لهُ الكتب القيِّمة بالعبارة السهلة، واستنار عقلهُ بما أُودعتهُ من الآداب والأفكار الصحيحة، رأيتهُ على مَقْرَبةٍ من اللغة الفصيحة، لا يبعد عنهُ تناوُلُ ما فيها، فلا يُحرم من تاريخ أُمتهِ، ولا من أُصول شريعتهِ، ولا من الآداب المودوعة في السنَّة النبويَّة، ولا من الفوائد الجمّة المطويَّةِ في الأخبار العربيَّة، كل هذا يكون قريباً من العرب جميعاً إذا سُلك بهم تلك الطريق القويمة، ولا يحتاجون في علم ذلك إلى العناءِ الشديد، في نقل جميع علومهم المودعة في كتب لغتهم، إلى تلك اللغة الأُخرى الَّتي ظنها من ظن لغة جديدة، لا سبيل لانتشار العلم إلاَّ باعتبارها كذلك.

وآخر الكلام أنَّ اللغة العربيَّة الفصيحة، هي سبيل تقدم العرب في جميع أحوالهم، فإن انعبث الناصر لها إلى العمل من وجههِ، أشرقت على العرب أنوار العرفان من مطالع لغتهم الشريفة، وأضاءَ عليهم من سَنَاها ما أضاءَ على

أُمم العالم أجمعين عدة قرون، لم يَخْفَ علم حالها على الناظر فيها والله أَعلم». اهـ.

وقدم حضرة رفيقنا الفاضل محمود إفندي عمر كتابةُ الذي أَلفهُ في الأَمثال العاميَّة وسمَّاهُ «أَمثال المتكلمين من عوامّ المصريين»، وقد ضمَّنهُ كثيراً من أَمثال العامة مشروحة بما يناسبها من أَمثال العرب والحكم والأَشعار، فنال من حضرات الأَعضاء الرضاءَ والقبول كما هو المأْمول، وصفقوا لهُ استحساناً.

وبعد الفراغ من أعمال هذا اليوم بالمؤتمر، وتعاطي طعام الغداءِ انصرفنا نتفرج في أنحاءِ المدينة، مآرين بشوارعها، مستكشفين لمحاسنها وبدائعها إلى قرب الساعة السادسة بعد الظهر، فعدنا إلى الفندق، ولبس سيدي الوالد ملابسهُ الرسميَّة، وبقيَ ينتظر في صالوننا حضور عربات السراي، للتوجه بها إلى الضيافة الَّتي أَعدَّها سموّ الملك، في قصرهِ الملوكي لرؤَساءِ الوفود في هذا المساءِ، وقد حضر إلى الصالون حضرة الفاضل صاحب العطوفة مدحت إفندي، متحلياً هو أيضاً بملابسهِ الرسميَّة التشريفيَّة، وجلس معنا في الانتظار حتى بقي من السَّاعة السادسة بعد الظهر دقائقُ، فحضر حضرة الكونت ده لاندبرج، وأَخذهما في العربة الملوكيَّة إلى سراي الملك، والناس مصطفون من باب الفندق إلى السراي المذكورة.

* * *

(وَلِيمة المَلِكِ الرسميَّة)

لما وصل سيدي الوالد وصاحب العطوفة مدحت إفندي إلى القصر استقبلهما رجال التشريفات، وصعدوا بهما إلى قاعة الاستقبال، وهناك وجدا من سبقهما من المدعوّين واقفين يتحدثون فسلّما على من عَرَفاهُ، وأَخذا يتحدثان مع من أَراداهُ، والمدعوون يتواردون حتى بقي من الساعة السادسة نحو خمس دقائق، فأقبل الملك لابساً ملابسهُ الرسميَّة يتبعهُ وزراؤهُ ورجال معيتهِ وياورانهُ، وصافح ضيوفهُ، وأَخذ يلاطف كلّاً بحسب ما يراهُ إلى أن أَتى رئيس الدائرة الخاصة، وعرض على الملك أن مائدة الطعام قد هُيئت.

فدعا[1] الملك الحضّار، ودخل معهم قاعة الطعام، وإِذا هي من أَبهج المحلات، تامَّة الترتيب والنظام، وجميع أَواني المائدة من الفضة الخالصة، فجلس المدعوون كل في الموضع المعدّ لهُ، المرسوم عليهِ اسمهُ، وكان عَرَّف كلاً منهم بذلك قبل الدخول رئيس التشريفات، فكان عن يمين الملك رئيس وفد العجم حضرة محسن خان، وعن يمين هذا البارون ده كريمر وافد النمسا، وعن يمينهِ سيدي الوالد، وعن يمين سيدي الوالد حضرة الكونت ده. لاندبرج، وكان عن يسار الملك وأَمامهُ باقي رؤُساءِ الوفود والوزراءْ ورئيسهم ورجال معيتهِ، وبعض المعتبرين من علماءِ السويد، مثل المسيو دِيرِنْهِيمْ رئيس المؤتمر عن السويد، وقد بلغ عدد

(1) في الأصل: «دعى» المحرر.

جميع الحاضرين في هذه الوليمة نحو الأربعين.

فأكلوا والملك يلاطفهم بأحسن الكلام حتى شرب سموّهُ على صحة الجناب الخديوي الأفخم، فأجابهُ السيد الوالد متشكراً مثنياً على سموّهِ الثناءَ الجميل، وشرب سموّهُ على صحة من أَراد من الملوك الفخام، واستمرّ تعاطي الطعام إلى انتهاءِ أَصنافهِ، وكانت متقنة لذيذة، وقد بلغت بين لحوم وطيور، كما يتضح من القائمة المعمولة بها، اثني عشر صنفاً سوى أصناف الحلواءِ والفواكهِ والمشروبات.

وبعد الفراغ من تعاطي الطعام انتقل الملك والمدعوون إلى كتبخانة السراي، وشربوا القهوة بها، والملك مستمر على المؤانسة والملاطفة، ثم انصرفوا بملابسهم الرسميّة إلى تياتر الأُوبرا الملوكي، حيث دعاهم الملك وباقي أعضاءِ المؤتمراليهِ.

* * *

(دعوة أعضاءِ المؤتمر إلى الأُوپرا الملوكي)

لم تتم الساعة الثامنة من المساءِ حتى حضر الملك ومعهُ ضيوفهُ ووزراؤهُ ورجال معيتهِ إلى التياتر، وكانت تواردت إليهِ باقي أَعضاءِ المؤتمر؛ إذ كانوا دعوا من قِبَلِ الملك للحضور فيهِ كما مرَّ.

فجلس الملك في غرفتهِ المخصوصة بهِ مقابل جهة اللعب «السين»، ومعهُ رئيس وفد العجم، وجلس في الغرفة الَّتي على يمينهِ صاحب العطوفة مدحت إفندي مع الكونتيس ده لاندبرج وسفير إيطاليا بأستكهلم، وجلس السيد الوالد مع وافد فرنسا في الغرفة المجاورة لها، وجلس غيرهم في باقي الغرف، وفي المواضع الَّتي أَجلسهم فيها رجال التشريفات، والجميع بالملابس الرسميَّة من وزراءَ وأُمراءَ وأعضاءٍ، وكان المنظر في غاية البهجة واللطف، والمكان على غاية ما يرام من الانتظام.

وبتمام الساعة الثامنة ارتفع ستر التياتر عن لعبة «عائدة»، وهي لعبة وضعها مؤَلفها برسم مصر منذ سنوات، وأَوَّل لعبٍ بها كان بمصر، وهي تشخص وقائع مصريَّة في زمن الفراعنة، ولا خفاءَ في مناسبة ذلك بالنسبة للأعضاءِ المستشرقين، وقد أحسن في التمثيل المشخصون والمشخصات، وأَجادوا كل الإجادة في الرواية والإلقاء، وأطربت الموسيقا الحاضرين بألطف النغمات.

وكانت تُقدم إلى الأعضاءِ بين فصول اللعب المرطبات والمشروبات، واستمر الأُنس والابتهاج إلى فراغ التشخيص، فصفق الحاضرون للملك

تشكراً، وأتبعوا التصفيق بهورّاه أربع مرات، فأجابهم مشيراً بيدهِ متبسماً، وانصرف وانصرف كل إلى مكانهِ، وقد مضى من الليل نصفهُ.

هذا وفي پروجرام المؤتمر ويومياتهِ أنّ جميع أعضاءِ فصولهِ سيجتمعون في جلسة عموميَّة تحت رياسة سمو الملك في اليوم التالي، وهو يوم الجمعة 6 سپتمبر سنة 1889 في الساعة 11 قبل الظهر، وأنّ الأَعضاءَ مدعورن في الساعة 4 بعد الظهر إلى مركز إدارة التليفون للتفرج، وسماع قطعة أُوپرا بواسطة التليفون، تُلعب برسمهم في التياتر الملوكي، فيسمعونها بهذه الواسطة، كأَنّهم في محل التياتر، وأنهم بعد ذلك مدعوون من طرف بلديَّة مدينة أستكهلم إلى متنزه هَسْلْباكِنْ في الساعة 7 بعد الظهر بالملابس الرسميَّة، فيجدون الوابورات البحريَّة في انتظارهم عند رصيف فندق جراند أوتيل، وأن العَشاءَ سيكون الساعة 9 والعودة من الساعة 10 إلى نصف الليل حسب ما يرغب من يتصرف.

* * *

(اجتماع فصول المؤتمر بصفة جلسة عمومية)

(تحت رياسة الملك)

اجتمعت أعضاءُ الفصول تحت رياسة الملك بقاعة الافتتاح في الميعاد المحدد، لابسين ملابسهم العاديَّة، وقد أُحضر جسم من أَجسام أَموات المصريين القدماءِ «موميا» المحفوظة بمتحف أستكهلم، فتكلم بمناسبة ذلك نحو خمسة من الخطباءِ المشتغلين بالآثار واللغات المصريَّة، ومنهم بروكش باشا الألماني الشهير الذي كان رئيس مدرسة اللغات القديمة بمصر، وتلامذتهُ بها إلى الآن، فخطب أحدهم في كيفيَّة توصل قدماءِ المصريين إلى حفظ أجسام أمواتهم، وجعلها لا تَبلى على ممر الدهور، وامتدح مهارتهم في ذلك، حتى إِن علماءَ هذا الوقت لم يصلوا إلى ما وصلوا إليهِ مع تقدم العلوم والمعارف الآن تقدماً زائداً، مستدلاً بذلك على سعة اطلاع المصريين القدماءِ، وزيادة معارفهم إلى حدٍّ لم يصل إليهِ غيرهم إلى هذا الزمان، وخطب آخر في من يكون هذا الجسم، وانجر كلامهُ إلى تطريق الاحتمالات، ثمَّ تلاهُ آخر متكلماً في شأن من سبق من الفراعنة وأَحوالهم وعلوّ أعمالهم، ثم غيرهم متكلماً في غير ما ذكر.

وتكلم سوى هؤلاءِ من العلماءِ والبلغاءِ بما رأى أن يتكلم فيه بلغتهِ الَّتي اعتادها، وأَنشد أَحدهم وهو الراهب الهندي قصيدة بلغة البراهمة «سانسكريت» في مدح الملك والمؤتمر، طرِب لتلاوتها الجميع لما أَبداهُ حال التلاوة من حسن النغمات.

وكان الملك يُثني على كل خطيب بعد الفراغ من خطبتهِ تشجيعاً لهُ وتعظيماً للعلم وذويهِ، حتى انتهت الساعة الثانية بعد الظهر، وانفضت الجلسة، وانصرف الملك، وانصرفنا، بعد أن صافح من شاءَ من الوفود، وكنا ممن نال هذا الحظ، وقد سأل بواسطتي سيدي الوالد من باب الاعتناءِ بهِ، عما إذا كان يريد التوجه إلى وليمة بلديّة أستكهلم، في هذا المساءِ مختتماً ذلك بقولهِ فيها: «فنطزيه كثير»، مثل ما قال لهُ في وليمة قصر دروتننجهلم كما تقدّم.

* * *

(التليفون في أستكهلم)

إن مدينة أستكهلم لمن أعظم المدن التفاتاً لأمر التليفون والاعتناءِ بشأْنِهِ وكثرة استعمالهِ، فلما دعتنا شركة التليفون بهذه المدينة لبَّينا الدعوة بغاية القبول، وتوجهنا إلى محلها، وهي طبقة عليا في بناءٍ متسع وسط المدينة، وبهذه الطبقة نساءٌ كثيرة، يبلغ عددهنَّ نحو الخمسين، تشتغل كل واحدة منهنَّ بتوصيل قسم من المشتركين إلى الجهات الَّتي يُريد التوصل إليها، واشتغال كل منهنَّ بذلك مستمر لا ينقطع؛ لكثرة الطلب، فيمسكنَ في آذانهنَّ مسمعاً يسمعنَ بهِ الطلبَ بعد الاستفهام عنهُ من الطالب، فيوصلنهُ في طرفة عين إلى الجهة الَّتي أَرادها ذلك الطالب. وإن أعمال هذه النسوة لمن أَصعب الأَعمال، وأدقها وأوجبها إلى الحركة والالتفات، وهنَّ وإن كنَّ يتبادلنَ هذه الأعمال مع أمثالهنَّ في كل بضعة ساعات، لكن عملهنَّ هذا يستلزم تأْثُراً في السمع واللمس، فتتأَثر الأعصاب من ذلك حتى إن بعضهنَّ يُجَنُّ كما أخبرنا بذلك مدير هذه الشركة.

فبعد أن تفرجنا على هذه الأعمال والمواصلات وكيفيتها دعانا المدير لتعاطي المرطبات، ونقلنا بعد ذلك إلى قاعة متسعة أَعدَّها لسماع القطعة التياتريَّة الَّتي تُعطى في التياتر برسم هذا الاحتفال، وقد أَعدَّ فيها مسامع كثيرة فأَخذ كل مسمعاً، وكانت أَتت ساعة البدءِ، فسمعنا الموسيقا، كأنها في المحل الذي نحن فيهِ، وسمعنا غناءَ من يغنون ونغماتهم، وحسن أَلحانهم بطريقة واضحة تدل على تقدم أَعمال التليفون في هذه البلاد.

وإذ قرب وقت الوليمة الَّتي أعدتها بلديَّة المدينة أسرعنا في العودة إلى الفندق لنلبس الملابس المعتادة في الاحتفالات حسب ما ورد في تذكرة دعوة هذا المساءِ.

(وليمة مدينة أستكهلم لأعضاءِ المؤتمر)

(في متنزه هَسَلْباكَنْ)

أعدّت المدينة هذه الوليمة احتفالاً بأعضاءِ المؤتمر في متنزه هَسَلْباكَنْ، وهو على جزيرة صغيرة تسمى «دِيُوزجيرْدِنْ» بشرقي العاصمة، تبعد عنها قليلاً، جعلوها متنزهاً واحداً في غاية الانتظام، منتشراً في أنحائِهِ محال الأَكل والقهوة والبيرة والألعاب والتياترات، فاستجمع أَسباب الأُنس والصفاءِ، وتكاملت فيهِ دواعي المسرة والهناءة حتى رآهُ بعضهم في نظرهِ أَجمل من «غابة بولونيا» بباريس، وألطف من «پرَاتِرْ» ويانه، والحق الذي لا يختلف فيهِ اثنان أنَّ هذا المتنزه من أَحسن متنزهات الدنيا وأجملها وأكملها. وفي وسط هذا المتنزه العام متنزه خاص يعرف بمتنزه هَسَلْباكَنْ بهِ قصر مشيّد البناءِ في غاية الزخرفة والزينة، لهُ طبقتان يشتمل كل منهما على قاعات متّسعة، يرجّحهُ أغنياءُ هذه الديار وأمراؤهم على غيرهِ في التنزه، وتعاطي الطعام والشراب. وهذا القصر هو الذي أَعدت البلديّة فيهِ الوليمة لأعضاءِ المؤتمر وأنارتهُ هو ومتنزههُ بأنوار الكهرباءِ والغاز حتى صار في غاية البهاءِ، وجمعت فيهِ الموسيقات تترنم بأحسن النغمات.

وكان الأَهلون مصطفين في المتنزه حوالي القصر، حيث الموائد معدّة لهم، يأكلون ويشربون، ويتمتعون بمناظر الزينة، مبتهجين بالواردين من أعضاءِ المؤتمر، مؤدّين لهم شعائر الترحيب. وأعضاءُ البلديّة يقابلون الوفود بكل تجلة واحترام، ويكثرون لهم من الملاطفة والإكرام، ويقدمون

لهم المرطبات والدخان وأنواع الشراب، ويتعرفون بهم، ويطارحونهم الحديث في عوائد البلاد ومقارنتها ببعضها، والموسيقا تصدح بالأنغام، إلى أن شرّف سموّ ولي العهد المقام. فأخذ يُقبل على الناس يُحَيِّيهم ويحادثهم، ويخاطب كلّاً منهم بما يناسبهُ، ولا غرابة في أَن يشابه الابن الوالد :

« ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم »

واستمرّ الحال بين تأهيل وترحيب، ومجاذبة حديث، مع حضرات العلماءِ الفضلاءِ، حتى آن الوقت المحدد لتعاطي الطعام، فدخل ولي العهد في المحل المعدّ لهُ ودخل معهُ الحاضرون، وأكلوا على طريقة البلاد، وشرب من أَراد. وقد رأَينا معاشر الوفد المصري زيادة اعتناءٍ بنا، حتى إِنَّهم رسموا على قوائم الأَكل المبينة بها أصنافه، والفصولُ الموسيقيَّة الَّتي تصدح في أثنائهِ، تمثالَ الهرم، وبجانبهِ أَبو الهول، وبقربهما أَشجار نخيل كثيرة وقِباب أولياء. وقد طال وقت الأكل بما تخللهُ من المحادثات والمحاورات، وطاب بما أطرب السمع في أثنائهِ من نغمات الموسيقات. فلما انتهى خرجنا لشرب القهوة، والتفرج على أَلعاب البارود، الَّتي أَعدَّتها البلديَّة بمرأًى من القصر، فكانت من متممات السرور ومكملات الحبور، واستمرت زمناً انتهى به نصف الليل، وانقضى بهِ السهر على أَحسن حال.

وعدنا كما جئنا بوابورات البحر في مسافة ثمان دقائق، وطرقُ النقل في هذه الديار سهلة متنوعة فهذا المتنزه مع قرب مسافتهِ يتوصل إليهِ بوابورات البحر، وعربات الترامواي، وعربات الكراءِ المعتادة، وعربات المُلّاك، على أَن الإنسان يمكنهُ المشي إليهِ بغير ركوب لقرب المسافة بدون مشقة.

(إهداءُ سموّ الملك نشان «وازا»)

لسيدي الوالـد

لما عدنا من وليمة هَسْلُباكُنْ وجدنا بالفندق تذكرة من التشريفات الملوكيَّة هذه ترجمتها:

«تشريفاتي الجناب الملوكي يتشرَّف بأن يرجو سعادة عبدالله فكري باشا في الحضور إلى السراي الملوكيَّة بجهة مُقام سموّ الملك منها في غدٍ، وهو يوم السبت 7 سبتمبر سنة 1889 والساعة 11 قبل الظهر.

تحريراً بأستكهلم في 6 سبتمبر سنة 1889».

فلما كان الميعاد المحدد توجه سيدي الوالد إلى القصر الملوكي، فوجد التشريفاتي في انتظارهِ، وأخبرهُ أن القصد من حضورهِ إهداءُ الملك إليهِ نشاناً، وما لبث أن أدخلهُ لدى جلالة سموّ الملك، فأحسن مقابلتهُ، وأعرب لهُ عن مزيد سرورهِ بحسن قيامهِ بمأموريتهِ، وأنَّهُ يشكر الجناب العالي على انتخابهِ رئيساً للوفد المصري، ويرجو سيدي الوالد إحاطة شريف علمهِ بذلك، كما سيحرر لجنابهِ الفخيم بهِ، خصوصياً، وأنَّهُ إشارة إلى وفور ممنونيتهِ وتذكاراً منهُ لسيدي الوالد عن مأموريتهِ يُهديهِ نشاناً من أقدم نياشين دولتهِ تاريخاً وأكبرها اعتباراً وأرفعها مقاماً.

فشكر سيدي الوالد سموَّهُ بما لاق، وشكر الوفادة الَّتي كانتْ السبب في مثولِهِ بين يديهِ والاحتظاءِ بمقابلتهِ، والشرف بمخاطبتهِ مع ما تبع ذلك من الاحتفاءِ بالوفد، والاحتفال بهِ اتباعاً لرغبات سموّهِ، وكرَّر الشكر على ما لقيهُ من الإكرام، مضيفاً إلى ذلك أنَّ هذه المأموريَّة يَعُدها من أَحسن تاريخ حياتهِ، وأجمل أوقاتهِ.

فأخذ سموّ الملك بهذه المناسبة يذكر ما حصل عندهُ من الابتهاج والسرور في هذا الأسبوع، بمعاشرتهِ أَفاضل علماءِ المستشرقين الَّذين اجتمعوا في عاصمة بلادهِ، ومخالطتهِ لهم، وأن هذا الأسبوع يَعُده أَحسن أسبوع قضاهُ في حياتهِ، ثم استطرد الحديث في أن المؤتمر سينعقد في كرستيانيا بدون حضورهِ، وأَنهُ جعل ثاني أَولاده نائباً عنهُ في القيام بواجبات الاستقبال والاحتفال، كما جعل ناظر معارف حكومتهِ بتلك المملكة رئيس المؤتمر فيها من حيث إِدارةُ الأَعمال، ثم صافح سيدي الوالد مع مزيد التلطف، وودعهُ هو بما يجب لمقامهِ الملوكي، من واجبات الاحترام والإجلال، وانصرف من القصر بعد أن استلم نشان وازا من الدرجة الأولى، العلي الشأن، ثم عاد إلى الفندق في الحال لتغيير الملابس والاستعاضة عنها بكسوة التشريف، ووضع النشان الجديد مع النشان الأَصلي المجيدي العظيم الاحترام، والتوجه إلى المؤتمر لحضور جلسة الختام، فتوجهنا جميعاً إلى محل المؤتمر بعد أن لبسنا ملابس التشريف، ووصلناهُ قبل الساعة الثانية عشرة المحددة للالتئام، فأَخذ الأعضاءُ يهنئون السيد الوالد بما نال من الالتفات الملوكي إلى أن شَرَّفَ الملك الجمع والساعةُ اثنتا عشرة بالتمام.



(جلسة ختام المؤتمر بأستكهلم)

شرف سموّ الملك قاعة المؤتمر في تمام الساعة 12، يتبعهُ وزراؤهُ ورجال حاشيتهِ، والموسيقا تصدح بالسلام الملوكي، وهو في أثناءِ ذلك يُحَيّي الناس إلى أن وصل إلى كرسيهِ المعدّ لهُ، فجلس عليهِ، وجلس الحاضرون، وبعد هنيهة أَخذ يتلو مقالةً أَعدَّها باللغة اللاتينيَّة، ضمّنها ممنونيتهُ من المؤتمر وأَعمالهِ، وسعود طالعهِ بانعقادهِ في بلادهِ.

وتلاهُ المسيو دِيرنْهَيْم رئيس المؤتمر، فتلا مقالة بليغة ضمّنها الشكر لأَعضاءِ المؤتمر، على ما قلدوا بهِ الأُمّة السويديَّة من المنة، لإجابتهم دعوة الاجتماع في عاصمة بلادها، ونَيْلِها زيادة الشرف بذلك.

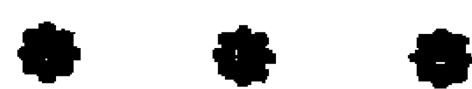
ثُمَّ تَكلَّم الملك بالفرنساويَّة وقال: إن الكتب الَّتي أُهديت إليهِ بمناسبة المؤتمر، وإن كانت غالية القيمة سامية القدر بصفتها مهداة، ويُحب لأجل ذلك أن تبقى لهُ لكن النفع العام أَولى من ذلك، فهو يُعلن أَنهُ إيثاراً للصالح العام يُهديها إلى الكتبخانات الأَهليَّة.

ثم أَذِن بالتكلم لمن أَراد، فتكلَّم أَفراد من كبار الفضلاءِ نيابة عن باقي أَعضاءِ المؤتمر بالتشكر لسموّهِ على حسن رعايتهِ، ومزيد عنايتهِ، وكان سمّوهُ يُجيب كل متكلم متشكراً ببعض كلمات باللغة الَّتي يتكلَّم بها فرنساويَّة أَو إنجليزيَّة أَو ألمانيَّة.

وأَعلن سمّوهُ بعد ذلك بختام المؤتمر في أستكهلم، وأنّه سيجتمع بعد

هذا بكرستيانيا فصاح الجميع «يعيش الملك»، وأردفوها بهورّاه أَربع مرات مصفقين في خلالها، ثم انصرف الملك بعد أن صافح من صافح، وتكرّم على الوفد المصري بمصافحة الوَداع.

وبينما نحن منصرفون من قاعة الاحتفال، إذ حضر حضرة الكونت ده لاندبرج إلى سيدي الوالد، وقدم إليهِ من قِبَل الملك صورة سموّهِ الكريمة مرسومة بالفطوغرافيا، كبيرة الحجم متقنة الوضع، تُمثّلهُ يقراءُ في كتاب، وقد كتب تحتها اسمهُ الكريم بخط يدهِ الملوكي لمزيد الاعتناءِ، فقَبِل السيد الوالد هذه الهدية راجياً حضرة الكونت في أَن يكون لدى سموّهِ العالي معرباً عمّا يخالج ضميرهُ من الشكر الذي لا مزيد عليهِ والممنونيّة الّتي يقصر عن تعبيرها اللسان.



(وليمة مُؤسسي المؤتمر)

ابتدئت هذه الوليمة في الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم، يوم السبت 7 سپتمبر سنة 1889 في قاعات فندق جراند أوتيل، المعدة للاستقبالات، فصفت بها الموائد على الطراز الأُوروبي، وجلس إليها أكثر من خمسمائة مدعوٌ دارت عليهم أصناف المآكل اللذيذة والأشربة الفاخرة، واستمرت بينهم المحادثة والمسامرة حتى مضي جزءٍ كبير من الليل، وهم يأْكلون، ويشربون على صحة بعضهم بغاية الأُلفة ومزيد المحبّة، والموسيقا الملوكيّة تصدح بأَحسن الأَلحان، وقد كان المؤسسون ترجّوْا بعض الأَفاضل من المستشرقين قبل انعقاد المؤتمر بأَشهرٍ، أن يكتب كلٌ منهم ما يَعِنُّ لهُ في طعام عَيّنوهُ، أو شراب بَيّنوهُ، ليُجمع كل ما كتب، ويُطبع في كُراسة على حسب ترتيب ما يُقدّم من الأَطعمة في هذه الوليمة، فكان كذلك، وجُعل أَمام كلّ مدعوّ نسخة من ذلك على المائدة، تقوم مقام القائمة المعتاد وجودُها في أَمثال هذه الوليمة لبيان المآكل والمشارب.

ولُفّت كل كراسة في وقاية منفصلة عنها، وجعل على ظاهر هذه الوقاية رسم الفندق الذي حصلت فيهِ الوليمة، بوِجهتهِ إلى الميناءِ تجاهَ القصر الملوكي، وجُعل في باطن هذه الوقاية، رسم قاعات الموائد مع بيان موضع كل مائدة، ومواضع من يجلس إليها.

وجُعل لهذه الكُراسة غلاف من ورقٍ ملوّن كُتب بأَسفلهِ بحروف ذهبيّة ما ترجمتهُ «هذه قائمة المآكل والمشارب في الوليمة الّتي أُعدّت لأَعضاءِ المؤتمر الثامن للمستشرقين بأُستكهلم في 7 سپتمبر سنة 1889»، ثم رُسم فوق ذلك

صورة الأهرام وصورة أَبي الهول، وبجوارهما رسم كثير من النخيل، وفوق هذا رسم شِعار السويد والنرويج، يتخلَّل جميع ذلك ويُحيط بهِ، نقوش بديعة ذات أَلوان بهجة، ومنها الذهبيَّة والفضيَّة.

وقد كان بجانبي على المائدة من جهة اليمين حضرة الأُستاذ الفاضل أَدِلْبَرْط مَرْكس وافد حكومة باد من أَعمال ألمانيا الجنوبيَّة، وأُستاذ مدرسة هيدلبرج الجامعة الشهيرة، وهو من أكابر المشتغلين بالعلوم العربيَّة الَّذين صحبتهم في هذه الرحلة، وقد طلبت منهُ في أثناء الحديث أَثراً يبقى عندي من كتابتهِ أتذكَّرهُ بهِ، وكتبت لهُ على ظهر وقاية كُراستي ما نصهُ:

سيدي المحترم،

أرجوكم أن تكتبوا اسمكم الشريف على هذه ليبقى عندي تذكاراً.

فكتب ما لفظهُ:

«تابعاً لمراد جنابكم أكتب الأَحسن الذي عرَفت فهو أن الله ملك يوم الدين، وأننا مقدَّرين بقدرة نعمتهِ. أَدَلْبرط مَرْكس»

ولم يزل هذا الأَثر محفوظاً عندي، وقد مشى في نصب «مقدّرين» على لغة من ينصب بأَن الاسمَ والخبرَ كقولهِ «إنّ حراسنا أُسدا»[1].

هذا وقد أتحفتنا الموسيقا في أثناءَ الطعام بالسلام الخديوي، فقمنا تعظيماً وإجلالاً لهُ كما فعلنا ذلك في كل مرة أتحفنا القوم فيها بذلك.

وما زلنا نتناقل الحديث إلى أن قرب وقت السفر، فانصرفنا للتخلي من الملابس الاحتفاليَّة، وملاحظة إنزال أمتعتنا إلى مدخل الفندق ليستلمها

---

(1) موضع الشاهد من بيت «عمر بن أبي ربيعة»:

إذا اسْوَدّ جُنحُ الليل فلتأْتِ ولتكُنْ   خطاك خفافا إنّ حراسنا أُسدا «المحرر»

مستخدمو السكة الحديديّة، ويتعاهدوا توصيلها إلى كرستيانيا، حتى نجدها هناك كما علمنا ذلك من «يوميّة المؤتمر».

وقد تقرر سفر قطارين بالأعضاءِ من أستكهلم إلى كرستيانيا، أولهما يقوم والساعة عشرة ونصف، وثانيهما والساعة إحدى عشرة وعشر دقائق بعد الظهر، ولم نتمكن من السفر بأولهما فسافرنا بالثاني.

هذا وقد ابتدأ حضرة الكونت ده لانبرج في كُراسة بيان المآكل والمشارب المذكورة آنفاً بحمل زجل بالعربيّة العاميّة على وزن «شرم برم حالي غلبان» في الـ (شْنپْسْ) السويدي، وهو اسم يعم المشروبات الروحيّة هذا نصهُ:

يا صمّ قَدَمْ بسم اللّهْ ... ومِدّ إيدكْ واسلّهْ
وانظر بعينك واتملّهْ ... تلقى العجب أشكال وألوان
أشكال لطيفه من المزّه ... شغل البنات حادقه ومِزّه
يا ما كلِت منها مُزّه ... ومات على شانها جِدعان
يا صاحبِ الذوق يا سيدنا ... إحنا النهار دا اليوم عيدنا
قرّب بقَى ودقها وفيدنا ... واشرب على سر الإخوان
برد البلاد دي شيء معروف ... وبين جميع الناس موصوف
ودا السبب في الّي بتشوف ... لكل طايفه طبع وشان
اصحى تقول ما نيش عايز ... أشرب لأَنّهُ مُش جايز
اسمع كلامي تصير فايز ... واعرب لنا فيها قولان
وإن كان تقول دا شيء بارد ... والعقل منهُ يتّاخذ
جَرّبْ وخذلك كاس واحِد ... تلقاه أقل من الدخان

فيه عندنا مرَّه وشنَبْسْ يطلّعوا الفكره من الحبس
إن كنت خايف تبردْ بس اشرب تروح حالاً دفيان
إحنا مرادنا والمأمول فتح الشهيه للمأكول
حتى يكون في الذوق مقبول وينبسط منهُ الإنسان

«كارلو لاندبرج»

ثم كتب بعدهُ في الشوربة الأستاذ جوستاف شلِيجلْ باللغة الصينيّة، وكتب بعدهُ الأستاذ مكس موللر بلغة البراهمة «سانسكريت» في نوع السمك المسمى صومون، وكتب آخر بلغة ماليزيا في طعام من لحم الثور، وآخر بالعبرانيّة في صنف من الدجاج، وآخر بلغة الجاوه في ديك، وكتب حضرة الفاضل صاحب العطوفة مدحت إفندي في الخروف الحولي الشواءِ باللغة التركيّة ما ترجمتهُ:

«يقول الحولي: ما أعطرَ رائحتي، وأذكى شذاها، فهي لا تشبه رائحة الجسم المصبر الذي يحفظ بالتصبير لحمهُ من الانحلال، ولكنها نكهة طيبة تسهِّل لكم الهضم.

«فلا يظنَّن من يراني مطروحاً على الطبق ميّتاً في نعشهِ، فليت الموتى مثلي لا يحزنون بمرآهم الحاضرين، فإنني لطيف المنظر أدعو بطيب شذاي وحسن رائحتي شهيّة الآكلين، فخذوا من لحمي مِلءَ الفم، تعلموا علم اليقين صحة ما دعاكم إلى الأكل من حسن مرآيَ.

«ولا تحزنوا إذا تذكرتم قول الشاعر الفارسي ما معناهُ نظماً:

«وسرور الإنسان يمرح في الأرَ ض كورد يُشاب بالأكدار»
«فهو مثل الحوليّ يرتع والجز زار في رقبة لهُ وانتظار»

«فإنَّ من لا يتهزون فرص هذه الحياة الفانية، بالسرور والأَفراح، يذهبون منَ الدنيا فارغي الأَيدي، متى مَسَّتهم يَدُ المقدور هادِمةُ اللذات».

«أحمد مدحت»

وكتب المسيو أَميلينو باللغة القبطيَّة في الخرشوف ما تعريبهُ حرفياً:

الخرشوف

«اسمحوا لي أَن أَستعيرَ كلمة من لغة أَجنبيَّة، فإن اللغة القبطيَّة لسوءِ حظها لا تشتمل على الكلمة المراد التعبير بها عن هذه البقلة.

«سأَطبخ خرشوف اليونان بسمن بلادي، فاسمحوا لي بأَن أَستعير كلمة من لغة أَجنبية.

«ومن الأَسف أَن مصر لم تعرف هذه البقلة، فإن المصريين لو عرفوها لأَمكنهم طبخها بأَحسن طريقة لما لهم من المهارة في الطبخ.

«ومن الأَسف أَن مصر لم تعرف هذه البقلة.

«وفي الحقيقة أَنهم كانوا أَمهرَ الناس في جميع الأَزمان، فإن ماكير الإسكندري اصطنع من الرمل سليقاً بدون أَن يضع في القدر قمحاً ولا دقيقاً.

«وفي الحقيقة أَنهم كانوا أَمهر الناس في جميع الأَزمان.

«أَمَّا أَنتم فإنكم لم تسكنوا الصحراءَ، وأَنتم من أكبر العلماءِ، ولكن يقال: إِنَّهُ مع ما لديكم من العلم لا تستطيعون أَن تعملوا مثلهم.

«أَما أَنتم فإنكم لم تسكنوا الصحراءَ.

«فهلموا كلكم، واشكروا ملك هذه البلاد الجميلة، فإن كل الناس إِخوانٌ على مائدتهِ، وهو يحب العلم، ويكرم مَن أَمَّهُ ببشاشةٍ ولطافةٍ.

«فهلموا كلكم واشكروا ملك هذه البلاد الجميلة».

« أَمِيلِينُو »

وكتب المسيو لِينْلَينْ باللغة الهيروجليفيّة في صنف من فطير الحلوى سمي فطيرة ويكتوريا ما يأْتي ترجمتهُ:

فطيرة ويكتوريا

«السلام عليكم أيها الكُتَّاب والعلماءُ الَّذين أَتَوْا من أَنحاءِ الأَرض بالسكك الحديديَّة وبالبحر، أَطال الله عمركم، ومنحكم حسن العافية، وجعل طيب حظكم مثل طيب فطيرنا».

«لَينْلَينْ»

وكَتب المسيو مُولْلِرْ باللغة الحميريَّة في الدوندورمه «الحلواءِ المثلجة».

وكتب المسيو أَلمكڤيست باللغة البَشَّارِيَّة في الجبنة ما لفظهُ:

«الجبنة مثل المرأَة ولا مثل الوردة فطعمتها تطيب وريحتها تقبح»

«والجبنة مثل الوردة ولا مثل المرأَة فإنّها تشكّ والقلبَ لا تجرح»

«المكڤيست»

وكتب الدكتور إِيزُوبُول بلغة اليابان الفصحى في الحلواءَات، وكتب المسيو ڤامبيري باللغة الجيغتائيَّة في الفواكه، وكتب الأستاذ دُه جُويَهْ من لَيْدِن باللغة العربيَّة الفصحى في الشمپانية ما نصهُ:

«قيل للأَحنف بن قيس: أَيّ الشراب أَطيب؟ فقال: الخمر. قيل لهُ: وكيف علمت ذلك وأَنتَ لم تشربها؟ قال: إني رأَيتُ من أُحلَّت لهُ لا يتعداها إلى غيرها، ومن حُرِّمت عليهِ إنما يدور حولها، وحُقَّ لها ذلك؟

فإن الجبان إذا ركب فرسهُ الأشقر صار بطلاً، والعيُّ فصيحاً، وهي كما قال مسلم بن الوليد صريع الغواني:

«تصد بنفس المرءِ عما يغمهُ وتُنْطِقُ بالمعروف ألسنة البُخْلِ»

«ولذلك طمع فيها الناس طمعاً شديداً، كما قال أبو الهندي:

«أديرا عليّ الكأس إني فقدتها كما فقد المفطوم دَرّ المراضع»

«حتى أن قال أبو محجن:

«إذا مت فادفنّي إلى أصل كرمةٍ يروّي عظامي في التراب عروقها»

«ولا تدفنّني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقها»

«وينبغي أن تكون صافية معتّقةً برائحة المسك والعنبر، بلون كعين الديك، أو كالذهب المسبوك، وألّا يشجها الماءُ حتى يغلب عليها، كما قال أبو نواس:

« لا تجعل الماءَ لها قاهراً »

«وما أحسن بنت بردال وبنت برغونية الإفرنجيين، وما أطيب بنت وادي رَيْنِ الألمانيّة، لكنّ الفضل على سائر الخمور للتي قال على لسانها بعض المحدثين:

« شمپانيه مربعى ولي بقُرى ريمس مَصِيفٌ وأُمي العنبُ »

«ترضعني دَرّها وتلحقني بظلها والهجيرُ يلتهبُ»

«فإنها مزبدةٌ لمن يحتلبها من قِنّينتها الزجاج، ولا غرو أنّها النّقطار

الصريح الذي وصفها شعراءُ اليونان بشراب الآلهة، ولها خاصية تقضي لها بالفضل على غيرها من الأشربة، وذلك أن الخُمارَ لا يُداوى إلّا بها، قال بعض القدماءِ: استعينوا على كل صنعة بأربابها، ومن أرباب هذه الصناعة أعشى قيس في الجاهليّة، وهو يقول:

« وكأس شربتُ على لَذَّةٍ وأُخرى تداويتُ منها بها »
« لكي يعلم الناس أني أمرؤٌ أتيت المعيشة من بابها »

«وأبو نواس في الإسلام، وهو يقول:

«دَعْ عَنْكَ لَوْمي فَإِنَّ اللَّومَ إغراءُ وداوِني بالَّتي كانت هي الدّاءُ»

فإنهما بلا شك لم يعنيا إلّا هذه الخمر الممدوحة المشهورة، ولهذا كان من عادة كرام الندماءِ أن يبتدئوا منادمتهم بها، ويختموها، ولله در القائل:

« اسقني والليل داجِ قبل أصوات الدجاج »
« اسقني صفراءَ صرفاً لم تُدَنَّس بمزاج »

«وأما شأن الشاربين لها معها فإِنَّهُ كما قال الآخر:

«قلوب الندامى في يديها رهينة يصيدونها قهراً وتقتلهم مكراً»

« دُه جُويَهْ »

وكتب آخر بلغة بابل في النبيذ، وكتب حبيب الأَصفهاني بالفارسيّة أَبياتاً تشكريّة مدحيّة في الوليمة وفي أعضاءِ المؤتمر، وكتب غيرهم في غير ذلك.

* * *

(من أستكهلم إلى كرستيانيا)

بعد تسليم الأَمتعة إلى مستخدمي السكة الحديديّة بمدخل الفندق بأستكهلم، ووضع أوراقٍ بمعرفتهم عليها ألصقوها بها، مكتوب فيها «ويكتوريا هوتيل»، وهو اسم الفندق الذي حجزت لنا غرف بهِ في مدينة كرستيانيا بمعرفة سكرتاريّة المؤتمر، لنجد تلك الأَمتعة بذلك الفندق عند وصولنا إليهِ - توجهنا إلى محطة السكة الحديديَّة، فوصلناها قبل نصف الليل بساعة من يوم السبت 7 سپتمبر سنة 1889.

وقد حضر لوداعنا بها خصوصاً جميع من تعرفنا بهم بهذا البلد، وارتبطت بيننا وبينهم روابط الصحبة والمحبة، وحضر لوداع أعضاءِ المؤتمر عموماً الجزءُ العظيم من أَهالي أستكهلم من باب التبجيل والاحتفال، وما سار الوابور في الساعة 11 وعشر دقائق إلَّا وأخذوا في رفع الأصوات، وذِكْرِ هُورَّاهْ مرات متوالية، حتى كنَّا نسمع ذلك بَعْدَ أن بَعُدَ الوابور عن المحطة بمسافة، قاصداً كرستيانيا عاصمة النرويج موعد المجتمع الثاني لهذا المؤتمر.

وكان الزحام في هذا الوابور أَقلَّ منهُ في الذي سار قبلهُ بكثير كما علمناهُ بعد، فتيسر لنا أن نختص بحجرة من عربة نحن الأَربعة. وأخذنا نتحدث في ما رأَيناهُ بالمؤتمر وغيرهِ، ونتبادل ملحوظاتنا في ذلك فيما بيننا وبين من حضر عندنا من الأعضاءِ، والوابور مُجدٌّ في سيرهِ مسرعٌ في جريهِ، متجهٌ من الشرق إلى الغرب يجتاز الغابات، ويعبرُ الأَودية، فلما انصرف من حضر نمنا إلى

الصباح حتى أيقظتنا أشعة الشمس من الشبابيك، فأخذنا نشاهد المناظر الطبيعيَّة العجيبة، ونتمتع برؤية الأشجار، تحفها الأنهار الممتدة من البحيرات المتّسعة.

وقد تغير اتجاه سير الوابور ونحن نيام؛ إذ بعد أن كان اتجاههُ من الشرق إلى الغرب حتى وصل البلدة المسماة لاَكْسِهْ، أخذ يتجه نحو الشمال الغربي قاصداً شَارْلُوتَنْبُرْجْ آخر بلاد السويد، وحدُّ النرويج في هذا الطريق، وقد ذكر في يوميَّة المؤتمر وپروجرامهِ، أن الوصول إليها يكون والساعة 9 و50 دقيقة قبل الظهر من يوم الأحد 8 سپتمبر سنة 1889، فنتعاطى فيها بموجب تذاكر وزعت علينا قبل القيام طعام الصباح الذي أعدَّهُ لنا بها مؤَسسر المؤتمر.

وفي أثناءِ الطريق بين لاَكْسِهْ، وهي على بعد 229 كيلومتر من أستكهلم وبين شارلوتنبرج، وهي على بُعد 203 كيلومتر من لاكسه، أخذنا نمر في إقليم ڤيرْ مِلاَنْدْ الشهير بكثافة غاباتهِ، وكثرة بحيراتهِ، واتّساع معادنِهِ وانتشارها في أرضهِ، خصوصاً الحديدية منها، وقد أعلمنا كتاب الدليل أنهُ صرف بالأزمان الأخيرة، مبالغ جمّة في سبيل فتحهِ للتجارة، بتوصيل الترع إلى بعضها فيهِ، وإنشاءِ السكك الحديديَّة بهِ، لتسهيل نقل حاصلاتهِ وإصدارها عنهُ إلى جهات المملكة والجهات الخارجيَّة.

فوقف الوابور دقائق على مدينة كرستينهامن وبها من السكان 5400 نسمة، ثم سار منها بجوار بحيرة «ڤيبر» ينظرها[1] الرائي تارة، وتحتجب عنهُ أُخرى مارّاً على جسور استحدثت ومستبحرات رُدمت بمصاريف هائلة، حتى وصل إلى كارْلستاد، وهي رأس إقليم ڤيرْ مِلاَنْدْ المذكور قائمة في موقع مرتفع ذي منظر بهج، متسعة الطرقات مظللة سككها بالأشجار، مشيدة العمارات جديدة البناءِ، فإنها كانت احترقت في سنة 1865،

وتجددت بعد ذلك على هذا النظام، وقد ساعد على ذلك كثرة انتشار التجارة فيها.

ثم بارحنا «كرلِسْتاد» هذه مستمرين في السير مجدّين فيهِ مارّين بأَودية وغابات، نقف في بعض المحطات، وإذا بالوابور قلَّ سيرهُ، ثم وقف، فبعد الاستفهام علمنا أنهُ انكسر ذراعاهُ، وانقطع سيرهُ لذلك، ولكن الله سلَم.

ثم بعد ساعتين من وقوفنا بهذا المحل حضر إلينا وابور من محطة شَارلُتْنبُرْج الّتي كنا قاصديها؛ إذ بمجرد الوقوف طلب رئيس القطار إرسال هذا الوابور من المحطة المذكورة، بواسطة توصيلهِ آلة كهربائيَّة في القطار عنده بسلك التلغراف المجاور للسكة الحديد، فاستفدنا من هذه الحادثة معرفة زيادة همة هؤلاءِ القومِ في تدارك الأُمور وتسهيلها؛ إذ بمجرد حصول الحادثة بلغ خبرها للمحطة التالية، وورد الخبر منها ببيان ساعة وصول الوابور المسعف، فاستراح الركاب، واطمأَنوا، ونزلنا وأَخذنا نتفرج على المراعي المجاورة وما بها على بعدها عن العمارة من الانتظام والاعتناءِ في تربية الماشية، وتمام النظافة، والإتقان في عمل الجبن والزبد، وشربنا من لبن تلك الماشية الخالص اللذيذ ما أَعاننا على أن نصبر عن الأكل الذي أَوجب تأخيرهُ هذا الوقوف مع أَنَهُ لم يكن في الحساب.

ثم سرنا نمتع الطرف بالمناظر الحسان من النباتات الطبيعيَّة والغابات والأشجار والزروع والأَنهار، مارّين بقناطر جُعلت فوق الأَنهار والبحيرات لعبور الوابورات عليها، يبلغ طول واحدة منها فوق بحيرة «فِيزمِلْن» 550 متراً، وزادت مصاريفها على خمسمائة أَلف كورون، مجتازين منفذاً في الجبل طولهُ 277 متراً إلى أن وصلنا شارلتنبرج الساعة 11 و50 دقيقة، أي بعد الميعاد الذي كان تحدد أَوّلاً بساعتين فوجدنا المآكل مصفوفة لنا

بقاعات المحطة على طراز البلاد، متعددة الألوان، فأكلنا مع اللذة والهناءِ، ومزّقنا الجوع كل ممزّق، وكان في انتظارنا من ساروا بالقطار الأوّل من الأعضاءِ ليتقارب سيرنا إلى كرستيانيا، فنصلها في وقت متقارب.

فسرنا من شارلُتّنبرج هذه بأرض النرويج نقف بعض دقائق في كل محطة، فنجد الأهالي ينتظروننا كما كان ينتظرنا أهالي السويد في كل محطة بأرضهم، بيدَ أَنّ أهالي السويد كان انتظارهم للوداع، وأهالي النرويج كان انتظارهم للاستقبال، والجميع كانوا وقوفاً على الأقدام رافعين أصواتهم بالتعظيم والاحترام بين نساءٍ ورجال وشيوخ وأطفال، وكلٌ يشير بقبعتهِ أو منديلهِ إظهاراً لما عندهُ من الفرح والسرور بهذا الحضور، وقد وُزِّعت علينا في إِحدى المحطات جريدة من جرائد البلاد اسمها «أَفتِنپُوسْتنْ» مؤرخة في 8 سبتمبر سنة 1889، جميع ما بها في أعمال المؤتمر ومواعيد اجتماعاتهِ وبيان أعضائهِ، وفي مقدمة هذه الجريدة عبارة بالفرنساويّة هذه ترجمتها:

«إلى حضرات أعضاءِ المؤتمر الثامن للمستشرقين».

«إن عاصمة النرويج والمدرسة الجامعة فيها تقدمان في هذا اليوم العظيم إلى زعماءِ العلوم المشرقية واجبات التحية والتكريم».

«وإن هذه البلد الّتي منها كرستيان لاسّين حلّال رموز كتابات الفرس القديمة الذي قلّد جيد العلم المنن العديدة بما وصل إليهِ من الاكتشافات، وهذه المدرسة الجامعة، الّتي هي أوّل من غذّى هذا العَلَم الفرد أَلبان العرفان، هما أَجدرُ وأَولى بأَنْ تقابلاكم وتقدِما لكم واجبات الترحيب والإكرام».

« إِنّما يعرف ذا الفضـل من النـاسْ ذووه »

وأَنتم المولودون في الأقاليم الجنوبيَة والبلاد المشرقيّة الكثيرة الثروة

المتمتعة بالشمس وأضوائها، ها وقد وطئتم بأقدامكم أول مرة أرض الشمال، فإذا قارنتم بين بلادكم المشمسة وهذه البلاد، وما فيها من الجبال والغابات والأنهار والخلجان، الّتي تُنيرها شمس الخريف وجدتموها كابيةً بالنسبة لبلادكم».

«ولكن نحن أيضاً يُضيءُ فينا لهب نار العلم المقدس، وشدة الشتاءِ لا تجمدُ قلوبنا كما ستثبت لكم ذلك بالفعل».

«ألا سمعتم ارتفاع أَصوات الأمة بأجمعها مرحبة بكم من الجبال والخلجان والأَودية وسائر الجهات، قائلة: مرحباً بكم في النرويج وأهلاً وسهلاً».

وما زلنا مجدين السير حتى قطعنا المسافة الّتي بين شارلُتنبرج وكرستيانيا وقدرها 143 كيلومتر في نحو أربع ساعات ونصف، فكانت مسافة سيرنا من أستكهلم إلى كرستيانيا وقدرها 575 كيلومتر نحو خمس عشرة ساعة وثلث، فإذا ضممنا إلى ذلك ساعتي وقوف الوابور بلغ مقدار المسافة جميعها نحو سبع عشرة ساعة وثلث، وقد وصلنا كرستيانيا والساعة أَربعة ونصف بعد الظهر من يوم الأحد 8 سبتمبر سنة 1889، فوجدنا الأُلوف المؤَلّفة من الأهالي تنتظر بساحة المحطة، وبالطرق الّتي مررنا فيها إلى الفندق، مرتفعة أصواتهم كالعادة بالترحيب والإجلال بهورّاه، مكررين ذلك كلما مرّ عليهم بعض الأعضاءِ.

ثم ركبنا عربة من المحطة إلى الفندق المسمّى «فيكتوريا هوتيل»، حيث الغرف الّتي حجزت لنا فيه بواسطة سكرتاريّة المؤتمر كما مرّ، وهناك وجدنا أمتعتنا، فاسترحنا بقية اليوم.

* * *

(مدينة كرستيانيا)

هي عاصمة بلاد النرويج يبلغ عدد سكانها 130000 نسمة، غالبهم بروتستانت قائمة على أكمة بهجة المنظر، على الجانب الأيمن من نهر «أَكِيْرْسِلْف»، مشرفة على الخليج المنسوب إلى اسمها، واقعة على درجة ″44 – ′54 – °59 من العرض الشمالي، و″10 – ′23 – °8 من درجات الطول الشرقي لخط نصف نهار باريس.

وقد أسسها كرستيان الرابع سنة 1624، وجعلها عوضاً عن «أُوسْلُو» عاصمتِهِ القديمة الَّتي كانت على الجانب الأَيسر من النهر قبلها، واحترقت في السنة المذكورة، وكان أهلها قد أحرقوها قبل ذلك في سنة 1567 حتى لا تقع في يد السويديين محاربيهم وقت ذاك، ثم أعادوا بنيانها، وبقي إلى احتراقها الأخير.

على أن كرستيانيا نفسها أخربتها الحرائق كثيراً في سنة 1686، وسنة 1708 وسنة 1858، ولم تكن سكانها في سنة 1855 أزيد من 32000 نسمة، وبلغوا في سنة 1875 – 94869 نسمة.

وهي مقر الحكومة النرويجيَّة ومجالسها النيابيَّة ومجلس قضائها الأَعلى والمدرسة الجامعة، ويخرج منها في السنة بضائع من أَصناف خشب العمارات، والأَسماك والكبريت والجعة وغير ذلك، مما قيمة الجميع 25 مليون كورون، ويدخل إليها في السنة من أَصناف الغلال، والمنسوجات الصوفية، والقطن والفحوم واللحوم والآلات، وغير ذلك مما قيمة الجميع 72 مليون كورون.

وبلغ عدد سفنها التجاريّة سنة 1884 – 381 سفينة، منها 70 سفينة بخاريّة، حمولتها جميعها 1220900 طونولاطه.

وبظاهر المدينة معامل للماكينات وعمل الجعة، ونسيج الأَقمشة، وصنع الورق غالبها على ضفاف نهر أكيَرْسِلْف.

وطرقها منتظمة متسعة، ومناظرها بهجة تروق الناظر، بسبب ما جاورها من البحر والأَنهار، والجبال الشامخة، المكسوة بالنباتات الخضرة والأَشجار، وما يبدو في خليجها المزدحم بالجزر من كثرة السفن الشراعيّة والبخاريّة الصغيرة والكبيرة.

وأَكبر طرقاتها وأَحسنها الطريق المسماة «كَارْل يُوهَانْس جَادِه»، وطولها يبلغ كيلومتر، وابتداؤُها من المحطة الشرقيَّة متجهة من الشرق إلى الغرب حتى تصل إلى القصر الملوكي.

وعلى اليمين منها بعد مسافة قليلة من المحطة الميدان المسمى «سْتُور تُورْف»، ومعناهُ الميدان الكبير، وفي وسطهِ تمثال الملك كرستيان الرابع مجسماً.

وبهذا الميدان من جهة اليمين الكنيسة المعروفة «بكنيسة المخلِّص»، وقد بُنيت في القران السابع عشر، ومن جهتهِ الشماليَّة يتفرع طريق «تُورْف جَادِه» وبأَحد جانبي هذه الطريق المحل المسمى «دامِپْكِيُوكِّن»، ومعناهُ المطبخ البخاري، وهو بناءٌ غريب في بابهِ مشتمل على طبقتين بكل منهما موائد كثيرة من الرخام الأَبيض، جعل هذا البناءُ لغير الموسرين، فيأْكلون منهُ بدراهم قليلة، وذلك أَن يذهب الواحد منهم إلى شباك بجهة المطابخ فيأْخذ طبقاً بهِ ما يشتهيهِ من الأَطعمة بمبلغ يختلف باختلافها من 25 إلى

45 أوراي من ربع كورون إلى أقل من نصفهِ، وقد سبق أن الكورون يساوي 5 غروش و16 بارة بالعملة الصاغ المصريّة، ثم يدخل بهذا الطبق إلى إحدى قاعات البناءِ في أيِّ الطبقتين أراد ليأكل، وينصرف، وهذا البناءُ يأْكل فيهِ كل يوم ألفا نسمة، حتى إن إيرادهُ لا يكفي مصاريفهُ، فتكملها بلدية المدينة، ولا شك أن هذه الطريقة في غاية النفع للفقراءِ والإعانة لهم، وهي تدل على اعتناءِ أهالي هذه المدينة بغير الموسرين، وإن دلَّ عدد من يأْكل منهم بهذا المحل على كثرتهم فيها بالنسبة لتعداد سكانها العمومي.

فإذا استمر الإنسان مصعداً في طريقِ تُورْف جَادِةْ المتقدمة وصل منها إلى النهر، وشاهد كيفيات انحدار الماءِ فيهِ المنتفَع بهِ في إدارة فابريقات عديدة.

وإذا عاد من هذه الطريق إلى الميدان المتفرعة هي منهُ، واستمر من هذا الميدان في طريق كَازل يُوهَانْس جَادِةْ المتقدم ذكرهُ قابلهُ، من جهة اليسار محل إدارة البوستة والتلغرافات.

ويعدهُ سراي مجلس النواب، وهي حديثة البناءِ تمت سنة 1866، وبداخلها عدة قاعات منها، قاعة مجلس النواب، تسع 150 من الأعضاءِ، و300 من المستمعين، ومنها قاعة مجلس الأعيان، وتسع 40 عضواً، و130 من المستمعين، ومنها قاعة الكتبخانة، ومنها قاعة لدفاتر المجلس ومحفوظاتهِ، إلى غير ذلك من القاعات.

وأمام وجهة هذه السراي، ميدان فسيح بهِ بستان نضر، في وسطهِ تمثال «ڤيزجلانْد» أشهر شعراءِ النرويج.

وفي هذا الطريق بعد هذه السراي متنزه حافل تصدح فيهِ الموسيقا في زمن الصيف، ويجتمع إليهِ المتنزهون من كل جانب.

وتجاه هذا المتنزه سراي المدرسة الجامعة، وهو المحل الذي خصص بانعقاد جلسات المؤتمر فيهِ.

وهذه السراي بُنيت من سنة 1841 إلى سنة 1853، وبجانبها بناءان تابعان لها، أحدهما على اليمين، وقد خصص بانعقاد الأكاديميّة فيهِ، وثانيهما على اليسار، وقد جعل داراً للكتب، ويحتوي على 250000 مجلد.

أما المدرسة الجامعة فيدرِّس فيها 52 أُستاذاً، وبها من الطلبة أكثر من ألف طالب، وتنقسم إلى خمسة أقسام باعتبار ما يدرس بها من العلوم، والتعليم في جميعها مجّانيٌ.

وتشتملُ هذه المدرسة على مجاميع عالية القيمة، ومتحف للتاريخ الطبيعي، ومتحف في علم أخلاق الشعوب وعاداتهم، ومحل للطبيعة وأدواتها وتجاريبها، وآخر للأمور الطبيّة وما يتعلق بها.

ويتبع المدرسة متحف الفنون المستظرفة، وقد بني على مصاريف صندوق الادّخار، وأُهدي إلى المدينة، وينقسم هذا المتحف إلى قاعات متعدّدة، إحداها للتصاوير المجسمة، وأخرى للرسومات الغير المجسّمة من صنع الرسامين الدانيماركيين والطليانيين والفلمنكيين، ولغيرها من نفائس الآثار.

ويعد هذا كلهِ بآخر الطريق السرايُ الملوكيّة، وهي بناء متّسع مشيّد جديد بني من سنة 1825 إلى سنة 1849، مشتمل على عدة قاعات، منها ما هو للاستقبال، ومنها ما هو للأكل، ومنها ما هو للنوم إلى غير ذلك، وبهذه السراي كثير من الرسومات من صنع مشاهير الرسامين الوطنيين أهدوها إلى الملك، وفي جدران سلمهِ تمثالان بارزان في الرخام، أحدهما من جهة اليمين يمثّل شارل الرابع عشر حال كونِه واضعاً أول حجر في بناءِ هذا القصر،

(1) في الأصل: «الغير» المحرر.

والآخر على اليسار يمثّل أسكار الثاني محتفلاً بإقامة تمثال شارل الرابع عشر المشار إليهِ.

وأمام السراي تمثال شارل الرابع عشر المذكور من البرونز مجسماً، عمل في سنة 1875، «وهو شارل جان برنادوت»، وفي قاعدة هذا التمثال كتب ما معناهُ «حُبُّ الأمة لي مكافأتي»، وفي موضع آخر منها ما معناه أيضاً «أَقام هذا التمثال الأمة النرويجيّة».

ويتفرع عن طريق كَازل يُوهَانس جَادِهْ المذكور عدة طرق، من أهمها «راذهُوسْ جادِهْ»، ويتوصل منهما إلى الميدان المسمى ميدان البنك، وعليهِ «تياتر كرستيانيا»، وبالقرب منهُ «سراي المحافل الماسونيَّة»، وهو الذي حصل فيهِ أول اجتماع ودّي بين أعضاءِ المؤتمر في مساءِ الوصول إلى كرستيانيا كما سيأتي، وأُقيمت فيهِ الوليمة الّتي أعدتها المدينة إكراماً لهم، وسيأتي الكلام عليها في موضعها.

وهذه السراي على بعض خطوات من فِيكتوريا هوتيل الذي نزلنا فيهِ. وهو من أَعظم فنادق هذه المدينة وأَشهرها، وقد اعتني في إِعدادهِ لأَعضاءِ المؤتمر، حتى أُقيم في رحبتهِ فسطاط ظريف مُجَمَّل بالمرايا والفرش اللطيفة، جعلوهُ لتعاطي الطعام بحيث يسع من نزل بهذا الفندق من الأَعضاءِ، وزُيّن باقي الرحبة بالأَشجار والمظلات المختلفة الأشكال والألوان.

وبالقرب من هذا الفندق قلعة «اكيرْسِهُوسْ» الشهيرة في التاريخ بكونها حصينة الجانب، مانعة من أراد الاستيلاءَ عليها من الأَجانب، وإن كانت الآن ليس لها الأَهمية السابقة لحدوث ما يُستغنى بهِ عنها، فهي من قبيل الآثار التاريخيّة.

ولنختم هذه الإجماليات بالكلام على «سَنْكِت هَانْسهُوجِنْ» وهو أَحد الجبال المجاورة للمدينة، لكنهُ يمتاز عن غيرهِ من الجبال بأَن بهِ بستاناً لطيفاً أنشئ فيهِ للتنزه، وفي وسطهِ حوض فسيح لتقسيم المياه وتوزيعها على المدينة، وهذا البستان ينظر منهُ جميع جهات المدينة، فيرى من بهِ شوارع المدينة وخططها، ومنازلها منتشرة متفرقة تتخللها الحدائق سُلك فيها مسلك الطريقة الإنجليزيّة بلوندرة، بخلاف أستكهلم، فإنهُ سُلك فيها الطريقة الفرنساويّة بپاريس من تشييد العمارات وارتفاع أماكنها، وقربها لبعضها، وتعدد طبقاتها، ويَرَى من بهِ أيضاً على مد البصر الميناءَ والسفن والجزر وضواحي المدينة، وما بهذه الضواحي من المعامل والمصانع، ويرى الوابورات مترددة على هذه العاصمة من الشرق والغرب في البر والبحر والنهر، فيقضي بتقدم هذه المدينة، واستمرار هذا التقدم ما دام أَهلولها على ما هم عليهِ من الحركة والنشاط.

* * *

(الاجتماع الـوُدي)

بين أعضاء المؤتمر القادمين من أستكهلم وأعضائِه النرويجيين
في «فِريمور زلُوجِن» سراي المحافل الماسونيَّة

بعد وصولنا إلى كرستيانيا في هذا النهار (يوم الأَحد 8 سپتمبر سنة 1889 والساعة أربعة ونصف بعد الظهر) واستراحتنا قليلاً بالفندق الذي نزلنا بهِ ركبنا عربة، وأَخذنا نتفرج في أَنحاءِ المدينة وشوارعها المهمة، وكنا عرفناها من كتاب الدليل، حتى أَقبل الليل، فعدنا إلى الفندق وتعاطينا طعام العشاءِ في الفسطاط الذي مَرَّ ذكرهُ، وكان هذا الطعام من أَحاسن ما أكلناهُ في هذه السياحة؛ لعظيم إتقانهِ ونظافتهِ، وشدة الاعتناءِ في صنعهِ، لاسيما أَنَّهُ أَوَّل ما هُيِّئ لأَعضاءِ المؤتمر بهذا البلد، وقد طبعوا قائمة بيان أَصنافهِ بحروف ذهبيَّة، ورسموا بظاهرها ظاهر الفندق، وبداخلها داخلهُ.

ثم توجهنا إلى سراي المحافل الماسونيَّة، وهي على خطوات من الفندق كما تقدم، فوجدنا بها أعضاءَ المؤتمرَ النرويجيين يصحبهم أعيان المدينة ومعتبرو أَعضاءِ مجالسها النيابيَّة، فحصل التعارف والتآلف، وجرت المسامرات الوديَّة والمباحثات العلميَّة مجراها المعتاد، وأطربت الموسيقا الحاضرين، ودارت عليهم الأَشربة والمرطِّبات، حتى قرب نصف الليل فانصرفنا نطلب الراحة، وبقي من بقي.

وسراي المحافل الماسونيَّة هذه محل في غاية الجمال، مشيد الأَركان، عظيم البنيان، ذو طبقتين مرتفعتين، صعدنا إلى العليا منهما، ومن قاعاتها قاعة في غاية الاتِّساع، تسع أُلوفاً من الناس يُشرف عليها محالٌ بدائرها تجلس فيها النساءُ والأَجانب أَيام الاحتفالات الماسونيَّة، الَّتي يُسمح فيها بالحضور لغير الماسونيين.

وهذه القاعة مخصوصة بالاجتماعات الماسونيّة العموميّة واحتفالاتهم السنويّة، وما جاورها من الغرف والقاعات، وما بأسفلها من المحلات مخصوص بعضهُ بإدارة العشيرة الماسونيّة، وبعضهُ بالكتبخانة وبعضهُ بأَقلام الكتاب، وبعضهُ باجتماعات المحافل الخصوصيّة، كلٌّ بِحَسَبِ يومهِ المعدود، وموعدهِ المحدود، وبعضهُ مخصوص باجتماع الإخوان في غير أوقات العمل لمطالعة الجرائد والمسامرات، ومبادلة الأَفكار في الأَدبيّات، هذا فضلاً عن محل خزينة النقود، ومخازن اللوازم ومحلات إدارة أعمال الخير والإحسان المتعلقة بجمعيّة البنائين الأَحرار.

ولم يكن اجتماع أعضاءِ المؤتمر بهذا السراي في هذا المساءِ اجتماعاً ماسونيّاً، بل وُدّياً فقط؛ لأَن مؤَسسي المؤتمر في هذه العاصمة لم يجدوا لهذا الاجتماع الوُدّي الذي تقرر في البروجرامات أَنسَبَ من هذا السراي؛ لاتساعهِ، ولِقُربهِ من الفندق الذي نزل فيهِ غالب الأَعضاءِ، فضلاً عن التيمُّن بهذا المحل، المجعول للاجتماعات الأَخوية، فناسب أن يكون الاجتماع الوديّ المقصود بهِ التعارف بين الأَعضاءِ، واقعاً في المحل المخصوص باجتماعات الإِخاءِ. ولا يبعد مع ذلك أن يكون الكثير من معتبري هذا البلد ومؤَسسي المؤتمر فيهِ من هذه العشيرة الأَخويّة، فاختاروا هذا المحل لذلك، كما أَنّهُ لا يبعد أَن يكون من ضمن أعضاءِ المؤتمر الحاضرين من الخارج والبلديين كثير ممن جمعتهم هذه الجمعيّة المؤَسسة على الإِخاءِ والمساواة والحريّة. والذي علمناهُ أَن هذه الجمعيّة منتشرةٌ في بلاد النرويج، وفي شقيقتها الّتي بارحنا عاصمتها، كل الانتشار، وأَن ذلك من أَسباب سرعة تقدمهما في المدنيّة والعُمران.

* * *

(الافتتاحُ الرسميُ للمؤتمر في كرستيانيا)

ووليمة أُسْكَارْ سِهَالْ

حصل هذا الافتتاح في وقتِهِ المحدود، وهو تمام الساعة العاشرة قبل الظهر من يوم الاثنين 9 سپتمبر سنة 1889 بقاعة الخطابة في المواضيع العلميَّة من المدرسة الجامعة، فاجتمع بها أعضاءُ المؤتمر بملابسهم الرسميَّة، وحضر عظماءُ القوم وأمراؤُهم وعلماؤُهم ورجال الحكومة، ورؤَساءُ المجالس النيابيَّة، ثم حضر صاحب المقام السامي ثاني أنجال الملك النائب عنهُ بهذه العاصمة.

وهذه القاعة على شكل نصف دائرة محلّاة[1] بالرسومات والنقوش، جُعل فيها منبر للخطابة، وصُفت بها الكراسي لجلوس الحاضرين، وكانوا نحو أَلف، حتى غَصَّ بهم المكان، وتعسَّر فيهِ الانتقال من محلٍّ إلى آخر، وبدائر هذه القاعة محالُّ مرتفعة مطلة على الجالسين جلست فيها النساء.

وبمجرّد وصول ثاني الأنجال افتتح الحفلة المسيو سْفِيزْدْرُوبْ رئيس المؤتمر للنرويج، وناظر المعارف فيها بخطبةٍ من لغة البلاد، ضمَّنها تهنئة نفسهِ وأَهل بلادهِ باجتماع هذا المؤتمر المشتمل على أَفاضل العلماءِ وأكابر الفضلاءِ بعاصمة البلاد، والإعلان بأَنّها ستقوم بشكر هذه المِنّة، وَتُوَفِّي الوافدين حقهم من الإِعزاز والإِجلال، ولا تتأخر عن شقيقتها عاصمة السويد عن أَداءِ هذا الواجب، والقيام بهِ أحسن القيام، حاذية حذوها في

---

(1) في الأصل: «محلات» المحرر.

جميع ما قامت بهِ من واجبات التعظيم والإكرام إلى أن قال: «وإني وإن كنت أعترف بأني لم أكن من الاطلاع على لغات الشرق وعلومهِ بدرجة تؤهلني لشرف هذه الرياسة، ولكني أطعت أمر سيدي الملك الذي ولاّني هذهِ المهمة، وأولاني هذهِ النعمة، فباسمهِ الشريف، أُعلن بافتتاح هذا المؤتمر في عاصمة هذه الديار، مختتماً مقالتي بالترحيب بكم، والتأهيل لكم يا حضرات الفضلاءِ الأمجاد».

ثم تلاهُ الأستاذ لِيبْلَينْ نائب رياسة المؤتمر، وأستاذ العلوم المصريّة القديمة بالمدرسة الجامعة، فخطب بالفرنساويّة خطبة خاطب فيها المستشرقين، بما معناهُ، إنهم وإن لم يجدوا في النرويج علماء يماثلونهم في معرفة العلوم واللغات المشرقيّة، بسبب بعد بلادهم عن بلاد المشرق، لكن سيجدون، مع ذلك، عندنا من يعرف فضلهم، ويقدُرُ لهم قدرهم، على أن من وطنيّينا من كتب في اللغات الساميّة كتابات أشهر من أن تذكر، ومنّا من ألّف في أصول اللغة الآريّة ما تُرجم إلى سائر اللغات، هذا والأمل أن اجتماعكم بهذه البلد، يزيد في استنهاض الهمم عندنا إلى هذه المعلومات، واجتناءِ ثمرات هذه الخيرات، ويكون لكم الفضل في ذلك، واليد الطولى فيهِ، وأنتم أول مَنْ شرفنا بعقد جمعيّة مشرقيّة في بلادنا، فمرحباً بكم وأهلاً وسهلاً، شرفتم البلاد وأهل البلاد.

وخطب بعدهُ حضرة الكونت ده لاندبرج بالفرنساويّة خطبةً ألمع فيها إلى خدماتهِ في سبيل هذا المؤتمر، واجتماعهِ، مفتخراً بما أولاهُ سموّ الملك من المكافأة على ذلك، ثم أعلن فيها بما تفضّل بهِ سموّهُ من التبرع إلى المدرسة الجامعة في هذه العاصمة بنصف الكتب المهداة إليهِ، بمناسبة

المؤتمر المتجاوز، عددها ألفان[1]، وذلك لمحبة سموّهِ لهذه البلاد وتوجه نظرهِ إليها.

ثم خطب بعدهُ أحد الأساتذة الإنكليز، ثم أحد الأساتذة الألمانيين، ثم الراهب الهندي، ثم غيرهم من العلماءِ بما يتضمن التشكُّر على الترحيب بهم والتحيَّة لهم، حتى انقضت الجلسة وقت الظهر، وتوجه كلٌّ إلى محلهِ، وانصرفنا إلى الفندق، وبقينا بهِ، ولم نحضر مع الأعضاءِ، حيث اجتمع أقسام المؤتمر الخمسة من الساعة 2 إلى الساعة 4 بعد الظهر في المدرسة الجامعة، كل قسم بمحل مدرسة من مدارسها الخمسة، وذلك لانحراف صحة سيدي الوالد.

كما أنهُ لم يمكنا لأَجل هذا الانحراف التوجه إلى قصر أُسكارسْهَالْ الملوكي الذي بجهة «بيجدُهْ» القريبة من كرستيانيا على مسافة يسيرة في البحر، وقد دُعي الأعضاءُ إلى التفرج عليهِ، ومشاهدة الآثار القديمة النرويجيَّة الَّتي نقلها إلى بستان ذلك القصر سموّ الملك أسكار الثاني، وتعاطي طعام العشاءِ هناك من طرف الخاصة الملَوكيَّة، وسماع الموسيقا والتمتع بمناظر الزينة الَّتي تُجعل ثمَّة.

والذي علمناهُ ممن توجه من الأَعضاءِ أَنَّهم ركبوا وابورات أُعدَّت لهم الساعة أربعة ونصف بعد الظهر، فأَوصلتهم في مسافة ربع ساعة. وهناك استقبلهم باسم الملك المسيو «مُولْسْت» أحد ياروانهِ، وحيَّاهم تحيَّة القدوم ومرَّ بهم من البستان إلى القصر، وما زالوا يتفرجون معهُ على القصر وما فيهِ إلى الساعة السادسة.

---

(1) في الأصل: «ألفين» المحرر.

وهذا القصر بُني برسم الملك أُسكار الأول من سنة 1849 إلى سنة 1852، وكلهُ مزيّن بالنقوش والرسومات من أعمال أحسن الرسامين النرويجيين.

وفي أثناءِ الزيارة شرّف صاحب المقام السامي ثاني أنجال الملك، فسار بالمدعوّين إلى الآثار النرويجيّة الّتي نقلها والدهُ حفظاً لها من الدمار، ووضعها في جهةٍ من بستان هذا القصر، وهي على حالها الّتي كانت عليهِ بدون أدنى تغيُّرٍ فيها، يقصدها السياح من كل مكان، وأهم هذه الآثار كنيسة مصنوعة كلها من الخشب كما كانت العادة عندهم في الأزمان الخالية، صُنِعت في القرن الثاني عشر، أو الثالث عشر، وهي في غاية الإِحكام والإِتقان، ومع قدمها لم تتغيَّر إلى الآن، ومن هذه الآثار، مسكنان من مساكن الفلاحين، الّذين يسكنون شمال البلاد مع ما فيهما من أثاث المنزل ولوازمهِ، على الحالة الّتي كان هذان المسكنان عليها من قديم العهد وسالف الزمان، وقد ألقى حينئذٍ المسيو دِيتْرِيكْسُون من أساتذة المدرسة الجامعة بكرستيانيا خطبة شرح للحاضرين فيها هذه الآثار، وأبانها لهم أتمّ تِبْيَان، وطبع هذه الخطبة مع رسم الآثار المذكورة، ووزّعها على الأعضاءِ، فأهداني أحد الأساتذة نسخة منها.

وفي الساعة السابعة صار تعاطي الطعام، وكان في أثنائِهِ وبعدهُ إلى الساعة العاشرة، يُطرب المدعوّين أشهر المغنين معرفةً بالموسيقا والألحان فضلاً عن الموسيقيات العسكريّة الّتي توجهت برسمهم إلى تلك الجهة، وكانت الزينة الكهربائيّة والغازيّة الّتي تزين بها القصر والبستان على أحسن حال، وأتم نظام، حتى آن وقت العود، فركب الأعضاءُ الوابورات، وأخذوا في

الإِياب إلى كرستيانيا يتفرجون في أثناء السير عِلى الزينات الَتي أَقامها الأَهلون من كل جانب ببديع الأَشكال، وغريب الأَلوان، بين ما هم يتهلون بارتفاع الأَصوات، للترحيب وإِظهار الفرح والسرور، حتى وصلوا كرستيانيا نحو نصف الليل.

أَما درجة الحرارة في النهار بعد العصر من هذا اليوم في رحبة الفندق على ما علَّقتهُ عندي فكانت 12 فوق الصفر، وقد أَخبرني بعض الأَصحاب ممن حضر الوليمة، أنها في حال عودتهم كانت أَقل من عشر درجات.

* * *

(شلّالات هُونِهْ فُوسْ)

من مقتضى پروجرام المؤتمر اليوم يوم الثلاثاء 10 سپتمبر سنة 1889 أن يجتمع الأعضاءُ بالأقسام، كلٌّ وقسمهُ الذي اختارهُ من الساعة 9 و30 دقيقة إلى الساعة 11 و30 دقيقة قبل الظهر، وأن يركبوا في الساعة 12 قطاراً مخصوصاً يذهب بهم إلى شلالات هُونِهْ فُوسْ الّتي تتدفّق منها المياه تدفقاً عجيباً، وأنهم يتعاطون طعام العشاءِ في مدينة هُونِهْ فُوسْ بجوار هذه الشلالات البديعة، وأنهم يعودون منها في الساعة 6 و30 دقيقة بعد الظهر بقطار مخصوص يقف بهم على محطة مدينة دْرَامْمِنْ، حيث تُقدّم لهم نساءُ المدينة الشاي، ثم يسيرون بعد ذلك حتى يصلوا إلى كرستيانيا في نحو الساعة 11 مَسَاءً.

ولم يتيسر لي في هذا اليوم لداعي استمرار انحراف صحة السيد الوالد حضور مجتمعات الأقسام، ولا حضور وليمة الشلالات المذكورة، غير أني تحصلت من الأساتذة الأصحاب على أخبار ما جرى في مجتمعات الصباح، وأخبار الوليمة والشلّالات، مع ما أعانني على معرفة حقيقة هذه الشلّالات وطريقها من كتاب الدليل.

أمّا مجتمعات الصباح فلم يحصل فيها أمر ذو بال، حتى اقتصر بعضهم على أن كرّرَ فيها ما قالهُ في أُستكهلم، ولم تحدث مقالات مهمة في الفصل الإسلامي غير مقالة ألقاها الأُستاذ ليتنر عن الجامع الذي شرع في إنشائهِ ببلاد إنجلتره بواسطة نقود استحصل عليها من أصحابهِ المسلمين والإنجليز، ومقالة ألقاها أحد أساتذة الروس، ذكر فيها اكتتاباً قاموا بهِ لإنشاءِ جامع في سان بطرسبورج للمسلمين من التتار وغيرهم، تحصّل منهُ عشرون ألف روبل،

وأنهم عمّا قليل يقومون بإقامة الجامع وتشييدهِ، وقد كان متولي رياسة هذا الفصل اليوم، حضرة الفاضل الوطني المحب لملتهِ، والخادم الصادق لدولتهِ صاحب العطوفة مدحت إفندي، فشكر هذين الفاضلين ومن أعان على هذا المشروع، وأتبع ذلك بالمقارنة بين حالة أُوروپا السابقة حتى في أوائل القرن الحاضر، وقد كان أهلها ينقمون على غير المسيحيين، وبين حالتها الآن من احترام أهلها سائر المعتقدات، حتى قاموا بتشييد جوامع تقام فيها شعائر الدين الحنيف، ونسب الفضل في ذلك كلهِ إلى العلماءِ المستشرقين، حيث أبادوا بأبحاثهم واستكشافاتهم ظلمات الأوهام، وأبانوا فساد الاعتقادات الّتي كانت تنسب إلى ديننا الحنيفيّ ما هو منهُ براءة من الضلالات والخزعبلات.

وأما السير إلى الشلالات فقد أُعد للأعضاءِ قطار سار بهم متجهاً إلى الغرب يمر بهم تارة على خليج كرستيانيا الشهير، وينحرف عند أخرى، ثم توجه نحو الجنوب وإن كانت المدينة المقصودة وشلالاتها نحو الشمال الغربي، لكن اعوجاج الجبال بهذا الطريق أوجب ذلك، واستمر السير نحو الجنوب مسافة طويلة، ثم اتجه إلى الغرب نحو مدينة درامّن الّتي سيتعاطون فيها الشاي في أثناءَ العودة، ثم جاوزها إلى ما بعدها، يخترق المنافذ، ويعبر الأنهار، ويكتنف البحيرات، ويصعد الجبال حتى وصل إلى هُوجِسُونْد، ومرّ بعدُ بشلالاتها، ثم اتجه نحو الشمال الشرقي، واستمر على ذلك مسافة حتى وصل هونِهْ فوس.

وقد أُعدت موائد الطعام، واجتمعت النساءُ من الجهات المجاورة، يغنينَ في أثناءَ الأكل بالأنغام الأهليّة من غير آلات موسيقيّة، مما فضلهنّ على تلامذة أُبِسَالَا لرخامة أصواتهنّ، مع بديع جمالهنّ، وحسن أشكالهنّ، وزخرف

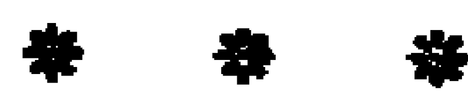
(1) في الأصل: «المنيف» المحرر.

ملابسهنّ. وبعد التفرج على الشلالات ورؤية تدفُّق المياه منها بقوة عجيبة وسرعة غريبة، والنظر هنيهة إلى مدينة هُونه فُوسْ الّتي عدد سكانها 1150 نسمة، انصرف الأعضاءُ عائدين إلى كرستيانيا مارّين في أثناء الطريق على دْرَامنْ لتعاطي الشاي الذي وعدوا بتعاطيهِ عند العودة، وأن تُقَدّمهُ لهم النساء.

«ودْرَامنْ» هذه بلدة ذات ثروة قائمة على شاطئ خليج «دْرَامنْ سِلفْ» نسبةً إليها، عدد سكانها نحو 19 ألف نسمة، متسعة في التجارة، خصوصاً في الأخشاب الّتي تُجلب إليها من الغابات والجهات المجاورة لها بواسطة الأَنهار والبحيرات، فيصدر عنها من الأخشاب ما قيمتهُ خمسة ملايين كورون في السنة، فضلاً عن الزنك والنيكل، وبين طرفيها كوبري من الخشب على النهر طولهُ 300 متر، يقصدهُ في أيام الحر أهل المدينة للتنزه واستنشاق النسيم الخالص، والتمتع بنظر الشلالات، مع الانتفاع في العبور عليهِ إلى كلّ من طرفي المدينة.

وبعد أن شربوا الشاي، وكان قد أُعدَّ لهم بالمحطة على أحسن أسلوب، وقدّمهُ لهم نساءُ أكابر القوم متحليات بملابسهنّ الوطنيّة إجلالاً لهم، والجهة مزدانة بِأَبْهَج الزينة وأَبْهَى الأنوار، وقد حضر في هذه الحفلة أكابر أهل المدينة ومعتبروها رغبة منهم في التعرف بالعلماءِ، فمكثوا معهم فيها نحو نصف ساعة عادوا إلى القطار، وساروا حتى وصلوا كرستيانيا.

وأخبر بعضهم أن درجة الحرارة في أثناء الطريق ليلاً كانت أقل من عشر فوق الصفر، أما في كرستيانيا قبل توجههم صباحاً فكانت 15، وكانت 12 بعد الظهر.



(أثر سيدي الوالد الذي قَدَّمهُ)

إلى المؤتمر في أمر التعليم الجاري بمصر
في المدارس الأميرية والمكاتب الأهلية والمدارس الدينيّة

اجتمع أعضاءُ الفصل الأول من القسم الأول اليوم يوم الأربعاءِ 11 سپتمبر سنة 1889 في المحل المعد لاجتماعهِ بالمدرسة الجامعة، والساعة عشرة ونصف قبل الظهر، فقدَّم سيدي الوالد الأَثر الذي كتبهُ على التعليم بمصر، وعرض عليهم مقدمتهُ، وتكلَّم إجمالاً على ما ضمَّنهُ إيَّاهُ مبيناً تقسيماتهِ بناءً على طلب أفاضل الحاضرين، خصوصاً ما يتعلق بالأزهر منها، فوقع ذلك منهم موقع القبول والاستحسان.

أمَّا المقدمة فهذا نصُّها:

«لا خفاءَ في أن مصر كان لها في أيامها الأُولى من التقدم والقِدَم ورسوخ القَدَم في العلوم والصنائع ما تغني الشهرة فيهِ عن ذكرهِ، ويكفي منهُ ما يوجد اليوم في كل بقعة من أَثرهِ، ولسنا الآن بصددهِ، ثم تحوّلت الحال، وجرَّ عليها ما جرى في الأَزمان الطوال من صروف الأَحوال وصنوف الأهوال ما أَخذ يستنزلها عن رفعة مقامها، ويسلُبُها ما اكتسبتهُ في سوالف أَيامها، حتى اندرست معالمها وعلومها، وانطمست رواسيمها[1] ورسومها.

«ثم جاءَها الفتح العربي بالدين الإسلامي على يد من وافاها بهِ من المسلمين الَّذين سكنوها واستوطنوها، ودخل معهم في دين الإِسلام من

(1) الرواسيم كتب كانت في الجاهليّة.

دخل من أهلها بتوالي الأيام، فنمت الألفة بين الأعراب الغرباءِ الوافدين والأهلين الأصليّين وتمت المواصلة بين الفريقين، وسرى إلى أهل البلاد بواسطة المخالطة ما كان للقوم الفاتحين، من اللغة والأخلاق والعادات، وإن لم يَجْبُروا أحداً على ترك لغته أو عادتهِ، ولكن جرت العادة بتقليد المغلوب للغالب، ومتابعة الضعيف للقوي، كما هو معلوم، ومع تمادي الأيام انتشرت في بلاد مصر لغة العرب إلى أن غلبت على اللغة القبطية، وكادت تستأصلها بالكليّة، حتى لا يُرى في قبط مصر من أجاد معرفة لغتهِ واعتاد استعمالها في محاورتهِ ولو مع بني جلدتهِ إلاّ القليل، وأقل منهُ من تمكن في معرفة قراءتها وكتابتها وقواعدها، أمّا اللغة المصريّة القديمة الّتي كانت مستعملة بين قدماءِ المصريين (وهي أصل اللسان القبطي السالف الذكر) وتُعرف كتابتها القديمة البربائيّة بالخط الهيروغليفي، فلا يوجد فيهم عارف بها وبقواعد قراءتها وكتابتها، إلاّ إن كان قد تعلم ذلك من بعض الأوروبيين بعد استكشافهِ في الأزمان الأخيرة، كما تعلّمهُ أيضاً بعض المسلمين.

«واللغة الغالبة المتداولة الآن في مصر بين متوطنيها وأهليها قبطها ومسلميها هي اللغة العربيّة، مع بعض تحريف لا يمتنع معهُ الرجوع فيهِ إلى الأصل الفصيح من العربي الصحيح، وكذلك دخلها الدخيل، من المولّد والمعرّب، من اللغات الأعجميّة كالفارسيّة واليونانيّة، ثم التركيّة، ثم الإفرنجيّة بحسب تقلبات الأحوال، وتداول الاستعمال، وحاجة التخاطب والتفاهم لاسيما في الأشياءِ الحديثة العهد».

«ولما دخل هذه البلاد اللغة العربيّة والديانة الإسلاميّة معاً تبعهما ما تبعهما من علوم القرآن والحديث كشرح الغريب، وحل المعنى، واستنباط

الأَحكام، كالحلال والحرام والصحيح والفاسد إلى غير ذلك من الأَحكام والأُصول والفروع الشرعيّة والعقائد، وغيرها من المقاصد ووسائلها، كعلم متن اللغة والنحو والصرف، إلى غير ذلك، لاسيما بعد أَن دُوِّنت هذه العلوم، وتقررت قواعدها، وتأَسست أُصولها، وتفرعت فروعها.

ثم لما اتسعت الدولة العربيّة، وتمهد ملكها، وعظمت سلطتها، تبع ذلك بالضرورة ما هو من توابعهِ ولوازمهِ من أَمر الحضارة والتمدن، ولحق ذلك لما يلحقهُ في مجرى العادة من تقدم العلوم والفنون والحرف والصنائع، فبلغت دولة العرب في ذلك مبلغاً عظيماً، كفانا الإِطنابَ فيهِ التواتُر والشهرة، ونبغوا في فنون كثيرة سوى العلوم الدينيّة واللغويّة، كالحساب والجبر والهندسة والهيئة والطب والكيمياءِ والطبيعة وعلم المواليد الثلاث (التاريخ الطبيعي)، إلى غير ذلك، وقاسوا الدرجة الأَرضيّة، وعملوا الأَزياج والأَرصاد، والمباني الفَنِّيّة، والتجاريب الكيماويّة والطبيعيّة، وكثيراً من الأَعمال اليدويّة والعقليّة.

ونالت في خلال ذلك مصر حَظَّها من فنون المعارف وافياً، ونصيبها وافراً، وكثر بها العلماءُ والعلوم والصناع والصنائع، ونقلت منها وإليها المتاجر والبضائع، وأُتقنت بها الأَعمال، وتفننت فيها العُمَّال، ونُقلت بعض مصنوعاتها إلى المشرق والمغرب وسائر الجهات، وتنافست فيها الملوك وعظماءُ الناس، حتى بلغت قيمة الثوب الواحد مما كان يُصنع بها أَلف دينار، وأَعطى سيف الدولة الحَمْدَاني[1] مرة للشاعرين المعروفين

(1) سيف الدولة هو علي الحَمْدَاني من ملوك بني حمدان، مَلَكَ واسِطَ وأطرافها، ثم امتد ملكهُ إلى حلب، ثم إلى دِمَشق، وأكثر بلاد الشام وتوفي سنة 356 هجريّة.

بالخالديين[1] في عطيّةٍ لهُ ثياباً من عمل مصر، فقالا في شعر لهما يمدحانهِ:

أَتَتْ الوصيفةُ وهي تَحْمِلُ بدرة　　وأَتَى على ظَهر الوصيف الكيسُ

وكَسَوْتَنَا ممّا أجادت حَوْكَهُ　　مصرٌ وزادت حسنَهُ تِنّيسُ

وتنيس مدينة كانت بين الفرما ودمياط من شمال مصر، ثم خَرِبت وَدُرِسَت. وفي خطط المقريزي «تنيس مدينة كبيرة، وفيها آثار كثيرة للأوائل، وكان أهلها مياسيرَ أصحاب ثراءٍ، وأكثرهم حاكة، وبها يحاك ثياب الشروب الّتي لا يُصنع مثلها في الدنيا، وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال لهُ البدنة، لا يدخل فيهِ من الغزل سداءً ولحمةً غير أوقيتين، وينسج باقيهِ بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمتهُ ألف دينار، وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منهُ، وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عيناً غير طراز تنيس ودمياط» انتهى. وقس على ذلك.

ثم ضرب الدهر ضرباتهِ على جاري عاداتهِ، فتقلص ظل الملك في مصر، وكثر بها الخلل والفشل، وعم الفساد، واستتبع ذلك ما هو أخص لوازمهِ من تناقص العُمران، وتقهقر أمر العلم والتعلم والفنون والصنائع، إلى أن أظل زمان حكومة العَلَم الشهير، والشهم الخطير، نادرة الأدوار، وبكر الفلك الدوار، أفندينا الكبير محمد علي، عليُّ الشان، نزيل دار الرحمة والغفران، على حين تم الاختلال وفساد الأحوال، وانقرضت العلوم والفنون والصنائع، ولم يبقَ من المعارف إلّا ما كان منحصراً بمصر

(1) الخالديان شاعران مشهوران كانا من خواص سيف الدولة المذكور قبلُ، وهما أبو عثمان سعيد بن هاشم بن وعْلَةَ وأخوهُ أبو بكر محمّد بن هاشم، واشتهر أيضاً بابن وعْلَةَ، وكانا يشتركان في كثير من الشعر، منهُ ما ذكر في الأصل، ونسبتهما إلى الخالديّة وهي قرية من أعمال الموصل.

في الجامع الأزهر، وقد بقي فيهِ إذ ذاك بقيّة من العلماءِ العظام والأَفاضل الأَعْلام، ولم يبقَ في غيرهِ شيءٌ من ذلك سوى النزر اليسير، والنادر لا حكم لهُ.

«فلما استتبت الحكومة للمرحوم المشار إليهِ، واستقام الأَمر، واستراح خاطرهُ من المانع والمُزاحم، أَخذ في إحياءِ موات العلوم والمعارف، وتجديد دوارس الدروس والمدارس، وإنشاء المعامل والمصانع، لتقدُّم الأَعمال والصنائع، فجدد المكاتب والمدارس للتعليمات الابتدائيَّة والتجهيزيَّة، والعلوم الهندسيَّة، والطبيَّة البشريَّة، والبيطريَّة، والفنون العسكريَّة للبريَّة والبحريَّة، واستحدث معامل الأسلحة، وأَدوات الحرب، ومصانع لعمل السفائن لنهر النيل وفروعهِ، وكذا السفن والبوارج، للبحر الملح، حتى صار عندهُ عمارة بحريَّة عظيمة وأسطول كبير، وغير ذلك مثل معامل المنسوجات، ملوّنة وغير ملونة من القطن والصوف، فتحسنت الصنائع وانتشرت الفنون، ونشأَت دولة العلوم، وخلفهُ أَخلافهُ على ذلك، تغمَّد الله الجميع برحمتهِ وغفرانهِ، وكافأَ كل صانع على حسن صنيعهِ بشامل إِحسانهِ.

«ثم أفضت نوبة الحكومة إلى حفيدهِ المعظَّم وواسطة عقد مجدهِ المنظَّم، الذي نشأَ في مهد العلم، واغتذى بلبان الفضل، وشبَّ على حب المعارف خديوينا الأكرم خديو مصر الأَعظم مُحمَّد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن مُحمَّد علي المشار إليهِ، نَضَّر الله أَيامهُ، وَيسّر لهُ خير ما رامهُ، فنشأَ مجبولاً طبعهُ، مصروفاً اهتمامهُ، متوجهاً نظرهُ إلى حب العلوم والمدارس، ونشر المعارف، وارتفاع درجة الفضل، وشرف محلهِ وانتفاع أهلهِ، فبذل غاية ما في وسعهِ، ونهاية ما وصلت إليهِ يد إمكانهِ، في الإعانة على انتشار

المعارف ببلادهِ، وتقدم أَمر التعليم والتعلُّم في أَوطانهِ على ما هي عليهِ حالة الماليَّة، واقتدى بهِ في ذلك أَرباب الأَنظار، من نظار الحكومة النبلاءِ وأمناءِ الأمراءِ، ولا تزال أنظارهُ السعيدة وأنظارهم، وأفكارهُ السديدة وأفكارهم، متجهة إلى المساعدة في أَمر المكاتب، والمدارس، والتعلم والتعليم جهد المستطيع، ومدى الممكن، وما زال التحسين حاصلاً والإصلاح متواصلاً، وسيأْتي الكلام على التعليم الجاري الآن في المكاتب والمدارس على اختلاف أَنواعها، وتنوع درجاتها، وهذا المقام هو الغرض المقصود بالكلام، والله ولي التوفيق».

وأما تقسيمات الأَثر المذكور فهي هذه:

تمهيد في تقسيم المكاتب والمدارس.

الفصل الأَول في المكاتب والمدارس الابتدائيَّة.

الكلام على المكاتب الابتدائيَّة الَّتي من الدرجة الثالثة.

الكلام على مكاتب الدرجة الثانية.

الكلام على المدارس والمكاتب الابتدائيَّة ذات الدرجة الأُولى.

الفصل الثاني في المدارس الثانويَّة «التجهيزية».

الفصل الثالث في المدرسة الطبيَّة.

الفصل الرابع في المدرسة الهندسيَّة «مهند سخانة».

الفصل الخامس في مدرسة الحقوق.

الفصل السادس في دار العلوم.

الفصل السابع في المدرسة التوفيقيَّة والمدرسة الخديويَّة.

الفصل الثامن في مدرسة الفنون والصنائع.

الفصل التاسع في مدرسة العميان والخرس.

الفصل العاشر في مدرسة البنات.

الفصل الحادي عشر في المدارس الحربيّة.

الفصل الثاني عشر في الأزهر.

ويتبع ذلك جداول إحصائية، وبعض بيانات متعلقة بها، مثل تعداد أَهل الجامع الأزهر، وبيان مقدار المرتب لهُ من الجراية في كل يوم، وبيان مرتبات العلماءِ الجاري صرفها من الماليّة، وقانون انتخاب من يطلب تعيينهُ في وظيفة القضاءِ أو الافتاءِ، وقانون امتحان من يُريد التدريس بالأَزهر والجاري في شأن تعيين الأئمة والخطباءِ في المساجد، وقانون الامتحان للإعفاءِ من القرعة العسكريَّة، وعدد أرباب كساوي التشريف ودرجاتهم، وبيان مصروفات المدارس والمكاتب والنقود المتحصلة من التلامذة، وعدد التلامذة الحالي، ومضاهاتهِ بما قبلهُ، وبيان إجمالي التعليم بالقاهرة، وجداول مقارنات إحصائية بالمدارس والمكاتب والمتعلمين والمعلمين، وعدد الأَهلين، ثم جدول بخصوص الإرساليات المصريَّة بأوروپا، ثم جداول بيان المدارس الحرة التابعة لجمعيات خيريَّة أَو دينيَّة، وجدول أَعداد تلامذة هذه المدارس الحرة بحسَب جنسية التلامذة وديانتهم، وجدول بيان المدارس الموجودة في الجوامع إلى غير ذلك.

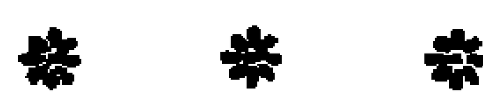
* * *

(ختـام المؤتمر)

لم تتم الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاءِ 11 سبتمبر سنة 1889 حتى تكامل ورود الأَعضاءِ والمأْمورين، بملابسهم الرسميَّة إلى القاعة الكبرى بالمدرسة الجامعة، وبتمام الساعة المذكورة، انعقدت الحفلة تحت رياسة ناظر المعارف العموميَّة، وكان الزحام بداخل المحل وخارجهِ لم يسبق لهُ مثال.

فتكلم الراهب الهندي بلغة البراهمة «سانسكريت» مودعاً أَهل هذه البلاد شاكراً إِفضالهم وإِفضال أَعضاءِ المؤتمر الكرام، وتكلم بعدهُ سعادة بروكش باشا مع الإيجاز في موضوع تاريخي مصري، وتكلم الأستاذ ليتنر في الحث على تعلُّم اللغات المشرقيَّة، وأَنها الواسطة في زيادة معرفة ما انطبع عليهِ أهل الشرق من محاسن العادات وَأَحاسن الصفات، وتكلم غير هؤُلاءِ موجزين بما يناسب المقام، ثم خطب الرئيس خطبة مطولة، ضمنها شكر أَعضاءِ المؤتمر على تشريفهم هذه البلاد، وسعيهم إليها من جميع الأَنحاءِ مختتماً خطبتهُ، بإِعلان ختام أَعمال المؤتمر الثامن للمستشرقين.

فقابل الأعضاءُ شكرهُ بالتصفيق مقابلة للجميل بالجميل، وأَردفوا ذلك بالدعاءِ لمليك النرويج والسويد، وانصرف الجميع، وانصرفنا، والساعة ثلاثة ونصف بعد الظهر، ثم أخذنا بعد استبدال الملابس الرسميَّة العادية نتفرج بالبلد إلى الساعة الخامسة بعد الظهر، فتوجهنا إلى الوليمة الَّتي أَعدتها البلدية لأَعضاءِ المؤتمر في سراي المحافل الماسونيَّة.



(وليمة مدينة كرستيانيا)

ابتُدِئت هذه الوليمة والساعة خمسة بعد الظهر من يوم الأربعاء 11 سبتمبر سنة 1889 بقاعة الاحتفالات الكبيرة من سراي المحافل الماسونيّة، وقد زينت هذه القاعة بأَصناف الزهور والرياحين والأَشجار، وحُلّيت بالتصاوير والرسومات، وأَعلام الدول المختلفة تخفُق فيها، يتخلل ذلك مصابيح الغاز والكهرباءِ، وتواردت إليها أَعضاءُ المؤتمر وعظماءُ المملكة وأمراؤُها بالملابس الرسميّة، والجميع يقابلهم رئيس المدينة وأعضاءُ مجلسها البلدي بغاية الترحيب والإِجلال، وقد صُفّت الموائد على الطراز الأُوروبي، وجلس كلُّ مكانهُ الذي أُعد لهُ ودارت عليهم الخدم بالمآكل والأَشربة المختلفة الأَصناف والأَلوان والموسيقا تصدح بالنغمات المناسبة للمقام، وفي أثناءِ ذلك صدحت بالسلام الخديوي بعد سلام جلالة السلطان المُعَظّم وسموّ شاه العجم.

ومما يستغرب في هذه الوليمة لحم الدُّب، وقد هُيِّئ للأَعضاءِ من باب الإِكرام، وزيادة الاحتفاءِ، ولم يسبق لهُ عندنا مثال، بل ربما لم يسبق لهُ ذلك عند غيرنا من الأَعضاءِ من غير هذه البلاد، وقد كنت رأَيت بقائمة المآكل أنهُ يقدم سابع أَصناف الطعام، ومعهُ فراريج صغيرة، وصنف من المربّيَات الحُلوة. وسلطة نرويجيّةٌ، فلمّا حضر مالت نفسي إليهِ، وتهيأت للأَكل منهُ لاسيما أني رأَيت جلد دُبٍّ أَبيض منبسطاً على أَحد جدران قاعة الطعام ضمن ما زُيّنَت بهِ، ففهمت أَنَّ ما سيقدم سابع الأَصناف، هو من لحم الدُّب الأَبيض، الذي هذا الجلد لنوعهِ، وزال ما عندي من الاشمئزاز الذي

كان في نفسي من صنف الدُّب الذي رأَيتهُ بمصر، البشع المنظر المغبر اللون، فتناولت منهُ قطعاً فوجدتها لذيذة الطعم أَشبهَ بلحم الحمام أو الطير السُّمَانيَ يضرب إلى الحمرة متقن الشيّ، تميل النفوس إليهِ، وترغب في الاستكثار منهُ.

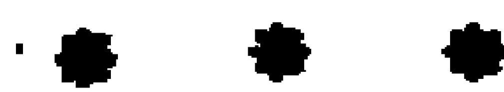
وكان أكلي منهُ لاعتقادي أَنَّهُ حلال، إذ لم أَسمع في القرآن ذكر تحريمهِ، فإن آية سورة الأنعام، وهي قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ...﴾ [الأنعام: 145] لم يصرح فيها بتحريم لحم الدُّب.

أما سيدي الوالد فأَخبرني أَنهُ لم يأْكل منهُ، وذلك أَنهُ كان بجانبهِ على المائدة جناب المسيو بُوزجِر يونْك القاضي النرويجي بمحكمة الإِسكندريّة المختلطة، وكان في بلادهِ بالإِجازة السنويّة، أَجلسهُ بجوارهِ أرباب الوليمة من باب الرعاية والإِكرام، فأَخذ كلما حضر طعام يجتهد في تفهيمهِ إِيَّاهُ، فلما حضر هذا الصنف أَراد أَن يفهمهُ بهِ، فذكر لهُ اسمهُ بالفرنساويّة، فلم يقم بخاطرهِ ما أَراد فأشار إلى الجلد المنبسط على الجدار، وأَشار إلى الطعام ففهم المقصود منهُ، فامتنع من تناولهِ.

هذا، والحكم في أَكل لحم الدُّب في مذهب الإمام مالك الإباحة أَو الكراهة، وفي شرح الخِرْشي على متن خليل أَن المشهور في أَكل لحم الدب الكراهة، وقد حكى القولين المذكورين عن مذهب الإِمام مالك الإِمامُ الشعراني في الميزان الكبرى لهُ، لكنهُ قدَّم في النقل عنهُ القول

بالإباحة، وذلك أنَّهُ قال أولاً ما معناهُ: إن مذهب مالك إباحة أَكل كل ذي ناب يَعْدُو بِهِ من الحيوانات المفترسة، وقال ثانياً ما معناهُ أيضاً: إن مذهبهُ كراهة ذلك، وقال: إنَّ الأئمة الثلاثة الباقين من الأَربعة يقولون بتحريم ذي ناب يَعْدُو بِهِ من الحيوانات المفترسة، والدب ذو ناب يعدو بِهِ من الحيوانات المفترسة، وقد استدل الإمام مالك على عدم تحريم الحيوانات المفترسة ذوات الأَنياب الَّتي تعدو بها بالآية المتقدمة أعني قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾ الآية.

هذا واستمرت المؤانسة والمحادثة حتى قربت الساعة الثامنة من الليل، فانصرفنا إلى الفندق لاستبدال الملابس التشريفيَّة بملابس السَّفَر والاستعداد لهُ، فسلَّمنا الأَمتعة إلى مستخدمي السكة الحديديَّة، وقد أَتوا إلى الفندق لاستلامها، وأَعْطَوْنا بوليصة بها لتسلُّمها بمحطة مدينة جُوتَنْبُورج، ثم ركبنا عربة إلى المحطة والسكة مزدحمة بالأَهلين للتوديع، والمحطة مزدانة بالأنوار والأزهار، ملأَى بالناس يَقْدُمهم السادة والأُمراءُ، والوابور الثاني مستعد، أَمّا الأَوَّل فقد سار والساعة عشرة و16 دقيقة، فسرنا في هذا الثاني بعد الأَول بعشرين دقيقة، ومقتضى البروجرام أَنَّهُ يصل في صباح اليوم التالي إلى شلَّالات تْرُولْ هِيتَنْ، فيتفرج الأَعضاءُ عليها، وعلى ما استحدث هناك من التُّرعة والهويسات، ويتعاطون الطعام بجوار الشلال الكبير، ثم يسيرون بعد ذلك والساعة اثنتان ونصف بعد الظهر بالوابور، فيصلون جُوتَنْبُورْج والساعة 4 و40 دقيقة بعد الظهر، ويحضرون بعد التفرج على المدينة، وليمة الوداع الَّتي يصير إِعدادها لهم آخر احتفال، في الساعة الثامنة بعد الظهر من ذلك اليوم، وفي صبيحة اليوم التالي يسير كلٌّ إلى حيث شاءَ.



(من كرستيانيا ترُولْ هِيتّنْ)

آخذنا منذ سرنا نتحدث بما رأيناهُ في عاصمة النرويج من الإعزاز والإكرام، وانجر الحديث إلى ذكر جِدّ هؤلاءِ القوم واجتهادهم في تحصيل ما تحسن بهِ أحوالهم، وتعظم بهِ ثروتهم، مستشهدين على ذلك بما عايناهُ من كثرة إرسال التجار الإعلانات إلينا بالفندق، بما يوجد عندهم من الأشياءِ مثل إخوانهم تجار السويد، مع كون الإعلانات المرسلة مزخرفةً برسم المدينة، مزينة بالنقوش الجميلة، ممّا يدعو المرسلة إليهِ إلى النظر إليها، والتأمُّلِ فيها، فإذا أعجبهُ الرسم أو النقش تشوّق إلى الاطلاع على باقي الإعلان، فيجد فيهِ الأشياءَ مفصلة على وجه حسن، فيرغب التفرُّج عليها، وذلك هو مقصود التاجر، فإنهُ متى ذهب إلى الدكان، وتفرج على الأشياءِ الّتي بها وحُسْنِ ترتيبها، وانضم إلى ذلك تحسين التاجر لهُ فيها، وبيان منافعها لم يجد بُدّاً من أن يشتري منها، فقد نال التاجر بغيتهُ منهُ من حيث لا يدري.

ثم انتقلنا من ذلك إلى المقارنة بين همة هؤلاءِ ونشاطهم فيما يوجب ثروتهم، وبين خمول أهل بلادنا وعدم اتخاذهم الطرق الّتي تُروّج حال متاجرهم، وَتُعَرِّف الناس بها، فَتُرَغِّبَهم فيها، وتجذبهم إليها ولو بإعلانها في الجرائد وكتابتها على الشوارع، وقد تذكرتُ عند ذلك ما رأيتهُ بالمصادفة[1] عند بعض الأحباب من المنسوجات اللطيفة المصنوعة بجهة بني سويف من بلادنا الّتي تصلح للفرش والستائر، فأخبرتهم بذلك، وأني

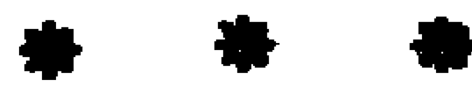
(1) في الأصل: «بالصدفة» المحرر.

تمنيت أن لو علمتها قبل رؤيتي لها، فكنت آخذ منها فرشاً وستائر بدل ما أَخذتهُ من مصنوعات البلاد الأَجنبية.

ولا شك أن مصنوعات بلادنا وحاصلاتها ما دامت مجهولةً ولم تعلم بها الناس يتطرق إليها الكساد، وتَفْتُر همم صانعيها وأصحابها، وربما تركوا الاشتغال بها، فتضيع وتُحرم منها البلاد بالمرة.

ويا حبذا لو اتخذ الأَهلون من أَصحاب الصنائع والحاصلات في المدن المهمة من مدن القطر، محلات يخصصونها بعرض نموذجات من حاصلاتهم ومصنوعاتهم، مبيناً بها أَثمانها، فيعرفها الناس ويطلبها من أصحابها من يريدها.

واستمر حديث الأَسف والتمني إلى نصف الليل، فنمنا إلى الصباح، ولما استيقظنا تمتعنا بالمناظر اللطيفة من أَودية وغابات وأنهار وبحيرات، حتى وصلنا والساعة 8 و34 دقيقة قبل الظهر من يوم الخميس 12 سبتمبر سنة 1889 إلى محطة ترول هِيتْن، فوجدنا العربات الكثيرة في انتظارنا، فركبناها وسارت بنا نحو ربع ساعة حتى أوصلتنا إلى مدينة ترول هِيتْن المذكورة.



(تْرُولْ هِيتّنْ وشلّالاتها)

مدينة ترول هيتّن هذه واقعة بالجهة الجنوبيّة الغربيّة من بحيرة وِينيرْنْ حيث تصب في نهر جُوتِلْف الموصل إلى مدينة جُوتِنْبُورْج.

وتلك مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة آلاف نسمة، ولكن شهرتها إنّما هي بالنسبة للشلّالات المنسوبة إلى اسمها المتدفقة بسرعة عظيمة من بحيرة وينيرن المذكورة في نهر جُوتِلْف المتقدم، يسكنها الصناع والعمال المشتغلون بمعامل الخشب والورق والحديد، الّتي تديرها قوة انصباب هذه الشلّالات.

وقُدِّرَتْ هذه القوة بقوة مائتين وخمسة وعشرين ألف حصان، وارتفاع هذه الشلّالات بأجمعها عن سطح النهر يبلغ 33 متراً، متوزعة على انحدار مسافتهُ 1500 متر.

وتتدفق هذه الشلالات في بعض الجهات بغزارة وقوة، فتفوق بذلك جميع جهات أُوروبا، ولهذا تقصدها السُّياح من كل مكان.

ونظراً إلى التمكن من السير ونقل الحاصلات بطريق بحيرة وينيرن ونهر جُوتِلِف المذكورين، من أستكهلم أو غيرها في داخل البلاد إلى جوتِنْبُورْج، ومن هذه إلى داخل البلاد أو إلى الخارج، اتجهت أَنظار العلماءِ من قديم الزمان، إلى إِعمال ما يمكن معهُ عبور السفن من البحيرة إلى النهر، ومنهُ إليها، وكان المانع من ذلك العبور، هو شلّالات ترول هيتّن المذكورة لعظم ارتفاعها، وقوة انصباب الماءِ منها، فأشار أحد هؤلاءِ العلماءِ منذ

مائة وخمسين سنة بإعمال ثلاثة أهْوِسةٍ (إيكلوز) بجوار الشلالات، فحفرت في الصخر، واستعملت زماناً، ولما زادت حركة التجارة واتسع أمرها، صارت هذه الأهْوِسة غير كافية، فأخذوا منذ سنة 1755 في حفر ترعة «كنال» موازية لنهر جُوتِلْف المذكور، وجعلوا في آخرها ثمانية أهوسة، وانتهى العمل في ذلك سنة 1800، واستغنى بهذه الترعة وأهوستها عن الأهوسة الثلاثة المتقدم ذكرها، ثم مع مرور الأيام، زاد اتساع أمر التجارة، واحتيج إلى عبور السفن الكبيرة، فعملوا لأجل ذلك سنة 1841 أحد عشر هويساً سُمِّيت «بالأهوسة الجديدة» مع استعمال الأهوسة الثمانية في عبور السفن الصغيرة أيضاً.

ويمر من هذه الترعة في السنة الواحدة من 6000 إلى 7000 آلاف سفينة، يتحصَّل عليها من العوائد نحو 25 مليون كورون.

وكيفيَّة المرور في النزول، أن السفن تأتي من جهة البحيرة، مارة في الترعة بدون صعوبة؛ لأن المياه فيها على استواءِ مياه البحيرة، حتى تدخل في أول الأهوسة من بابهِ الذي بجهة البحيرة، ثم يُغلق هذا الباب، ويُفتح جزءٌ من الباب الموصل إلى الهويس الثاني، فيأخذ الماءُ في الانصراف من الهويس الأول إلى الثاني، ويستمر إلى أن يتعادل فيهما، وحينَئِذٍ يفتح الباب الثاني تماماً، فتدخل السفينة مع الراحة في الهويس الثاني، وهكذا يفعل عند إرادة دخول السفينة في كل هويس، إلى أن تصل إلى نهر جُوتِلْف، وتكون [قد] تفادت[1] الشلالات.

وأمّا حال السفن في الصعود، فإن السفينة تدخل في أول هويس من جهة النهر من الباب الذي يليهِ بكل سهولة لاستواءِ الماءِ فيها، ثم يغلق هذا الباب،

(1) في الأصل: «فادت» المحرر.

ويُفتح جزءٌ من الباب المقابل لهُ، ليدخل الماءُ من الهويس الثاني إلى هذا الهويس، ويستمر حتى يستوي فيهما، فيفتح هذا الباب المقابل للأَول تماما، وتدخل السفينة في الهويس الثاني مع الراحة، وهكذا يفعل في كل هويس إلى أن تصل السفينة إلى الترعة، ومنها إلى مدينة ترول هيتن، وتكون [قد] تفادت الشلالات.

ومَثَلُ السفن في هذه الأَهوسة نزولاً وصعوداً، مَثَل النازل والصاعد في سُلَّم درجاتهُ هذه الأَهوسة والحياض.

وبعد أن ذكرنا هذه الإِجماليات على المدينة وشلالاتها والترعة وما بها من الحياض، أَذكر تفصيلات ما تفرجنا عليهِ في هذه الجهات.

وذلك أَنا بعد وصولنا إلى المحطة، ثم منها إلى المدينة، سرت مع سيدي الوالد وحضرة الفاضل مدحت إفندي، نتبع الناس في مسيرهم من الشمال إلى الجنوب، ثم إلى جهة اليمين، فاستمر بنا السير حتى قربنا من شلال «جُولُوهْ»، وهو أول الشلالات وارتفاع مصب الماءِ فيهِ سبعة أَمتار، وهناك جزيرتان في وسط النهر، بينهما كوبري يخيل للواقف عليهِ من سرعة جريان الماءِ وشدة انصبابهِ وإِرغائهِ وإِزبادهِ، وارتفاع دَوِيِّ خريرهِ، أن الكوبري يرتج، فيخشى أن يقتلع هو والجزيرتان الموضوع طرفاهُ على طرفيهما، ويذهب الجميع في الماءِ، لكن لطف المنظر وبهجتهُ يُنسيانهِ تلك المخاوف.

وبعد وقوفنا على هذا الكوبري هنيهة متَّعنا فيها الطرف بتلك المناظر بارحناهُ قليلاً إلى معمل ورق يُصنع من الخشب، يُدير آلاتهِ تيَّار الماءِ يعمل

فيهِ كثير من الصناع، فيقدم الواحد منهم قطعة الخشب إلى آلة فتقطّعها قطعاً متساوية، كل قطعة منها نحو ربع متر وتجرّدها عن قشورها، ثم تأخذها آلة أخرى فتحوّلها إلى عجين أبيض اللون، يخالطهُ ماءٌ، ثم تَبْسُطُه على آلة ثالثة هي عبارة عن شريط عريض من القماش، ترتج وتهتز، فتكسب ذلك العجين شكلاً رقيقاً، ثم يمر العجين المذكور بآلات تجففهُ، وتذهب رطوبتهُ فيصير ورقاً ثخيناً أو رقيقاً، أسمر أو أبيض حسب ما يراد، كل ذلك في أقرب وقت، فالإنسان إذا مشى مع الآلات، من أولها حيث توضع الخشبة المأخوذة من الغابات إلى آخر هذهِ الآلات وجد الخشبة المذكورة صارت ورقاً يستعملهُ حالاً فيما يُريد من الكتابة، وقد عاينَّا ذلك وأخذنا منهُ قطعة ورق للتذكار.

وبعد التفرج على المعمل عدنا إلى أصل الطريق، فصرنا نمر على معامل لنشر الأخشاب، ومصانع لصنع الأوراق، حتى وصلنا المصب المعروف بشلال «تُويِّيهْ» بجوار جزيرة صغيرة مضافة إلى هذا الاسم، يوصّل بينها وبين البر الذي نمر بهِ كوبري ممتد على الشلال، أَخرَجُ من الأول، وأرقى منهُ، فلا يسع إلّا شخصاً واحداً يمر عليهِ حال كونهِ مهتزّاً بهِ، كأنَّهُ يرجُف خوفاً من هول انصباب الماءِ بقوة تحتهُ على ارتفاع ثلاثة عشر متراً. حتى إن الأرض ترتجُ من ذلك وتهتزُّ، فإذا نظر الإنسان إلى مصبين آخرين يتدفّق الماءُ منهما، أحدهما بين الجزيرة المذكورة وجزيرة صغيرة مقابلة لها، والآخر بين هذه أوالبر الغربي زاد عجبهُ، واستغرابهُ، وكثر تعظيمهُ للباري سبحانهُ خالق هذه الكائنات وموجد هذه الآيات البيِّنات.

ثم عدنا إلى الطريق الذي كنا سلكناهُ، ومررنا إلى الأمام، فتفرجنا على كهف طبيعي، في جزيرة هناك أبدعت فيهِ يد القدرة غاية الإبداع، وبالقرب منهُ

أحد الأَهوسة الثلاثة القديمة الَّتي عُملت في أوائل القرن الثامن عشر، واستغنى عنها كما مرَّ.

وبعد هذا وصلنا إلى الشلال الثالث المعروف بشلال «سْتَامِبِنْتْرُومْ»، وارتفاعهُ متران ونصف وعندهُ اتَّسع النهر، فكان كبركة متَّسعة.

وما زلنا سائرين نتفرَّج على ما نمر بهِ من المعامل والمصانع، ويقابلنا من فيها بغاية الترحيب والتكريم، ويجتهدون في تفهيمنا مصنوعاتهم، بالإشارة الحسيَّة حتى وصلنا إلى معمل عظيم، تصنع فيهِ وابورات السكة الحديديَّة، فدعانا أصحابهُ إلى الدخول فيهِ والتفرُّج، فدخلناهُ واستقبلنا مهندسهُ، وصار يفرجنا عليهِ، وعلى ما فيهِ من الآلات الكبيرة الهائلة والصغيرة الدقيقة، ويُطلعنا على المطارق المعدّة للضغط على قطع من الحديد وزنها طونولاطات، وعلى المقاطع المعدة لقَطْع حديدٍ سَمكهُ أكثر من سُمك اليد في طرفة عين، وما ذلك إلاَّ لإِحكام الآلات وقوة البخار.

وهذا المعمل على ما أخبرنا هذا المهندس يعمل فيهِ أيام كثرة الطلب أَربعةُ مائةِ عامل بالأَقل، وفي غيرها مائتا شخص بالأَقل، وذلك لأنهُ تُعمل فيهِ الوابورات اللازمة لمملكتي السويد والنرويج، فضلاً عما تطلبهُ حكومتا الدنيمرك وألمانيا من ذلك، حتى إنهُ لكثرة الطلب في فصل الشتاءِ، يضطر العمال نظراً إلى ظلمة النهار في الفصل المذكور، إلى أن يستضيئوا بأَنوار الكهرباءِ، فيوقدون منها في هذا المعمل خمسمائة لامبة، يصير بها الوقت أضوأ من أيام فصل الصيف، وقد طلب منا المهندس الذي يصحبنا أن يكتب أسماءَنا في دفتر هناك، كما أنهُ أَعطانا ورقة باسمهِ هي أمامي وقت كتابتي هذه الأحرف تذكرني لطفهُ ومؤانستهُ مكتوباً عليها «هرمان نيد

كيفيست»، وإني بهذه المثابة أخصهُ بوافر الشكر والثناءِ.

ثم مشينا الهوينا بعد التفرج على المعمل المذكور في غابة من غابات أَشجار الصنوبر، وقد أحكمتها يد القدرة كل الإِحكام، وعند مفارقتها رأَينا على بعدٍ محلاً مرتفعاً فوق أكمةٍ يعلوهُ شبه منارة، فقصدنا هذا المحل، وإذا هو بناءٌ عظيم تباع فيهِ المرطبات وأَصناف الأشربة والأَطعمة، وكثير من الفطوغرافيات المختصة بمواقع هذه الشلاّلات وغيرها من الرسومات، فشربنا بعض المرطبات، ثم صعدنا إلى أَعلى البناءِ، فرأَينا مناظر بهجة في غاية الجمال، منها شلال ماءٍ يتدفق من ارتفاع ثمانية أمتار، هذا فضلاً عما ينكشف للرائي من النهر والكنال وما جاورهما من المتنزهات، فأَحببنا أن نطَّلع على ما هو أَرقى من ذلك، فصعدنا إلى أَعلى المنارة، وهي ربما يبلغ ارتفاعها نحو خمسين متراً، وهنالك انكشف لنا من المناظر الحسنة والمرائي البهجة، ما لم نكن نتصور وجودهُ في هذا المكان، ولا يقوم بوصفهِ حد البيان، فنظرنا جليّاً، وتمتعنا مليّاً، وما أَنزَلَنا من هذه المنارة إلّا طلب تعاطي الطعام وقرب وقت السفر.

فعدنا راجعين إلى أن صادفتنا عربة فركبناها، ومرّت بنا بمحاذاة الكنال، ووُزّعت علينا في أثناءَ ذلك أَوراق رسومات بالفطوغرافية، اشتملت على أَحسن مناظر النهر والشلالات، وقد طبع بظاهرها بعض إيضاحات بالفرنساويّة متعلقة بأَطوال هذا الكنال، وعروضهِ واتّساعاتهِ واتجاهاتهِ وغير ذلك من أَحوالهِ، واستمر بنا السير بعد ذلك، حتى وصلنا إلى حيث أَعد مديرو شركة هذا الكنال موائد الطعام.

فأَكلنا على الطراز الوطني «زمورغوزه» باشتهاءٍ لم يسبق لهُ مثال، أَوجبهُ

كثرة المشي، وتأخر الوقت واعتدال الجوّ، وحسن منظر الشلالات البهج وطيب الهواءِ، ثم استرحنا قليلاً حتى أتى وقت السفر، فركبنا وابور السكة الحديديّة بعد أن أوصلتنا إلى المحطة العربات، وسار والساعة 2 و30 دقيقة بعد الظهر قاصداً جُورتمبُورج، والنفس تتمنى في كل موضع من مواضع الشلالات والكنال والأهوسة أن لو وجد أمثال هذه الحياض بجهة شلالات أصوان من بلادنا، فإنها تكون سبباً في سهولة الملاحة وازدياد التجارة ونمو الثروة واتساع العمارة، وتسهيل المواصلات، إلى غير ذلك من المنافع والخيرات، ولكن راجعتني النفس بأن هذه الفكرة سابقة وقتها، فإن وقتها هو وقت رجوع السودان إلى مصر، فاتّجه التمني في الحال إلى طلب هذا الرجوع، وانحصر فيهِ الأمل والرجاء.

* * *

(السفر إلى جُوتِمْتُوزج ووليمة الوداع فيها)

بعد مسيرنا من ترول هِيتِّن بأكثر من ساعتين وصلنا جوتّمبورج والساعة 4 و40 دقيقة بعد الظهر، وكان سيرنا بين غابات لطيفة وأَودية ظريفة، فوجدنا في انتظارنا على المحطة وميدانها خلقاً لا يحصى عددهم، يعلن الجميع بالترحيب والتأهيل، فركبنا عربة وسرنا حتى وصلنا إلى الفندق المسمى «جْرَاندُ أوتيل هَاجْلُونْد»، والطريق غاصة بالناس، يشيرون إلينا بالسلام والإكرام، وهذا الفندق من أَحسن الفنادق وأكبرها، وقد حجزت لنا غرف فيهِ منذ أيام، وهذا كفانا مؤنة البحث عن غرف في الفنادق كما فعل غيرنا ممن لم تحجز لهُ غرف قبل مجيئهِ.

وهذا الفندق هو الذي أَعدت فيهِ مدينة جوتّمبورج الساعة السابعة في هذا المساءِ وليمة، قامت بها وداعاً لأَعضاءِ المؤتمر تحت رياسة حضرة الكونت صُوْنوَالِسْكي رئيس المدينة ومحافظ إقليم جوتّمبورج.

وما لبثنا أن خرجنا من الفندق نتفرج بأَنحاءِ المدينة قبل أَوان الوليمة ودخول الليل؛ لأَننا على عزم مبارحتها صبيحة الغد.

وإذا هي مدينة منتظمة الطرق متسعة الشوارع جيدة المباني، فأَوصلنا سائق العربة إلى ميدان جوستاف أَدولف الشهير، وهو في النقطة الوسطى بها بين محطات السكك الحديديَّة والميناءِ، وبوسطهِ تمثال جوستاف أَدولف مؤَسس هذه المدينة وأول بانٍ لها، وبجهة الشمال منهُ بناءٌ مشيد للبورصة لهُ أَعمدة متقنة الصنع تامة الإِحكام، وبجهة الغرب من هذا

الميدان سراي بلدية المدينة، وخلفها كنيسة سانت كريستين الشهيرة في هذا البلد، وفي الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من الميدان يتلاقى كنالان عظيمان، أحدهما «سْتُورَاهَامْنْ كَنَال» والآخر «أُوسْتَرَاهَامْنْ كنال».

فسرنا على شواطئهما البالغة حد الاتساع وغاية النظام، مع كثرة ما فيها من الحركة، وفي الكنالين السفن الكبيرة المشحونة بين صادرة وواردة، مما يجعل هذه البلدة تشابه مدن هولانده، وقد اشتهر أَنها من قبيلها ولا غرابة في ذلك، فإن العاملين في تأْسيسها كانوا من الهولانديينْ تحت رعاية الملك جوستاف أَدولف المتقدم ذكرهُ في سنة 1621.

ثم تفرجنا على غير هذه المواضع، وسرنا بجهة الميناءِ، ورأَينا ما بها من الحركة والنشاط والهمة والاجتهاد، وسَرّنا امتلاءُ أَرصفتها المتسعةْ بأَصناف العالم، يشتغلون بالتجارة وما يلزمها من نقل البضائع والحاصلات، ثم اجتزنا الطريق الشهير بالشارع الجديد «نُوَا آلِّين»، وسرنا فيهِ نحو ربع ساعة، مبتهجين باتساعهِ ولطف أَماكنهِ وكثرة البساتين الّتي بجوانبهِ، تزدان بها قصور الأَغنياءِ وسرايات الأَشراف والأُمراءِ وكبار التجار مثل سراي «أُوسْكار ديكْسُون» التاجر الشهير بإحساناتهِ وعطاياهُ ومساعداتهِ للعلماءِ خصوصاً على اكتشافاتهم جهات القطب الشمالي، ثم سرنا بغير هذا الشارع، فمررنا على كنيسة «هَاجَا» العظيمة التشييد وقد قام بأكثر بنائها أَحد مشاهير التجار، واستمر بنا التفرج في السير حتى قرب وقت حضور الوليمة، فعدنا إلى الفندق وقد تأكد عندنا ما وصفهُ كتاب الدليل من عِظَم هذه المدينة واتساع دائرة التجارة فيها، ممّا جعلها بالنسبة للمتجر تعادل كرستيانيا وأستكهلم، بل تفوقهما، ودلّتنا العمارات العظيمة المشيّدة بها للمدارس والمكاتب والكتبخانات والتياترات والمتاحف ومستشفيات

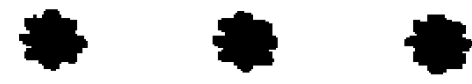
المرضى وأمكنة إيواءِ المعوزين والفقراءِ على كثرة ما يصرفهُ أهلوها من الأَموال في سبيل تحسين مدينتهم، وإتقان نظامها ممَّا صيَّرها تعلو على المدن الَّتي يسكنها أضعاف من يسكن هذه، وهم لا يزيدون على 91000 نسمة الآن، كما دلَّنا كتاب الدليل أيضاً على انتشار المعامل والمصانع، بضواحي المدينة، مشتغلة بعمل الأَقمشة، والماكينات، والسكر والجعة، والسفن البحريّة، بخاريَّة وشراعيَّة إلى غير ذلك.

وبعد أَن عدنا إلى الفندق استبدلنا الملابس العادية بالملابس الرسميَّة، فإِنها وإن لم تكن مذكورة بأَوراق الدعوة، لكن أَشار علينا بلُبسها بعض الأَصحاب، ونعم ما أَشار بهِ، فإننا وجدنا المندوبين الرسميين لدى المؤتمر بملابسهم الرسميَّة، ومثلهم أُمراءُ المدينة، فأَجلسونا إلى مائدة مخصوصة على الطراز الأُوروبي مع المندوبين الرسميين وبعض أَعاظم الأَعضاءِ، أَمَّا الباقون فأكلوا على مائدة مرصوصة على طراز البلاد «زمور غوزة»، وقد رأينا من هؤُلاءِ الأَعاظم، ومن نسائهم في أثناءِ الأَكل وقبلهُ ونحن مجتمعون في رحبة الفندق (وسقفها مغطى بالزجاج، وهي مفروشة بأَجمل الفرش) كل الإكرام، وإن كان من يتكلم منهم أو منهنَّ بلغة الفرنساويين أو غيرها ممَّا نعلمهُ من اللغات قليلين، فكانت المخاطبات التعارفيَّة، قاصرة، في الأكثر، على تبادل ورقة الاسم من المتعارفين، مصحوبة بانحناءَات الرأْس والأَيدي وغيرهما من الأَعضاءِ، وقد خص هؤُلاءِ الأَعاظم المصريين بأكثرَ مما خصوا بهِ غيرهم من الوافدين، زيادة في الإكرام والاعتناءِ، حتى رسموا بقائمة بيان الأَطعمة صورة أبي الهول والأهرام.

واستمرت المحادثة والمؤانسة بعد الأكل إلى قرب نصف الليل، فودّعنا

من عرفناهُ من الأعضاءِ وغيرهم وعلامات الكآبة مشتركة بين الطرفين لما رأى كل منهما في الآخر من جواذب المودة وعوامل الائتلاف، ولا يدري كلٌ منّا هل يرى صاحبهُ بعد هذا الأوان في أي زمان وأي مكان، وكان بعض الخطباءِ من أعضاءِ المؤتمر، أبدى هذه التأثرات الوداعيّة في أثناء الطعام، وشكر بهذه المناسبة ما رآهُ عموم الأعضاءِ وخصوصهم، من الأمتين السويديّة والنرويجيّة، من مزيد الرعاية والعناية والإعزاز والإكرام.

وبانتهاءِ هذه الوليمة انتهت المأموريّة، فانصرفنا إلى غرفنا، وأخذت قبل النوم في الاستعداد للسفر في اليوم التالي، وحرّر سيدي الوالد في هذا الوقت كتاباً أرسلهُ إلى صاحب الدولة الأمير الخطير رياض باشا، رئيس وزراءِ الخديويّة المصريّة وقت ذاك، يحيطهُ علماً بسير المأموريّة إجمالاً، وبانتهائها، وقد نشرت الوقائع المصريّة هذا الكتاب قبل عودتنا من السفر في عددها الصادر بتاريخ 25 سبتمبر سنة 1889، وهذا نصهُ كما أخذتهُ من نسخة الوقائع المذكورة.



(كتاب سيدي الوالد إلى صاحب الدولة الأمير الخطير)

(رياض باشا)

«دولتو أفندم حضرتلري

«أُقدم من تحايا التبجيل والتكريم ما يليق بذلك المقام الكريم، داعياً بدوام ظلال الإِقبال، وجمال الأَحوال، وكمال الآمال، أُعَطِّر الأَرجاءَ بأَريج الثناءِ، واستقبل قبلة الإِجابة بخير الدعاءِ، وقبل هذا حررت لسيدي الباشا عليّ الهمم مبارك الطلعة المحترم، وذكرت بعض الجهات التي وردناها في طريق الوجهة التي قصدناها، وكتبت أيضاً لبعض الأجلاء من السادة الأَخلاَّءِ، ولبثت انتظر أن يُجيبني أحد بسطر أَو بعض سطر، ولو بقدر قُلامة ظُفر، فما جاءني عن الدار ولا غيرها خبر، حتى حررت بالتلغراف لبعض الأصدقاء.

فلم يظهر قبل وصولنا إلى السويد أثر اللَّهُمَّ إِلاَّ أَني كتبت من پاريس يوم العيد بالتلغراف للمعيّة السنيّة قياماً بواجب العبوديّة من التعييد والتبريك لجناب وليّ النعم الخديو الأَعظم السعيد، أبقاهُ الله ممتعاً بأنجالهِ، وجميع آلهِ، بعمر مديد وحظ مزيد، مهنأً بالأَعياد والمواسم وثغور المسرة لهُ كمحياه السعيد، بواسم يشيع الماضي مبروراً، ويستقبل الآتي مسروراً، ويكسوها من نورهِ نوراً، فجاءَني الجواب في بياض اليوم لم يتأَخر مبشراً بالقبول والممنونيّة، وذلك لدينا عيد أكبر، وحظ أَوفر، وسجدنا كلنا لله داعين ومؤَمنين ومسرين ومعلنين، ولم يزل دأْبنا في كل موضع حللناهُ وموقع نزلناهُ،

نؤدي وظيفة الدعاءِ حَسَنِ الأَداءِ، وننشر أَلوية مدائحهِ الجليلة عاطرة النشر، ونخلّد في المسامع والمجامع طيب الذكر، ونعدد ما نعلم من المآثر الغراءِ والمفاخر الحسناءِ، تربو على الإِحصاءِ، ونستتبعها بذكر محاسن أُمراءِ رجالهِ الأُمناءِ، الموازرين لهُ في أعمالهِ، الناسجين على منوالهِ في محاسن خلالهِ.

وأَقمنا في باريس نحو عشرين يوماً نراجع ما كتبناهُ بمصر من المواضيع التي حررناها للعرض على المؤتمر السويدي، ونعيد عليها النظر، وفي خلال ذلك نتردد على معرض باريس العام وغيرهِ من المواضع الشهيرة، فشاهدنا من الصنائع والبضائع، وأَنواع البدائع والنظام، والإتقان والإحكام، ما يحتاج في إيضاحهِ من البيان وتقريبهِ للإفهام، إلى مجلدات ضخام واستخدام أَعوام، وسنذكر في الرحلة إن شاءَ الله ممّا رأَيناهُ في هذه العاصمة وغيرها ما يبلغهُ الجهد، ويساعد عليهِ الحال.

وفي أثناءِ تلك المدة أردنا معاينة المدارس الموجودة هنا، فصادفنا الوقت وقت عطلة، فكانت كلها مقفلة معطلة، فلم أَحصُل على الغرض من ذلك، إلّا أني لم آل جهداً في تحصيل قدر كافٍ من پروجراماتها وقوانينها وترتيباتها، عن أَنواع متنوعة من ابتدائيّة وثانويّة وخصوصيّة، بعضها بالشراءِ، وبعضها بالاستهداءِ، وأحضرت جملة جداول وبيانات عن بعض أدوات التعليم وأثمانها، ومحلات بيعها، وشاهدنا جملةً من المدارس المذكورة، مختلفة الأَنواع، إلّا إنها خاليةٌ من الدروس والمدرسين والتلامذة، ليس بها إلّا البواب وبعض الخدم، فرأَينا محلات التدريس، وبعض أدوات التعليم، وكان من جملة ما رأَيناهُ مدرسة زراعيّة، سافرنا إليها من باريس بسكة

الحديد، ورجعنا في يومنا، وكانت مغلقةً أيضاً.

ولم نجد مدرسة من التي رأيناها جارياً فيها العمل، إلاّ مدرسة خاصة بالأطفال الصغار، من سن سنتين ونصف وثلاث سنين، يقيمون بها إلى من ستة، ويتولى أمرهم فيها معلمات قد صرنَ لهنّ كالأمهات المشفقات يتحببنَ إليهم، ويتحببون إليهنّ، ويراعينَ تعليمهم بطرق سهلة في غاية البساطة واللطافة، والملائمة لحال الطفل لا يظنها إلاّ من اللعب والمحادثة، وقد أحضرنا ترتيباً عنها مفصّلاً، وأعجبتني الطريقة المتبعة بها جدّاً، ثم سرنا من باريس إلى لوندره وأقمنا بها أياماً، ومنها إلى محل المأموريّة، معرجين على روتردام، ثم لَيْدِن، ثم إمستردام، ثم كولونيا، ثم هامبورج، ثم كوپنهاج، ثم مالمو، وهي أوّل ثغور مملكة السويد.

وفي أثناءِ مسيرنا منها إلى العاصمة صادفنا من معتبري البلاد من عرف من هيئة ملابسنا المشرقيّة من الطربوش والعمامة، أننا من أعضاءِ المؤتمر، الّذين طوّحت بهم إلى بلادهم مرامي السفر، فصاروا يتعرّفون إلينا، ويتقرّبون منا ويلاطفوننا غاية الملاطفة، ويُجملون لنا المقابلة والمعاملة إلى أن وصلنا إلى أستكهلم، ونزلنا الأُوتيل، وهناك اجتمعنا بالكونت لاندبرج فحضر، وسلّم علينا، ومضينا معهُ إلى مكتب المؤتمر محل أشغالهِ، فأطلعنا على المحل المعد لانعقاد المؤتمر في جلساتهِ العامّة والخاصة ومواضعنا فيه. وهي في جزءٍ مرتفع عن باقيهِ بدرج، وبهِ كرسي للملك، وخلف ظهرهِ العائلة الملوكيّة، وعن يسارهِ موقف من يخطب، وكراسي لجلوس الوفد المصري، وعن يمينهِ بعض وزرائهِ وسفير العجم في الأستانة العليّة محسن خان، والوفد العثماني، وبقيّة وفد العجم، وبين يديهِ الكتب المهداة إليهِ، وفي باقي المحل أسفلَ من هذه الدرجة مواضعُ باقي الناس أعضاءِ

المؤتمر، والمحل يسع فوق خمسمائة نفس، وفي أَعلاهُ محل مرتفع مشرف عليهِ لجلوس النساءِ بهِ، يسع نحو مائة وخمسين، وأَعطى الكونت لكل واحد منا علامة العضويَّة في المؤتمر، وهي شبه وردة من قماش لمَّاع ملوَّن بالأَلوان الموجودة في عَلَمَي السويد والنرويج، مثبتة في شبه زر يجعل في عروة السترة لبس الملك واحدة منها.

«وقد حضر في أثناءِ وجودنا هناك، فرآنا، وعرَّفهُ بنا الكونت، فسلَّم علينا بيدهِ واحداً واحداً، وقابلنا بغاية البشاشة، ولما سلَّم عليَّ أَظهر محبتهُ للجناب الخديو المُعَظَّم، وشكرهُ على إرسال الوفد وسرورهُ بحضوري، ولمَّا سلَّم على أمين بيك قال لهُ: أَنت ترجماني لوالدك، وفي ثاني يوم، وهو يوم الأَحد طلبنا إلى سرايتهِ بعربات حضرت إلينا لمقابلتهِ المقابلة الرسميَّة، ولم تكن المقابلة الأَمسيَّة رسميَّة فتوجهنا بالكساوي التشريفيَّة والنياشين كما أشير علينا، فلما دخلنا عليهِ وجدناهُ بالكسوة التشريفيَّة والنشانات أيضاً، فأَعلن المسرَّة والممنونيَّة والثناء على الجناب الخديوي الفخيم، وسلَّمتُ إليهِ المحرر الكريم الخديوي وأجبت قائلاً:

«مولاي أُقدم لجلال مقامك الرفيع الشأن تحايا التعظيم والإِجلال والثناء الفائق من لدن مولاي خديو مصر المُعَظَّم، مؤيِّداً ذلك بتقديم محرر سموِّهِ، المنطوي على خالص المودة المتضمن تعييني وتعيين رفاقي الماثلين بين يدي عظمتكم، للحضور في المؤتمر العمومي العلمي الذي توجهت خواطركم الملوكيَّة لانعقادهِ في هذه المملكة العامرة؛ لما يترتب عليهِ من الفوائد المهمة لنشر العلم وتقدمهِ، واتحادهِ باشتراك القريب والبعيد، والشرقي والغربي فيهِ، ولم يكن ذلك ليتأَتى إلَّا بتوجُّه همة الملوك إليهِ، فلك يا مولاي الفضل الجزيل على ذلك المسعى الجميل، واختم قولي بتقديم

واجب تشكراتي لما نلت من لطف الرعاية الملوكيّة لاسيما في هذا الموقف النبيل، لا زال موقع إجلال ومنتهى كمال». وكان ذلك يوم الأحد أول سپتمبر سنة 1889.

«وبعد ذلك انصرفنا، وفي ثاني يوم اجتمع الناس لافتتاح المؤتمر، وحضر الملك في الميعاد المقرر، وحضرالناس، وأخذ كلٌ موضعهُ، فافتتح الملك المؤتمر بخطبة حسنة ألقاها، وأجاد فيها، وفي حسن أدائها، قال في ضمنها: «إن السلطة قبل كانت للقوة والاستبداد، وليست الآن إلّا للعلم». ومضى فيها حتى أتمّها واقفاً، والناس بين يديهِ وقوف، ثم جلس، وخطب بعدهُ المسيو كريمر وافد النمسا، ثم سفير العجم، فخطب خطبة باللغة الفارسيّة، ثم وافد السلطنة العليّة العثمانيّة أحمد مدحت إفندي، فتلا مقالة باللغة التركيّة، ثم أُشِير إليّ فقمت، وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من پاريس، فأتممتها في الطريق، وبيّضتُها في أستكهلم، فابتدأت أقول:

اليومَ أسفر للعلوم نهارُ   وبدت لشمس سمائها أنوارُ

ومضيت فيها إلى آخرها، وصفق الناس لكل من خطب، وبالجملة لي لَمّا أتممت الإنشاد، وخاطبني أُناس منهم باستحسانها في اليوم، وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها، وسارّني بطلب نسختها، فأخذها في الحفلة، وخطب بعد ذلك أناس منهم المسيو شِفِر وافد فرنسا، وكانت هذه الحفلة خاصةً بذلك، ليس فيها تقديم موضوعات علميّة، ثم قام الملك وودّع الحاضرين، وصافح البعض، وصافحنا، وقال: حسناً، وانصرف وانصرفنا وانفضّت الحفلة، وانفضّت الجمعيّة، وبعد ذلك انقسم المؤتمر إلى فصول

متعددة، فكنّافي الفصل الأَول المعدّ لِلّغة العربيّة، وصارت الفصول تجتمع كل يوم، وتقدم فيها الموضوعات المعدة للعرض عليها، بعد أن يُقَدِّم بيانها لكتّاب اللجنة إجمالاً، ويكون في كل يوم بعد الظهر، فسحة ووليمة ونزهة كل مرة في جهة وبكيفيّة غير الّتي قبلها، واستمر الحال على ذلك إلى أن انقضى المؤتمر، وفي أثناءِ انعقاد جلسات فصولهِ المذكورة، قُدِّمَ مني ومن جميع رفاقي ما أَردنا تقديمهُ مما أَعددناهُ لذلك، وقُوبل ما عرض من كل واحد منا بالاستحسان والاعتبار، وقد أَبقى كل واحد منا عندهُ نسخة مما عرضهُ بعد تقديم نسختهِ، وأُعطى من معهُ نشان من بلادهِ نشاناً من طرف الملك، وأُعْطِيتُ نشاناً من النوع المسمى «وازا» من الدرجة الأُولى، فشكرت للملك، ودعوت لمولاي ولي النعم الخديو الأكرم.

«وقبل قيامنا من أستكهلم أَوْلَم الملك وليمة خاصة في سرايتهِ دعا إليها خواص أَعضاءِ المؤتمر إلى مائدتهِ الخاصة، وكنت من جملتهم، وقبل الدخول إلى محل المائدة أُعلم كل واحد بموضعهِ منها، وموضع من بجانِبَيْهِ، فكان عن يمين الملك سفير العجم في دار السعادة، وعن يمين السفير المشار إليهِ البارون دوكريمر الوافد من طرف النمسا، وكنت عن يمين البارون دوكريمر، وعن يميني الكونت دولاندبرج.

«وفي أثناءِ الطعام شرب الملك على اسم الجناب الخديوي خاصة بعد الالتفات إلى ناحيتي، فقمت مؤدّياً رسوم التعظيم والشكر.

وكان كلما صادفني في موضع من المواضع يكلفني بإبلاغ سلامهِ وشكرهِ للحضرة الفخيمة الخديويّة، وكرر القول بمحبتهِ للجناب الكريم، وقال: إِنّهُ أخي، وعزفت الموسيقا بسلام الحضرة الخديويّة مراراً، كان آخرها في آخر

مدة المؤتمر بناحية خرستيانيا من مملكة النورويج، فكنا نقوم في أثناءِ السلام، مؤدين شعائر التعظيم والاحترام، وانتهى المؤتمر والمأموريّة بحمد الله على خير، وكل واحد ممن معنا في غاية الاستقامة والكمال، وانتظام الأحوال، والمحافظة على شعائر ديانتهِ، وحكومتهِ وهيئاتهِ، وملابس بلادهِ، وإقامة صلاتهِ، داعين للخديو الأعظم، ناشرين لمدائحهِ، وقد أخذنا في الرجوع إلى الوطن العزيز، ووصلنا إلى ناحية «جُوتِنْبُرْج»، ومنها نتوجه اليوم إن شاءَ الله إلى «كوپنهاج» إلى «برلين» إلى «ويانة» إلى «تريستا» إلى «برنديزي» إلى «إسكندريّة»، ناذرين بعض الصدقة والصلاة والسلام على النبي عليهِ الصلاة والسلام إذا حظينا بتقبيل يد جناب خديونا المُعَظَّم ولي الإنعام، ولقاءِ ساداتنا وإخواننا وأحبابنا الكرام،

في 13 سبتمبر سنة 1889 عبدالله فكري

* * *

(السفر من جُوتِّمْبُورِغ إلى كوبنهاج)

بارحنا اليوم يوم الجمعة 13 سبتمبر سنة 89 مدينة جُوتِّمْبُورِغ والساعة عشرة و15 دقيقة صباحاً، والطرق في غاية الازدحام، وليس في المحطة ولا ما جاورها ما يسع قدماً، والرصيف ممتلئ بالمعتبرين من الأهالي، والجميع أتوا لِوَداع الأعضاءِ، وما فارق الوابور المحطة حتى علت الأصوات، وارتفعت المناديل والقبعات إشارة إلى الوداع، فسرنا بين خضرة ونضرة ومناظر تأخذ بالألباب، متجهين من الغرب إلى الشرق، ثم منهُ إلى الجنوب الغربيّ بحسب اتجاهات السكة الحديديّة، حتى وصلنا مدينة «هَلْمِسْتاذ» بعد أربع ساعات وربع من مسيرنا، فوقفنا بها نحو الساعة أكلنا فيها على الطراز الوطني ما لذَّ وطاب.

ثم سرنا منها متجهين صوب الجنوب بموازاة البحر، حتى وصلنا إلى «هِلْسَنْبُورج» بعد مسيرنا من هَلْمِسْتاذ مسافة تقل عن ثلاث ساعات، وهِلْسَنْبُورج هذه مدينة عظيمة، سكانها 15200 نسمة قائمة على البحر تجاه الدانيمارك، يفصلها بوغاز سُونْد عن مدينة «هِلْسَنْجُو» من مدن الدانيمارك على الشمال الشرقي من جزيرة «سِيلاَنْد».

ووجدنا بهِلْسَنْبُورج عربات مخصوصة تنتظرنا، فنقلت من في القطار من المحطة إلى الميناءِ في بعض دقائق، والأَهالي منتشرةٌ في المحطة، وفي الميناءِ، تبدي إشارات السلام والوداع، فركبنا وابورات البحر، وسرنا في البوغاز المذكور مسافة عشرين دقيقة في وقت لم يكن ألطف منهُ؛ إذ

السماءُ مصحية، والرياح هادئة، حتى وصلنا إلى مدينة «هِلْسَنْجُورْ» الزاهرة ذات التجارة الوافرة.

فركبنا منها وابور البر، وسرنا والساعة 7 و45 دقيقة مساءً، قاصدين كوپنهاج مارين على قصر «فِرِيدِنْسبُورْج» دون أن نراهُ لظلام الليل، ولكن أَفهمنا بجهتهِ من كان معنا من أهل البلاد، وأفادنا أنهُ محل إقامة ملك الدانيمارك في فصل الصيف، وأن بهِ وقت مرورنا إمبراطور الروسيا، والبرنس ده جال وملك اليونان مع نسائهم بنات ملك الدانيمارك، وأن الجميع اعتادوا الاجتماع كل سنة نحو شهر بهذا القصر، في هذا الأَوان، في ضيافة ملك الدانيمارك.

ثم استمرَّ بنا السير حتى وصلنا كوپنهاج والساعة 10 من الليل، فنزلنا بفندق «ملك الدانيمارك» الذي كنا نزلنا بهِ عند قدومنا إلى السويد، ونزل معنا فيهِ حضرة المسيو شِيفَّرْ والبارون ده كْرِيمِزْ، والأُستاذ الفاضل مدحت إفندي، وغيرهم من الأعضاءِ.

وبقينا بكوپنهاج اليوم التالي للاستراحة، ثم خرجنا ليلاً نتفرج بأنحاءِ المدينة، ومعنا صاحبنا المستر ليون صاحب الطريقة الهجائيَّة الَّتي ذكرناها، فدخلنا المكان المسمى «تيڤولي».

وهو بستان عظيم في غاية الانتظام، بهِ كثير من محلات القهاوي والجعة والأكل والتياترات، وضروب اللعب، فمشينا بأَنحائهِ حتى وصلنا إلى أُلعُوبةٍ مسماة «مونتانْيْ رُوسْ»، أي: الجبال الروسيَّة، وهي عبارة عن عربة تسع ستة أشخاص، وتسير على قضيبين من الحديد من مرتفع إلى منخفض، ومنهُ إلى مرتفع، ثم ترجع إلى المنخفض، ومنهُ إلى المرتفع، وتستمر هكذا مدفوعة في

النزول وفي الصعود بمحرِّكات ميكانيكيَّة، يساعدها على السرعة عِظَمُ الانحدار، وهي مع ذلك في الأثناءِ تدور على نفسها دَوْراتٍ متعددة إلى اتجاهات مختلفة، فلما رأيناها، ولم نكن نعرف حالها، قال لنا صاحبنا المذكور: هل تريدون اختبار هذه الألعوبة؟

وكنت رأيت امرأةً وزوجها جالسين بالعربة، فاستسهلت أمرها لذلك، ونزلت معهما، ونزل معنا رابع، فحرَّك الموكَّلُ بها آلةً فنزلت تهوي بنا إلى المنخفض مع اعوجاجات وحركات في غاية السرعة ونهاية الشدة، تمثل سير العربات الّتي لا عجل لها بجبال الروس المثلجة، ومن ثم كان لها الاسم المتقدم، فصرت أستغيث، ولا مغيثَ، وأستعين ولا معينَ، وأصرخ ولا سماع، وأنادي ولا مجيب، ممسكاً بحواجز العربة القليلة الارتفاع بغاية ما بقي عندي من رمق الحياة، وعشم النجاة، حتى انقطع الأَمل، وخاب الرجاءُ، وأيقنت بالهلاك، وتخيَّلت أن هذا الزمن القليل مقدار سنين طوال، ولكن أسعفنا الله بالفرج، وفرغت الأُلعوبة بعد أن بلغت الرُّوح الحلقوم، ووقفت العربة فنزلت منها كالسكران، لا أَعي، ولا أسمع، ولا أُبصر، ولا أتمالك نفسي من شدة ما أصابني، فاستندت إلى جدار حتى أفقت بعض الشيءِ، ثم ساعدني من معي في المشي حتى وصلت إلى أقرب قهوة، فمكثت بها زمناً طويلاً إلى أن استرحت، ورجعت لي نفسي، وزال بُؤسي، كل هذا وصاحبنا المستر لِبُونْ يعتذر، ويتأَسَّف. ويندم، ولكن لات حين مندم، ولسان حالي يقول: قبَّح الله أُلعوبتك الّتي بها أَشرت، فأقبل اللوم عليها، وألحِقْها يا صاحبي بطريقتك في الهجاء؛ فإنهما سواء.

* * *

(من كوپنهاج إلى ستّين)

لما كان صباح يوم الأحد 15 سبتمبر سنة 1889 ودّعنا من بقي معنا بهذا البلد من أصحابنا في المؤتمر، ومنهم حضرةُ صاحبنا الفاضل مدحت إفندي، ثم خرجنا للفسحة في ضواحي المدينة ومتنزهاتها إلى قرب الساعة الثالثة بعد الظهر، وكنا أوصينا بأَمتعتنا أن تحضر إلينا على الرصيف المعدّ لسفر الوابورات، فأتيناهُ قبل الوقت المحدد للسفر بقليل، ووجدنا الأَمتعة حاضرة فأنزلت الوابور، ونزلناهُ، وسرنا من كوپنهاج في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، قاصدين سِتّينْ، ومنها إلى برلين.

وكان صاحبنا المسيو بيلجر أحد أعضاء المؤتمر، وهو من موظفي قنصلاتو ألمانيا بسلانيك، قد وعدنا قبل انفضاض المؤتمر أن ينتظرنا في برلين، ليفرجنا عليها تفضلاً منهُ وقياماً بحق الصحبة وواجب المحبة.

وهذا الوابور الذي نزلنا بهِ يبلغ حجمهُ نحو ضعفي وابوراتنا النيليَّة؛ فإن مسافة السفر فيهِ طويلة بالنسبة إلى غيرها؛ إذ هي نحو ست عشرة ساعة، وهو سريع السير، منتظم المحالّ تام الزخرفة والزينة، مستوفي اللوازم، فسار بنا في بحر البلطيق والهواءُ معتدل والسماءُ مصحية، فكنا نتمشى بسطحهِ تارةً، ونلعب الشطرنج مرة، حتى آن وقت العشاءِ، فأكلنا على اشتهاءٍ تام مآكل لذيذة تامة النّضج متعددة الألوان، ثم خرجنا للفسحة، وبعد ذلك أخذنا نقرأ كتب الأدلة لنستفيد منها معرفة الأماكن الّتي سنمر عليها، حتى آن وقت النوم، فنمنا بأحسن الأَسِرَّة على أكمل راحة، وكنا أوصينا الخادم أن

يوقظنا عند طلوع الفجر لنرى مدخل سِتّين ومصب نهر «أُودِرْ» القائمة عليهِ المدينة، فقد دلّنا كتاب الدليل، ومن تعرّفنا بهِ في أثناءَ السير، على أن ما بين مدخل مدينة سِتّين من جهة البحر وبين المدينة المذكورة من البحيرة العذبة والنهر المستمدة منهُ، المشرفة عليهِ هذه المدينة، هو من أَحسن ما يُتَفَرَّجُ عليهِ.

وعند إيقاظ الخادم لنا صعدنا إلى سطح الوابور، وإذا نحن في مدخل البحيرة من جهة البحر، يكتنف هذا المدخل جزيرتان: إحداهما من جهة اليمين، تسمى «أُوزيدُومْ»، والأخرى من جهة اليسار تسمى «قُولّين»، بينهما فرجةٌ تدخل منها السفن، وعليهما استحكامات متينة لحماية هذا المدخل، وهناكَ فنار لدلالة السفن، فأَعجبتنا هذه البحيرة العذبة على اتساعها، ونضارة شواطئها واخضرارها، واستمر بنا المسير فيها ساعتين، ثم دخلنا النهر، وهو وإن كان أَقلَّ من البحيرة اتّساعاً، لكنهُ يسع السفن الكبيرة الكثيرة، فأَخذنا نمتّع النظر بالبساتين اللطيفة، والأَشجار الظريفة المغروسة بجانبيهِ، والمواني المعتبرة، والقرى المشيدة المقامة عليهِ، وكلما استمر السير زاد المنظر حسناً ورونقاً وبهاءً، حتى وصلنا في ساعتين أُخريين إلى مدينة سِتّين والساعة سبعة وثلث من صباح يوم الاثنين 16 سبتمبر سنة 1889.

وسْتِّين هذه عاصمة إِقليم پُوميرَانيا من أَعمال أَلمانيا، وكانت مملوكة للسويد من سنة 1648 إلى سنة 1720، وهي قائمة على نهر «أُودِرْ» المذكور، وميناءٌ مهم في التجارة بالنسبة لسائر بلاد أَلمانيا الوسطى، فتدخل إليها السفن الكبيرة من سائر أنحاءِ العالم، جالبة إليها أَصنافاً كثيرة من الحاصلات، منها زيت الغاز والأَنبذة الفرنساويّة، والشحوم والأَسماك

المسماة «هاران»، ولها سفن خاصة بها يزيد عددها على 190 سفينة، تأخذ منها مع غيرها من السفن التي تأتي من الخارج الحبوب والمشروبات الروحيّة، فتوصلها إلى غيرها من البلاد، هذا فضلاً عما بهذه البلد من المعامل والمصانع الشهيرة لعمل السفن والماكينات وغيرهما وسكانها تبلغ نحو المائة ألف نسمة.

فأَرسلنا أمتعتنا إلى محطة السكة الحديديّة، وهي تبعد عن الميناء، ثم ركبنا عربة جُلْنا بها في بعض الشوارع المهمة من هذا البلد، حتى جاءَ وقت قيام الوابور، فركبناهُ، ولم تبلغ مسافة مكثنا بها غير ساعة واحدة؛ إذ كان قيامنا منها والساعة ثمانية وثلث من صباح اليوم المذكور.



(السفر من سِتِّين إلى برلين)

سار بنا الوابور في أماكن خِصبة وأَرض نضرة وجبال وأَنهار وأَودية وأَشجار واستمرَّ سيرهُ مع مسافة وقوف المحطات ثلاث ساعات قطعنا فيها 134 كيلومتر فوصلنا برلين والساعة 11 و20 دقيقة قبل الظهر.

* * *

(ست ساعات في برلين):

بوصولنا إلى المحطة وجدنا في انتظارنا بها صاحبنا المسيو بيلْجِز، فركبنا عربة وجُلْنا في أَهم شوارع هذه المدينة، ثم تغدينا في إحدى محلات الأكل بالشارع المسمى «أُونْتِزْدِين لِينْدِنْ»، وبعد الغداءِ ركبنا السكة الحديديَّة الخاصة بهذه العاصمة، فتفرجنا بواسطتها وبعربات معتادة ركبناها أيضاً، على بعض جهات المدينة حتى قرب وقت قيام الوابور، وها أَنا أذكر ما شاهدتهُ في هذه المدينة العظيمة، مع بعض إيضاحات متعلقة بها أَخَذْتها من كتاب الدليل:

برلين هي عاصمة مملكة البروسيا ومقر إِمپراطور ألمانيا، يبلغ عدد سكانها مليوناً ونصفاً؛ فلذلك كانت ثالثة مدن أُوروبا أَهميَّة.

وهي قائمة على نهر «سْپرِيهْ»، تتصل بواسطتهِ وبواسطة السكك الحديديَّة الَّتي تتفرع منها إلى جميع الجهات، وهذا مما جعلها أَول مدن ألمانيا، وهي من أَهم مدن العالم في الصناعة والتجارة، ففيها المصانع والمعامل العظيمة لعمل الماكينات، وضروب المنسوجات من القطن والصوف والحرير، فضلاً

عن معامل الجعة، والصباغة والملبوسات المجهزة، والحُليّ وأدوات الزخرفة بسائر أصنافها، وعن تجارة الحيوانات والحبوب والمشروبات الروحيّة وغيرها، وعن أعمال البنوكة والصرافة، مع ما يتبعها من عمليّات النقود والأوراق الّتي هي في غاية الرواج والاتساع.

ومسطح المدينة اليوم (سنة 1889) 6310 هيكتارات، وهي كل يوم في اتساع، وبعد أن كانت قاصرة على جزيرة صغيرة بنهر شپريهْ الّتي عليها القصر الملوكي الآن، أخذت تمتد ذات اليمين وذات اليسار وجهة الشمال وجهة الجنوب، حتى بلغت هذا المبلغ من انتظام الطرق واتساع الشوارع، وإتقان العمارات مع ارتفاعها وزُخرفها وزينتها، ولا شك أنها تزداد في الاستقبال عمارة واتساعاً وتحسيناً وتشييداً ما دامت همم أهليها متجهةً إلى هذا القصد، منصرفة إلى هذا السبيل.

وبها من طرق المواصلات في البر والنهر من السكك الحديديّة والعربات العادية وعربات الترامواي والسفن النهريّة ما يُعين على تقدمها في ما ذكره.

وأهم أجزائها وأكملها وأبهجها وأجملها «أُونْتِرْدينْ لِينْدِنْ» أي: شارع أشجار الزيزفون المتقدم ذكرهُ، ويمتد فيها من الغرب إلى الشرق، مبدأهُ الميدان التالي لباب «بْرانْدبُورْج»، ومنتهاهُ إلى القصر الملوكي.

وهو من أحسن شوارع أُوروپا غُرِس بكل من جانبيهِ صفان من أشجار الزيزفون والبلُّوط، كما بُني بكل منهما القصور الفاخرة، والدور العامرة، والمساكن المشيَّدة المتجاورة، تحتها الدكاكين المنتظمة المزينة المزخرفة، وتفرعت من كل جهاتهِ شوارع على مد البصر، تخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب، مع اتّساع هذا الشارع وطولهِ، بحيث يبلغ عرضهُ ستين متراً وطولهُ ألفاً وخمسمائة متر.

وباب بِرانْدِبُورْج قائم في أول شارع الزيزفون من جهة الغرب، بينهُ وبين متنزه «تِيرْجَارْتِنْ» الواقع غربي هذا الباب.

وهذا الباب بناءٌ مرتفع ذو خمس[1] فتحات، تفصلها عن بعضها عمد شامخة، بني من سنة 1789 إلى سنة 1793 على طراز أَبنية أَثينا القديمة، ارتفاعهُ 21 متراً وعرضهُ 62 متراً ونصف متر، وفتحتهُ الوسطى مخصوصة بمسير العربات الملوكيّة، فيبلغ اتساعها خمسة أمتار وستين سنتيمتر بخلاف باقي الفتحات، فإنها لعموم الناس، ولا يزيد اتساعها عن ثلاثة أمتار وثمانية سنتيمترات، وبأَعلاهُ رسوم مجسّمة ناتئة في الحجر تُمثّل النصر والظفر.

وبين هذا الباب وشارع الزيزفون ميدان مربع يسمى «پارِيزِرْپْلاتّس»، ومعناه ميدان پاريس بجوانبهِ قصور كثير من العظماءِ، وبإحدى جهاتهِ دار السفارة الفرنساويّة.

ومن الأَبنية القائمة بجانبي شارع الزيزفون يمنة ويسرةً سراي «الكونت رِيدِزن»، وهي تشتمل على مجموعة رسومات حديثة وقديمة، وعلى كثير من الصور المجسّمة، ومنها سراي ديوان الداخليّة، ومنها المحل المسمى «أَكْوَارْيُوم» وهو بناءٌ مشيّد صنع فيهِ كثير من المغارات الصناعيّة، ومحلات الطيور، وحياض المياه جُلبت إليها الأسماك الّتي تعيش في الماءِ الحلو، فوضعت في ماءٍ عذب، والّتي تعيش في البحار فوُضعت في ماءٍ ملح، كل منها يصل إليهِ البخار بواسطة أَنابيب، فيجعل حرارة الماءِ فيهِ بالدرجة المعتادة لهذه الحيوانات في مواقعها الطبيعيّة، وكذلك جُلبت الطيور بسائر أنواعها وأصنافها إلى محلاتها فيهِ، كما أُحضر إليهِ كثير من الحيوانات البريّة وحشية وغير وحشيّة، ومنها بعد هذا البناءِ «قيصر جالِيري» أي:

(1) في الأصل: «خمسة» المحرر.

السوق الإمبراطوري، وهو بناءٌ مرتفع صار تشييدهُ من سنة 1829 إلى سنة 1873، في داخلهِ كثير من الدكاكين والقهاوي ومحلات الطعام الّتي أكلنا في أحدها كما تقدم.

وبهذا السوق المحل المسمى «پَانُوپْتِيكُوم»، وهو أشبه شيءٍ بمحل مادام تُوسُّو الذي سبق ذكرهُ بلندره، فيهِ صور كثير من مشاهير الأمراءِ والعظماءِ مجسّمة بالشمع، خُصِّصت إحدى قاعاتهِ بصور الملوك بملابسها الرسميَّة، فرأينا فيها صورة الخليفة الأعظم مولانا السلطان عبدالحميد خان، ومعهُ فيها إمپراطور الروسيا وملك هولانده وإمپراطور النمسا وملك إيطاليا وإمپراطور ألمانيا، وملك ساكس وملك باڤاريا والبابا ليون الثالث عشر، وفي قاعة أُخرى رأينا صورة الپرنس بسمارك والمارشال ده مُولتك، وفي أُخرى مؤتمر برلين على حالة اجتماعهِ بها، وفي أُخرى إمپراطور ألمانيا على حالتهِ المنزلية، تحيط بهِ امرأتهُ الإمپراطورة وأولادهُ، وفي أُخرى ملكة إنجلتره وإمپراطورة الهند والپرنس ده غال بجانبها، وزوجة إمپراطور ألمانيا المتوفى، إلى غير ذلك من مشاهير الرجال في الحرب والسياسة والخطابة والكتابة ومجالس النيابة، وبهذا المحل سوى ما ذكر قاعات بها بعض الآثار المحققة، منها الآلة «جِيلْيُوتين» الّتي قُطعت بها عنق ملك فرنسا، وعنق الملكة امرأتهِ مدة الاختلال الفرنساوي.

وبمناسبة هذا المحل أذكر هنا محلاً آخر تفرجنا عليهِ بمعرفة صاحبنا بِيلْجر، ولكن لست متحققاً الآن أنَّهُ تابع لهذا المحل أولاً، وإن كان يغلب على ظني أنَّهُ تابع لهُ، وقد سمَّاهُ لنا «جارْدَانْ دِيرُوزْ» وترجمتهُ: بستان الضلال، وهو عبارة عن محلٍ يُصعَد إليهِ بسلّم يوصل الصاعد إلى قاعة متّسعة جدّاً، سقفها وجميع جدرانها مَرايَا، بها كثير من الأزقّة المعوجّة ذات الأوضاع المختلفة، فيرى الإنسان فيها نفسهُ في أي جهة منها مرات

متعددة، يبلغ عددها ثلثمائة مرة بحيث تجعلهُ هذه المناظر مندهشاً مما يراهُ، حائراً مما يشاهدهُ، ضالاً طريقهُ الذي سلكهُ أولاً، فيستحيل عليهِ الرجوع إلى باب القاعة والخروج منها إلّا إذا دلَّهُ أحد من القائمين بشؤونها، وهذا الذي جعلها تسمى بستان الضلال.

هذا وبآخر شارع الزيزفون المذكور تمثال «فريدريك الأكبر» مجسّماً متقناً، وبعدهُ «ميدان الأوپرا» مبتدأً من مكان هذا التمثال على اتجاهِ الشارع المتقدّم، حتى كأنهما واحد، وبكلٍّ من جانبيهِ الأبنية المعتبرة. والسرايات الفاخرة «كسراي الإمپراطور غليوم الأول»، و«الكتبخانة الملوكيَّة»، و«الأوپرا»، و«كنيسة سانت هيدويغ»، و«المدرسة الجامعة»، و«محل الحرس الملوكي»، إلى غير ذلك.

أما سراي الإمپراطور هذه فهي الّتي مات فيها غليوم الأول في 9 مارث سنة 1888، وقد بُنيت من سنة 1834 إلى 1836.

وأما الكتبخانة الملوكيّة وقد بنيت من سنة 1774 إلى سنة 1780، فتشتمل على مليون مجلد، منها خمسة عشر ألفاً بخط اليد، فيها كثير من بدائع الآثار وغرائب النوادر التاريخيَّة.

وأما تياتر الأوپرا وقد صار بناؤه سنة 1843 بدلاً من المحترق قبلهُ المبني سنة 1742 فيسمع 1800 متفرج.

وأما المدرسة الجامعة فكانت قبلُ قصراً للپرنس هنري أخي فريدريك الثاني بناه منذ مائة وأربعين سنة، ويدرّس الآن فيها لنحو خمسة آلاف من التلامذة.

وبالقرب من الأوپرا «قصر الإمپراطوره فريدريك»، وتجاه هذا القصر «متحف الأَسلحة»، يحتوي على كثير من الأَسلحة الناريّة والبيضاءِ قديمها

وحديثها، مرتبة على حسب التواريخ، كما أَنَّهُ يحتوي على الأَعلام والمدافع الّتي أَخذها الألمانيون من أعدائهم في حروبهم وانتصاراتهم، وهو محل في غاية الاتساع ونهاية حسن الترتيب.

ثم إذا اجتاز الإنسان ميدان الأُوپرا هذا، وتخطّى النهر وصل إلى ميدان «لُوسْتجَارْتِنْ» وهو ميدان فسيح تظلّهُ الأشجار عرضهُ مائتا متر، وطولهُ مائتان وخمسون، وفي وسطِهِ تمثال فريدريك غليوم الثالث مجسّماً، وبجوانب هذا الميدان القصر الملوكي، والكنيسة الكاتدرائيّة، وهي أَهم كنائس المدينة، والمتحفُ القديم.

أما القصر الملوكي فقد أنشأَهُ فريدريك الثاني، ثم تجدد، وصار توسيعهُ مرات عديدة في تواريخ مختلفة بعدهُ، وهو ذو طبقات أربعة، طولهُ مائتا متر، وعرضهُ 117، وارتفاعهُ 30، ويشتمل على أَماكن عديدة، كلها في غاية الزخرفة ونهاية الزينة، ولا غرو فإِنَّهُ كان مقر ملوك پروسيا، والآن مقر إمپراطورة ألمانيا.

وأما «المتحف القديم» فبناءٌ عظيم على الطراز اليوناني القديم، بوجهتِهِ ثمانية عشر عموداً، يوصلهُ إلى المتحف الجديد على بُعد منهُ ممشى، وهما يشتملان على كثير من الآثار القديمة المتعلقة بالقرون الوسطى وما بعدها وما قبلها، وعلى رسومات كثيرةٍ من صنع أَساتذة هولانده وإِيطاليا وغيرهم من البلاد الأَجنبيّة، ومن صنع الأساتذة الأَلمانيين المتقدمين، وعلى عددٍ وافرٍ من التصاوير المجسّمة من صنع الأَلمانيين، وغير الأَلمانيين ممّا جعل هذا المتحف يباهي أكبر المتاحف في الاتّساع، وغزارة المواد، وحسن الترتيب.

وفي جهة الجنوب من شارع الزيزفون المتقدم ذكرهُ خلف ما هو مشرف

عليهِ أعظم أقسام المدينة إتقاناً ونظاماً، وأكثرها حركة واتجاراً، وهو قسم «فِريدِريخِشْتات»، وأهم شوارعهِ «فرِيدِريخشْتِرَاسِهْ» و«وِيلْهِلْمِشْتِراسه».

أما «فِريدريخشتراسه» أي: شارع فريدريك فهو أطول شوارع المدينة الأصليّة؛ فإن طولهُ يبلغ 3300 متر.

وأما «ويلهِلْمشتراسه» أي: شارع غليوم فمبدأهُ من جهة ميدان باريس المتقدّم متجهاً نحو الجنوب، وانتهاؤهُ إلى ميدان الاتحاد حيث انتهاءُ شارع فريدريخشتراسِهْ السالف ذكرهُ أيضاً.

ويحتوي القسم الشمالي من شارع غليوم هذا على ما لم يحتو عليهِ غيرهُ من القصور المهمة والسرايات الفاخرة، ففيهِ سراي سفارة إنجلتره، وبها السير أدواردمالت السفير، وقد كان قنصل إنجلتره الجنرال بمصر أيام الحوادث العرابيّة، وفيهِ ديوان الخاصة الإمپراطوريّة، ثم ديوان رئيس الوزراءِ، ثم ديوان الحقانيّة، ثم قسم من أقسام نظارة الخارجيّة، ثم سراي البرنس بسمارك، وسراي البرنس دُه پليس، إلى غير ذلك من القصور والسرايات العظيمة.

وبالقرب من هذه الجهة «ليپتسيخِشْتِراسِهْ» أي: شارع ليبزيغ، وطولهُ 1500 متر، وانتهاؤهُ إلى ميدان بُوتْسدَامْ، ويُضاءُ قسم كبير منهُ بالكهرباءِ، وبهذا الشارع سراي إِدارة عموم البوستة، وقد بُنيت من سنة 1871 إلى سنة 1873، وتشتمل على متحف يتعلق بشؤُون البوستة، وما استعمل في المراسلات قديماً وحديثاً عند أُمم العالم، مع رسومات مكاتب البوستة المستعملة الآن بألمانيا، وأصناف من آلات التلغراف والتليفون والفونوجراف.

وبهذا الشارع أيضاً سراي ديوان الحربيَّة، وسراي مجلس النواب «رَيْخِسْتَاجْ»، وبالقرب من هذه سراي مجلس الأعيان «هِرْنْهَاوُسْ».

و«ميدان پُوتسدام» الذي ينتهي إليهِ شارع ليپزيغ المذكور كان في السابق جزءاً من الضاحية المسماة پوتسدام من ضواحي برلين، وهي الآن قسم من أقسام المدينة، يهواهُ الأغنياءُ وكبار موظفي المملكة، فشادوا فيهِ القصور الشامخة والأبنيةَ الباذخة.

وعلى مسافة نحو عشرين دقيقة من هذا الميدان بستان النباتات المعدود من أحسن بساتين أوروپا في نوعهِ.

أما «ميدان الاتحاد» الذي تقدّم أن شارع فريدريك وشارع غليوم ينتهيان إليه، فهو الآن بستان في وسطهِ عمود معروف بعمود السّلم «فْرِيدِ نْسُويْلِهْ»، وضع أساسهُ في سنة 1840 لما استمرت الدولة قبل تأسيسهِ 25 سنة، وهي في سلم وعدم حرب.

هذا ومما يستحق الذكر في القسم الشمالي من برلين، على ما بهذا القسم من كثرة الآثار، «قصر مونبيجو»، ويشتمل على متحف «مُونْتْسُولْزْن» نسبة إلى العائلة الملوكيّة بألمانيا، وهو يحتوي على الآثار الّتي تتعلق بهذه العائلة، وبهذا المتحف قاعة تعرف بقاعة الإمپراطور غليوم، والإمپراطورة أُوغُسْتَا، وفيها عدة صحف شكر وثناءِ، رفعها الألمانيون إلى الإمپراطور غليوم المشار إليهِ، وفيها أيضاً الترابيزة الّتي أمضى عليها ناپليون الثالث في سراي سان كلو إعلان حرب سنة 1870، وقاعات أُخر بها أشياءُ كثيرة من الآثار، إحداها فيها صور العلماءِ، وأُخرى صور كبار أُمراءِ الجيوش، وأُخرى صور أَعضاءِ العائلة الملوكيَّة، وأُخرى نياشين ناپليون الأوّل، وكثير

من أَمتعتِهِ الَّتي أُخذت منهُ في واقعة واتِرْلو إلى غير ذلك من الأشياءِ في باقي القاعات.

ومما يستحق الذكر أيضاً «الميدان الملوكي»، ويتوصل إليهِ من طريق يسمى طريق السُلَّم على مقربة من باب بْرانْدبُورج المتقدّم، وهذا الميدان من أحسن أماكن برلين بهِ البساتين، وفساقي المياه، وفي وسطهِ عمود يعرف «بعمود النصر»، مقام من الحجر والبرونز ارتفاعهُ أحد وستون متراً ونصف، مرسوم عليهِ حرب الدانيمارك في جانبٍ، وواقعة صَادَوَا في جانب، وواقعة سيدان في جانب، ودخول الجيوش سنة 1871 في جانب، وهو من الآثار البديعة.

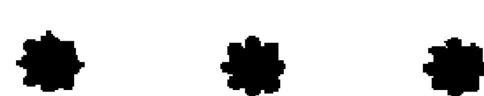
وعلى يمين هذا الميدان سرايٌ جارٍ بناؤُها برسم المجالس النيابيَّة، يظهر أنها ستكون من أَعظم سرايات برلين نظراً لزيادة الاهتمام بأَمرها، وإنفاق الأَموال الطائلة في سبيل تشييدها وتحسينها.

ومما لا بد من ذكرهِ ولا سبيل إلى تركهِ متنزه «تِيرْجَارْتِنْ» الواقع غربي باب براندبورج يحدهُ نهر «سْپِرِيهْ» من جهة الشمال، وقسم «پُوتْسدَامْ» من جهة الجنوب، وهو أحسن متنزعات برلين، وأكثرها تردداً من الناس إليهِ، وإقبالاً منهم عليهِ؛ فإِنَّهُ في غاية الاتّساع، طولهُ 1850 متراً، وعرضهُ يختلف بحسب جهاتِهِ بين 750 وبين 1100، وإنهُ لروضةٌ غناء، وحديقة فيحاء، أُبقي فيهِ كثير من الآثار الخلقيَّةِ في كثيرٍ من مواضعهِ، فزادهُ ذلك جمالاً وبهاءً، والطريق الذي يسلكهُ المتنزّهون فيهِ أكثر من غيرهِ، لاتّساعهِ وحسن مناظرهِ، طريق يسمى طريق النصر، يقسمهُ شطرين من الشمال إلى الجنوب.

ومما ينبغي ذكرهُ أيضاً السكة الحديديَّة المختصة بهذه العاصمة «شْتَادْبَانْ»

المجعولة لتسهيل المواصلات فيها، وهي تخترق المدينة كلها، مرتفعة عن أَرضها ستة أَمتار، أَو سبعة، فتجتاز النهر بها مع اعوجاجاتهِ، وتمر بخنادق الاستحكامات القديمة، وقد صار ردمها من أَجلها، وبباقي نواحي المدينة على جسور وقناطر شيدت، وأُحكم بناؤُها على حسب الارتفاع الذي ذكرناهُ حتى لا تضر المارّةَ بأَرض المدينة، ولا المساكن ولا ساكنيها بأَي حال، وانتهى العمل فيها بشهر فبراير سنة 1882 بعد أَن بلغت مصاريفها 75 مليون مارك، ولا بدع في ذلك بعد العلم بارتفاعها المذكور، مع أن طولها يبلغ أَحد عشر كيلومتر ونصفاً، منها ثمانية تقريباً جسور وقناطر من البناءِ، و1800 متر قناطر وجسور من الحديد، و1700 متر صار ردمها بعد أن كانت حفائر منحطة، وجملة القناطر بها سبعة وستون، منها اثنتان كبيرتان، وخمس وستون قنطرة صغيرة، وعدد محطاتها إِحدى عشرة، منها أَربعة للمواصلات الخارجة عن العاصمة وباقيها لمواصلات العاصمة وحدها.

فركبنا من محطة صادفناها من محطات هذه السكة حتى وصلنا إلى أَقرب نقطة للمحطة الّتي سنسافر منها إلى ويانه، ثم ركبنا عربة إلى المحطة المذكورة، وبها ودَّعنا صاحبنا بليجر؛ إذ إنهُ كان معنا من حين أَتينا برلين إلى هذا الوقت، ثم ركبنا وابور السكة الحديد إلى ويانه عاصمة النمسا.



(من برلين إلى ويانه):

قمنا من برلين والساعة خمسة ونصف بعد الظهر من يوم الاثنين 16 سبتمبر سنة 89، واستمرَّ بنا السير بين أَودية وأَنهار وجبال وأَشجار وأَزهار ورياض وغياض ومدن سامية ومبانٍ عالية، واصلين الليل بالنهار، حتى

وصلنا ويانه والساعة 9 صباحاً من اليوم التالي يوم الثلاثاءِ 17 سبتمبر سنة 1889 بعد مسير خمس عشرة ساعة ونصف.

وفي أثناءِ السير مررنا بمدينة «جْرُوسْنْهَين» الشهيرة بعمل الجوخ، وتبلغ سكانها 11500 نسمة، ثم بمدينة «درِيسدِنْ» عاصمة مملكة ساكس من ممالك ألمانيا، ومقر حكومتها من قرون مضت، وسكانها يبلغ عددهم 246000 نسمة، وهي قائمة على نهر إِلبْ يقسمها إلى قسمين متساويين، فوقفنا بمحطتها بعض دقائق، وأقبل بعدها الليل، واستمر السير حتى وصلنا إلى مدينة «تِشْشِنْ» بعد مسيرنا من برلين بخمس ساعات، وهي أول بلاد النمسا، تنتهي إلى جهتها حدود ألمانيا، فصار تفتيش الأَمتعة بمحطتها مع غاية الملاطفة، واستمرَّ بنا السير حتى وصلنا إلى مدينة پراج عاصمة بوهميا القديمة، وتبلغ سكانها مع ضواحيها 255000 نسمة، لطيفة المناظر، ناضرة الضواحي، عامرة الأَطراف والنواحي، منعنا عن التمتع بمناظرها إقبال الليل، وإسدال ثوب سوادهِ الحالك.

فأخذ الوابور بعدها في السير ونحن نيام، حتى أصبح الصباح، فمتَّعنا الطرف بالمرائي البهجة، والمشاهد الَّتي تأْخذ بالمهجة، والمياه الغزيرة، والمدن الفسيحة الكثيرة، حتى وصلنا إلى ويانه في الميعاد الذي ذكرناهُ.

فتركنا أَمتعتنا بالمحطة بعد أن طلبنا من مستخدميها نقلها إلى المحطة الأُخرى الَّتي يُسافر منها إلى تريسته إذ عزمنا على السفر إليها هذه الليلة، ثم ركبنا عربة وطفقنا نجول في أنحاءِ مدينة ويانه، مبتدئين بمحل بيت كوك لأَخذ بعض أوراق منهُ واستعلامات.

* * *

(عشر ساعات في ويانه):

بعد أن قَضينا ما أردناهُ من محل كوك توجهنا إلى فندق «مِيتْرُوپُولْ»؛ إذ أَخبرنا وكيل المحل أن الجناب الفخيم صاحب المقام السامي ولي عهد الخديويّة المصريّة إذ ذاك، وهو الآن خديوينا الأفخم المتحلي باسمهِ الكريم هذا الكتاب، ومعهُ صاحب السموّ أخوهُ الماجد حضرا من سياحتهما بأَنحاءِ أوروپا مدة إجازتهما المدرسيّة السنويّة، ونزَلا اليوم في الفندق المذكور، يستعدان لدخول مدرسة «تِرِزْيَانُومْ» الجامعة الشهيرة بويانه.

فحظينا بشرف المثول بين يديهما، ونوال سَنيّ التفاتهما، وكمال سَمِيّ تعطفاتهما، وكان بمعيتهما سعادة عبدالرحمن باشا رشدي، سر تشريفاتي خديوي وقت ذاك، وحضرة أحمد شفيق بك من موظفي السكرتاريّة الخديويّة في ذلك الوقت، وعرضنا عليهما عزمنا على مبارحة هذه المدينة في هذا المساءِ إلى تريسته، ومنها إلى الإسكندريّة، واستأْذنّاهما، وانصرفنا متشكرين داعين، بعد أن شرّفانا بمأموريّة عرض واجباتهما على الحضرة الفخيمة الخديويّة.

وسرنا نجول في أَنحاءِ ويانه، ونتفرّج على شوارعها وميادينها فأَعجبنا إتقانها وأدهشنا تمام نظامها، وانشرحنا بلطف زينتها وحسن أَبنيتها، وتشييدها وتزيينها، وابتهجنا بما شاهدناهُ من الحركة في طرقها، وانتشار التجارة في سائر أَطرافها، واستحسنّا اتّساع شوارعها، خصوصاً الشارع الكبير المسمى «رِنْجِشْترَاسِه»، وهو يحيط بالمدينة القديمة جُعل محل خنادق الاستحكامات الّتي كانت تحيط بها قبلاً على شكل شبه دائرةٍ، جزءٌ من محيطها بجهة الشمال، رصيفٌ متّسع على كنال الطونه، يُعرف برصيف

فرنسوا جوزيف، تُشرف عليهِ الأَبنية المشيّدة والعمارات العديدة، وعرض هذا الشارع 57 متراً، وطولهُ 3800 متر.

ولكل قسم من أقسام هذا الشارع اسم يميزهُ عن غيره، فابتدأنا في المرور بهِ من جهة الطونه إلى الجنوب من قسمهِ المسمى «شُوتِنْرِنْج»، فوصلنا إلى دار للفقراءِ بناها الإمبراطور فرنسوا جوزيف على مصاريفهِ، في موضع تياتر رنج الذي احترق بتمامهِ في ديسمبر سنة 1881، ثم إلى «سراي البورصة»، وقد بنيت من سنة 1872 إلى سنة 1877، وهي بناءٌ مشيّد لهُ دهليز عظيم يوصل إلى قاعة الأعمال التجاريَّةِ الشهيرة بالاتّساع والإتقان، وقد جُعل في أحد محلات هذه البورصة متحف تجاري جمعت إليهِ سائر الأَصناف المجلوبة من الشرق بأَطرافهِ حتى الصين واليابان، وخصص محل آخر منها بالمطالعة، وإليهِ تُجلب جميع صحف المشرق الخبريَّة.

ثم مررنا بهذا الشارع تاركين الطونه خلفنا، فوصلنا إلى قسمهِ المسمّى «فرَانْتِسِنْسِيرنج» الذي يحفهُ من الجانبين عمارات شهيرة، صار تشييدها فيهِ حديثاً جعلتهُ أَعظم شوارع المدينة وأبهجها.

فعلى اليمين «سراي المدرسة الجامعة» تشغل محلاً رَحْباً جداً، بها قاعات كثيرة للتدريس، وقاعة كبيرة ارتفاعها ارتفاع طبقتي السراي معاً، وبهذه السراي كتبخانة تحتوي على 320000 مجلداً من أَعظم الكتب وأَثمنها، وقاعة عموميّة للمطالعة في غاية البهاءِ والزخرفة، ويبلغ عدد طلبة هذه المدرسة ستة آلاف، وبها من الأَساتذة 337، وقد اشتهر قسمها الطبي شهرة عظيمة في جميع أنحاءِ أُوروبا، ويتبع هذه المدرسة الجامعة الرصدخانة، والمعمل الكيماوي، وبستان النباتات، والمتحف الپاتولوجي، ومدرسة الإلهيات، ومحل التشريح.

وبالقرب من المدرسة الجامعة هذه «سراي بلديَّة المدينة»، أَمامها ميدان مملوءٌ بالنباتات اللطيفة والأَزهار، وهي سراي في غاية الرونق والانتظام، بلغت مصاريف بنائها 15 مليوناً من الفلورينات، مزينة بكثير من التماثيل والصور المجسَّمة، يعلو بابَها برجٌ عظيم، ارتفاعهُ مائة متر، وبها من الداخل سبع رحبات، الكبيرةُ منها محاطة بعمد في غاية الإِتقان، وأَجمل قاعات هذه السراي، وأَهمها قاعة رئيس المدينة، وقاعة اجتماع المجلس البلدي، وقاعة الاحتفالات الشاهقة الارتفاع، حتى إنها تساوي فيهِ ارتفاع طبقَتي السراي، وبها تماثيل عشرةٍ من رؤساءِ بلديَّة ويانه السالفين، وبهذه السراي كتبخانة أيضاً تحتوي على ما لم تحتوِ عليهِ غيرها من الكتب المختصَّة بويانه، وبالتآليف التياتريَّة.

وبالطرف الآخر من الميدان المذكور تجاه المدرسة الجامعة «سراي المجالس النيابيَّة» وهي من أَعظم وأَجمل مباني هذه المدينة. وتنقسم إلى قسمين: قسم مجلس الأَعيان، وقسم مجلس النوَّاب وبداخل هذه السراي وخارجها كثير من التماثيل والصور المجسَّمة، والأَعمدة المتَّخذ كلٌّ منها من قطعة واحدة من الرخام الثمين، وعلى الجدران في الداخل والخارج صور كثير من الحوادث التاريخيَّة والوقائع الوطنيَّة، وبكلٍّ من القسمين قاعة مخصوصة بانعقاد الجلسات، والقاعتان متشابهتان في الاتِّساع والرونق والزخرف والزينة.

وبالقرب من سراي المجالس النيابيَّة سراي المحاكم، ومن أَهم ما فيها القاعة الوسطى، وتمثال العدالة القائم بوسطها.

ثم في قسم آخر من هذا الشارع «سراي المتاحف»، وهي عبارة عن بناءَين عظيمين مشيدين يفصلهما بستان فسيح بديع، خُصَّ كل بناءٍ منهما

بقسم من الآثار، وفي وسط ذلك البستان تمثال أُقيم للإمبراطورة ماريا تيريزه سنة 1888، وهو من أتقن وأحسن وأعظم التماثيل، مُثِّلت فيهِ مجسّمة من البرونز، جالسة فوق قاعدة من الرخام، بحيث يبلغ مجموع ارتفاع القاعدة والتمثال 19 متراً، ومُثِّلت حواليها أُمراءُ جيوشها مجسّمين راكبين خيولهم، وعلماءُ الوقت ومشاهير الساسة، فيهِ الجميع مجسّمون بهيئاتهم وقت ذاك.

وعلى هذا الشارع سراي «الأُوبرا الملوكيّة»، وقد بنيت من سنة 1861 إلى سنة 1869، وملئت بالزخارف وأحاسن النقوش، وتسع من الداخل 3000 نسمة، وكلها محلاّة بالطلاءِ الذهبي.

ولا زلنا سائرين بهذا الشارع بين أماكن مشيّدة، وعمارات عديدة، أقامها الأُمراءُ وأعضاءُ العائلات الملوكيّة وأغنياءُ التجار، حتى وصلنا إلى «سْتَاذْپارْك» أي: متنزه المدينة، وهو بديع في بابهِ، يحتوي على ما وصلت إليهِ يد الإنسان من الزينة، ونهاية الإتقان؛ تُهْرَعُ إليهِ الناس من كل مكان، خصوصاً في أيام الصيف واشتداد الحر في المساءِ، فيستنشقون نسيمهُ العِطريّ، وعَرف زهرهِ النديّ، ويغتنمون منظر ماءِ نهرهِ البهيّ، جالسين على كراسي هيئت لهم بشاطئهِ، وهذا النهر يسمى «ويانه»، ويقسم هذا المتنزه شطرين، ويصب في كنال الطونه بقرب قنطرة «أَشْپِرْنْ».

وعند ذلك مبدأُ رصيف فرنسوا جوزيف العديم المثيل، بسبب الاتّساع واللطف والزخرفة والمتانة، وبما أقيم عليهِ من الأَبنية العظيمة، وبوارف ظل أشجاره النظيمة، فمررنا بهذا الرصيف إلى شارع «رِنْجِشْتَرَاسِهْ»، حيث ابتدأنا. وما انتهينا من هذا الشارع العظيم حتى آن وقت الأَكل فأكلنا في أحد محلات الطعام، فرأيناهُ في غاية النظافة والإتقان، مع حسن الخِدْمة، ومزيد اعتناءِ الخَدَمة.

وبعد الأَكل والاستراحة أَخذنا نتفرج على ما لم نمر عليهِ من الأَمكنة، فمررنا بأَماكن عديدة وميادين متّسعة وشوارع رَحْبة وقصور شائقة.

ومن ذلك كنيسة «سْتِيفَانْسِكيزْخِهْ «الكاتدرائيّة»، وهي من أَفخر مباني هذه المدينة وآثارها الشهيرة طولها مائة متر وثمانية، وعرضها نيف وثمانون متراً، وبها مائة تمثال مجسّمة، وثمانية عشر عموداً، قطر الواحد منها ثلاثة أَمتار، تحمل قبابها الشاهقة، وقد شرع في بنائها سنة 1300، وتمت سنة 1510، وتجدد إِصلاحها منذ عشرين سنة.

وعلى مقربة منها دائرة صغيرة يحيط بها درابزين من الحديد، بداخلها جذع شجرة قديمة مغطى كلهُ بالمسامير، يقال: إِنهُ جذع آخر شجرة من أَشجار الغابة الَّتي كانت بهذا المكان قديماً سنة 1575، وتعتقد العامة أَنها شجرة مقدّسة.

ونذكر بمناسبةِ كنيسة سْتِيفَانْسِكيزْخِهْ هذه برجها العظيم، وهو برج يبلغ ارتفاعهُ 136 متراً يتمتع الناظر منهُ بأبهج مناظر ويانه، وأَزهى محالها، وأَبهى ضواحيها على مسافات بعيدة.

وبقرب ميدان هذه الكنيسة شارع «جْرَابِنْ»، وهو من أَحسن طرق ويانه، وأَنظمها بناءً وأكثرها حركةً، وأَهمها صقعاً، وأرغبها في السكنى والإقامة.

وبقرب من هذا الشارع كنيسة سان ميشيل يتردد عليها للتعبُّدِ في الأكثر النساءُ، وبها كثير من الصور الظريفة والزخارف اللطيفة.

ويلي الأَماكن المذكورة «السراي الإمپراطوريّة» (بُورغ)، وهي مسكن أمراءِ بيت النمسا الملوكي منذ القرن الثالث عشر للميلاد، وتشتمل على عدة أَمكنة، بنيت في أزمان مختلفة، منها مساكن الإمپراطور والإمپراطورة

وخزينة الأمتعة الإمبراطوريَّة، والكتبخانة الإمبراطوريَّة، وكنيسة خصوصيَّة، وبها عدة رحبات فسيحة، أهمها الرحبة المعروفة «برحبة فرنسوا»، بها تمثال الإمبراطور فرنسوا الثاني محاط بصور أربعة مجسّمة تمثل الدين والسِّلم والعدل والبسالة، وأَمام هذه السراي من جهة شارع رنجشتراسه الذي ذكرناهُ آنفاً ميدان كبير جدّاً يفصل بينها وبين هذا الشارع، وبالجانب الأَيمن من هذا الميدان «تمثال البرنس أوجين» وبالأَيسر منهُ «تمثال الأَرشيدوك شارل» ممسكاً بيدهِ عَلَماً، كأنّما يشير بهِ إلى جيشهِ في واقعة «أسلن» و«أشپرن»، ولهذا الميدان من جهة الشارع المذكور باب في غاية العظم وجمال الهيئة، بني سنة 1822 لهُ خمس فتحات، وبه اثنا عشر عموداً ضخمة.

أمّا «الكتبخانة الإمبراطوريَّة» ففي غاية النظام والزخرفة تحتوي على نيف وأربعمائة ألف مجلد منها عشرون ألفاً بخط اليد، تشتمل على كثير من التحف وغرائب الآثار، من ذلك مجموعة الكتب المشرقيَّة الشهيرة الَّتي جمعها البارون «هَمَّرْ پورجِشْتال»، المتوفى سنة 1856، فقد حَوَت كتباً ثمينة عديمة المثال، ومن ذلك ما كتب على رقوق أرجوانيَّة بحروف فضيَّة وذهبيَّة، وما كُتِب على أَوراق متّخذة من القطن والكِتّان والتوت وشجر النخل، ومن ذلك قطع عليها أشعار من أَشعار قدماءِ الشعراءِ بخطوطهم، وكذلك منشئات بخطوط أَصحابها أَيضاً من إنشاءِ عظماءِ الكُتَّاب المتقدمين، ومن ذلك مصحف مشتمل على القرآن الكريم بتمامهِ، بخط واضح جميل في شكل مثمن الأَضلاع، ارتفاعهُ خمسة سنتمتر، وعرضهُ كذلك، إلى غير ذلك.

وأَما «خزينة الأمتعة الإمبراطوريَّة» فمملوءَةٌ أيضاً بالتحف النفيسة والآثار

المنيفة، فمن ذلك عُلبة من الأَبنوس بداخلها مفاتيح توابيت الإمپراطورة السابقين المدفونين بكنيسة الكاپوسين بمدينة ويانه، ومن ذلك ساعة من أَوائل القرن السابع عشر، مهمة من حيث التاريخ، ومن ذلك كأس من البلور محلاّة بالحجارة الكريمة، بديعة الصناعة، وكثير من الأواني الذهبيّة والفضيّة منها مملحة فاخرة جداً، كانت صُنعت لفرنسوا الأَول ملك فرنسا، ومن ذلك مجوهرات وحلي كانت تلبسها نساءُ العائلة الإمپراطوريّة، وتاج الإمپراطور ردولف الثاني، وصولجانهُ، ومن ذلك مجموعة أَلماس لا يُقدرُ قدر قيمتها، ومنها قطعة واحدة زنتها 133 قيراطاً وثلث، يقال: إنها سقطت من الملك شارل في أَثناء حرب، فالتقطها فلاح وباعها بفلورينو واحد، ومنها قلادة بها مائة وخمسون قطعة من الأَلماس، وواسطتها قطعة زنتها 42 قيراطاً، ومن ذلك مجموعة نياشين فيها نشان واحد بهِ 548 قطعة من الأَلماس إلى غير ذلك من مرصعات الزمرّد والياقوت، ومن التحف التاريخيّة، والآثار الغريبة سيف يقال: إنهُ سيف هارون الرشيد.

وعلى مقربة من الخزينة المذكورة «قاعة النقود القديمة والمصوغات العتيقة»، وفي أحد أقسامها طبق عظيم من الذهب عليه شجرة النسب الإمپراطوريّة، وفي غير هذا القسم كثير من النقود والأَسلحة القديمة والغرائب الجيولوجيّة والتاريخيّة، وبدائع الحليّ وأَدوات الزينة، وتماثيل معبودات اليونان القدماءِ، وتماثيل أباطرة الرومان والبطالسة ملوك مصر وغيرهم من مشاهير أُوروپا وآسيا وفريقيه.

ومن المباني العظيمة بويانه أيضاً «قصر الأَرشيدُوك أَلبِرْتْ»، وقد بني من نحو مائة سنة، وفيهِ الكتبخانة الأَلبِرْتينيّة المشهورة، وهي تشتمل على نحو

خمسين أَلف مجلد، و24000 خريطة، ونحو 117000 رسم وصورة، منها 144 تُنسب إلى رفائيل المصور الشهير إلّا أن خمسين منها من صنعهِ يقيناً بخلاف الباقي.

ومن مباني ويانه العظيمة أيضاً «كنيسة الكاپوسين»، و«سراي الماليّة»، وكانت قبل مسكناً للپرنس أُوجين، و«سراي الدوك كوبورج»، و«دار المطبعة الإمپراطوريّة»، والسراي المعروفة «بقصر سينا»، وهي من أقدم مباني ويانه، و«كنيسة مَارِياشْتِيجِنْ»، وهي من أجمل المباني القديمة، والسراي المسماة «هَرّاخ»، وبها نحو أربعمائة صورة من أجمل وأبدع الصور، ثم «دار البنك الأهلي»، إلى غير ذلك من الأبنية المشيّدة والمحلات الفاخرة.

وقد صارت ويانه بما شيّد فيها من المباني حديثاً، معدودة الآن من أعاظم مدن أوروبا الجميلة، ولا غرو، فإنّا لم يعجبنا بعد پاريسْ مدينة أبهى وأزهى منها، وإن فاقتهما لنْدَرَهْ من حيث كثرة العمارة وتعداد الأنفس والاتّساع في التجارة.

وويانه لم تصل إلى ما وصلت إليهِ إلّا بصرف مبالغ طائلة على تحسينها وتشييدها وتزيينها، فازداد بذلك عُمرانها، وكثرت سكانها، حتى بلغت في سنة 1889 مليوناً ومائتي أَلف نسمة، ولم تكن كذلك من قبل بسنين يسيرة.

ويحق ذلك لمدينة أعدّها الأهلون عاصمة بلادهم، وساعدها على ذلك موقعها الطبيعي، من كونها على الطونة مارّاً بها، وكون نهر وِيَانَهْ يخترقها، صابّاً بقرب قنطرة أَشْپِزِنْ في الطونة.

وليست عاصمة بلادنا بأقل أهمية بالنسبة إلينا من هذه العاصمة وموقعها

الطبيعي، من كونها على النيل، وكونها محفوفة بالأَرض الخِصبة، مما يُعين على جعلها من أَحسن العواصم.

فيا حبّذا لو حصل الاعتناءُ بتجديد شوارع متّسعة بأَماكنها الباقية على حالها الأَصليّ، من ضيق الطرق، واعوجاجها، وعدم تحسين المباني واتساعها، وتشييدها وارتفاعها، وامتناع تخلل الشمس والهواءِ في سائر بقاعها، فَإِنَّهُ لو خُصِص لذلك قدر من النقود في كل سنة لصار الحصول على ما ذكر بسهولة مع توالي الأَيام، وما يُصرف في هذا الأَمر لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يترتب عليهِ من المصالح الجمّة، والمنافع المهمّة، واتساع العمارة، وازدياد التجارة، ووفور المدنيَّة، وتقدم الصحة العموميَّة.

هذا وقد قصدنا قبل مبارحة هذه العاصمة أن نتفرج على متنزهها العموميّ المماثل لغابة بولونيا في پاريس وتيزْجَارْتِنْ في برلين، ومتنزهات لندره الفاخرة أَلَا وهو متنزه «پْراتِر»، فركبنا عربة، وتوجهنا إليهِ، وهو حديقة فسيحة، مساحتها 1712 هيكتاراً، موقعها شرقي المدينة، أَعدَّها الملك جوزيف الثاني لتنزه أَهليها منذ سنة 1766، يتوصل إليها من سائر شوارع المدينة، خصوصاً من الشارع المنسوب لاسمها المسمى شارع پْراتِرْ المنتهي إلى ميدان متّسع منسوب إلى اسمها كذلك، يتفرع منهُ جملة طرق، تخترقها، أَهمها ثلاثة: الشارع الكبير «هُوپْتْ أَلّيهْ»، وشارع المعرض، «فِيْرْيُورْكْ أَلّيه»، وشارع مكتب السباحة «شْفِمْشُولْ أَلّيهْ»، فتقسمها إلى أقسام ثلاثة.

والشارع الكبير أهمها، يكتنفهُ من الجانبين أربعة صفوف من شجر البلوط

العظيم الارتفاع، ويغلب فيهِ تنزه العظماءِ والأَغنياءِ والأُمراءِ والنساءِ اللاتي كذلك راكبين أحسن الركائب، لابسين أجمل الملابس، وتلك النساءُ يأْخذنَ بمجامع القلوب لباهر جمالهنَّ ورشاقة قدودهنَّ، وصباحة وجوههنَّ، وكَحَلِ عيونهنَّ، وظرف شعورهنَّ، مع لطف ملابسهنَّ، وحسن مراكبهنَّ.

وفي خلال هذا الشارع على مسافات متقاربة محال قهاوي ومآكل وأَشربة، وسماع أَلحان إلى غير ذلك.

والقسم المتوسط من هذه الحديقة والذي يليهِ يغلب فيهما تنزه آحاد الناس، فهما أكثر من الأَول ازدحاماً، وأَقل منهُ انتظاماً.

ومن أَسعدهُ الحظ بوجودهِ في هذا المتنزه، لاسيما والمتنزهون متشرون في أنحائهِ، فلا شك في أنهُ يرى منظراً حسناً تنشرح لهُ النفوس، وتنتعش بهِ الأرواح.

وقد رأى الونانيّون في مجرى الطونة بداخل عاصمتهم ضيقاً واعوجاجاً، فحفروا مجرّى آخر للنهر حسب ما أَرادوا من الاعتدال، وما لزم لتسهيل الملاحة عندهم من الاتساع، وأَخذوا يهيئون لهُ الأَرصفة العظيمة، ويجددون بجوارهِ الشوارع النظيمة حتى ستكون هذه الجهات الجديدة من أَبهى جهات المدينة؛ لإِشرافها على النهر الجديد، ووقوعها على الشمال الشرقي من متنزه پراتر.

هذا ويصل شارع مكتب الساحة أحد الشوارع الثلاثة إلى قنطرة على هذا النهر الجديد في غاية العظم والاتساع نسبت إلى اسم ولي العهد رودولف في حياتهِ، وعلى يسارها حمامات السباحة، وبها عدة حياض للسابحين، تختلف

بحسب اختلافهم في معرفة السباحة، أكبرها طولهُ 75 متراً، وعرضهُ 44.

وأما شارع المعرض فيوصل إلى حيث أُقيم المعرض العام في هذا المتنزه سنة 1873، ولم يبقَ من آثار العمارات الّتي أُقيمت برسم هذا المعرض غير محلات قليلة تُستعمل الآن لمعارض خصوصيّة محليّة.

وما انتهينا من هذا التفرج إلّا وقد أَقبل الليل، وفاجأنا الجوع، فعدنا مسرعين إلى المحطة الّتي سنسافر منها إلى تريسته، وقد بقي على قيام الوابور ساعة وربع، وكانت مدة إقامتنا بالمدينة عشر ساعات، فأكلنا واسترحنا، واطّلعنا على صحف الأخبار حتى حضر الوابور، فركبناهُ، وسرنا.



(من ويانه إلى تريسته):

يبلغ طول المسافة بين ويانه وبين تريسته 596 كيلومتر، تقطعها السكك الحديديّة في نحو أَربع عشرة ساعة، وقد سرنا والساعة ثمانية وربع بعد الظهر من يوم الثلاثاءِ 17 سپتمبر سنة 1889 من الأُولى قاصدين الثانية. فمررنا على بعد ماتين وثمانية وعشرين كيلومتر من ويانه بمدينة «جْراتس»، وهي تحت إقليم إِسْتيريا من المملكة النمساويّة، يبلغ عدد سكانها 106000 نسمة وموقعها في غاية اللطف على ضفة نهر «مُوز»، يَعُدُّها أَغنياءُ النمساويين وكبار الموظفين محل نزهتهم، وجنة أُنسهم أوقات فراغهم من الأَعمال، فزادت بذلك حسناً ورونقاً، حتى صار يؤُمُّها كثير من الأَجانب للتمتع بهوائها، وطيب مائها، وبها المتنزهات الجميلة، تسر الناظر، وتروق الخاطر، وعلى الشاطئ الشمالي من النهر فيها جبل مطل على المدينة يصعد إليهِ في مسافة عشرين دقيقة، على قمتهِ برج يبلغ ارتفاعهُ ثمانية عشر

متراً يشاهد منهُ الرائي منظر النهر والمدينة والقرى المجاورة على مسافة عظيمة، وبضواحيها كثير من البساتين والرياض تهرع إليها الناس على اختلاف طبقاتهم طلباً للراحة وابتغاءَ التنزه.

ولم نتمالك أنفسنا مع محاسن هذه البلدة الَّتي ذكرناها عن الأَسف حين وردناها على فقيدينا العظيمين الشهرين: المرحوم مُحمَّد شريف باشا والمرحوم مُحَمَّد سلطان باشا؛ إذ دهمتهما المنيَّة بها ولم يقصداها إلَّا طلباً لحسن هوائها، وطمعاً في نفع مائها، ولكن لا مردَّ لقضاءِ الله وقدرهِ.

وعلى بعد أربعة أَميال بعد مسيرنا من جْرَاتْس هذه يرى الإِنسان إذا كان النهار على هضبة هناك أطلال قصر أُوبِرْفِيلْدُنْ، حيث كان تِيخُوبْرَايْ الفلكي الشهير يقضي بِهِ الليالي الطوال والشهور والأعوامِ في رصد الأَجرام السماويَّة ومراقبة حركاتها.

وبعد مسير ستين كيلومتر من هذا المكان وصل بنا الوابور إلى مدينة مَارْبُرْج البالغ عدد سكانها نحو ثمانية عشر ألفاً، وهي الثانية من مدن إِسْتِيرْيا بعد جْرَاتْس، وفي كتاب الدليل أن بها كثيراً من شجر الكرم والزروع.

ثم إن قطار السكة الحديديَّة سار بعد ذلك بضع دقائق في منفذ محفور في الصخر، حتى وقف على مدينة تْسِيلِّي وهي مدينة أَصلها رومانيَّة حسنة المنظر، يبلغ سكانها 5400 نسمة، وبها دار لحفظ الآثار والتحف الرومانيَّة.

وعلى بعد 448 كيلومتر من ويانه مدينة لَيْبَخْ، وهي رومانيَّة الأَصل أيضاً، موقعها على نهر ليبخ في سهل رحب محاط بالجبال، يبلغ عدد سكانها 26300 نسمة، وبها قصورشاهقة وعدة من المباني الفخيمة.

ثم بعد مسيرنا من مدينة ليبخ بمسافة على نحو 315 كيلومتر من ويانه مرَّ الوابور على بعدٍ تجاه كهفٍ عظيم، دلَّت التواريخ المتقدمة على وجودهِ في

تلك الجهة منذ القرون الوسطى، ثم بعد أن جُهل مدة طويلة عُثر عليهِ من نحو سبعين سنة، وهو الآن معتنى بشأنهِ غاية الاعتناءِ، يقصدهُ السياح من كل جانب لغرابتهِ وإبداعهِ، يضاءُ بالنور الكهربائي من أوّل مايو إلى أوّل أكطوبر في كل سنة، وقد أوصلوا السكة الحديديّة إلى نحو منتصفهِ، ويبلغ طولهُ 4172 متراً، وبهِ قبة ارتفاعها 22 متراً، ويختفي بإحدى جهاتهِ نهر «پيُوكَا»، فيسير تحت أرضهِ مسافة طويلة، ثم يظهر، وبهذا الكهف مغارات عديدة عجيبة منها المغارة المعروفة بنسبتها إلى الإمپراطور فِرْدينانْد، ويشتمل على عدة غرف جميلة، أهمها المعروفة بغرفة الرقص، ويبلغ ارتفاعها 13 متراً، فأكثر، وطولها 148 متراً، ويُحتفل فيها بليلة رقص في عيد العنصرة من كل عام، تكون في غاية الرونق، ومنها المغارة المعروفة بنسبتها إلى اسم فرنسوا جُوزيف إِيليزابيت، وهي من أكبر المغارات؛ فإن ارتفاعها يبلغ 34 متراً وطولها 203، وعرضها 195.

وعلى مسافة نحو أربعين كيلومتر من هذا الكهف كهف آخر عظيم يقصدهُ السائحون للتفرج عليهِ.

ثم أخذ الوابور في الانحدار تدريجاً صوب بحر الأدرياتيك إلى أن أصبح الصباح، فجعلنا نمتع الطرف بمنظر البحر البهج وأمواجهِ الفضيَّة على صفحاتهِ الزبرجديَّة، ناظرين على مد البصر قصر ميرامار بالبعد عن المدينة حتى وصلناها والساعة 9 و42 دقيقة من صباح يوم الأربعاء 18 ستمبر سنة 89، فكانت المسافة من ويانه إليها 14 ساعة تقريباً.

* * *

(من تريسته إلى الإسكندرية):

نزلنا في تريسته بالفندق المسمى «أُوتيل دُه لَاڤِيل»، وهو من أحسن

فنادقها قريب من المحطة ومن الميناءِ، ثم توجهنا إلى محل إِدارة البواخر النمساويّة، فأَخذنا نمر الغرف الّتي أُعدّت لنا بالوابور الذي يقوم من مينا تريسته هذه ظهر يوم الجمعة 20 سپتمبر سنة 1889، وكنا طلبنا قبل ذلك بمدة بواسطة محل كوك حجز غرفٍ لنا بالوابور الذي يقوم في اليوم المذكور خوف أن يسبقنا الغير إلى أَخذها، فبوجب ذلك تأخرنا أسبوعاً إلى الوابور التالي. هذا وقد كنا نسينا كتاباً لحضرة رفيقنا الشيخ حمزة بغرفةٍ من غرف الوابور الذي سافرنا فيهِ من الإسكندريّة إلى تريسته، ولم نتذكرهُ إلّا في أثناءِ الطريق، فكتبنا عنهُ إلى مدير الشركة بهذا البلد، وعرّفناهُ اسم الوابور، ونمرة الغرفة الّتي نسيناهُ بها، وأنهُ إذا وُجد يجعلهُ بمحل إدارة الشركة حتى إذا رجعنا نأْخذهُ، فوجدناهُ عند رجوعنا في هذا المحل، وأخذناهُ، وهذا من عظيم الهمة وجميل الأَمانة ومزيد الاعتناءِ بشؤون المسافرين، وشدة انتظام هذه الشركة.

وإذا كان قيام الوابور لا يكون إلاّ في يوم الجمعة كما تقدم أَقمنا بتريسته يومي الأربعاء والخميس، وإلى ظهر يوم الجمعة، وقضينا هذه المدة في تنزه وتفرُّج واستراحة، ولكن لم تقع عندنا هذه المدينة موقعها الأول عند حلولنا بها أَول مرة، وذلك لما رأَيناهُ بعدها من البلاد والمدن والعواصم، وما فيها من الأَبنية المشيّدة والميادين الفسيحة، والمتنزهات المتسعة الأرجاءِ، وعجائب المتاحف، وغرائب الأَنهارُ والأنحاءِ، حتى إن ميدانها الذي وصفناهُ آنفاً، وما فيهِ من ازدحام الرجال والنساءِ الحسان ومحاسن الأنغام لم يظهر في أَعيننا بحالتهِ الأولى من البهجة والرونق.

ولقد كان انتظارنا للوابور هذين اليومين في هذه المدينة بمثابة أَشهرٍ أَو

أعوام، لشدة ما نلقاهُ من كثرة التشوُّق وعظيم التلهف ومزيد الحنو إلى الوطن العزيز، ورؤية الأهل والأحباب والأخلّاءِ والأصحاب، واجتماع الشمل بعد طول الاغتراب. ومن ثم هُرِعنا إلى الوابور من صبح يوم الجمعة، فركبناهُ وانتظرنا قيامهُ. ولم نستطع الإقامة بالفندق إلى قرب قيامهِ.

فلما جاءَ الوقت سار بنا، ومرَّ بالطريق الذي سلكناهُ أولاً، فلا حاجة إلى إعادة الكلام عليه، وكان هو الوابور الذي ركبناهُ من الإسكندريّة غير أن حالنا في السفر لم يكن كالحال الأوّل، فإنّا كنا كلما تقدمنا إلى الأمام زاد الدِّفْءُ، بخلاف الأوّل، فكنا كلما تقدمنا زاد البرد، وكان الهواءُ هادئاً، والجوّ معتدلاً، والسماءُ مصحية، والبحر ساكناً، فلم نتكدّر بشيء من غوائلهِ، فعظُم اشتهاؤُنا للطعام، وصرنا نأكل ونشرب كثيراً من غير منغّص على رغم متعهد الطعام، فكان في هذه المرة الساخطَ على البحر، وكنا الراضين على خلاف المرة الأولى، فكان الراضي عليهِ وكنا الساخطين، وقد تقدّم أن حسابهُ على كل مسافر باليوم أكل أو لم يأكل، فهو مع المسافرين على طرفي نقيض، يُحب الشدة، وهم يُحبون عدمها.

وما زلنا سائرين مع الدعة والراحة حتى وصلنا برنديزي نصف ليل يوم السبت، وقمنا منها بعد خمس ساعات، وسرنا والحال على ما ذكر حتى وصلنا الإسكندريّة يوم الأربعاءِ 25 سپتمبر سنة 1889[1] والساعة 6 إفرنكي صباحاً، فوجدنا في انتظارنا مع كون وصولنا في بكرة النهار أحباباً عزازاً، استقبلونا أحسن استقبال فحمدنا الله على هذا الحال.

---

(1) في الأصل: سنة 92 «انظر الصواب، ص 862» المحرر.

(المُثُول بين يدي الحضرة الخديوية بالإسكندرية)

وعقب وصولنا توجهنا مع حضرة صاحبنا العزيز أحمد توفيق قپودان، وكيل واپورات البوستة الخديويّة سابقاً إلى منزلِهِ، فإنَّهُ كان متهيئاً لنزولنا عندهُ، فاستبدلنا ملابس السفر بملابس تليق بالمثول بين يدي الحضرة الخديويّة، ثم قصدنا سراي رأس التين والساعة 8 صباحاً، فبمجرد الوصول إليها صدر الإذن لنا بالمثول، وتشرفنا بلثم الأَعتاب السنيّة، وقصَّ سيدي الولد على مسامع الجناب العالي نبأ الرحلة الَّتي قضيناها، والمأموريَّة الَّتي أدّيناها، وسموّهُ منشرح لذلك مسرور منهُ، منعم بالتفاتِهِ إلينا محسن بتعطفاتِهِ علينا، وقد زاد ابتهاجاً بما قدَّمهُ إلى سُدَّتِهِ سيدي الوالد من القصيدة الَّتي أنشأَها ونحن عائدون في البحر من برنديزي، وجعلها أَشبه بتقرير عن المأموريَّة وما تم فيها، فأَمرهُ بتلاوتها، فانسر بسماعها، وأَخذ نسختها، ثم تفضَّل تشجيعاً لنا وتنشيطاً لهممنا بإِبداءِ إِشارات السرور، حتى تنزَّل سموّهُ إلى التشكر على حسن قيامنا بالمأموريَّة الَّتي كلفنا بها، ثم استأْذناهُ في السفر إلى مصر فأَذن، فانصرفنا إلى منزل صاحبنا القپودان، وانتظرنا بهِ موعد قيام الواپور حتى قرب، فقصدناهُ وركبناهُ إلى مصر.

* * *

(القصيدة)

التي قدّمها سيدي الوالد إلى الحضرة الخديويّة
في الذي تمّ بالمؤتمر والمأموريّة

دَنَتِ الديارُ ودانتِ الأَوطارُ | هذا المنارُ وهذه الأَنوارُ
هذا المنار يلوح نَجم هِدَايةٍ | للناظرين تَؤُمُّه الأَنظارُ
والثغر وضّاحُ[1] المباسِم باسمٌ | للبِشْرِ في قسماتهِ[2] آثارُ
فَرِحٌ يبشّرنا بِبِشْرِ سرورِهِ | أَن الخديو لهُ بهِ استقرارُ
فاليومَ نلثِمُ من بَنانٍ يمينهِ | سُحُباً مواردُ فيضهنَّ غِزَارُ
من كفٍّ فيّاضِ اليدين يمينُهُ | يُمْنٌ ويُسراهُ ندىً ويَسارُ
ونُشنّف الأَسماع من أَلفاظهِ | دُرّاً غدَتْ أَصدافهُ الأَفكارُ
ونرى منارَ الحقّ فوقَ جبينهِ | كالشمس ليس وراءَها أَستارُ
نورٌ تلألأَ في جبين موفَّقٍ | للحق في توفيقهِ أَسرارُ
مولايَ قد سِرْنا بأَمرك نبتغي | لرضاك ما تسمو بهِ الأَقدارُ
نَصل المغاربَ بالمشارق والسُّرى | بالسّيْرِ لا مَلَلٌ ولا إِقصارُ

---

(1) الوضّاح: ككتان أبيض اللون حسنهُ.

(2) القسمات: جمع قسمة بكسر السين وفتحها قال ابن الأعرابي: هو ما بين الوجنتين والأنف، وأنشد لمُخرز الضبي:

كأن دنانيراً على قسماتهم | وإن كان قد شف الوجوه لقاءُ

ونَلُف[1] أذيال الأَباطح[2] بالرُبى | تـنـتـابـنـا[3] الأَنـجـاد والأغـوارُ
لا البحرُ ذو الأَمواج نخشى بأْسَهُ | يـومـاً ولـيـس الـبَـرُّ فـيـهِ نـضـارُ
الـبـحـر بَرٌّ فـي رضـاك بـمـن بـهِ | والـبَـرُّ مـن جـدوى نَـداكَ بـحـارُ
ومدى[4] النهار صباحُ خيرٍ كلهُ | بِسُعُودِ جَدِّكَ[5] والدُجى أسحارُ
نطوي البلادَ بطيب ذكرك نشرهُ | عَبَـق ونـفـحـة ريـحـهِ مِـعـطـارُ
ونؤرِّج[6] الأَرجاءَ باسمك مِدحة | طـابـت بـهـا الأَسـحـار والأَسـمـارُ
يهتز حاضرها بحسن سماعها | طـرقـاً ويُـخـبِـرُ غـائـبـاً حـضّـارُ
ويروح سامِعُها يميل بِعِطفِهِ | ثَـمِـلاً كـأنَّ دارت عـلـيـهِ عُـقـارُ
نغشى بها صدر النديِّ نديَّة | يـحـلـو بـهـا الإيـراد والإصـدارُ
نتلو مديحك معلنين بنشرهِ | جـهـراً فـلا كَـتْـمٌ ولا إسـرارُ
لا يعتري فحواهُ وَضمةَ ريبةٍ | تُـخـشـى ولا رَدٌّ ولا اسـتـنـكـارُ
ثم امتطينا للسويد ركائباً | لا الركضُ يُجهدها ولا التسيارُ
تسعى على عجلٍ إلى غاياتها | كـالـمـاءِ سـاعَـدَ جـريَـهُ تـيّـارُ
سُرُع الخُطى لا السوط حل بجلدها | يـومـاً ولا شُـدَّت بـهـا أكـوارُ

(1) لفّ الشيءَ بالشيء ضمهُ إليهِ ووصلهُ بهِ، وهو من باب ردّ.
(2) البَطحُ والبطيحة والبطحاء والأبطح مسيل واسع فيهِ دِقاق الحصى، والجمع أباطح وبطاح وبطائح.
(3) انتابهم انتياباً أتاهم مرة بعد أخرى.
(4) مدى الشيء: غايتهُ والمراد هنا جميعهُ مجازاً.
(5) والجَدّ: البخت والحظ والحُظوة.
(6) قولهُ: ونؤرج، هو مضعف أَرِجَ الطيبُ كفرح يأرَج بالهمز وتركهِ بمعنى توهّج ريحهُ.

تَـذَرُ الـريـاحَ إذا جَـرَيْـنَ وراءهـا خَسْرى[1] طلائحُ[2] جريُهُنَّ عِثارُ
سِرْنا بهنّ على العشيّ فأصبحت في استكهلم وقد بدا الإِسفارُ
ولَقيتُ صاحب تاجها في قصرهِ والـوفـدُ ثُـمّ بـصُـحْـبـتـي نـظّـارُ
فَـدَنـا وصـافـح بـالـيـمـيـن مـردّداً شـكـر الـخـديـو يَـزيـنـهُ الـتـكـرارُ
فَـشَـرَعْـتُ مـقـتـصـداً أجاوبـهُ بـمـا أرضـــاهُ لا قُـــلٌّ ولا إكـــثـــارُ
ونـحـوتُ مؤتـمـر الـعـلوم أؤُمُّـهـنَّ بـالـوفـد تـهـوي نـحـونـا الأبـصـارُ
حتى إذا احتفل النّدِيُّ وأقبل الـ ـعظماءُ والـعـلـمـاءُ والأحـبـارُ
وتـلا بـهِ أُسـكـار رَبّ سـريـرهِ قـولاً بـهِ لـذوي الـنـهـى إسـكـارُ
وأجابهُ الـخـطـبـاءُ كـلُّ مُـحْـسِـنٌ يُـزري بـنـظـم الـدُّرّ مـنـهُ نـثـارُ
ودُعيت بأسمي للمقال موفّياً حـق الـوفـادة والـوفـاءُ شـعـارُ
أَقـبـلـتُ ابـتـدرُ الـقـريـضَ يـزيـنـهُ مـولايَ بـاسـمـك بـهـجـةٌ ووقـارُ
حتى استتمّ الشّعر فاصطفقت لهُ الـ ـأيـدي وذاك بـمـدحـهِ إشـعـارُ
وتشعبت شُعب الفصول مقرراً في كل فصل للفنون[3] قرارُ
فنحوتُ بالوفد الّذين بصحبتي خير الفصول وصحبتي أخيارُ
مـا فـيـهـم وَهِـلُ الـفـؤادِ يَـهُـولـهُ حفل ولا واهي القُوى خَوّارُ[4]
كل أحد من المعارض ما اصطفى لـلـعـرض ثَـمّـةَ جـمـلـةٌ تـخـتـارُ

(1) خَسْرى: جمع حسير، تقول: حَسِرَ كضرب وفرح فهو حسير أي: مُعْيٍ.
(2) طَلَحَ البعيرُ: أعيا وطلِح زيدٌ بَعيرهُ كأطلحهُ أعياهُ، وإبلٌ طَلْح وطلائح.
(3) وفي نسخة للعلوم.
(4) الخوّار ككتان: الضعيف.

وأجاد فيما قد أفاد بمنطق طوع المراد أمدّهُ استحضارُ
في لهجة العرب الفصيحة لفظهم حرٌ وهم في نفسهم أحرارُ
لا في مقالة قائلينا وقفة عَرَضَتْ ولا لمقولنا إنكارُ
كالقَطْر جاد بهِ غمامٌ مُبرِق داني الهيادب[1] عارضٌ[2] مِدرارُ
نُبدي الذي نبدي وكُلٌّ مُطْرِقٌ سمعاً ومنطق ذي المقال جهارُ
حتى نُتِمّ كما نشاءُ القولَ في أَمَدٍ أُعِدَّ لوقتهِ مقدارُ
فَيقول صاحبهم أما من باحثٍ فيما يقول وقولهُ استفسارُ
وتصفق الحضّار لاستحسانِ ما قلنا ويظهر فيهم استبشارُ
ها هم رجالك أيها المولى ولا مَنٌّ عليك ونِعْمَ مَنْ تختارُ
لا أبتغي مدحاً لنفسي إنني بعُلاك أفخر لا عَدَاك فخارُ
هذي محاسنُ يُمْنِ طالعك الذي بسعودهِ قد ساعد المِقدارُ
ثم انثَنَينا راجعين يسوقنا لحماك أشواق لَهُنَّ أوارُ
نأوي لخير حمى بعدلك كلهُ أمنٌ وما للجَوْر فيهِ جِوارُ
فَاسْلَمْ لمصر وأهلها ليُرى بها لِنَمَاءِ غرس يمينك استثمارُ
واسْلَمْ لأنجالٍ وآلٍ كُلُّهم خيرٌ وآل الخَيِّرينَ خِيارُ
وإليكها مولاي صَنْعَةَ ليلةٍ لحِقَ العِشاءَ بوشيها الإسحارُ
حتى كساها الصُّبحُ رَوْنَقَ وجههِ حُسْناً وألبسها الضياءَ نَهارُ

---

(1) الهيادب: جمع هيدب، وفي الصحاح: هيدب السحاب ما تهدب منهُ إذا أراد الودق، كأنهُ خيوط.

(2) العارض: السحاب الذي يعترض في الأفق.

(السفر من الإسكندريَّة إلى مصر)

سافرنا من الإسكندريَّة بعد الظهر يوم الوصول إليها، وهو يوم الأربعاء 25 سپتمبر سنة 1889، فوصلنا إلى مصر بعد غروب اليوم المذكور، فوجدنا الأحباء والأصحاب ينتظروننا بالمحطة، فحمدنا الله على السلامة وجمع الشمل، وكانت مدة غيبتنا تسعة وستين يوماً.

* * *

(الإحسان على كاتب هذه الأحرف بالنشان العثماني)

في صبيحة اليوم التالي ليوم الوصول توجهتُ إلى نظارة الحقانيّة للتشرف بمقابلة سعادة ناظرها إذ ذاك الفاضل حسين فخري باشا، فبمجرد اللقاء قال: إن تهنئتي لك اليوم مضاعفة، فإني أهنئك أولاً بالسلامة، وأهنئك ثانياً بالإحسان عليك من لدن الجناب العالي الخديوي بالنشان العثماني العليّ الشان، مكافأةً لك على حسن قيامك بالمأموريّة الّتي تعينت لها بالمؤتمر العلمي، ثم ناولني النشان، ومعهُ البراءة الموذنة به، فشكرت تهنئة سعادتهِ بعد أن شكرت فضل مولى الإحسان، وقد أفهمني سعادتهُ أنّهُ حضر إلى الديوان اليوم قبلي بدقائق، وأنّهُ ما كان يعلم حضورنا؛ لأنّهُ لم يَكُن قرأ الجرائد، وما أعلمهُ بهِ إلّا حضور هذا النشان، وقد أرسلهُ إليهِ سعادة رئيس الديوان الخديوي بإفادة رسميّة منهُ؛ لتسليمهِ إليّ، وانحط الرأي على أن أسافر إلى الإسكندريّة لأداءِ واجبات الشكر للحضرة الخديويّة الفخيمة، وتصادف أن سعادتهُ على نيّة التوجهِ إليها في الغد، فحصل الاتفاق على السفر معهُ بوابورالإكسبريس الذي يقوم من مصر بعد الظهر.



(شكر الجناب العالي على إِحسانهِ)

لما كان الموعد المحدد للسفر ركبت الوابور مع صاحب السعادة المشار إليهِ، وسار بنا حتى وصلنا الإسكندريّة بعد الغروب، فنزلنا معاً «بفندق أوروپا»، وبعد تعاطي الطعام توجهنا إلى سراي رأس التين، فتشرف سعادتهُ بالمقابلة، وأتم مأموريتهُ الّتي حضر من أَجلها، وبحال خروجهِ من لدن الجناب العالي صدر لي الأمر بالمثول، فنِلتُ شرف تقبيل اليد الكريمة، وشكرت الفضل، وحمدت المِنّةَ، وأَثنيت على الإحسان بما وصل إليهِ جُهدي وقَدَرَت عليهِ حواسي المفعمة سروراً، المملوءة فرحاً، وحبوراً، فتكرم سموّهُ بما أعلى قدر هذا النشان عندي أَن قال: إنّهُ أَنعَم عليَّ بهِ مكافأَة على حسن قيامي بما عُينت لهُ بالجمعيّة العلميّة الّتي كنت عضواً فيها عن الحكومة المصريّة ببلاد السويد والنرويج، فكرّرت الشكر، وأَعدت الثناء والحمد، فتنزل سموّهُ بأَن قال لي: «إِنا أتعبناك بالسفر إلينا مع قرب أَسفارِكَ الطويلة»، فأَجبت «إني يا مولاي أَحبُّ شيءٍ عليَّ أمثال هذه المتاعب، فالله أرجو وإليهِ أتضرع أن يُكْثِر لي منها»، فتبسَّم سموّه سروراً، ونلت حظ تقبيل اليد الكريمة ثانية، وانصرفت، ولقد كان هذا الدعاءُ مجاباً.

وكنت قدمت إلى جنابهِ الفخيم بيتين من إنشاءِ سيدي الوالد أَرسلهما معي إلى سموّهِ تشكراً على ما أَولانيهِ من الإِحسان بالنشان، وهما:

لمولاي العزيز عليَّ فضلٌ ... بنعمتهِ على ولدي الأَمينِ
تَحَقَّقَ في مقام الشكر عجزي ... فأَثر أَن أَرى ولدي مُعيني

(العودة إلى الإسكندرية للتشكر على وظيفة قضاء الاستئناف)

(التي منحها سموّ الجناب العالي هذا الداعي والعود منها إلى مصر)

وذلك أنّهُ صدر الأَمر بتعييني قاضياً بمحكمة الاستئناف الأهليّة بمصر في 30 سبتمبر سنة 1889، فعدت إلى الإسكندريّة للتشكر بعد أَن وصلني الأَمر، وسلّمت أَعمال رياسة النيابة العموميّة بمحكمة مصر الابتدائيّة الأهليّة، ومثلت بين يدي الجناب العالي، وشكرتهُ بقدر الاستطاعة على ما أولانيهِ من حسن الصنيع مضافاً إلى سابق إنعامهِ، وحلفت حسب اقتضاءِ القانون اليمين القانونيّة لدى سموّهِ بحضور سعادة ناظر الحقّانيّة، وقدمت لجنابهِ العالي القصيدة الشكريّة الآتية من نظم سيدي الوالد، فقابلها بالقبول، ثم عدت إلى مصر، واستلمت مهام وظيفتي الجديدة، وهذه هي القصيدة المذكورة:

أَلا هلْ لساني اليوم طَوْعٌ لخاطري | إذا أَنا رُمت الشكرَ والقولُ ناصري
وهل لقوافي الشعر عَونٌ على المُنى | إذا ما استمدَّتْها قريحةُ شاعرِ
ويا ليتَ شعري هل يُراعى وسائلي | يراعي إذا أَمدَدْتهُ بالمحابرِ
وهل لبناني من بياني مساعدٌ | بلفظٍ بديعٍ في معانٍ زواهرِ
لأُبلغَ نفسي اليومَ في الشكرِ حَظَّها | وأَرقى إلى غاياتهِ غير قاصرِ
ومن لم يُؤَدِّ الشكر للناس لَم يكن | لإحسان رَبِّ الناس يوماً بشاكرِ
وهل أَستطيعُ الشكر أَقضيهِ حقهُ | قياماً بفرضٍ منهُ في الحال حاضرِ
وأَنّى وقد أَربَتْ على العَدِّ أَنعُمٌ | تقاصَرَ عنها ناظمٌ قبل ناثرِ

وهل يبلغُ الغاياتِ من بات ليلَهُ يُحاوِلُ عَدَّ النَّيِّراتِ السوافرِ
أَيادٍ أفادتها أيادٍ كريمةٌ أَنافَتْ على غُرّ الغوادي البواكرِ
بها افتخرت أُمُّ البلاد وشمرّتْ بنوها لإنهاض الجدود العواثرِ
وأَضحت إذا مدّت إلى غايةٍ يداً أُمِدَّتْ بتوفيقٍ من الله باهرِ
هُمامٌ لهُ في كل شأوٍ إلى العلا مَدًى دونَهُ أَقصى مجال النواظرِ
أجارَ على الأيام من عادِياتها فليس لها في عهدِه حَظُّ جائرِ
وعمَّ بنور العدلِ كُلَّ بلادِهِ فليس ظلامُ الظُّلْمِ فيها بزائرِ
إذا ما أَساسُ المُلْك بالعدل يُبتنى أقام على مَرّ الدهور الدواهرِ
وقد شدَّ أَزرَ الملك في مِصْرَ بالتقى وبالدين مولاها العفيفُ المآزِرِ
وأَجرى بها من فيض جدواهُ أَنْعُماً سَحَبْنَ بأَذيال السحاب المواطرِ
كريم السجايا واسع الفضل معربٌ بأَفعالهِ عن فضل طيبِ العناصرِ
وَلُوعٌ بكسب الحمد والمجد والعُلا وبذل الأَماني وابتناءِ المآثرِ
إذا هام قومٌ بالكؤوس تُديرُها بَنَانُ الحِسَان البيض سودِ الغدائرِ
فإنَّ هواهُ في اتخاذ صنيعةٍ وإسداءِ معروفٍ وإحياءِ داثرِ
وإن نام عن أمر الرعيَّة غافلٌ عن الحِزمِ أرعى قومهُ عينَ ساهرِ
بصيرٌ بكنهِ الأَمرلا يستميلهُ وإن خَفِيَ المكنونُ رسمُ الظواهرِ
أَمولاي أَدعو من قريبٍ وأنت لي سميعٌ وما من غائبٍ مثلُ حاضرِ
سأَشكر من نُعماك ما أَستطيعهُ ولستُ علىٰ شُكْرِ الجميع بقادرِ
وأبلغ حد الجهد والجهد غايةٌ وما بعدها إلّا التماس المعاذِرِ

وأدعو بظهر الغيب لله مخلصاً   وليس الذي يدعوهُ يوماً بخاسرِ
وقد خوَّلَتْنِي مِنَّةً بعد مِنَّةٍ   يداكَ بوافٍ من نَداك ووافرِ
وجُدتَ على العبدِ الأمينِ بأنْعُم   مواردها موصولةٌ بالمصادرِ
فما تنقضي نَعماءُ إلَّا وصلتها   بأمثالها تترَى إلى غير آخرِ
وقِدْماً قد استخْلَصْتَنا من يَدِ الرَّدَى   وقد ظَفِرتْ أظفارهُ بالحناجرِ
وَلجَّ العِدَى في لُجَّةٍ بعد لُجَّةٍ   من المَيْنِ لم تخطر لدينا بخاطرِ
فألهمك الرحمن ما كان مضمراً   من الحق تجلوهُ بنور الضمائرِ
فِراسةُ معمورٍ من الله قلبهُ   بنور هُدًى مستودع في السرائرِ
ولولاك كنا في فم الغدر مُضغةً   فريسةَ ناب في المَقَاتِلِ غائرِ
تروح علينا الحادثاتُ وتغتدي   بكلِّ خفيٍّ من سُطاها وظاهرِ
فكفكفتَ عنَّا العاديات ترُدُّها   بكفك عنا قاصرات الأظافرِ
وعلمتنا كيف النهوضَ إلى العُلا   وكيف الترقي في مراقي المظاهرِ
وكيف يَلَذُّ المجدُ طعماً وتُجتَنَى   ثمارُ المعالي من غروس المفاخرِ
وَأوْلَيْتَنَا الآمال نقتاد سِرْبها   بأرسانها طوعَ المُنَى والخواطرِ
إذا ما اشتهينا من ذُرى العِزِّ موضعاً   تقاصَرَ عن إدراكه حَدُّ ناظرِ
مننتَ بِأعلى منهُ ثم شَفعْتَهُ   بآخَرَ أرقى في العَلاءِ وآخرِ
فلا زلتَ للدنيا جمالاً وللورى   كمالاً وللإِسلام نورَ بصائرِ

* * *

إلى هنا انتهى ما أردت تحريرهُ من هذه الرحلة وقد عانيت فيهِ من المتاعب والمشاق ما لا يخفى مع ما أنا فيهِ من الاشتغال بأعمال وظيفتي، فإن وقع ما حرّرتهُ لدى الناظرين موقع الاستحسان، وكان لهُ عند أُولي الفضل مكان كنتُ بذلك قريرَ العين، وحصلت منهُ على أُمنيتين: **أُولاهما:** القيام بحق رغبة سيدي الوالد العزيز في تأليف رحلة في هذا الموضوع كما تقدّم ذكر ذلك في صدر هذا الكتاب، **وثانيتهما:** حُظوة كتابي بالقبول لدى العموم.

وكان الفراغُ من تصنيفهِ في بدءِ دولة حامي حمى المعارف المصريّة، وموجد نهضة الآداب الوطنيّة، صاحب المقام الجليل، والظل الوارف الظليل، أفندينا خديو مصر عباس الثاني، لا زالتِ البلادُ بوجودهِ واردة موارد الأَماني، قريرة العين بأَيامهِ، مُعَزَّزة بعادل أَحكامهِ.

آمينَ حتى تقولَ الناسُ قاطبةً والمجدُ والفَخْرُ والأَيامُ آمينا

هذا وقد بقي عليَّ بعد ذلك واجبٌ سأَشرع بعون الله فيهِ، ولازم لازب أُؤديهِ، وهو طبع آثار سيدي العزيز من منظومهِ ومنثورهِ ومكاتباتهِ، وما يتيسر لي جمعهُ من مؤلّفاتهِ.

وسآخذ في هذا بلا توانٍ إن شاءَ الله تعالى، فأَطبع ما عثرتُ عليهِ من مكاتباتهِ وأشعارهِ في جزءٍ، ضاماً إليهما بعض رسائل لهُ مثل «المقامة الفكريّة في المملكة الباطنية» ورسالتِهِ الّتي كتبها «في المقارنة بين الوارد في نصوص الشرع والوارد في الهيئة»، ومثل «تحصيل الحاصل».

وأَطبع في جزءٍ آخر شرحهُ لقصيدة سيدنا حسّان الهمزيّة الذي قدمهُ إلى

المؤتمر، مضيفاً إليهِ شرحهُ لبديعيّة صاحبِهِ الشاعر الأَديب المرحوم محمود إفندي صفوت الّتي مطلعها:

صفح الدموع لذكر السفح والعَلَم أَبدى البراعة في استهلالِهِ بدمِ

مُرْدِفاً إيّاهما بما علّقهُ على منظومةً لعزيزهِ الطيب الذكر المرحوم أحمد خيري باشا ضمّنها حكماً ومواعظ، وطلب منهُ شرحها، فجاءَ على شرح بعضها بغاية الاستيفاءِ.

وربما أُردِفُ هذا كلهُ بجزءٍ ثالث يشتمل على أشياءَ علّقها، وشوارد قيّدها في كراريس سمّاها «الدفتر».

فإذا مَنَّ الله سبحانهُ عليّ بإنجاز هذا العمل أكون بعد القيام بأُمنيّة سيدي الوالد العزيز من تحرير هذه الرحلة قمت برغبة أَحبائهِ وأَخلّائِهِ المولعين بنشرآثارهِ. وإني لموقن بأن شغفهم بنشر هذه الآثار يبعثهم على مؤازرتي بالدعاءِ لتحصيل هذا المأْمول؛ إذ باتحاد القلوب وتوجُّهِ الخواطر تُنجَزُ الأعمال ويحسنُ المآل، والحمد لله أَولًا وآخراً حمد من اعترف بالربوبيّة، وعرف حق العبوديّة، وكان على الآلاءِ شاكراً، وصلاتٌ صلاةٍ يصحبها سلام على سيدنا مُحَمَّد خير الأنام، وعلى آلهِ وصحبِهِ السادة الأعلام ما بُدِئ عملٌ زانهُ حسنُ ختام.

* * *

الفهــارس

1 - فهرس الأعلام.

2 - فهرس ألفاظ الحضارة.

3 - فهرس الآيات القرآنية.

4 - فهرس الحديث الشريف.

5 - فهرس الكتاب.

1 - فهرس الأعلام

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

2 – فهرس ألفاظ الحضارة

(ترجمة المصطلحات)

ألفاظ الحضارة (الآثار)

ألفاظ الحضارة (آلة ضرب العنق)

ألفاظ الحضارة (دور العبادة)

ألفاظ الحضارة (رعاية صحية)

ألفاظ الحضارة (دور الكتب)

فهرس الحضارة (الفنون)

ألفاظ الحضارة (العملة)

فهرس الحضارة (علوم الفلك)

فهرس الحضارة (المعاملات)

فهرس الحضارة

(المواصلات - الاتصالات)

3 - فهرس الآيات القرآنية

4 - فهرس الحديث

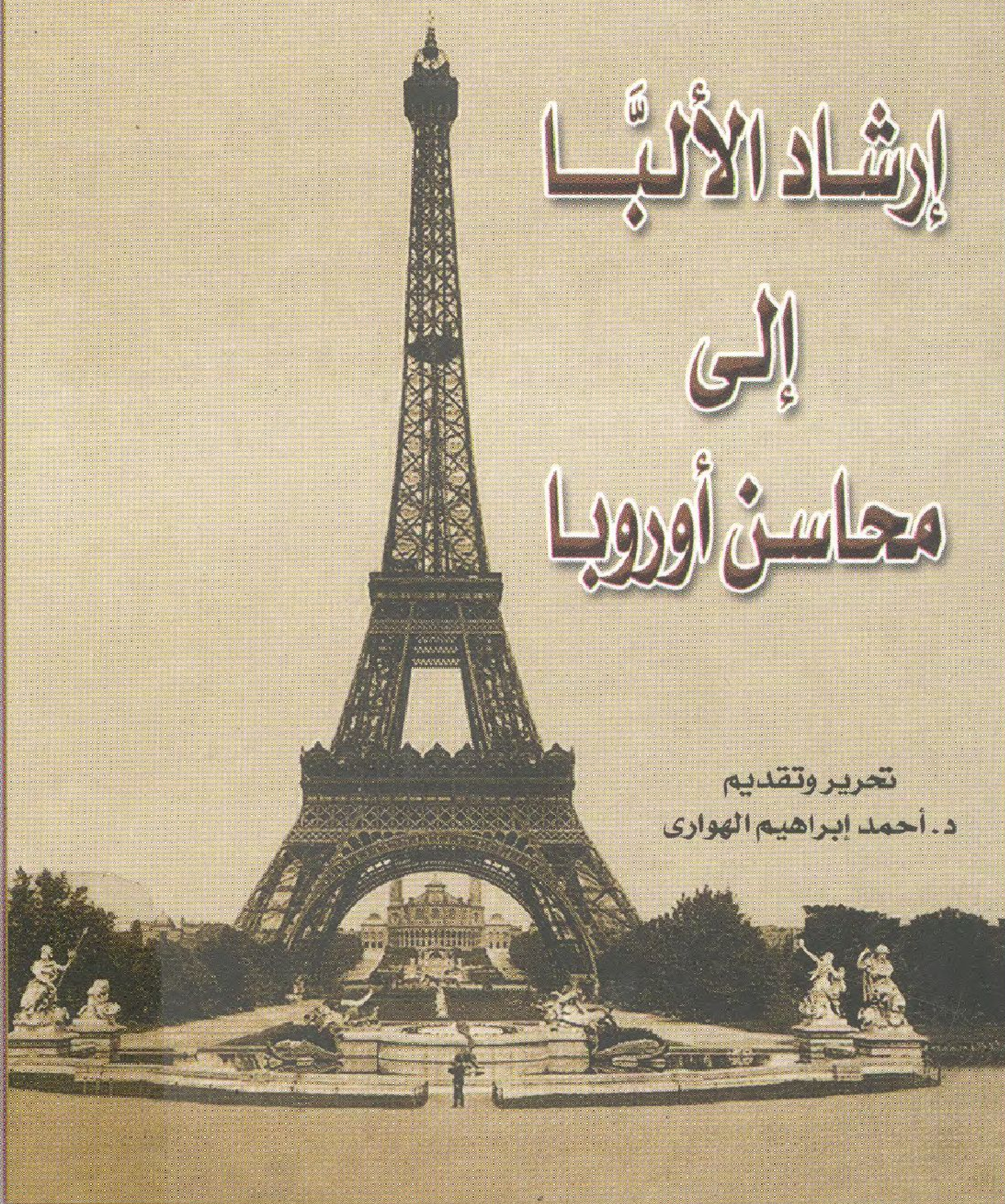
فهرس الكتاب

رقم الإيداع ٢٤٨٥٩ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى 8- 226 - 322 - 977 .L.S.B.N

مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر- فيصل
تليفون وفاكس/ ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨











للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES